ب. هـ. ليدل هارت

القادة الألمان يتكلمون

تعريب

اكرم ديري

المقدم الهيثم الأيوبي

منشورات
مكتبة النهضة
بغداد



القادة الألمان يتكلمون

القادة الألمان يتكلمون

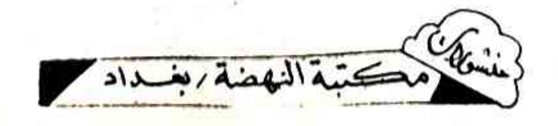
تأليف

ب. هـ. ليدل هارت

تعريب

المقدم الهيثم الأيوبي

أكرم ديري



الطبعة الأولى

١٩٨٣



الى ابني ادريان
والى كل من ساهموا
في هذا الجهد خدمة
للحقيقة التاريخية .

صدر هذا الكتاب بالفرنسية تحت عنوان :

Les Generaux Allemands Parlent

Paris — 1949

كما صدر بالانكليزية تحت عنوان :

The Other Side Of the Hill

London — 1948

ـ مقدمة ـ

يروي كروكر في كتابه رسائل ويوميات النكتة التالية : خلال رحلة قام بها مع الـدوق ويلنغتون[1] ، كانا يتسليان في وضع بعض الفرضيات عن طبيعة البلاد التي تختفي وراء بعض التلال التي كانا يصادفانها في طريقهما . ولما عبر كروكر عن انشراحه وسروره عندما وجد ان افتراضات الدوق ويلنغتون تتحقق دوما ، رد ويلنغتون قائلا ما يلي : « ما الذي يدهش في هذا ؟ لقد قضيت كل حياتي احاول أن اتنبأ بما هو موجود في الجانب الآخر من التل . »

وقد استخدمت ملاحظة ويلنغتون هذه فيما بعد كصيغة تعبر عن القسط من التخيل الضروري في مجال الاستراتيجية ، وعن ضرورة التكهن بما يجري في مؤخرة جبهة الجيوش المعادية وفي عقول قادتها . وتلخص هذه الصيغة ايضا مهمة ادارة المخابرات[2] .

وفي نهاية الحرب ، أتاح لي الحظ في أن أكون من بين اوائل من تحروا « الجانب الآخر من التل » من خلال استجواب بعض اسرى الحرب ، وأدى ذلك الى اقامة علاقات مستمرة بيني وبين بعض الجنرالات الالمان . وقد توصلت في أحاديثي المتعددة معهم الى حصولي على شهاداتهم حول احداث الحرب قبل أن تذبل ذكرياتهم أو تتشوه .

وقد سهّلت معرفتي بشخصية الجنرالات الالمان ، ورواياتهم الخاصة للاحداث ، عملية اعادة بنائها من جديد . وكان هؤلاء الضباط بمجموعهم ابعد ما يكونون عن التشبه بالصورة التقليدية للعسكري البروسي ذي النظرة القاسية . وكان الجنرال الوحيد الذي اقتربت صورته منها هو رونشتدت ، بيد ان حركاته المهذبة،المتميزة بالدعاية الى حد خفيف ، كانت تمحو هذا الانطباع بسرعة . واستحق وقاره الهادىء في لحظات مصيره السيء ، وقبوله برباطة جأش لبعض الشروط القاسية التي فرضت عليه (والتي لا تشرف من غلبوه ابدا) ، استحق كل هذا تقدير معظم الضباط البريطانيين الذين اجتمعوا به . وكان يقدم مفارقة مدهشة بالنسبة لعدد معين من الجنرالات الصغار العدوانيين ، والمتبجحين ، والفظاظ الخشنين ، الذين لا يدينون يرتبهم الا للحزب النازي ، وفي الحقيقة ، كان معظم

(١) جنرال انكليزي هزم نابليون في عام ١٨١٥ عندما قاد قوات الحلفاء في معركة واترلو .

(٢) او الاستخبارات في الجيش العراقي او ادارة الاستطلاع في بعض الجيوش الاخرى .

ـ المعربان ـ

الجنرالات الالمان لا يشبه هؤلاء ، ولا يشبه رونشتدت ، ولم يكن يتميز بشيء على كل حال ولم يكن معظم هؤلاء الجنرالات ليخالف الصورة التي نشاهدها في مؤتمر لمدراء أحد المصارف او اجتماع لبعض المهندسين المدنيين .

لقد كان الجنرالات الالمان تقنيين قبل أي شيء آخر ، استغرقت مهنتهم كل وقتهم ، ولم يكونوا يهتمون كثيراً بالامور البعيدة عنها . ومن السهل ان نرى كيف جعل منهم هتلر أدوات عمياء ، كان يستخدمها لتحقيق أغراضه الخاصة .

ولكي نستطيع دراسة كل شهاداتهم وتنسيقها بصورة أفضل ، من المفيد الاطلاع على الوضع العسكري في المانيا قبل عام ١٩٣٩ . وتشكل معرفة هذا الوضع والاطلاع عليه رصيدا ثمينا لا لربح الوقت فحسب ، بل لتجنب الوقوع في اخطاء ما زالت منتشرة وشائعة الى حد كبير منذ نهاية الحرب . فقد كانت فكرة الدور المهيمن الذي تقوم به هيئة الاركان العامة ، كالدور المهيمن الذي لعبته هذه الهيئة عام ١٩١٨ ، ما تزال تؤثر في المرافعات في قضية نورمبرغ . وقد منعت هذه الفكرة المتحيزة الحكومتين البريطانية والامريكية في السابق من تقديم مساعدة فعالة لحركة مقاومة النظام النازي في المانيا في الوقت المناسب ، هذه الحركة المنظمة عسكريا ، والتي كانت تتآمر منذ مدة طويلة لاسقاط هتلر . ولقد اصبح من البدهي ان النفوذ المزعوم لهيئة الاركان العامة كان مفهوما عفى عليه الزمن بالنسبة لاي مراقب حيادي لاتجاهات الجيش الالماني بين الحربين العالميتين . بيد ان الاساطير تعمر طويلا ، وتبقى الاخطاء لاصقة بالمفاهيم ومن الصعب تدميرها . وكانت نتيجتها المحزنة هي اطالة حكم هتلر ، وامتداد الحرب واطالتها لا عدة شهور فحسب بل عدة سنوات على وجه الاحتمال . وقد بدأنا اليوم بالتعرف على آثارها التعسة بالنسبة لاوروبا .

وأود هنا أيضا التعبير عن شكري وعرفاني بالجميل الى كل الذين ساعدوني منذ البداية في تحري الوقائع والبحث عنها ، حبا منهم للتاريخ ، واخص بالذكر منهم النقيب ف ـ س . كينغستون ، الذي سهّل لي محادثاتي مع القادة الالمان باتقانه للغة الالمانية ، وتعاونه الذكي .

ومن واجبي أن اشير أيضا الى العون الذي تلقيته من عدد من أولئك الذين وجدوا « في الجانب الآخر من التل » . فقد ساهموا طوعا بتزويدي ببعض عناصر البحث التاريخي في هذا المؤلف مع احتفاظهم عموما بموقف موضوعي في مناقشة الاحداث .

واريد أخيرا توجيه الشكر للعميد السير برسي هوبار ، وشيستر فيلموث ، وج .ر . اتكينسون ود .سموند فلاور ، الذين قدموا لي بعض الاقتراحات والتعليقات المهمة خلال وضع هذا الكتاب .

ب . هـ . ليدل هارت

تيلفورد هاوس ، تيلفورد

يناير (كانون الثاني) ١٩٤٨ .

الجزء الأول

جنرالات هتلر



الفصل الاول

الانشقاق الانتحاري

ان مراحل اية حرب من الحروب ، عندما يُنظر اليها بوضوح بعد مرور الاحداث ، مختلفة كل الاختلاف عن كل ما يعرف عنها خلال سير العمليات . والفارق جلي واكثر وضوحا فيما يتعلق بوجوه اولئك الذين قاموا بدور القادة خلال هذه الفترة . وتتبدل الفكرة ، الخاطئة اصلا ، والتي يكوّنها الرأي العام خلال الاحداث اذا حققوا نجاحا أو تعرضوا لهزيمة .

لقد بدا هتلر قبل الحرب ، بل انه بدا اكثر ايضا خلال الفتوحات في الغرب شخصية جبارة ، يجمع بين مواهب نابليون الاستراتيجية ، وخداع ماكيافيللي ومراوغته ، . وبدأ مجده يخبو بعد اخفاقه الاول في روسيا ، واعتبر في نهاية الحرب الحرب كهاو أرعن تمثل أوامره السخيفة وجهله المطبق أقوى رصيد للحلفاء . وألقيت تبعة كل المصايب التي حلت بالجيش الالماني على عاتقه وعزيت كل انتصاراته لبراعة هيئة الاركان العامة الالمانية .

وبالرغم من الحقيقة النسبية الكامنة في هذه الصورة فان الصورة بمجملها خاطئة اذ لم يكن هتلر ضعيفاً في مجال الاستراتيجية بل كان على العكس متفوقاً اكثر مما ينبغي ولذا فقد وقع في الاخطاء الناجمة عن هذه المبالغة .

وكان فكره الثاقب يتضح على درجة عالية في آثار المباغتة ، كما سمحت له روحه المرهفة في مجال الاستراتيجية بايصال هذا الفن الى مستوى رفيع جدا . وكان قد وصف

لمعاونيه الضربة الجريئة ، التي غزا النرويج بواسطتها في ما بعد ، والمناورة التي جعلت الفرنسيين يجلون عن خطماجينو قبل الحرب بمدة طويلة . وكان قد توقع أيضا بكل دقة ، وأفضل من أي قائد آخر ، الغزوات دون اراقة الدم ، واعداد تدمير روح المقاومة لدى العدو بصورة مسبقة وقبل الهجوم . وليس هناك أي استراتيجي في التاريخ اظهر مهارة أعظم من مهارته في العمل ضد معنويات خصومه ـ وهو الفن الممتاز في الاستراتيجية . وقد ساعده على هيمنته ونفوذه على حساب مستشاريه الاختصاصيين انه غالبا ما كان على صواب، بالرغم من رأيهم المخالف لرأيه. وأضعفت النجاحات التي تحققت في ما بعد ثقل حججهم ومبرراتهم في ظروف كان حكمهم فيها مع كل هذا حكما اكثر صوابا من حكمه . وهكذا تراكمت اخطاء هتلر التي هي اكبر من صفاته واكثر ثقلا في الحملة الروسية ، حتى انها جعلت كفه الميزان تتجه نحو الهزيمة . ان نابليون ذاته ، مع انه محترف للاستراتيجية ، قد أثملته انتصاراته وارتكب الاخطاء ذاتها في المواقع نفسها .

وكانت اخطر خطيئة ارتكبها هتلر في روسيا هي رفضه التخلي عن جزء من الارض حتى لا يخسر كل شيء ، ومطالبته قواته بمتابعة الهجوم في حين كانت احتمالات النصر تذوي وتضمحل . وقد ارتكب قائدا قوات الحلفاء خلال الحرب العالمية الاولى فوش وهايغ ، كما ارتكب لودندورف وهندنبورغ اللذان كانا على رأس القوات الالمانية ، الخطيئة الكبرى ذاتها ، رغم انهم كانوا جميعاً من العسكريين المحترفين . وكان نفور هتلر من السماح بسحب قطعاته من فرنسا في الوقت الملائم هو السبب في تحمل جزء كبير من هزيمته . وكان موقفه عندئذ هو نفس موقف فوش ، مع الفارق الاساسي التالي هو ان قادة الجيوش المشتبكة في الجبهة في عام ١٩١٨ لم يكونوا يطيعون فوش الا عندما يوافقون على اوامره على حين كان الجنرالات الالمان في عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ يرتعدون خوفاً من عصيان أوامر هتلر .

ولكي نكتشف سبب اخفاق المانيا وهزيمتها يجب علينا أن نتحرى أسباب هذا الخوف والنزاعات الداخلية في هيئة الاركان العليا الالمانية . فقد كان بوسع الصفات الحدسية في الاستراتيجية ، وحسابات هيئة الاركان العامة في هذا المجال ان تتحالف

وتؤلف قوة لا تقاوم . الا ان امتزاجها وتعاونها احدثا على العكس انشقاقا كان انتحارا حقيقيا لالمانيا ، وأتاحا لخصومها فرصة الخلاص .

كان الجيل القديم من الجنرالات الالمان الذين صنعتهم أساليب هيئة الاركان العامة ، هم الصناع الرئيسيون للعمليات الاستراتيجية خلال الحرب كلها . ولم يعترف أحد بانجازاتهم في ساعات الانتصار . وعندما تَنَكَّر الحظ لهم ، ارتفعت سمعتهم في ذهن الرأي العام بشكل جعل منهم ، في نظر الحلفاء ، اخطر عائق في المعسكر المعادي . ولم يعد الحلفاء يهتمون أبدا بما سيفعله هتلر ، بل كانوا يتساءلون دوما عما يعده رونشتدت ، سواء في ساحات القتال أم في المجال السياسي لانتزاع السلطة من ايدي النازيين .

وقد اعتُبر الجنرالات الالمان وكأنهم يشكلون مجموعة متجانسة ، تمتلك سلطة هائلة في المجال السياسي . ويفسر هذا الانطباع لدى الحلفاء الامل المستمر ، والذي لم يتحقق ابدا ، في رؤية الجنرالات يتآمرون على هتلر ويقلبون نظامه . ويفسر أيضا القناعة الشعبية بأن هذه المجموعة كانت تحمل خطورة هتلر نفسها وانها تشاركه مسؤولية الاعتداءات الالمانية .

هذا الرأي الذي بُرر خلال الحرب العالمية الأولى بدا غير صحيح فيما بعد بصورة تامة ، لان مجموع الجنرالات الالمان حاول دون جدوى تجنب دخول المانيا الحرب في النزاع العالمي الثاني . واذا كان القادة العسكريون قد ساهموا بنصيب كبير ، عند نشوب هذا النزاع ، عن طريق مهارتهم في المناورة بالعمل على نجاح هتلر ، الا ان انتصاراتهم حُجبت بالانتصار الشخصي للفوهرر . وفي الوقت الذي بدأ فيه نجم هتلر بالافول كان الرأي العام يعزو لهم رصيدا كبيرا ، على حين كانت قوتهم الحقيقية تتناقص في واقع الامر داخل وطنهم .

وتعزى هذه الظاهرة الى تجمع عدة عناصر : فالنظام المحافظ والتقاليد الممثلة بالجنرالات لم تكن تقدم سوى قليل من الاغراءات لجيل مشبع بالروح الثورية ، والتعصب الأشتراكي - الوطني . ولم يكن بوسع الجنرالات أن يأملوا دفع القطعات

الموضوعة تحت تصرفهم لشن هجوم ضد النظام النازي ، كما كان أملهم أقل أيضا في دفعها لشن هجوم ضد الفوهرر المحبوب . وأبعدوا ، بسبب خطيئتهم الخاصة ، عن التدخل في الشؤون العامة للبلاد ، في حين كان هتلر يعزلهم عن كل مصادر المعلومات ببراعته ومكره . وكان كل هذا يشكل بالنسبة اليهم موانع جدية . وهناك عامل آخر وهو احساسهم الفطري بالانضباط ، والاحترام الذي يعطوه لقسم ولائهم لرئيس الدولة .

ومع ان هذا الشعور كان مضحكا الى حد ما ازاء رئيس لم يكن يشعر بأي حرج عندما يتجاهل وعوده ويتناساها، الا ان شعور الوفاء هذا، الذي غالباما شلهم عن العمل في غالب الاحيان كان يشرفهم . وغالبا ما كان هذا الشعور يختلط مع اهتمام بمصالحهم الشخصية ، فيضعف ولاءهم لبلادهم وزملائهم في لحظات الخطر المشترك . وتشكل لعبة الانانيات والافتقار الى التضامن ضعفا مشؤوما في الكفاح المستمر الذي خاضه الجنرالات ، خلال الاثني عشر عاما من حكم هتلر ، بغية ابعاد كل تدخل سياسي في الامور العسكرية .

وانتهت المرحلةالاولى من هذاالكفاح لمصلحة الجنرالات بصورة غيرمباشرة ، عندما اقترح هيملر اجراء تطهير جدي وسط صفوف « القمصان الرمادية » باغتيال النقيب روهم وبعض القادة الآخرين ، معتمدا على مخاوف هتلر . واننا نجهل حتى الآن ما اذا كانت لدى هؤلاء القادة نيات حقيقية لقلب هتلر ، ولكن مما لا شك فيه انهم كانوا يطمحون في تبوء مراكز هامة في التسلسل العسكري . واعتمد هتلر ، بعد اختفائهم من مسرح الاحداث على الجنرالات بصورة اكثر جدية ، وتمكن الجنرالات بعد هذا من استعادة سلطتهم الخاصة في الجيش .

ووصلت المرحلة الثانية الى نقطتها الحرجة في يناير (كانون الثاني) ١٩٣٨ عندما سقط الجنرالات بدورهم ، في احدى المكايد التي نسجها هيملر . ففي عام ١٩٣٣ ، كان هتلر قد اختار الجنرال فون بلومبرغ وزيرا للحربية . وانتاب الجنرالات الآخرين قلق كبير عندما رأوا ان هذا الاخير خاضع اكثر مما ينبغي لنفوذ هتلر . وانتهى بلومبرغ في

استقطاب كل نفورهم وازدرائهم له عندما تزوج احدى ضاربات الآلة الكاتبة في مكتبه . ولكن هتلر بارك هذا الزواج « الديموقراطي » وشرف احتفال الزواج بحضوره . وبعد وقت قصير ، قدم هيملر مصنفا اعدته الشرطة يثبت بأن قرينة الوزير كانت مومساً . وبناء على هذا المصنف عزل هتلر فون بلومبرغ في ثورة من الغضب حقيقية أو تظاهرية . فأخرج هيملر عندئذ مصنفا آخر مدعما بالادلة يتهم فيه الجنرال فريتش القائد العام للجيش باللواطة . فعزله هتلر أيضاً ولم يعده ابدا الى منصبه ، مع ان لجنة تحقيق شكلت فيما بعد لهذا الغرض برأته وردت الاعتبار اليه (ونجد قصة هذه الازمة بكل تفاصيلها في الفصل الثالث) .

استغل هتلر الصدمة المعنوية التي تعرضت لها هيئة الضباط ليستحوذ على القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية . وعززت هذه المناورة التمهيدية لاستيلاء هتلر بشكل شامل على الاعداد الاستراتيجي للعمليات ، كما عزَّزَت في الوقت ذاته نفوذ هيملر . وعين الجنرال كيتل، هذاالجنرال الذي اضعف في مابعد الاحتجاج الجماعي للجنرالات ضد المعاملة التي تعرض لها فون فريتش ، بالدسائس والمؤامرات التي حبكها والتي لم تكن تستهدف سوى تحقيق اغراضه الشخصية لشغل منصب فون بلومبرغ الذي بقي خاليا . ومع هذا لم يحصل كيتل الا على سلطات محدودة ، ولم يحتفظ بمنصبه الا بفضل عبوديته لهتلر . وتسلم الجنرال فون براوخيتش منصب قائد الجيش ، وكان يتمتع بسمعة مشرفة اكثر من سمعة كيتل ، ولم يكن ينتمي للحزب الرجعي او للحزب النازي، وكان هتلر ، بهذا التدبير الذكي ، يحاول استمالة الجيش مع ضمان جهاز ينفذ اوامره ، بحيث تصبح هيمنته على الجيش اسهل واقوى من ايام فون فريتش .

ومع كل هذا ، دافع فون براوخيتش عن مصلحة العسكريين المحترفين اكثر مما توقعه البعض . وحاول أيضا تلطيف السياسة الخارجية النازية منذرا هتلر بأن الجيش الالماني غير مستعد لحرب ، وان من واجبه أن لا يدفع سياسته العدوانية الى هذا الحد الاقصى . وعزز الجنرال بيك رئيس هيئة الاركان العامة احتجاجات براوخيتش ، وأدان

بيك بصورة صريحة جدا أساليب هتلر العدوانية، فاضطر هتلر الى عزله. ولكن خلفه هالدر كان يتحفز مع فون براوخيتش لمقاومة هتلر في الوقت الذي كان يبدو فيه الهجوم على تشيكوسلوفاكيا وشيك الوقوع . وهنا قطعت الحكومتان البريطانية والفرنسية عليهما الطريق عندما استسلمتا للتهديدات الحربية لهتلر .

واتيح لهتلر متسع من الوقت بعد أن حصل على هيبة الغزو السلمي لتشيكوسلوفاكيا ، ليزيد ضغوط تهديداته ضد بولونيا . وتمكن الجنرالات ، العاجزون عن ايقاف عمله ، من الحصول فقط ، بجهودهم ، على موافقته بضرورة الحصول على حياد روسيا قبل ان يندفع في أي حرب من الحروب . وما ان حصل هتلر على امتناع الاتحاد السوفييتي عن التدخل ، حتى نجح في اقناع معظم الجنرالات بأن فرنسا وانكلترا ، ستتمسكان بعدم التدخل في النزاع ، وان الهجوم على بولونيا لا يتضمن أية مجازفة في جر المانيا الى نزاع اشمل .

ووقع توتر جديد بين هتلر وجنرالاته عندما وجدوه بعد غزو بولونيا ، مستعدا للقيام بهجوم ضد الغرب ، واعطاء الحرب بهذا الشكل الامتداد والشمول اللذين كانوا يريدون تجنبهما . ولم يكونوا يخشون مخاطر حرب طويلة الامد فحسب ، بل انهم كانوا غير مؤمنين بامكان قهر فرنسا والتغلب عليها . ومرة أخرى ، خُنقت احتجاجاتهم ، وأُجهضت مشروعاتهم للتآمر ضد هتلر . ومن الظلم أن نستنكر الموقف السلبي الذي برهنوا عليه في هذه الفترة ، لانهم كانوا يملكون دوافع جدية للايمان بأن قطعاتهم لن تتبعهم لو انهم دفعوها الى العصيان والتمرد . وبالاضافة الى هذا ، فقد كانوا يشمئزون بالطبع من أن يتخذوا موقفا قد يُستشم منه الخيانة لبلادهم وخاصة في وقت الحرب .

وراوغ الجنرالات ايضا وترددوا عندما أمر هتلر بغزو فرنسا . وينبغي أن نعزو نجاح هذا الغزو من جهة لبعض التكتيكات وبعض الاسلحة الحديثة التي شجع هتلر استخدامها ودفعه ، بالرغم من الروح التشاؤمية المحافظة لاقدم الجنرالات ، ومن جهة أخرى ، لخطة جريئة وضعها ضابط من الجيل الشاب فرضه هتلر على هيئة الاركان

العامة . وينبغي أن نعزو هذا النجاح أخيرا لبعض الاخطاء التي لم يكن بوسع الالمان أن يتوقعوا ارتكاب القيادة الفرنسية لها .

لقد كان من المستحيل على هتلر غزو فرنسا لو لم يكن تحت قيادته بعض الجنرالات المهرة والمحنكين . وهو الذي منعهم بتردد مفاجىء لا يمكن تفسيره من استغلال نجاح اندفاعتهم السريعة باتجاه المانش الى اقصاها . وفضلا عن هذا ، كانت نتيجة جداراتهم اضعاف موقفهم ايضا . فقد كان هتلر هو المنتصر ، امام العالم ، بعد تحقيق هذا الانتصار . وعقدت اكاليل النصر له لا لهم . واهتم بتتويج نفسه بهذه الانتصارات . وأخذ تدخله في قرارات هيئة الاركان يزداد يوما عن يوم ، نظرا لقناعته الداخلية بأنه أعظم استراتيجي في العالم ، في حين بدأ يهمل الحجج التي كان بوسع جنرالاته تقديمها ردا على رغباته .

وعندما خطط لمهاجمة روسيا ، قلق معظم الجنرالات . ولكنهم كانوا يتميزون بالعيب الذي يتميز به كثير من الاختصاصيين : التصديق المتطرف لكل ما ليس من اختصاصهم . ونجح هتلر في تبديد مخاوفهم وخنقها باعلان بعض « الاسرار » السياسية ، المخصصة لاقناعهم بضرورة قيام حملة ضد روسيا ، وأضاف بأن الفوضى الداخلية التي تسودها تخرب قوتها العسكرية . وعندما اصبح اخفاق الغزو حقيقة يقينية ، أراد فون براوخيتش وهالدر القيام بقتال تراجعي ، ولكن هتلر كان قريباً من موسكو الى درجة تجعله عاجزاً عن مقاومة اغراء الدخول اليها ، وألح على متابعة الهجوم مهما كان ثمنه ، بالرغم من أفول نجمه . وعندما أصبحت هزيمته بدهية الى ابعد حد وواضحة وجلية ، القى مسؤوليتها بمهارة على عاتق فون براوخيتش : فعزله من منصبه بصورة مدوية ، واستلم بنفسه القيادة العليا للقوات المسلحة .

وتمكن بهذا الشكل ، منذ هذه الفترة وحتى نهاية الحرب ، من رفض كل اقتراحات الجنرالات على المستوى السياسي ، وصرف النظر عن آرائهم العسكرية وتجاوزها . واذا وجد من بينهم من يحتج ، كان هناك دوما جنرال طموح آخر يتسنم منصبه ،

ويوافق على خطط الهجوم المكررة لهتلر ، الامر الذي يتجاوب بالطبع مع الميول الفطرية للعسكريين . وفي الوقت ذاته ، اصبحت الساحة خالية ، وتمكن زعماء الحرس النازي« S.S. » تدريجيا من التسلل الى الجيش ، واصبح لدى الجواسيس النازيين كل الامكانية لمراقبة الضباط المشبوهين عن كثب . وتضاءلت يوما بعد يوم احتمالات نجاح تمرد في الجيش في نظر الجنرالاتِ . ولم يبق امامهم سوى الرضى بالاوامر التي كانوا يتلقونها . . . في أفضل الاحوال . . . . أو أسوأها . . . . لان لدينا اسبابا تدفعنا الى الاعتقاد بأن بعض هؤلاء الجنرالات كانوا يتحفزون لتنفيذ بعض الأوامر والتعجيل بنهاية الحرب بهذا الشكل .

الفصل الثاني

أثر سيكت

احيل الجنرال الالماني الذي مارس اكبر أثر على الحرب العالمية الاولى الى التقاعد قبل سبعة أعوام من نشوبها . وتوفي في العام الذي سبق بداية الاشتباكات ، وكان هذا الجنرال هو : الفريد فون شليفن ، الذي ولد في مكلنبورغ ، على شاطىء البلطيق . وهو الذي صمم الخطة الرائعة لغزو فرنسا ، واخترع طريقة اطلق الالمان عليها تسمية « فتاحة العلب » لخرق الخطوط المحصنة ، ودرب كوادر متخصصة على تطبيق هذا الاسلوب . وكانت خطته تتضمن خرق الحياد البلجيكي ، بغرض الالتفاف على فرنسا من الجناح ، الامر الذي سبب دخول بريطانيا العظمى الحرب ضد المانيا . ومع ان خليفة فون شليفن قد أفسد هذه المناورة عند تنفيذها ، الا إن المانيا كانت تفتقر الى جهد بسيط جدا لتكسب الحرب خلال شهر واحد .

اما الجنرال الالماني الذي كان له أكبر الاثر في الحرب العالمية الثانية فقد احيل الى التقاعد قبل عشر سنوات من هذه الحرب ، ومات قبل نشوبها بثلاث سنوات . كان هذا الجنرال هو هانزفون سيكت الذي ولد في شلزويغ ـ هولشتاين ، وهو بلد يقع بين مكلنبورغ والدانمارك . وهو الذي ساهم ، بعد الهزيمة ، في اعادة تنظيم الجيش الالماني بفعالية ، ووضع الاسس الضرورية لبناء القوات المسلحة الالمانية على نطاق واسع . وقد وضعت خططه ونفذت في شروط صعبة جدا فرضتها شروط معاهدة السلم التي كانت تستهدف خنق كل امكانية لبعث الجيش الالماني . ويتضمن نجاح سيكت دلالات كبيرة .

وتحمل معظم نجاحات « الويرماخت » ونجاحات بداية الحرب خصوصا بصمات مفاهيم سيكت الذي عرف أيضا كيف يتوقع الهزائم اللاحقة .

ولكي نستطيع الحكم على قيمة جنرالات هتلر ، من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار النفوذ الذي مارسه سيكت عليهم . فقد كانت اعادة بناء الجيش الالماني العامل الذي حسم مصير المانيا . وتسمح دراسة الفترة التي تم خلالها بعث المانيا من جديد باختصار الملاحظات الفردية الخاصة بأكثر القادة العسكريين المشهورين في سنوات ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ . وفي الحقيقة ، فان تفاصيل هذه الدراسة تعرفنا بالاطار الذي كان مشتركا بينهم ، والقالب الذي خرج منه مذهبهم . حقا ، كانت هناك ، فوارق في اساليب التفسير ، ولكنها لم تكن تمس ابدا القواعد الصلبة الموضوعة في الفترة التي كانت فيها هيئة الاركان العامة تعمل سرا ، مع انها حُلَّت نظريا استنادا الى معاهدة فرساي .

ففي بداية حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كان سيكت الذي ما زال في ذلك الوقت برتبة مقدم رئيسا لهيئة اركان فيلق في الجيش الاول الذي يقوده كلوك . وتمكن عن قرب من ملاحظة الاخطاء التي منعت التنفيذ الكامل لخطة موضوعة بشكلها الكلي ، وسببت الهزيمة ، في حين كان النصر يبدو وشيكاً . وأثبت سيكت امكاناته وقيمته العسكرية بعد سنة واحدة ، في عام ١٩١٥ : فقد كان العقل النيِّر الذي وجه قائد الفرسان الباهر « المبارز الجميل » الفيلد مارشال ماكنزن . فقد خرق هذا الاخير باندفاعة قاتلة الجبهة الروسية في جورليس ببولونيا وشق جيش العدو الى نصفين ، ولم تقم لهذا الجيش اية قائمة من هذه الضربة تماما في ما بعد. وقد ادخل سيكت هنا اسلوب الهجوم الذي يتضمن مبادىء التكتيك الحديث في التسلل : فبدلا من اللجوء الى الطريقة التقليدية ، المتضمنة العمل على احراز تقدم متماثل في كل النقاط ، واستخدام القوات الاحتياطية لتحطيم أهم عقد المقاومة ، كان يرسل تعزيزات الى النقاط الضعيفة ، ويدفع قواته بغارة سريعة تخترق الارض المعادية ابعد ما تستطيع .

ونجح سيكت. وكان هذا العمل بداية السمعة التي حصل عليها. وكبرت شهرة

الدماغ غير المرئي الذي كان يحرك العمليات التي نفذها ماكنزن كل يوم ، حتى ان الشعار التالي انتشر في الجيش الالماني : « سيكت : بقرب ماكنزن ، الانتصار الانتصار : بقرب سيكت » . واستمر في القيام بدور هام في حملة الشرق ومع هذا ، كان سيء الحظ بأن تُرك بعيدا ومهملا من مجموعة هندنبورغ ـ لودندورف ، التي تسلمت القيادة العامة للقوات الالمانية من عام ١٩١٦ حتى نهاية الحرب . وأتاح له هذا الظرف ميزة أن لا يكون مسؤولا عن شيء في الهزيمة النهائية للجبهة الغربية . فأصبح عندئذ مستشارا للوفد الالماني في مؤتمر السلم . وانتقل بالطبع من هذا المنصب الى القيادة العامة « للرايخويهر » ، وهي جيش الماني صغير ، اقتصر على ١٠٠٠٠٠ ضابط وجندي طبقا لمعاهدة السلم .

وكان من الطبيعي اكثر أيضا أن يستميت في تحرير هذا الجيش من كل معوقاته وعقباته ، وان يعيد له قوته . وكان أي جندي في مكانه في أي بلد آخر سيفعل ما فعله في بعض الظروف المماثلة . وكان يحذو حذو شارنهورست الذي أعاد بعد عام ١٨٠٦ تشكيل افواج قادرة على التحول ضد نابليون بعد سبع سنوات ، وموهها بمهارة ، وتلاقى بهذا الشكل التزام نزع سلاح الجيش البروسي . وحقق سيكت وتلاميذه نجاحا أفضل أيضاً من نجاح شارنهورست وفي ظروف أصعب .

واصطدم سيكت بالحذر الفطري لزعماء الجمهورية الجديدة ازاء الطبقة العسكرية التي أهانت المدنيين وأذلتهم ، وقادت الأمة الى هزيمة دموية ، وكان هذا الحاجز الذي اصطدم به أول حاجز ينبغي قلبه . وتوصل سيكت بفضل أدبه ، ورقته كدبلوماسي ، وروحه المتسامحة ازاء رجال اعتادوا على خشونة هندنبورغ ولودندورف المتعالية ، الى القضاء على معارضتهم . وجعلهم يقدّرون التباين المدهش والواضح بين تهذيبه ورعونة بعض الضباط الذين تحملوهم والمرارة تعتصر قلوبهم . وكانت اناقته ، وذوقه الفني ، وتصرفه اللبق مع الناس يضيف سحرا جميلا لشخصيته المتحفظة ، التي استحق عليها تسمية « أبو الهول » . في حين كان موقفه المطبوع احيانا بالاستخفاف والسخرية ، يجعله مكروها لدى الدوائر العسكرية العليا ، واستحق عليه على العكس تعاطف السياسيين

الذين كانوا يرون في موقفه هذا دليلا على افتقاره الى التعصب ، واليقين بأن قدراته التقنية لا تترافق أبدا مع روح عسكرية متطرفة .

وأبقى سيكت الجيش المذكور بعيدا عن السياسة ، وسمح له ولاؤه الظاهري للنظام الجمهوري الجديد باخفاء جهوده من أجل تطوير القوة العسكرية ، كما سمح له باخفاء النشاطات السياسية نصف السرية التي كان يقوم بها عدد من ضباط النظام السابق في فترة مضطربة . وسعى جاهدا لانتقاء افضل الضباط وصف الضباط الذين خضعوا لاختبار النيران ، كيا يشكل منهم كوادر الجيش الالماني الجديد ، بالقدر الذي سمحت به قوانين الجيش . وكان يريد أن يجعل من هؤلاء الـ ٤٠٠٠ ضابط و ٩٦٠٠٠ جندي هيئة مختارة من المدربين والقادة ، قادرة على تشكيل نواة قوة يمكن زيادة تعدادها بنسب كبيرة في الوقت الملائم . وكان تدريبها القاسي ، المستند الى بعض الطرائق الجديدة ، يستهدف تحويلها الى مجموعة من الاختصاصيين ، المكبين بقوة على مهنتهم العسكرية ، وفعالة اكثر من الجيش الكبير السابق رغم عددها الصغير .

وأثرى هذا المشروع بسلسلة من التنظيمات السرية التي كانت تسمح للضباط العاملين بالتدريب ، رغم الافتقار الى الاسلحة الحديثة التي الغتها المعاهدة ، كما تسمح للضباط القدماء بالمحافظة على أحسن حال . ووجد بعض الفنيين من ضباط الاركان مناصب موقته في اليابان ، وفي الصين ، وفي امريكا الجنوبية ، وفي دول البلطيق أو روسيا السوفييتية ، الامر الذي أتاح لهم الحصول على تدريب عملي في ممارسة حرب الدبابات . وتدرب عدد من الضباط الآخرين في خطوط الطيران المدني . وتمكن بعض العسكريين المسرَّحين من متابعة تدريبهم في المجموعات الممنوعة طبقا للانفاقية داخل المانيا . وتوصل هؤلاء العسكريين الى اخفاء اسلحة حديثة جدا لاغراض التدريب .

وتشهد هذه الانجازات على عبقرية عسكري نشيط ، مع مساعديه ، للتملص من قوانين المنع ، مهما كانت شديدة وقاسية . وعلى العكس ، شكلت هذه الانجازات سببا لتعقيدات مستمرة لضباط الحلفاء المكلفين بالاشراف على تنفيذ معاهدة السلم . ومع كل

هذا ، فمن الخطأ من الناحية التاريخية ، ان نعطي لهذه الانجازات أهمية أكثر مما تستحق ، وأن نعتقد بأنها جعلت العدوان الجرماني الجديد عدوانا ممكنا . فلا يمكن مقارنة مجموع كل هذه الانجازات بالقوة التي بلغتها المانيا فيما بعد ، عندما اصبحت خطرة بصورة جدية . فلم تبدأ تدابير اعادة التسليح الكثيف التي كان لها نتائج خطيرة الا في بداية حكم هتلر في عام ١٩٣٣ . ولم تصطدم في ذلك الوقت بأية معارضة من جانب الحلفاء .

وقد أثر عمل سيكت في العمق . فقد بعث حياة جديدة ، بزخم شديد ، في قلب الجيش الإلماني ذاته ، وأوحى له بارادة التحسين ، وسمح له باضافة النوع لبعث عددي لم يعرقله المنتصرون ابدا . وزود الجيش الالماني بشعار اساسي هو القدرة على الحركة . وقد اراد أن يقول بهذه الكلمة ان جيشا مؤلفا من قطعات منتقاة ، قادر على التنقل والضرب بسرعة ، يستطيع تطويق جيش محتشد طبقا للاساليب القديمة . ونتجت هذه النظرية من تجاربه على الجبهة الشرقية ، التي كانت المساحات الواسعة تسمح فيها بالمناورة بصورة اسهل من الجبهة الغربية . وكانت التعليمات العسكرية الاولى لما بعد الحرب تنص على أن « كل عمل يجب أن يكون معتمدا على المباغتة . ومن الصعب الحصول على نتائج هامة دون أثر المباغتة » .

وكان الشعار الثاني : المرونة . « ينبغي قبل أي عمل آخر دفع القوات الاحتياطية الى النقطة التي نجح فيها الهجوم ، حتى ولو اصبح من الضروري عندئذ نقل مركز الثقل » . وللحصول على مثل هذه المرونة ، تعلم الجيش الالماني « الرايخويهر » تطوير تراتيب جديدة في الاتصال ، وخصص لها نسبة كبيرة من قواته اكثر من أي جيش آخر من جيوش ما بعد الحرب ، بالرغم من ضعف وسائله وفقرها . واخيرا ، كانت التعليمات تلح على ضرورة تقدم القادة الى امام اكثر مما كان التقليد يفرضه في الماضي ، بشكل يصبحون قادرين معه على الاحساس بنبض المعركة تحت اصبعهم والعمل بسرعة . وقدمت هذه التوجيهات في الحرب الحديثة ، التي تمجد المناورة تناقضا مدهشا مع

الانظمة الفرنسية التي كانت قد توصلت الى استنتاج ما يلي : « ان النار ، من بين العنصرين التاليين وهما الحركة والنار ، وهي العنصر السائد » . وكان الفرنسيون يتصورون بالطبع ان حربا جديدة سترى تكرار تكتيكات البطء التي سادت في عام ١٩١٨ . وأتاح هذا الفارق في الآراء ظهور أعراض وظواهر مثيرة للقلق . ولكن لم يكن الرأي الالماني قد أملته ضرورة التحايل على الشروط التي فرضتها اتفاقية السلم فقط . فالواقع ، ان سيكت كتب في مقدمة النظام الجديد بصراحة مدهشة ما يلي : « تفترض هذه الأنظمة قوة ، وتسليح ، وتجهيز جيش قوي حديث ، لا قوة وتسليح وتجهيز ١٠٠,٠٠٠ من الجيش الالماني الذي فرضت اتفاقية السلم عدده » .

وفي عام ١٩٢٦ ، ارتكب حماقة اجبرته على الاستقالة : فقد سمح للابن البكر لولي العهد ، بالمشاركة في مناورات الجيش . ووضعت العاصفة السياسية التي نجمت عن هذه البادرة حدا لنشاط سيكت . وظهرت آراؤه الضيقة الافق ، مهما كانت واسعة الافق بالمقارنة مع آراء الجنرالات الآخرين ، واضحة كل الوضوح ، عندما اندفع في المجال السياسي فيما بعد كناطق رسمي لبعض الافكار المضحكة لحزب الشعب الالماني . ولكن هذا لم يمنع نظرياته العسكرية من الانتشار ، والتمتع بنفوذ متزايد .

وكان تصوره عن المستقبل ينبع بصورة واضحة من المؤلف الذي كتبه بعد استقالته : « أفكار جندي » (١٩٢٨) . فقد شكك بفعالية جيوش الماضي الضخمة ، التي كانت تعتمد في بنائها على التجنيد ، وكان يرى أن الجهود والتضحيات التي تؤدي اليها لا يمكن مقارنتها بالنتائج التي يمكن أن نتوقعها منها . ولم يكن بوسع هذه الاساليب القديمة أن تؤدي الى حرب استنزاف طويلة . « يصبح من الصعب تحريك الكتلة . فهي لا تستطيع أن تناور وهي لا تستطيع بالتالي ان تنتصر . فهي غير قادرة الا على السحق بتفوق وزنها » . وفوق هذا ، من المهم في وقت السلم « تقييد العطالة غير المنتجة لعمال الشعب داخل الجيش الى ابعد مدى ممكن » . وان العلم التقني ، والمهارة التكتيكية ، هما مفتاحا المستقبل . وقد كتب سيكت قائلا : « ان كتلة من الرجال تنظم عن طريق

التجنيد ، وتتلقى تدريبا سريعا واصطناعيا تشكل « لحما للمدافع » في أسوأ معنى للكلمة ، اذا وجدت مشتبكة مع عدد صغير من الفنيين المدربين تدريبا جيدا » . وتحققت هذه إلنبؤة في عام ١٩٤٠ عندما هاجمت مجموعة من فرق البانزر ، العاملة بالتنسيق مع القاذفات المنقضة ، وشلت كتلة الاحتياطيين المدربين تدريبا سيئا في الجيش الفرنسي وطحنتها .

ويرى سيكت أن على « الجيش العامل » أن يتألف من « جنود محترفين ، قد تعهدوا بالخدمة الطويلة ، ومتطوعين قدر الامكان » . ففي زمن السلم ، تكون معظم قوات الامة مفيدة أكثر عندما تعمل في المصانع التي ينبغي أن تزود الجيش المحترف بأسلحة حديثة عديدة . وينبغي تحديد نموذجات الاسلحة مسبقا جدا ، وأن تدار صناعتها الشاملة بصورة نشطة .

وفي الوقت ذاته ، ينبغي أن تكون هناك خدمة عسكرية الزامية لمدة قصيرة لكل الشبان الصغار الصالحين للخدمة في البلاد « يسبقها تدريب للشباب يركز على الدروس البدنية والمعنوية اكثر مما يركز على الناحية العسكرية » . ويؤمن مثل هذا النظام ارتباط الشعب بالجيش ، ويعزز الوحدة الوطنية . « وبهذه الطريقة ، نستطيع أن نتيح للكتلة تدريبا عسكريا ، يعتبر غير كاف للمشاركة في حرب الحركة ، والحصول على نصر في معركة نظامية ، بيد أنه يجعلها قادرة على تأمين الدفاع عن البلاد ، وتقديم عون اضافي متواصل من أفضل عناصرها للجيش النظامي المقاتل في ساحات العمليات » وكان مثل هذا التجنيد هو الذي غذى القسم الاكبر من الفرق الالمانية في عام ١٩٤٠ . واقتصر عمل هذه الفرق المجندة على اتباع مسالك التسلل التي احدثتها الوحدات الآلية ، وعلى احتلال المناطق المكتسحة . وقد اصبحت هذه الوحدات جاهزة في ما بعد كما توقع سيكت ، لتعزيز وتضخيم جيوش العمليات ، بعد أن أكمل تدريبها .

« والخلاصة ، يبدو لي ان نجاح الحرب المقبلة مرتبط باستخدام جيوش قادرة على الحركة وذات اعداد صغيرة ، ولكنها تتألف من نخبة تزداد قوتها بعمل القوات الجوية .

وينبغي أن تجند كل القوات المسلحة في الوقت ذاته ، لمصلحة الهجوم ولمصلحة الدفاع أيضا » .

وهناك مفارقة عجيبة ، وهو ان كتاب سيكت يمس مساً رقيقاً مسألة الدبابات ، ولكنه يتوسع مطولا حول قيمة تدخل الخيالة والقطعات الآلية في عمليات الحركة التي كان يدعو اليها . حتى انه كتب بروح شعرية غنائية ما يلي : « ان مستقبل الخيالة لا حدود له اذا اتيح لها تدريب وتجهيز حديثان » . ثم يمضي في ما بعد قائلا : « ان شعلات رماحها ستحلق أيضا بثقة مع رياح المستقبل » . وقد أوحى البعض في ما بعد بأن لا مبالاة سيكت ازاء المدرعات لا تعزى الا الى تطرف في الكتمان السياسي ، وانه كان من الواجب فهم كلمة « دبابات » من كلمة « خيالة » . وهذه الفرضية متناقضة تناقضاً واضحا مع الاسلوب الذي كان يدعو فيه الى الخدمة العسكرية ، وتطوير الطيران ، الممنوعان كلاهما على المانيا بشروط اتفاقية السلم .

وكان سيكت ابن جيله لا رائدا من الرواد بالرغم من حيويته . وكان ذكيا في المجال العسكري بشكل جعله يتنبأ بأهمية القدرة على الحركة في الهجوم ، ولكنه لم يعرف كيف يرى ان الوحدات الميكانيكية المدرعة هي وحدها التي تجعل الحركة ممكنة في الهجوم . والقى على عاتق خلفائه مسؤولية تطوير نظرية ضرورة العدوان ، بهذه المبادىء .

ولقد تأثر رأي سيكت في الطيران بالصورة التقليدية للمعركة النظامية . وكان يدّعي ان هدفه الاول هو تدمير الطيران المعادي . وهذا ما فعلته « اللوفتوافه » القوات الجوية الالمانية في بولونيا ، وبدرجة أقل في فرنسا . ولكن عندما حاولت هذه القوات اعداد غزو بريطانيا العظمى بهذا الشكل ، تعرضت لخسائر قاسية ، واصطدمت لاول مرة بدفاع جوي متين .

وكانت جدارته وكفاءته في فهم الآثار البعيدة للحروب والحياة عموما ، مجزأة غير متكاملة . وكان يلاحظ ، بصورة أريبة جدا ، بأن التجربة المباشرة لأهوال الحرب تجعل العسكريين يترددون اكثر من السياسيين عندما يتعلق الامر بالدخول في الاشتباكات .

ولكنه يتناقض مع نفسه عندما يحاول البرهان بانهم « مسالمون » حقا ، باعطائه لهذا التعبير كل قيمته . وان محاولة التبرير المهنية المتميزة هذه، والتي ليست خاصة بالمانيا وحدها ، محاولة لا سند لها ويصعب الدفاع عنها في حالة بلد عدواني نعرف خفاياه من مصنفاته . وغالبا ما أهمل بعض الضباط القادة اكثر مما يجب اعطاء الدليل على هذه « الروح السلمية المستندة الى معرفة الوقائع والناجمة عن الاحساس بالمسؤولية » التي افترضها سيكت عندهم افتراضا .

وكان يريد ان يبرهن بمحاكمات يتضح ضعفها اكثر مما يجب ، على ان تعبيري « العسكريتاريا » و« العدوان » ليسا سوى شعارين . ومن ناحية أخرى ، هناك ملاحظة أخرى جيدة تعتبر حقيقة نبوية : عندما يسعى السياسيون الى الاستيلاء على السلطة : « يجدون انفسهم بعد وقت قليل ، بشكل او بآخر ، في مواجهة بعض الصعوبات، ويرون فيالمعارضة أمارات خطرعليهم، اولا لتحقيق اغراض خططهم وتنفيذها ، ثم للهيبة الوطنية ، واخيرا لوجود الدولة ذاتها . ويشتبكون عندئذ في حرب دفاعية مشروعة ، معتبرين بلادهم مهاجمة » .

وتدل بعض تفسيراته التهكمية على الاتجاه السيكولوجي الحالي لاعادة النظر باحكام الماضي في ضوء البصيرة والفهم : « انني اجد من البشاعة الى حد كبير ان لا استطيع اعتبار نيرون مجرد امبراطور - مخيف ، اعتاد على الذهاب للنوم في ضوء مسيحي أحرق وهو حي ، وان اكون مضطرا لاراه بالاحرى بملامح ديكتاتور متمدن ماهر جدا بالرغم من نزواته الغريبة . « فهل كان هذا تلميحا لشكوكه بالاخلاق الجديدة التي بدأ البعض ومن بينهم النازيون في الاعلان عنها ؟ ويمنح حكمه الممزوج بسخرية لاذعة قيمة دالة « للعمل » : « ان الذكاء بدون الارادة لا فائدة منه . والارادة بدون الذكاء خطرة » . وهناك تأمل آخر ذو مدى أبعد يتضمن أيضا تحذيرا عاقلا جدا : « أصبح التأكيد بأن الحرب هي متابعة السياسة بمعونة الوسائل المختلفة صيغة معدة سلفا ، وتمثل خطرا بالتالي . ومن الصحيح ايضا أن نقول : ان الحرب هي افلاس السياسة » .

وتضمن اهتمام سيكت بابعاد الجيش عن السياسة خطورة في حد ذاته . فموقفه المهني المنفصل تماما عن السياسة ، والحد الواضح جدا الذي يرسمه بين الدائرتين العسكرية والسياسية يميل الى الغاء امكانية وجود اثر ملطف للعسكر على السياسي الجريء اكثر مما يجب .

فقد اصبح العسكري من نموذج سيكت عبارة عن بونس بيلات[1] حديث ، يغسل يديه من كل مسؤولية في الاوامر المنفذة ، ومن الصعب تنسيق المبادىء العسكرية ، المعزولة عن كل احتمال آخر مع سياسة التعقل . وعندما يكب العسكريون على خطة عسكرية صرفة ولا يحاولون الاحاطة بكل المعطيات الاستراتيجية العامة ، فانهم قادرون اكثر على قبول بعض الحجج السياسية ، تلك الحجج التي مع انها صحيحة ظاهريا اذا وضعنا انفسنا من وجهة نظر استراتيجية محدودة ، الا انها تقود السياسة على أرض لا تستطيع عبرها أن تضبط نفسها . ومن الصعب توفيق الاهداف القصوى التي يضعها العسكريون مع اعتدال السياسة . ولا يمكن لهذا الخطر الا ان يزداد ، لان الآراء التقنية التي تجسدها هيئة اركان عامة ليست منسقة دوما بهذا الشكل مع انها ينبغي أن تكون كذلك نظريا . وتكون هيئة الاركان العامة منقسمة بالمناورات السياسية الداخلية والمطامح االشخصية . ولم يكن سيكت نفسه يذكر بالماضي فحسب ، بل أنه كان يتنبأ بالمستقبل ايضا عندما كتب قائلا : « ان تأريخ هيئة الاركان العامة . . . . . قد يصف عملا هادئا وايجابيا ، ويتحدث عن الرعونة الممزوجة بالخضوع المتعجرف ، والتبجح ، والحسد ، وكل نقاط الضعف البشرية ، والصراع بين العبقرية والبيروقراطية ، والاسباب السرية للنصر والهزيمة . ان مثل هذا التأريخ قد يغطي بريق كثير من اكاليل المجد ، ولا يخلو من العظمة المأسوية » .

وكان دور هيئة الاركان العامة أساسا وضع العمل الجماعي مكان العبقرية التي لا

---

(١) حاكم مملكة يهوذا الروماني ، توفي في فيينا حوالي ٣٩م . اشتهر بأنه سلم لحكامه الدينيين المسيح الذي لم يكن يعتبره ضمنا منهما بأية جريمة . ولكي يفهم اليهود انه يترك لهم مسؤولية موت المسيح ، جلب بعض الماء وغسل يديه وقال : « انني بريء من موت هذا المسيح » ، وقد غسل يديه تعبيرا عن عدم اعترافه بمسؤولية موته .

المعربان

يستطيع أي جيش من الجيوش أن يطمح الى بعثها وظهورها في الوقت الملائم الذي تصبح فيه ضرورة من الضرورات . وكانت هيئة الاركان . بروحها ايضا تميل الى شل زخم العبقرية ، لانها كانت بيروقراطية ، كما هي نوع من التسلسل العسكري . ولكنها تحاول ، بالمقابل ، رفع متوسط الكفاءات والاهليات عاليا جدا . ويجب أن نعزو الفوارق في عملها الى الفوارق الفردية في المواهب وان نعزوها بصورة اكبر للاختلافات السرية التي تعزى لبعض المصالح الشخصية والانقسام في الآراء . وكانت نتيجة امكانات التقدم في غالب الاحيان اخماد شكوك احد الجنرالات لوقت طويل بغية السماح لهتلر بتليين متانة وجدانه المسلكي . وينطبق هذا على كل الجيوش ، ولكنه يبرز خصوصا في الحكم الديكتاتوري . فالجنرال الذي يعيّن حديثا يفكر دوما بان الموقف أفضل مما كان يبدو لسلفه . وان بوسعه أن ينجح حيث اخفق هذا الأخير . ومثل وسيلة العمل هذه رافعة قوية في أيدي أي قائد من القادة .



الفصل الثالث

عهد بلومبرغ - فريتش

وجاء هاي بعد سيكت . وفي عام ١٩٣٠ ، كان خَلَف هاي هو هامر شتاين . ولم يكن أحدهما من مستوى سيكت ، ولكنهما تابعا الخطوط الكبرى لسياسته . وكان هامر شتاين منزعجا جدا من انتشار الحزب النازي الذي كان يرى ان عقيدته وطرائقه تثير الاشمئزاز والنفور . وبهذا الشكل وجد نفسه وقد أنقاد الى التخلي عن مبدأ سيكت القائل بضرورة تجنب التدخل في السياسة ، وتوصل بعد استنتاجات وتحليلات الى الحكم بامكانية استخدام القوة لايقاف صعود هتلر الى السلطة.ولكن هذه المشروعات قُضي عليها منذ ولادتها بقرار رئيس الجمهورية العجوز الفيلد مارشال فون هند نبورغ الذي عين هتلر مستشارا . وقد أقر هذا القرار موقف هتلر بصورة شرعية . وبالاضافة الى هذا ، لم يكن الجنرالات الآخرون يشاركون هامر شتاين مخاوفه لانهم كانوا مجرد عسكريين « خالصين » .

واتخذ هتلر قرارا هاما ؛ وبصورة فورية تقريبا بعد تعيينه في منصب المستشار . فقد عين الجنرال بلومبرغ وزيرا للحربية . وكان من وراء هذا التعيين طموح العقيد فون رايخنا والذي كان رئيسا لهيئة اركان بلومبرغ في بروسيا الشرقية ، والذي كان على صلات وثيقة بهتلر . وكانت ملامح شخصية بلومبرغ تتناقض كل التناقض مع ملامح شخصية هتلر . فلم يكن هتلر يعرف بلومبرغ ابدا . وكانت موافقته على تسنم هذا المنصب والنشاط الذي بذله بصفته وزيرا للحربية مثلا للبساطة التي يمكن أن يصل اليها العسكري الصرف .

بلومبرغ :

كان بلومبرغ في العام السابق لتعيينه في منصبه الجديد يشغل منصب المستشار العسكري الرئيس للوفد الالماني الى مؤتمر نزع السلاح . وقد أثار شبابه النسبي - كان في الخمسين من عمره - بالمقارنة مع القادة الالمان الآخرين ، ومع قادة الحلفاء ، وترفيعه غير المتوقع غيرة وشعورا بالعداء تضاعف لدى الجنرالات الالمان ، بنوع من الاحتقار « للعريف البوهيمي » . وكان كثير من الجنرالات قد اظهر استعداده لدعم وصول هتلر الى السلطة ضمن الحد الذي يدعم فيه استلامه السلطة خططهم الشخصية في التوسع العسكري . بيد انهم كانوا يسخرون من الفكرة القائلة بأن بوسع عريف قديم ان يملك أية كفاءة معينة في مهنة السلاح ، وكانوا يجدون أنفسهم بالتالي أكثر ميلا ايضا الى نقده في اختياره للاشخاص وتعيينهم في الوظائف العسكرية .

وقد أساء سلوك أقدم ضباط الجيش الالماني هذا منذ البداية الى موقف بلومبرغ فقد اضطر الى البحث عن دعم هتلر بعد أن اصبح مشبوها في نظر زملائه ، واضطر بسبب هذا أيضا الى اتباع توجيهاته متجاوزا الحدود التي كان يراها مناسبة . وزاد من سوء حظه ، ان شخصيته الانيسة بالطبع ، المختلفة كل الاختلاف عن النموذج « البروسي » ، قد خدمته في موقف التبعية هذا لهتلر . وهكذا اطلق عليه زملاؤه الكثيرون نتيجة هذه المصادفة لقب « أسد من مطاط » .

وكان فيرنير بلومبرغ مختلفا كل الاختلاف عن القادة الشرسين الذين لا يتحلون بأي ضمير من المنتمين الى الحزب الحاكم . ويعزى جزء كبير من ولائه للنازيين ، الواضح جدا لديه اكثر من الجنرالات الآخرين ، الى الروح المثالية العليا التي كان يتحلى بها والحماسة الرومانسية اللتين كانتا تعميانه بسهولة عما كان لا يود رؤيته . وقد جذبت الحركة النازية خلال فترة من الوقت عددا لا بأس به من امثاله ، رغم أن معظمهم كان أقل شبابا منه . حقا ، ان العسكريين لا يشيخون ابدا . فقد كان بلومبرغ ، المندفع بطبيعته ، ينظر الى مهنة السلاح بروح فارس . وقد قفز هذا الى عيني عندما التقيت به في جنيف عام

١٩٣٢ . فقد كان يبدي اهتماما كبيرا بالنظريات العسكرية الجديدة ، وبخاصة النظريات التي كانت تبشر بتحسين التكتيك بفن واناقة ، لكنه كان متحمسا اكثر أيضا لإمكانات بعث قوانين الفروسية . وقد اصبح شاعرا تقريبا وهو يتحدث عن صفات الرقة والادب التي ينبغي تطبيقها في الحرب . ان المناقشة الطويلة مع الدوائر العسكرية العليا تنتهي عموما الى التشاؤم ، ولكن بلومبرغ أثر في نفسي ، على العكس بقناعته الصريحة والشابة عند اعلان مبادئه . وكان ذا قامة مهيبة ، ولكن مظهره لا يتسم بالتعالي أو القسوة ، ويجمع الى جانب دماثته الطبيعية طريقة في الكلام مشبعة بصراحة محببة . ومن سوء حظه انه اضطر الى التحرك وسط مجموعتين متنافستين ، واصبح كالمصد بينهما . وكان بوسعه أن يقوم بدور مهم ، لو أنه وجد نفسه في اطار أفضل واكثر ملاءمة .

ورغم هذا ، فمن الممكن أن يكون نفوذه قد ظهر واضحا في مجال هام بثقل اكبر مما يمكن أن نتصوره : فنحن نلاحظ بدهشة ان الجيش الالماني خرق قوانين الحرب خلال عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ اكثر مما خرقها خلال الحرب الاخيرة ، وعلى الاقل في معركته ضد خصمه الغربي . في حين كان بوسعنا أن نتوقع حدوث أثر مضاد من جراء تجمع العنصرين « النازي » و « البروسي » . ويمكن أن نعزو التحسن النسبي في طريقة السلوك ، والاهتمام الواضح بتجنب كل ما يلطخ شرف الجيش الى الجهود التي بذلها بلومبرغ وكل أولئك الذين شاركوه آراءه لترسيخ موقف في الجيش الالماني مطابق لكرامة الجندي وهيبته . فقد كان اعتدال سلوك القطعات التي اجتاحت بلجيكا وفرنسا في عام ١٩٤٠ ، بالمقارنة مع الوسائل التي استخدمت في عام ١٩١٤ ، تشكل جزءاً من سياسة التعقل . وقد ساهم هذا الاعتدال الى حد كبير في تلطيف مرارة الهزيمة ووقوف المغلوبين موقفاً متساهلاً الى حد ما ، بيد أن هذا الاثر الذي احدثه هذا الموقف تعرض لكثير من الاساءة بسبب الطرق المتعارضة تعارضا تاما معه ، والتي استخدمها « الجستابو » ووحدات الحرس النازي « S.S. » .

وساهم بلومبرغ وبفاعلية ايضا في تطوير التكتيك . وكان هامر شتاين قد جدَّد ثانية عقيدة الجيش الالماني القديمة في الهجوم ، ولكنه كان محروما من الوسائط لاستخدامها .

ولا يملك التقنية التي تسمح بتجديدها . في حين كان بلومبرغ قد جرب تكتيكات مبتكرة في بروسيا الشرقية ، أخذت بعين الاعتبار تطور الدفاع الحديث ، لانها اكثر واقعية . وكان يحاول الافادة منها ليضعها في خدمة الهجوم ، فبدلا من مهاجمة موقع يدافع عنه الخصم بقوة ، يمكن طرده منه بالحيلة ، أو دفعه الى الخروج منه بشكل محفوف بالمجازفة او شن انقضاض مباغت ، وايقاعه في الفخ ، ثم استثمار الفوضى التي خلقت من جراء هذا الوضع بالرد عليه بضربة اكثر فعالية بالضرورة من مجرد هجوم بسيط . وبوسعنا أن نتظاهر بالانسحاب كطعم لخصمنا ، أو ننقض بصورة غير متوقعة على مواصلات العدو ، وقد أثرت في نفسي وأدهشتني امكانات هذه « العملية الفخ » التي تجمع بين استراتيجية الهجوم وتكتيك الدفاع ـ كالسيف والدرع ـ عندما حللت حملة شيرمان في جورجيا . ودرست تطبيقها في الحرب الحديثة في المؤلفات التي كتبتها في ما بعد. وكانت نقطة الاتصال بيني وبين بلومبرغ هي الاهتمام الذي أظهره لهذه الفكرة[1] .

وكان بلومبرغ ، على العكس من كثير من جنرالات ذلك العهد ، يهتم أيضا بالتصور الجديد لحرب المدرعات ، التي تستعيد فيه الدبابات الدور التقليدي للخيالة . بيد ان هذا التصور لم يلهب خيال الانكليز ولم يبث فيهم الحماسة الا بشكل متوسط ، فيما عدا أوساط فيلق الدبابات الملكي . وكان رايخناو اكثر حماسة أيضا ، وقد ترجم شخصيا بعض كتبي . ورغم هذا ، لم يكن رايخناو يدرك أهمية المدرعات بنفس كمال ودقة ادراك غود ريان أو توما ، اللذين قاما بدور اكثر حيوية ونشاطا في انشاء الوحدات المدرعة الالمانية منذ عام ١٩٣٤ .

إن انتصار تكتيك العمليات التي قامت بها المدرعات الالمانية خلال السنتين

---

(١) أثارت طرائق شيرمان خيال الجنرال باتون ايضا، وخصوصا فيما يتعلق بطريقة استغلالها للتقرب غير المباشر وضرورة التخلص من العقبات للحصول على قدرة حركية أكبر . وعندما التقيت بباتون في عام ١٩٤٤ ، قبل أن يقود جيشه عبر النورماندي في عام ١٩٤٤ ، بوقت قصير ، حدثني بانه خصص في احدى المرات اجازة طويلة ليدرس على الطبيعة ، وكتابي بيده ، حملات شيرمان . وتناقشنا معا حول امكانية تطبيق هذه النظريات في الحرب الحديثة . وقد طبقها فيما بعد ، في سباقه مع العدو من النورماندي الى الموزيل . وكان الجنرال وود الذي قاد الفرقة المدرعة الرابعة والتي تشكل العناصر المتقدمة لباتون ، نصيرا متحمسا آخر لهذه المبادىء ، وعندما وصلت قواته الى السين كتب اليّ ليقص عليّ نجاحه .

الاوليتين من الاشتباكات ، يوضح مع شيء من السخرية التدابير المتخذة بعد الحرب السابقة لنزع سلاح البلد المغلوب . فلقد بدت هذه التقنية من وجهة النظر المادية فعالة . وقام الزعماء العسكريون الالمان بخرق المعاهدة عدة مرات وعلى نطاق صغير ولم يتقيدوا بها ، ولم يكن خرقهم لها يشكل في مجموعه بعثا له أهميته في القوات . ولم يحقق التسليح تقدما جديا حقا الا اعتبارا من اليوم الذي سخرت فيه الحكومة النازية صراحة من القيود المفروضة عليها . وسمح تردد المنتصرين في أن تعود المانيا في ذلك الوقت دولة قوية من جديد . وفوق ذلك ، كانت النتيجة التي لا تقدر بثمن لنزع سلاح المانيا بصورة اجبارية هي اعطاؤها وضعا متميزا باجبارها على التخلص من كميات من الاسلحة القديمة . وانقادت الامم المنتصرة التي اثقلتها هذه الاسلحة ، الى استخدام طرائق عفى عليها الزمن ، وكانت تبالغ في تقدير قواتها الخاصة . وعندما بدأ الالمان اعادة التسلح الى أبعد حد ، كانوا يملكون ميزة عدم التزود الا بأسلحة حديثة متلائمة مع المفاهيم الجديدة .

وساعد على تجديد الاساليب الجديدة وتطويرها أيضا تدبير آخر فرضه المنتصرون : الغاء هيئة الاركان العامة . فلو انهم تركوا هذه الهيئة تتابع عملها المربك الذي عفى عليه الزمن ، لكان من الممكن أن تبقى رتيبة ، وعاطلة ، ومسحوقة بالبيروقراطية كهيئات الاركان العامة الاخرى . والحقيقة أن أعضاءها المضطرين للعمل السري ، والمتحررين من « الروتين » الاداري ، والملزمين بنشر أفكار بناءة للمستقبل ، غدوا لهذا السبب ذاته قادرين على ادارة الحرب بشكل افضل . فاذا كان من الممكن حل مثل هذا التشكيل العسكري ماديا ، فمن غير الممكن منع نشاطه لان العقول لا تخضع لأية رقابة .

وهكذا ، كان للنزع الكثيف لسلاح المانيا بعد الحرب الكبرى ، نتيجة وحيدة هي تمهيد الطريق لتحديث اكثر فعالية لقواتها بانتظار الفرصة الملائمة لاعادة التسلح . وتعزى الحدود المفروضة على عملية التحديث هذه الى الروح المحافظة والى نزاع المصالح الشخصية اكثر من القيود التي وضعها الحلفاء .

فريتش :

تمكن بلومبرغ ، بصفته وزيرا للحربية ، من حماية تطوير التقنيات الحديثة ومن التغلب على معارضة الجنرالات التقليديين ، المعارضين في المانيا ، كما في فرنسا والبلدان الاخرى ، للافكار الجديدة . ومع هذا ، نظرا لحراجة موقفه « كمصد » فانه لم ينجح في تحقيق النتائج السريعة التي كان يتوقعها . وعندما حاول في نهاية عام ١٩٣٣ تبديل هامرشتاين ووضع رايخناو على رأس الجيش الالماني ، اخفق ازاء المعارضة الموحدة لاقدم الجنرالات . واختار هندنبورغ بناء على توصيات الجنرالات الجنرال فون فريتش ، وهو عسكري يتمتع بقيمة كبرى في كل المجالات التي كانت تمثل المدرسة القديمة من وجهة النظر السياسية والعسكرية . وكان يعترف ، لحد معين ، بأهمية الدبابات ، والطيران ، ولكنه يصف هذه الاسلحة بأنها « حديثة النعمة » . ولم يكن يخفي نيته الحازمة في عدم منحها سوى دور ثانوي ، مطابق لرأيه . وكان الجنرال بيك الذي استلم في ما بعد وظائف رئيس هيئة الاركان العامة ينتقد بالشكل نفسه الادخال « الثوري » للدبابات بقدر ما ينتقد الثورة النازية . وهكذا بقي التنظيم العسكري الالماني ، مع انه كان في طليعة تنظيمات البلدان الاخرى في تطوير الاسلحة المدرعة ، في موقف وسط بين المدرستين القديمة والجديدة .

كان فيرنر فون فريتش ، الذي كان شابا نسبيا كضابط اركان ، قد عمل على اعداد التنظيم الجديد في وزارة الحربية من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٢ ، تحت قيادة الجنرال سيكت . ثم ذهب في ما بعد لقضاء فترة قيادته على رأس احدى البطاريات ، ثم عين رئيساً لهيئة الاركان العامة في بروسيا الشرقية . وفي عام ١٩٢٧ ، عاد الى وزارة الحربية كمعاون لبلومبرغ ، الذي كان على رأس المكتب المكلف بخطط العمليات . وفي هذا المكتب وضع مشروع هجوم خاطف شبه كامل ضد بولونيا ، عند احتمال وقوع حرب ضدها ، بالتوافق مع موقف دفاعي في الغرب يعمل على إحباط خطط فرنسا . وكانت هذه الخطة نواة خطة أوسع نفذت فعلا في عام ١٩٣٥ .

واستخدم فريتش خلال العهد ما قبل النازي كل صفاته كدبلوماسي في علاقاته مع نواب ديموقراطيين ومبهم الله استعدادا مسبقا محزنا في طرح بعض الاسئلة التي يعتبر الرد عليها سرا من الاسرار عن ارتفاع ارقام الميزانية العسكرية ، وعن الدوافع الكامنة وراء تضخم تعداد الضباط والمدربين الذي لا يتناسب مطلقاً مع جيش بمثل صغر الجيش الالماني في ذلك الوقت . وبرز فريتش في ايضاح بعض النقاط الدقيقة الجديدة وتفسيرها ، واستبعاد التحقيقات المعوقة . وكان يعرف كيف يخرسهم بمهارة رائعة ، مستعيناً بوطنيتهم ، ومتلاعباً بنقاط ضعفهم ، او باقامة صداقة معهم . وكان بوسعه البرهان على وداعة كبيرة جداً لتحقيق هدفه لانه يتمتع بأنس هادىء .

وعندما اصبحت السلطة بين ايدي النازيين ، فهم الجنرالات أن قائداً حازماً وماهراً في الوقت ذاته عامل ضروري للمحافظة على وضعهم . وكان فريتش بالاضافة الى سمعته كاستراتيجي يملك هاتين الصفتين . وهكذا اختاره الجنرالات في بداية عام ١٩٣٤ . فحاول فريتش في بادىء الامر احتواء طموح العسكريين الهواة في الحزب النازي ، الذين يقودهم النقيب روهم . إذ كان ترفيعهم يشكل تهديداً لسلطة الجيش المحترف ومصالحه . ونجح فريتش في ايقاف ترفيعهم . وكان النقيب روهم يريد تسليح فصائل الانقضاض واعتبارها جزءاً من الجيش . ونجح فريتش ، بمساعدة هيملر الذي كان يتابع تحقيق اهدافه الشخصية ، في اقناع هتلر بأن خطة روهم هي المرحلة التمهيدية لانقلاب موجه ضده . واقتنع هتلر بذلك الى حد جعله يقرر التصفية الدموية التي جرت في ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٣٤ .

وكان الاثر المزدوج لهذا التدبير هو تقوية موقف فريتش ، سواء عند هتلر ، أو عند كل العناصر الاخرى التي كانت تخشى توسع النفوذ النازي وانتشاره لاسباب عديدة . ووطد فريتش ، لمرحلة معينة ، سيادة القيادة العليا في ميزان السلطة ، وتمكن بهذا الشكل من التغلب على هيملر . وعندما اقتضى الامر اعادة الخدمة العسكرية ، واعادة احتلال رينانيا عمل فريتش باتفاق كامل مع هتلر . ولكنه كان يلح على استطلاع الارض

قبل كل مرحلة ، ويهتم اهتماما كبيرا في تلطيف سرعة الاحداث ، بشكل لا يعرض فيه الجيش الالماني لاختبار خطير قبل ان ينضج نضجا كاملا .

واتخذ الزعماء النازيون تدبيرا اكثر جرأة أيضا ، عندما شجعتهم سلبية الحكومتين البريطانية والفرنسية ازاء هذه التحديات المتكررة : فتدخلوا في الحرب الاهلية الاسبانية لتأمين نجاح فرانكو ، واقامة قوة فاشية بهذه الوسيلة ، تمنع المواصلات البحرية الفرنسية والانكليزية . وكان فريتش متعجلا لاستخدام ساحة القتال الاسبانية كارض لتجربة الجيوش والتكتيكات الالمانية الجديدة . وقد ارسل اليها لهذا الغرض ، وحدات تجريبية ، بيد أنه كان واسع البصيرة الى الحد الذي يجعله قادرا على فهم عدم امكان استفزاز فرنسا وبريطانيا - العظمى ودفعهما للدخول في معركة مكشوفة ضد المانيا في بلد كإسبانيا وعر ومنيع من وجهة النظر الاستراتيجية . وانتقد الزعماء النازيون حذره وتعقله ، بعد أن أثارهم نجاح تحدياتهم السابقة . وأثارت جهوده الدبلوماسية للمحافظة على علاقات جيدة مع الجيش الاحمر احتجاجاتهم الشديدة التي سارت متوازية مع نقدهم له . وتمكن اعداء فريتش من اثارة شبهات هتلر حوله باستغلال وسواسه وتصوره المضاد للبلشفية . وتفاقمت صعوبات فريتش عندما حاول المحافظة على الروح القديمة في هيئة الضباط الجديدة ، وتخليصها من نفوذ الايديولوجية النازية .

وفي غضون ذلك ، حفرت هوة بين فريتش وبلومبرغ . ووجد فريتش وجماعته ان بلومبرغ يتأثر بسحر هتلر وجاذبيته ولا يدافع عن مصالح الجيش كما ينبغي أن يفعل . وتجسدت روح خضوع فون بلومبرغ بالنسبة اليهم بحملة الشارات النازية على بزته . فاطلقوا عليه اسم « شبل هتلر » . بالتماثل مع شخصية صبي مثالي ابرزته الافلام النازية .

الالغاء المزدوج :

شهد شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٣٨ تطور ازمة ناجمة عن حادث لا يرتبط ظاهريا بأسبابه الحقيقية . فلقد كان بلومبرغ مولعا بضاربة آلة كاتبة من موظفات مكتبه

فتزوجها . ووافق هتلر على زواج فون بلومبرغ واذاعة نبئه ، واستند اليه في دعايته كدليل على سعة أفق القادة العسكريين للحزب الاشتراكي - الوطني ، الذين كانوا يتحالفون مع الشعب ، ويتزوجون من أبنائه بدلا من الزواج من طبقتهم . وشرفهم بحضوره كشاهد للزواج . واستنكر زملاء بلومبرغ هذا الزواج ، بيد انه خلافا للاشاعات التي سرت في تلك الفترة ، لا صحة اطلاقا لإشاعة تقديمهم احتجاجا جماعيا وعملهم على عزل فون بلومبرغ من منصبه . وفوق هذا ، لو ان هذه النية كانت نيتهم حقيقة ، فان هيملر قد سبقهم الى تحقيقها .

فلقد قدم هيملر لهتلر بعد الزواج مصنفا من الشرطة يقدم الدليل على ان فون بلومبرغ تزوج احدى المومسات . وتميل التحريات التي اجراها الامريكيون في الوقت الحاضر[1] الى البرهان بأن هيملر قد أعد بنفسه فخا بادخاله هذه المرأة في القضية . وكان رد فعل هتلر عنيفا ، لأنه جعل نفسه اضحوكة بحضوره زواج « امرأة مومس » . فعزل فون بلومبرغ وشطب اسمه من كوادر الجيش .

ولم يزعج الخبر الجنرالات الآخرين ، ولكنهم أصيبوا بصدمة عنيفة بالضربة التالية التي تلتها مباشرة عندما جرى بحث تعيين وزير جديد للحربية . فقد اخرج هيملر مصنفا آخر يظهر بأن فون فريتش ، مراقب من قبل الشرطة ، بسبب اخلاقه اللوطية . والحقيقة ، ان هذا المصنف يتعلق بسمي فون فريتش . ولكن عندما احضره هتلر للمثول امامه ، أعد هيملر شاهدا تعرف الى المتهم بصورة قاطعة . وعلى هذا الاساس عزل هتلر فون فريتش .

ويرى الجنرال روهريخت ، ان تصرف هيملر بهذا الشكل راجع الى خوفه من تعيين فون فريتش في المنصب العالي الذي خلا بخروج فون بلومبرغ . وفي الحقيقة ، كانت القيادة العليا « للويهرماخت » ، اي قيادة القوات المسلحة كلها مرتبطة بهذه الوظيفة « ويصبح من سيخلف بلومبرغ في هذا المركز أعلى من غورينغ ، الذي كان آنئذ

---

(١) أي في فترة ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

قائدا عاما للقوات الجوية « اللوفتوافه » . وكان من الصعب وضع هذا الاخير تحت إمرة ضابط أحدث منه . وكان قِدَم فون فريتش بالنسبة لغورينغ يجعل منه الرجل الوحيد القادر على أن يكون قائدا عاما . وهكذا فان تدخل هيملر ، لم يكن لمصلحة غورينغ ، بل لمصلحته الشخصية : اذ كان لكل أعماله هدف واحد هو : اعداد التبديل التدريجي للجيش بوحدات الحرس النازي » .

وطالب فون فريتش بلجنة تحقيق . ولم يحصل على الموافقة على تشكيلها الا بعد صعوبات كبيرة ، وبفضل احتجاجات شديدة من فون رونشتدت ، الذي كان يحتج باسم الجنرالات القدماء . وعندما لبوا طلبه ، أراد هيملر ان يترأس اللجنة بنفسه ، ولكن وزير العدل سارع الى نجدة فون فريتش مطالبا باحالته امام محكمة عسكرية . فحاول هيدلر عندئذ الاتصال بشهود الدفاع . فوضعهم الجنرالات تحت حراسة الجنود لكي يسمحوا بحضورهم الى المحكمة وليضمنوا أمنهم . وفي المحكمة ، تراجع الشاهد الرئيسي لهمار عن اعترافاته ودفع حياته ثمناً لعمله هذا . ولكن فون فريتش بريء براءة تامة .

وفي غضون ذلك كان هتلر قد اغتنم فرصة الاحتفاظ شخصيا بالقيادة العليا للقوات المسلحة ، متذرعا بأنه لا يثق ابدا بالجنرالات . وأعطيت وزارة الحربية بصلاحيات محدودة للجنرال كيتل ، الذي كان يبدو لهتلر حقيرا بما فيه الكفاية . وقد عين الجنرال فون براوخيتش على رأس الجيش في الوقت ذاته ، مكان فون فريتش ، بشكل لم يبق فيه لفون فريتش أي منصب خالٍ له عندما أصبح بريئا من كل الاتهامات الموجهة ضده ، والخلاصة ، كانت نتيجة هذه الازمة التي اثيرت بكثير من المهارة تمهيد الطريق لهتلر الذي ضمن لنفسه الاشراف العام على الاستراتيجية ، مع تعزيزه لنفوذ هيملر وسلطته .

وزاد هتلر بالطبع من أهمية جهازه التنفيذي وهو « القيادة العامة لويرماخت » (u.k.w) عندما منح نفسه لقب قائدها العام وقائد القوات المسلحة كلها بالتالي . ومن صلاحيات هذا الجهاز حل كل المسائل السياسية والادارية المشتركة في الجيوش البرية

والبحرية والجوية . ويشتمل على فرع صغير « للدفاع الوطني » كان يهتم بالموضوعات المتعلقة بالاسلحة الثلاثة . وقد حوَّل هتلر وكيتل فيما بعد هذا التنظيم الى هيئة اركان عامة « للويهرماخت » ، وكانت تلك رغبة مشتركة لهما .

وعارضت القيادة العليا للجيش (O.K.H) أو القيادة العامة للقوات البرية) هذا المشروع بصرامة . ولقد فهم الجنرالات في الحقيقة ان هذا التنظيم محاولة لحرمانهم من كل فرصة في وراثة بعض وظائف هيئة الاركان العامة الكبرى القديمة . وتذرعوا بأن من الخطورة ربط تنظيم قديم كتنظيمهم بتنظيم جديد أكثر مما يجب ومؤلف من جماعة غير اختصاصية . وأضافوا الى اعتراضهم بأنه نظرا لان المعضلات التي تواجهها المانيا هي قارية خصوصا ، فان اتخاذ القرارات يقع في نهاية المطاف على عاتق القيادة العليا للجيش . ونجحت معارضتهم موقتا مدعومة بالقيادة العليا للبحرية ، الضعيفة الاهتمام بأن تقع تحت سلطة ضباط القوات البرية ، وباعتراضات ذات طابع شخصي اثارها وضع غورينغ بصفته قائدا للقوات الجوية . ونجم عن ذلك تجميد القرار . واحتفظت هيئة الاركان العامة للجيش بالاشراف على الاستراتيجية ، ولكن تحت قبضة هتلر . وكان امام هذا الاخير طريق طويل لا بد من عبوره قبل ان يتمكن من ارضاء طموحه في أن يلعب لعبة الاستراتيجية وان يحرك الأحجار فوق رقعة الشطرنج .



الفصل الرابع

عهد فون براوخيتش ـ هالدر

يبدو للوهلة الاولى ان اختيار رجل كوولتر فون براوخيتش خلفا لفون فريتش ، وقبول براوخيتش تسنم هذا المنصب غريبا جدا . فقد أظهر براوخيتش في الحقيقة ولاءه صراحة للنظام الجمهوري القديم واتجاهاته الليبرالية في المجالين السياسي والاقتصادي . مع استنكاره الطرائق النازية بصورة ليس فيها أي لبس . فلم تكن صلابة اليونكرز (الارستوقراطيون الالمان) ولا التعصب النازي يجذبانه ويؤثران فيه . وكان براوخيتش يعتبر عموما رجلا موهوبا باحساس عميق بالشرف ، ومتجرداً عن المطامح الشخصية .

وكان يتمتع بالاضافة الى ذلك بشعور قاس بالعدالة ، واحترام كبير للآخرين ، وهذا ما جعله يستحق ثقة استثنائية منحها له زملاؤه ومرؤوسوه . فهل كان مبهورا بالعرض الذي قدمه له هتلر في عام ١٩٣٨ او انه قبل هذا العرض لانه كان يفكر بخدمة الجيش بدخوله الى هذا الوسط ؟ وهناك تفسير آخر ، من المحتمل أن يكون أفضل التفسيرات ، ويمكن تبريره بموقف فون براوخيتش ذاته ، الذي بقي دوما على علاقات ودية مع فون فريتش بالرغم من زوال حظوة هذا الاخير ، وانتهز عدة فرص حياه فيها بعبارات لم يستسغها الزعماء النازيون . ومع هذا فان تتابع الاحداث قد برهن على ان براوخيتش تورط في منحدر زلق ، لم يستطع ان يحافظ فيه على توازنه الا بصعوبة .

ومن السهل تفسير الاسباب . فلقد كان هتلر يتسم بالحيلة والذكاء الكافيين لتقدير أهمية اختيار يوحي بثقة عامة ، حتى ولو كان ثمن هذا الاختيار افتقار الشخص الذي

انتقاه الى التعاطف مع الحزب النازي . وكان من المعروف عموما ان فون براوخيتش يتسم بفكر صلب ، لكنه يتأثر بالتقدم . ومع انه اختصاصي بالمدفعية ، الا انه كان يعي إمكانات مستقبل الدبابات بصورة أفضل من معظم الجنرالات . وكان يبدو أقل تمسكا بالتقاليد المحافظة من فون فريتش من زوايا أخرى أيضا . وكانت شعبيته لدى كل الاطراف تمثل رصيدا ثابتا ، وقادرا على ابعاد مخاوف الصراعات السرية والمناورات السياسية المماثلة للمناورات التي كانت سبب التغيرات الحديثة . وكان موقفه الذي لا يتميز بالغرور والادعاء يجعل النازيين يعتقدون بأن استخدامه أسهل من استخدام فون فريتش .

ومع ذلك ، اكتشف هتلر فورا بأن فون براوخيتش رغم دماثته لم يكن أكثر استعدادا من فون فريتش لترك السياسة تتسرب الى الجيش . وبدأ براوخيتش في تحسين وضع الجندي البسيط خلال الخدمة وأبعد الاحالة على التقاعد (المعاش) ولكنه ألح بأن يكون تنفيذ هذه التدابير مستقلا عن التنظيم النازي . وكان يشدد قبضة الانضباط في الوقت ذاته . وكان ينشط تجهيز الجيش ، مع معارضة اتجاهات الحزب النازي في اشعال صراع سابق لاوانه بواسطة سياسته الخارجية . ووجد نفسه مدعوما في هذا المجال بالجنرال بيك ، الذي كان آنئذ رئيسا لهيئة الاركان العامة . وكان بيك ، بالرغم من صفاته المميزة كرجل وجندي ، ميالا اكثر الى مجموعة « المضادين لمستقبل الدبابات » حتى ان ميله للانتقاص من النتائج التي كان بوسع السياسة الهتلرية أن تجنيها من هذه الآلات الحديثة جعلته معارضاً لتصرفات الفوهرر العدائية .

وعندما كشف هتلر في ذلك الصيف نياته ، جمع براوخيتش اقدم الجنرالات ، وقال لهم ان بيك صاغ مذكرة سنرفعها الى هتلر اذا أقرت من قبلكم خلال هذا المؤتمر . وقرأ بيك نصها . وكان بيك قد استعرض فيها ان من واجب السياسة الالمانية أن تتجنب مخاطر الحرب ، خصوصا بالنسبة « لنتيجة ضعيفة الاهمية كموضوع السوديت » . وقد الح فيها على الضعف العسكري لالمانيا وتخلفها أمام التحالف الذي قد ينتصب في

وجهها . كما برهن فيها على أنه حتى لو أن الولايات المتحدة لم تتخذ موقفا فعالا في الحرب ، فان بوسع هذا البلد تزويد خصوم المانيا بالاسلحة والتجهيزات .

ولقد قال لي فون رونشتدت وهو يروي لي حكاية المؤتمر ما يلي :

« عندما أنهى بيك قراءة المذكرة ، وقف فون براوخيتش وسأل عما اذا كان لاحد الحاضرين أي اعتراض يريد تقديمه قبل ارسالها . فلم يعترض أحد عليها ، وأرسلت الى هتلر . وكان رد فعل هتلر هو ان انفجر في ثورة من الغضب ، وطرد بيك وعين هالدر مكانه » .

وخنق هذا التدبير المعارضة في الجيش موقتا ، ولكن عندما وصلت الازمة التشيكية الى ذروتها في سبتمبر (ايلول) صرح فون براوخيتش لهتلر بأن الجيش الالماني غير مستعد للحرب ونصحه بالاعتدال في مطالبه . وكان فون براوخيتش مدعوما بقوة من هالدر الذي يتقيد بسلوك سلفه لا بالسلوك الذي كان هتلر يود فرضه عليه . واستنتج هتلر من هذا الموقف ان هيئة الضباط في المانيا ما زالت تقدم الدليل على وحدة فكرية من الصعب تمزيقها . وكان هالدر يرى الأمور السياسية بشكل واسع كما كان اكثر تفهما من بيك في مجال التقدم العسكري ، وكان يبدو مصمما على عدم توريط المانيا وربط مصيرها بمغامرات عسكرية . وكان مستعدا لان يكون أكثر حزما مع هتلر لانه يتمتع بشخصية أكثر عنادا من شخصية فون براوخيتش . وقد شرع هالدر بوضع خطة مؤامرة عسكرية ضد السياسة والنظام الهتلريين بعد أن أصبح واثقا من ان هتلر لن يمتنع عن تنفيذ نياته بنصائح التعقل التي توجه اليه .

ورغم هذا كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية آنذاك اقل استعدادا واعدادا للمجازفة بحرب من أجل تشيكوسلوفاكيا ، حتى ان هتلر رأى مطالبه حول موضوع السوديت وقد تحققت كلها في ميونيخ .

واصبح هتلر في ما بعد اكثر عنادا وتشددا، ومن الصعب التعامل معه في سكرة هذا الانتصار . فاحتل في الربيع التالي كل الارض التشيكية بضربة مباغتة ، وخرق كل

اتفاقات ميونيخ . وراح يضغط على بولونيا للحصول على عودة دانتزيغ الى المانيا - دون أن يكلف نفسه عناء التوقف أو يعطي نفسه مهلة زمنية للراحة - كما طالب بحق انشاء خط حديدي وطريق يؤدي الى بروسيا الشرقية عبر الممر البولوني في أرض تتمتع بالحصانة (Exterritorialite) . ولم يكن بوسعه أن يتصور أنه كان يدمر مظهر الاعتدال في مطالبه بطريقة صياغتها ، لانه كان عاجزا عن قبول طريقة أخرى للرؤية غير طريقته الخاصة . وعندما رفض البولونيون أخذ مطالبه بعين الاعتبار مدعومين بالمساعدة التي قدمتها الحكومة البريطانية بصورة سريعة ، استعجل اتخاذ قراراته بصورة أسرع مما خطط وتوقع وهو حانق ومقتنع بأنه جرح جرحا بليغا . وكان مستعدا للقيام بحرب اذا كانت المجازفة فيها غير خطيرة أكثر مما يجب ، مع استمرار أمله في أن يسمح له البولونيون بأن ينقذ ماء وجهه عن طريق قيامهم ببعض التنازلات .

وعندما استشار هتلر القادة العسكريين حول هذه النقطة ، قدم براوخيتش ردا أكثر نزاهة من رد كيتل . كان براوخيتش يقدر الحصول على نتيجة ملائمة « على وجه الاحتمال » اذ اقتصر عدد الخصوم على بولونيا وفرنسا ، وبريطانيا - العظمى . ولكنه ألح بشدة على ضعف فرص النجاح لدى المانيا في حرب ضد روسيا . وقد علم السيد كولوندر سفير فرنسا لدى حكومة برلين بهذه المحادثات ، ونقلها الى حكومته في بداية يونيو (حزيران) .

وقد أثارت شكوك فون براوخيتش واجاباته الفظة حول قيمة حليف كايطاليا حنق النازيين المتطرفين ، الذين كانوا قد اشتكوا من العقبات التي وضعها براوخيتش امام نشر النازية في الجيش . وربما يمكن أن يفسر هذا الموقف التأكيدات العلنية التي أدلى بها هذا الاخير متذرعا بايمانه بهتلر . وربما كان هجوم النازيين ضده هو الذي دفعه الى القاء خطاب في تانتبرغ وجه فيه بعض عبارات التهديد ضد بولونيا ، وهي عبارات بوسعنا مع ذلك أن نفسرها على انها دفاع صرف عن النفس . وبوسعنا أن ندرك بأنه لم يكن يستهدف من وراء هذه الاقوال تحقيق أي غرض . وفي الحقيقة ، كان هناك احتمال ضعيف بأن تدعم بريطانيا - العظمى وفرنسا بولونيا الى درجة قبول القتال من أجلها ،

هذا اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى وجهة النظر العسكرية ، لان الموقع الاستراتيجي لبولونيا كان مأسويـا إذا بقيت روسيا دولة محادية . وهكذا وجد هتلر نفسه منقادا الى قبول وجهة نظر براوخيتش فيما يتعلق بروسيا ، وكان مستعدا لاعادة النظر في كل سياسته السابقة للحصول على حياد هذا البلد . واتخذ هتلر بعض التدابير السريعة لعقد حلف مع روسيا عندما قبل بتحول سياسته هذه . فكم كان هناك تناقض وتباين بين قراراته السريعة والمحادثات البطيئة والمترددة التي قامت بها الحكومة البريطانية مع روسيا في ذلك الوقت !

واختارت الحكومة البريطانية القتال ، ودفعت فرنسا الى اتخاذ الموقف ذاته ، بالرغم من اعلان الحلف الروسي ـ الالماني ، محتقرة المنطق الاكثر بدائية في مجال التوقعات العسكرية . وقبل أن يتضح هذا الخطأ في الحساب ، ويقفز الى الاذهان بجلاء ، شن هتلر هجومه على بولونيا . وقد نسي براوخيتش وهالدر قلقهما باكبابهما على مطالب مهنتهما ، ولان العمليات استغرقت كل تفكيرهما .

ولقد أعد براوخيتش وهالدر الحملة بنفسيهما ، وظهرت الحملة ظافرة الى حد كبير . وكان قادة الوحدات الكبرى ، المكلفين بتأمين تنفيذها قد تلقوا حرية عمل كاملة ، وبرهنوا عن فعالية هذا التدبير بمرونة وجرأة المبادأة الجديرتين بالتقاليد القديمة . وقامت مجموعة جيوش رونشتدت بالدور الرئيسي في الجنوب : فبعد أن خرق رونشتدت الجبهة البولونية أرسل الجيش العاشر ، الذي يشتمل على القسم الاكبر من الفرق الآلية ، في حركة التفافية موجهة الى الشمال نحو وارسو بمهمة قطع مؤخرة القسم الاكبر من الجيوش البولونية عن وسطها أثناء عملية الالتفاف . وكانت هذه الضربة الجريئة ، والحاسمة في انهاء الحرب ، اكثر روعة أيضا لان القيادة العامة للقوات المسلحة الالمانية (O.K.W.) أمرت بارسال الجيش العاشر فورا الى ما وراء الفستول ، معتقدة بأن البولونيين قد تراجعوا الى الجنوب الشرقي . ولكن رونشتدت ورئيس هيئة أركانه مانشتاين قدرا ان القسم الاكبر من الجيش البولوني ما زال موجودا في غرب وارسو وان من الممكن حصره في أقرب ضفة من الفستول . وبرّرا نجاحهما تبريراً تاماً مدى حرية العمل

المتروكة للقيادة الميدانية . وقد وقعت نفس الحالة الحرجة خلال الحملة التالية ، بيد ان هتلر فرض قراره الخاص وتحمل نتائجه المشؤومة .

ومع هذا كان هتلر المخمور بانتصاره في بولونيا يخشى الاحداث التي يمكن أن تندلع في الشرق ، اذا لم يضمن لنفسه السلم في الغرب بسرعة . وقد جعله هذا المزيج من النشوة والخوف أكثر عنادا أيضا ، ودفعه الى القيام بخطوة أخرى .

ان الانتصار في بولونيا لم يفقد فون براوخيتش وهالدر صوابهما . وعندما أصبح من الممكن بالنسبة اليهما تكوين فكرة واضحة عن الموقف ، رأيا بوضوح أكبر الاثارة المثيرة للقلق لهذا الانتصار ، وخطورة التورط الى مدى أبعد . وعندما انتهت الحملة ، كررا محاولاتهما لتهدئة الجو ، حتى أن تفكيرهما ذهب الى حد امكانية التمرد ، لاحباط مخططات هتلر ، الذي كان يفكر بأن الهجوم على الجبهة الغربية سيضطر الحلفاء الى طلب السلم . ولكن الامر كان بحاجة الى عدة شهور من العطالة لايجاد بعض الشروط الملائمة للسلم . وكانت النتيجة الطبيعية لتهديدات الحلفاء في « البدء بالحرب » والتي وجهها وينستون تشرشل علنا في خطبه الاذاعية ، هي دفع هتلر الى استباقهم في شن العدوان . وفقد هتلر بالتدريج قدرته على التحكم بالظروف . ولم يعد يتحكم بالاحداث سوى الحرب ذاتها ، بسرعتها المكتسبة .

وكان غزو النرويج في ابريل (نيسان) ١٩٤٠ أول عملية غير محضرة لهتلر . وقد اظهرت محاكمات نورمبرغ بوضوح بأنه لم يكن راغبا فيها بل اضطر لخوضها بدافع الخوف وتحت الضغط المزدوج للاقناع والتحريض . وبالرغم من سهولة هذه الحملة فان هتلر لم يعد بعدها سيد مصيره . وقد جاء عامل الاقناع من فيدكون كيسلينغ . فقد كان هذا النرويجي الموالي للنازيين يؤكد بأن من المحتمل أن يحتل البريطانيون الشواطىء النرويجية بموافقة حكومة بلاده أو بدون موافقتها . وعززت حجته هذه قلق القيادة العليا للبحرية الالمانية التي رأت أن النتائج الخطرة لمثل هذا الاحتمال ستكون : تعزيز الحصار البريطاني ، واعاقة تحركات الغواصات الالمانية . وأحس هتلر بازدياد مخاوفه عندما قدم

البريطانيون والفرنسيون لفنلندا ذاتها مساعدة في بداية حربها ضد روسيا في نوفمبر (تشرين الثاني) . ورأى ذكاؤه النفاذ في هذا الاقتراح تحقيق نيته المبيتة لضمان الاشراف الاستراتيجي على شبه جزيرة اسكاندينافيا . ورغم هذا كان هتلر يحس بأن من مصلحة المانيا الاحتفاظ بحياد النرويج . وكان يريد تجنب توسيع مسرح الحرب . لذا نراه يقرر بعد اجتماعه بكيسلينغ في منتصف ديسمبر (كانون الاول) الانتظار ليرى ما اذا كان بكيسلينغ سينجح في انقلابه السياسي الذي كان يأمل وقوعه في النرويج .

وفي يناير (كانون الثاني) زاد التوتر بعد النداء المؤثر الذي أذاعه تشرشل ووجهه الى الدول المحايدة ، مطالبا إياها الاشتراك في المعركة ضد هتلر والانضمام الى صفوف الحلفاء . ومن ناحية أخرى ، تضاعفت دلائل الحركة وأماراتها لدى الحلفاء . وبتاريخ ١٨ فبراير (شباط) مرت المدمرة البريطانيا كوساك في المياه النرويجية وفتشت سفينة النقل الالمانية آلتمارك لتخليص بعض البحارة البريطانيين المأسورين فيها . ولم تثر هذه العملية - التي نفذت بأوامر تشرشل الذي كان آنذاك وزيراً للبحرية البريطانية - حنق هتلر فحسب ، بل انها جعلته يستنتج منها ان تشرشل اذا كان مستعدا لخرق حياد النرويج بغرض انقاذ مجموعة من الاسرى ، فانه سيكون اكثر تصميما أيضا على خرق حيادها ليقطع تموين المانيا بالحديد من نارفيك ، وهو امر حيوي بالنسبة للصناعة الالمانية .

وقال لي فون رونشتدت في هذا الصدد في احدى محادثاتنا : « كانت خطب تشرشل في الاذاعة تثير غيظ هتلر وغضبه ، وتخرجه عن طوره ، كما فعلت فيما بعد خطب روزفلت . وكان هتلر يكرر بصورة دائمة في المجلس الاعلى للحرب ، وخصوصا عندما كان يتحدث عن النرويج ، انه اذا لم يكن البادىء بالضرب ، فان البريطانيين سيبدأون ويحتلون البلدان المحايدة ». وقد أكد الاميرال فوس الذي كان يحضر هذه الجلسات ، صحة رواية فون رونشتدت . وأضاف فوس بعد أن قدم سند تجربته في القيادة العليا للبحرية قائلا ما يلي : « كان للهجوم البريطاني على السفينة الالمانية آلتمارك أثر حاسم في هتلر ، وكان الشرارة التي أشعلت الهجوم على النرويج » .

وكلف هتلر فورا بعد هذه الاحداث الجنرال فون فالكنهورست باعداد العمليات لاحتلال الموانىء النرويجية . والح الاميرال رايدر القائد العام للبحرية خلال أحد المؤتمرات الذي عقد بتاريخ ٢٣ فبراير (شباط) على واقع ان « المحافظة على حياد النرويج هو أفضل حل لضمان استمرار تدفق فلزات الحديد وتحسين الموقف العام » . ولكنه أضاف قائلا ما يلي : « وقد قلنا ان احتلال انكلترا للنرويج أمر لا يمكن أن نقبله . فاحتلالها سيشكل ضربة قاتلة لنا » .

وأثبتت بعض التقارير الصادرة عن النرويج في تلك الفترة أن حزب كيسلينغ بدأ يفقد شعبيته ويخسر نفوذه ، في حين أشارت تقارير المعلومات الصادرة عن انكلترا الى وجود استعدادات للقيام بعملية في المنطقة النرويجية ، تدل عليها تحشدات القطعات وعمليات النقل . وفي الاول من مارس (آذار) أمر هتلر بالحملة النرويجية . وبتاريخ ٩ قدمت القيادة العليا للبحرية خططها ، مستندة الى بعض المعلومات التي كانت تشير الى قرب وقوع انزال بريطاني ، وألحت على سرعة القيام بعمل ما . وكانت مخاوفها كبيرة . ومع هذا ، وبما ان انهاء تحضيرات الحملة كان بحاجة لوقت كبير ، فقد اضطر الالمان الى الاكتفاء بتكليف بعض الغواصات بمراقبة وصول سفن النقل البريطانية عند مدخل الموانىء .

بيد أن مشروعات الحلفاء اضطربت موقتا بسبب استسلام فنلندا بتاريخ ١٣ مارس (آذار) . واضاع الحلفاء المبرر الذي كانوا يعتمدون عليه للانزال في نارفيك . وعندما اجتمع الاميرال رايدر مع هتلر بتاريخ ٢٦ أعلمه أنه لا يتوقع حصول انزال بريطاني قريب في النرويج ، ولكنه اكد بأنه سيكون هناك فورا مبرر جديد ومحاولة جديدة لقطع نقل فلزات الحديد . « ستجد المانيا نفسها عاجلا أم آجلا مضطرة للقيام بعملية فيسروبونغ (يعني هذا التعبير في الرموز السرية عملية احتلال النرويج) » . وكان من المفضل اذن العمل دون تأخير ، خوفا من سبق الحلفاء . وأعطى هتلر موافقته وحدد التاريخ . وبما ان التحضيرات قد قدمت بما فيه الكفاية ، فقد كان يستشعر الآن بحاجة

لا تقاوم للعمل . وفي الفترة ذاتها تقريبا ، قرر الحلفاء ممارسة ضغط جديد على حكومتي النرويج والسويد . وبتاريخ ٥ ابريل (نيسان) كان من المفترض أن يزرعوا حزاما من الالغام في المياه النرويجية . وبتاريخ ٨ كان من الواجب أن تنطلق أول قافلة للقطعات باتجاه نارفيك . ولكن زرع الالغام تأخر الى ليلة ٧ وتحركت فيما بعد ظهر اليوم التالي السفن الالمانية المحملة بقطعات الغزو .

وفي فجر ٩ ابريل (نيسان) نزلت بعض المفارز الصغيرة من القطعات الالمانية المنقولة بالسفن الحربية ، في الموانىء الرئيسة النرويجية بدءا من اوسلو الى نارفيك ، واستولت عليها دون صعوبة كبيرة . ولوحظ فيما بعد أن مشروعات الحلفاء تتجاوز وسائطهم بكثير . وترك اخفاق هجماتهم المضادة ، التي لم تحضر بصورة كافية ، أثراً كبيراً اذ سمح لالمانيا بأن تحتل كل النرويج ، والدانمارك . وتحققت هذه الحملة الالمانية دون اخلاء الجبهة الغربية أو سحب أية قوات منها . وفوق ذلك تمت العملية تحت اشراف القيادة العامة للقوات المسلحة (.O.K.W) لا تحت اشراف قيادة الجيش (القيادة العامة للقوات البرية.O.K.H) .

وقد سردت ولادة خطة غزو الغرب في مكان آخر من هذا الكتاب اذ ان تعقيدها لا يسمح لعرضها باختصار . وفي الوقت الحاضر ، من الافضل أن نعيد هنا رسم الخطوط الكبرى ونشير الى العوامل الاساسية التي أدت الى النهاية . وسيكون هذا بمثابة لوحة خلفية لنا لدراسة لعبة التأثيرات الشخصية والصراعات الداخلية بتفصيل اكبر .

كان هذا الهجوم الصاعق ، الذي اعتبره العالم كله كنموذج فريد من نوعه ، رائعا بمهارته في حقيقة الامر . وكان السبب الاساسي لنجاحه هو سذاجة الحلفاء الذين تركوا جناحهم الايسر ينجذب الى أقصى حد ممكن في بلجيكا وهولندا ، هذا الجناح المؤلف من أفضل العناصر الآلية . وبفضل هذه المناورة فقط ، التي فككت الجناح الايسر من جيش الحلفاء ، تمكنت فرق البانزر من خرق المركز الرئيسي للحلفاء بحركة سريعة وعميقة سمحت بالحصول على نتيجة حاسمة . وبالاضافة الى هذا ، كانت الفرق المدرعة تسير

بأقصى سرعتها باتجاه المانش ، وهي تحفر جيبا في جبهة الحلفاء ، على حين كانت القطعات الآلية تتبعها عن قرب لتشكيل حزام دفاعي على طول جوانب الجيب . ويضيف هذا الاسلوب الميزة المستقاة من الاستخدام الضيق الى أدنى حد ممكن لقوات الانقضاض والعون الذي يقدمه الدفاع التكتيكي (التعبوي) للعمليات الهجومية . لانه لو أن الحلفاء أرادوا جمع أجزاء جيشهم والفرار من الكماشة ، لوجب عليهم في الوقت الذي كانوا فيه في وضع التخلف في القوة ، أن يأخذوا مبادأة الهجوم . ومثل هذه المهارة هي زبدة الاستراتيجية وجوهرها .

وانتهى مصير الجناح الايسر للحلفاء فورا ، لانه كان عاجزا عن فك القبضة المعادية . ولم ينجح في الخلاص سوى الجزء الذي تم اجلاؤه بالبحر عن طريق دنكرك ؛ من قبضة العدو ، بعد أن تخلى عن كل عتاده الذي خلفه وراءه . ولا يدين هذا الجزء من قوات الحلفاء بسلامته الا الى الامر الذي أعطاه هتلر لايقاف التقدم الصاعق لقوات البانزر عند مشارف دنكرك . وسنتعرض الى دوافع هذا الامر فيما بعد . ولم يكن خطأ هتلر وضلاله في هذا المجال آثار فورية . واصبح ما تبقى من جيش الحلفاء بعد تدمير جناحه الايسر ضعيفا بشكل لا يسمح له بالدفاع عن جبهة طويلة جداً في فرنسا ضد هجوم قوي ، لذا فقد اصبح انهيارها متوقعا منطقيا قبل قيام أي هجوم الماني . في عام ١٩١٤ ، حاول الالمان دفع الجيوش المعادية لاخلال توازنها وقلبها وتطويقها في شبكة واسعة وكبيرة ، بيد ان هذه المحاولة تجاوزت قوة وسائطهم . وفي عام ١٩٤٠ ، ركزت القيادة الالمانية جهودها على جزء من جيش الحلفاء ونجحت في عزله بالالتفاف عليه وسمح هذا الاسلوب في القضم ، في نهاية المطاف ، بابتلاع الجيش كله .

وكانت المسألة التي ينبغي حلها ، مع أنها لم تجد الحل في الماضي عند نابليون ، قد بقيت غير قابلة للحل بالنسبة للقيادة الالمانية ، وهذا والمسألة هي : لا يمكن التغلب على المقاومة المستميتة للجزيرة البريطانية الا بغزو أرضها ، والا فان هذه الارض تهدد بأن تبقى « شوكة في قدم » الفاتحين بصورة مستمرة . وكان اعداد القوات المسلحة الالمانية

يتماشى مع القيام بمعارك على القارة، ويتلاءم مع سير الاحداث بوتيرة أقل سرعة. وقد وجدت القوات المسلحة الالمانية نفسها بعد أن انقادت في عمليات تتجاوز توقعاتها ، وبعد النجاح الذي أحرزته ، تواجه معضلات غير متوقعة ، متعلقة بغزو على نطاق واسع فيما وراء البحار ، يحتاج الى تقنيات بحرية وعتاد ضروري لمثل هذه العملية .

وعندما واجه هتلر هذا التعقيد ، اضطر الى التوقف رغم النجاحات الصاعقة التي أحرزتها الحملة القارية واستسلم لاتجاه الانجيل النازي : السير على آثار نابليون وتكرار غزو روسيا . وحاول فون براوخيتش وهالدر التخفيف من حدة تصميمه الطموح الذي يستهدف النجاح في احتلال البلد الذي أخفق نابليون في غزوه . ولكن المهمة كانت أصعب بالنسبة اليهما لان نجاحاتهما كانت كبيرة جدا . وقد قدرا ، وهما لا يؤمنان كما يؤمن النازيون بسهولة احتلال روسيا . ان قوات هذه الدولة قد بلغت حدود قوات دولة كبرى ، وكانا ميالين الى تفضيل الهجوم عليها دون اتاحة اي وقت لها لتنمية قوتها وتطويرها .

ووضعت خطتهما طبقا لنفس المبادىء التي طبقت في عام ١٩٤٠ : القيام بخرق في النقاط الضعيفة من الترتيب الدفاعي ، وعزل عناصر هامة بهذا الشكل من الجيش الاحمر واجبارها فيما بعد على محاولة القيام بهجمات للتخلص من الشبكة التي احتوتها . وكانا يرغبان بتدمير القوات الروسية دون الابتعاد عن حدود بلادهما ، وأرادا بذلك تجنب الانجذاب - مهما كان الثمن - الى داخل روسيا لمطاردة جيش ما زال قويا ولو انه يتراجع . وقد ساعدت الظروف على نجاح الجزء الاول من هذا المخطط ، لان الجبهة الروسية الهائلة ، والاكثر امتدادا من الجبهة الغربية تتيح امكانات كبرى لعمليات الاختراق المرسومة . بيد أن مؤخرات البلاد من ناحية أخرى لا تتضمن أي حاجز طبيعي ، مماثل للمانش ، حيث يمكن للعدو أن يركن اليه بعد خرق الجبهة .

وأتاح تنفيذ هذه الخطة للالمان - الذين خدمتهم الثقة المبالغ فيها للزعماء الروس بقواتهم الخاصة - سلسلة من الانتصارات الكبرى المجزأة التي أوصلتهم الى حافة

الأنتصار الكامل . وعزلت الاختراقات العميقة للمدرعات عناصر هامة من الجيش الروسي كانت تضم نسبة مقلقة من أفضل القطعات تدريبا وتجهيزا . ولكن كان للميزة الناجمة عن طول الجبهة ، في الميزان الالماني ، وزن أقل من المحذور الذي يعزى الى عمق البلاد وامتداد هذا العمق اكثر مما ينبغي ، والذي يسمح للروس بالانسحاب لتجنب الابادة . وكلما كانت الحملة تحرز مزيدا من التقدم داخل الارض الروسية كان هذا المحذور يبرز أكثر فأكثر .

وظهر عندئذ عائق آخر هو عدد المدرعات غير الكافي والضروري لنجاح الهجمات . ففي عام ١٩٤٠ ، حسمت فرق البانزر العشر التي استخدمت لفتح الطريق لكتلة مؤلفة من ١٥٠ فرقة عادية نشرها الالمان ، حسمت هذه الفرق العشر الانتصار بهجومها فعلا . وقد بلغ عدد فرق البانزر المستخدمة في عام ١٩٤١ لغزو روسيا ٢١ فرقة . ولهذا الغرض ، قلص عدد دبابات كل فرقة منها الى النصف . وقد أتاحت هذه الزيادة في عدد الفرق سهولة أكبر في المناورة ، ذات قيمة كبرى على جبهة بمثل هذا الاتساع ، في حين كان تقلص قوة كل فرقة منها غير مؤثر في بداية الغزو على الاقل . ورحب القادة التقليديون بزيادة تعداد المشاه الذي نجم عن ذلك بالنسبة لمجموع الفرق ، وتلقوه بالاستحسان ، لانه كان يسمح بوجود نسبة أعلى من القطعات لاحتلال الاراضي المكتسحة . ولكنهم استشعروا تقلص القوة جدياً فيما بعد ، وخصوصا عندما واجه الالمان على مشارف المدن دفاعا أكثر تركيزاً .

وعلى هذه « الصخور » تحطم النصر الذي توقعه الالمان . وكلما كانوا يقتربون من مثل هذه الاهداف ، كان اتجاه هجماتهم يتضح أكثر فأكثر ويجعل مناورات الالمان لمباغتة الروس صعبة وممتنعة . وامام هذه الفرائس المغرية والجذابة تخلى هتلر عن الغريزة التي خدمته مدة طويلة للشروع بحركات استراتيجية في التقرب غير المباشر . واصبحت موسكو بالنسبة اليه مغناطيسا قاتلا كما كانت بالنسبة لنابليون .

وعندما أخطأت الجيوش الالمانية هدفها وهو الحصول على انتصار حاسم في غرب

الدينبير ، بتدمير الجيوش الروسية قبل أن تتمكن من عبور النهر ، بقي هتلر مترددا في بادىء الأمر ، ثم زج بجيوشه موقتا باتجاه الجنوب في أوكرانيا . وبعد تطويق رائع لقوات الخصم في كييف ، استدار الى هدفه الاول . وقد ق ، بالرغم من اقتراب الخريف متابعة التقدم باتجاه موسكو ، مع المحافظة على تقدمه في الجنوب عبر أوكرانيا باتجاه القفقاس . وفي بداية اكتوبر (تشرين الاول) ، وضع كل نفوذه وهيبته في المعركة بضربة حظ يائسة وأعلن بداية الهجوم النهائي ضد موسكو .

كان هذا الهجوم في بداية الامر نجاحا رائعا ، وأسر الالمان بقيادة فون بوخ ٦٠,٠٠٠ روسي في شبكة واسعة ألقوا بها حول فياسما . ولم ينته التطويق الا في نهاية اكتوبر (تشرين الاول) في حين كان فصل الشتاء قد حل . وكانت النتيجة أن تورط المنتصرون في مسيرتهم الى موسكو وخسروا بهذا الشكل ثمار انتصارهم .

وعندما طالب هتلر ببذل جهود اضافية رد فون براوخيتش وهالدر بالاقتراح التالي : ان تسحب الجيوش طلائعها وأن تتمركز في فصل الشتاء على خط محصن ، يستطيع الجنود أن يجدوا فيه ملاذا من الانواء الجوية ، ومن العدو في الوقت ذاته . ولكن هتلر لم يشأ سماع اي شيء عن التعقل والحذر . وقرر القيام بجهد جديد وهام جدا يبذل في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) . بيد أن وضوح الهدف الواجب بلوغه ، والذي ستتلاقى عنده كل القوات الالمانية ، ساعد الروس على حل مسألة حشد القوات الاحتياطية المستعدة لايقاف أية حركة مثيرة للقلق . ولم يبق فون براوخيتش مسؤولا الا اسميا عن التطور اللاحق للهجوم الذي بدأ شنه بقيادة هتلر . واخفق هذا الهجوم في بداية ديسمبر (كانون الاول) ، وأخلى الالمان في الوقت ذاته روستوف في الجنوب . عندئذ أعلن هتلر رسميا عزل فون براوخيتش من وظيفته . وقرر منذ ذلك الوقت « اتباع الهاماته الشخصية » . وتسنم مقاليد القيادة للجيش الالماني بالاضافة الى القيادة العليا لكل القوات المسلحة ، تلك القيادة التي تسنمها منذ طرد بلومبرغ في عام ١٩٣٨ .

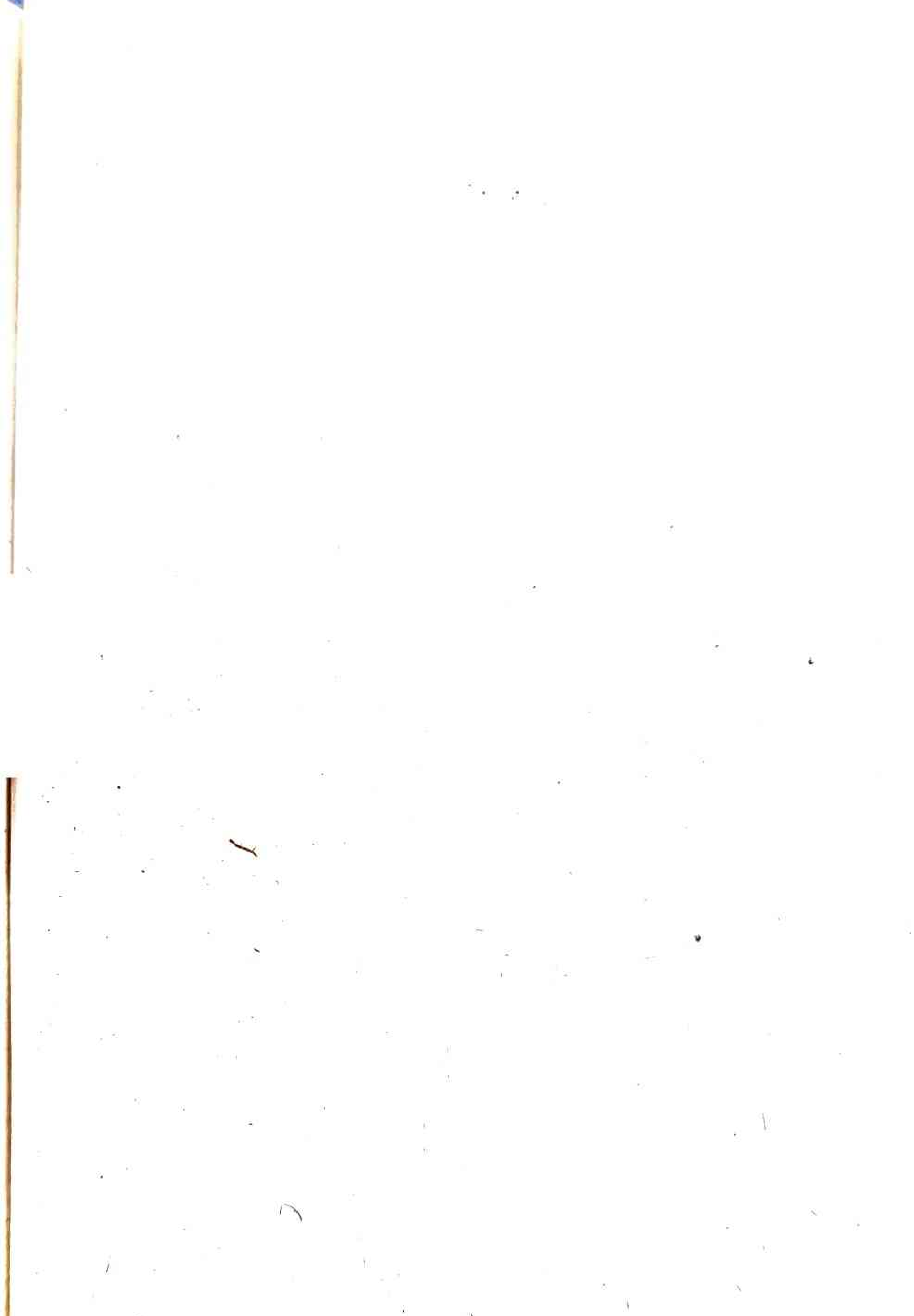
كان فون براوخيتش محظوظا جدا باختفائه من ساحة العمليات في الوقت الملائم .

وفي الحقيقة ، بقيت خدمته العسكرية مطبوعة بأروع انتصارات التاريخ الحديث ، وذبلت فقط باخفاق توقعه تماماً وحذر رئيسه منه أيضا . وكان خلع براوخيتش يعني الاخفاق النهائي لادعاءات الجنرالات وتبجحهم في حسم مسائل الاستراتيجية والسياسة العسكرية . ومنذ ذلك الوقت أخذ « العريف البوهيمي » يفرض قراراته على الجنرالات في مجال عملهم الخاص . وبقيت امكاناتهم مقتصرة على اعطاء النصائح أو تقديم الاحتجاجات . ولكن المنفذين المشاركين لا يقومون عادة بعمل جيد .

وقد وصف ديتمار هذا التحول في أحد أحاديثنا قائلا : « كانت حملات بولونيا ، وفرنسا ، والبلقان ، والمرحلة الاولى من العمليات في روسيا تقاد من قبل القيادة العامة للجيش والقوات البرية (.O.K.H) . ولم تتدخل القيادة العليا للقوات المسلحة (.O.K.W) فيها كثيرا . وكانت معركة كييف أول مناسبة لهتلر ليتولى زمام الامور بيديه . وبرر تدخله بأصراره على الضرورة المطلقة لانهاء الحملة الروسية قبل الشتاء . ومنذ ذلك الوقت ، تزايد تحكم القيادة العليا للقوات المسلحة (.O.K.W) - أي هتلر - وسيطرت على القيادة العامة للقوات البرية والجيش (.O.K.H) » .

وتابع ديتمار حديثه موضحا لي اثر قرار هام آخر : « أوصى هتلر بأن تقتصر صلاحيات القيادة العامة للقوات البرية والجيش (.O.K.H) على الجبهة الروسية ، وان تتولى القيادة العليا للقوات المسلحة (.O.K.W) ادارة كل المسارح الحربية الاخرى . وكنتيجة لهذا ، أصبح من المستحيل على القيادة العامة للقوات البرية (.O.K.H) أن تُكوّنَ فكرة عامة عن العمليات . ووضعها هذا القيد في وضع متخلف عندما كان الامر يحتاج الى مناقشة بعض الاخطاء المرتكبة في الاستراتيجية أو الاشارة اليها . وكان فصل الصلاحيات والسلطات بين القيادة العليا للقوات المسلحة والقيادة العليا للقوات البرية يشكل ضعفا خطيرا في التنظيم الالماني » . وقد سمعت كثيرا من الاقوال من هالدر عن النتائج التي نجمت عن هذا الفصل في السلطات . فقلا كان يصف هتلر بأنه شخص يؤمن بالمعجزات ، اذ كان لا يتقيد بقواعد الاستراتيجية بل أنه كان يهملها تماما .

« كان هتلر يقول ويؤمن بأن العقل والمعارف كميات يمكن اهمالها . والمهم هو ارادة الانتصار والمتابعة المستميتة للهدف فقط . ويأخذ البحث الصوفي معطيات الزمان والمجال والحساب الدقيق للمقارنة بين قواتنا الخاصة وقوات العدو بعين الاعتبار . وكانت كل حرية للعمل مستبعدة . وكان أرفع القادة مرتبة خاضعين هم أنفسهم لوصاية لا تحتمل » .



الفصل الخامس

روميل ، بطل الشمس

طغى اسم ايرفين روميل اعتبارا من عام ١٩٤١ على اسماء كل الجنرالات الآخرين . وكانت بداياته العسكرية من المع البدايات : فمن عقيد ، رفع الى فيلد مارشال . وكان روميل « خارجياً » (oursider)في كلا معنيي هذه الكلمة : فلم يكن يحقق الشروط المطلوبة لاحتلال مركز عال في هيئة الاركان العامة ، وكان نشاطه مقتصرا لمدة طويلة على مسرح عمليات خارج اوروبا .

ولم يحصل على مجده بنفسه فحسب ، بل ساعده هتلر في الحصول عليه بمحض ارادته أيضا وبحساباته . وكان هتلر يعرف بأن الجماهير بحاجة في زمن الحرب الى التعلق بوجوه عسكرية تتمتع بالهيبة . وقرر اختيار وجهين منها (وجهين فقط) يستطيع ان يحولها الى بطلين شعبيين دون أن يؤثر ذلك في شعبيته : « بطل في بلاد الشمس ، وبطل في بلاد الثلج » . وأصبح روميل في افريقيا بطل الشمس ، وديتل في فنلندا بطل الثلج .

وكانت منطقة عمل الاثنين منطقتين ثانويتين . وكان بوسع هتلر أن يحتفظ بوسط المسرح وصفوف الاضواء الامامية . وكان الاثنان مقاتلين شديدي البأس ، تسمح ميزاتهما بالتفاؤل في تحقيق نجاحات محلية ، دون أن يكونا في المستوى الفكري الذي يجعلهما منافسين لهتلر في الادارة الاستراتيجية العليا للعمليات . وقد برهن كلاهما على انهما اداتين وفيتين لهتلر . وفي نهاية المطاف حقق روميل اكثر من ديتل انتصارات باهرة بررت اختياره لتلك البطولة ، ولكنه بالمقابل لم يكن يستحق ثقة هتلر في ولائه له .

وعندما رأى روميل ان حياة هتلر غير متطابقة مع حياة المانيا ، وقف الى جانب الوطن ، ضد الرجل الذي حماه وأوكل اليه هذه المهمة .

حقا ان روميل يدين بالكثير للحظوة التي منحه اياها هتلر . ويجب ان نضيف لمصلحته بأنه كان يستحق هذه الحظوة نظرا لما يتمتع به من شخصية قوية ونشيطة، جذبت اليه فيما بعد تقدير خصومه البريطانيين ، حتى ان مجده تجاوز الى حد بعيد ما كان بوسع هتلر أن يتوقعه له .

لقد برز روميل ، خصوصا ، كضابط صغير خلال الحرب العالمية الاولى وتلقى أعلى وسام « استحقاق » الماني بعد هجوم كابوريتو ضد الايطاليين في عام ١٩١٧ . ولكن معارفه المهنية لم تكن تبدو متناسبة مع شجاعته ، ولم يستلم سوى منصب تافه في جيش ما بعد الحرب . ولم تكن هناك أية فكرة لانتقائه بين مجموعة هيئة الاركان العامة المقبلة . وعندما اصبح روميل مشهورا ، اخترعت الدعاية النازية اسطورة قيادته لبعض قطعات الصدام خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ، وذلك لربط مجده بمجد الحزب .

وبدأ الحظ يتبسم لروميل في اليوم الذي استلم فيه النازيون السلطة في عام ١٩٣٣ ، وعين مدربا عسكريا لفصائل الانقضاض التابعة للحزب . وكان يعرف كيف يحاضر بصورة حية ومفيدة . وقد ساعده على ذلك انه تمكن من توسيع أفقه بدراسة « العلم » الجديد الذي يسمى « الجيو - بوليتيك » كتلميذ للاستاذ هانشوفر . وأصبح فيما بعد مدربا في مدرسة المشاة بدرسد ، ثم أصبح مدربا في مدرسة « فاينر نوشتادت » ، وهي مدرسة أحدث . وقد التقى به هتلر في احدى المرات ، واستمتع بنقاش معه حول الاساليب العسكرية الجديدة ، وأعجب بابداعه ، الذي وجده متجددا ومنعشا . وعندما نشبت الحرب ، عين قائدا لمقر القيادة الخاصة بالفوهرر ، الامر الذي أتاح له فرصا ملائمة . وبعد الحملة البولونية ، طلب روميل من هتلر استلام قيادة من القيادات ، فحصل منه على قرار بتعيينه قائدا لاحدى الفرق المدرعة . كان هذا الطلب دليلا مميزا للروح الانتهازية لروميل ، وبراعته في استغلال الفرص . وفي الحقيقة ، كان

اقتناعه بتفوق المشاة قبل عام ١٩٣٩ قويا جدا ، حتى انه كان معارضا كل المعارضة لظهور الدبابات . ولاح شعاع النور الذي بدد له حلكة الظلام على طريق وارسو وكان سريعا جدا « في الانقياد لبريقه » .

وعين قائدا لفرقة البانزر السابعة ، وقادها في الهجوم على الغرب ، حيث مثّلت دورا بارزا في عملية اختراق الموز والانقضاض باتجاه المانش . ثم عبرت هذه الفرقة الجبهة الفرنسية على السوم ، بين آبفيل واميان ، وقادت الاندفاع الى السين ، بقرب روان . وقد زُيّنَ هذا الانتصار المجيد فيما بعد بكل بريق الدعاية ، ولقبت فرقة روميل باسم « الفرقة الشبح » استنادا الى ماضيها .

وفي بداية عام ١٩٤١ ، عندما قرر هتلر ارسال فيلق غزو مدرع وآلي لمساعدة حلفائه في غزو مصر ، عَيَّن روميل على رأس « الجيش الافريقي » . وعند وصوله الى طرابلس ، كان الجيش الايطالي المهزوم قد طرد الى ما وراء الحدود المصرية - الليبية . ولكن روميل لم يتزعزع وينهار بسبب هذا الموقف المؤلم . واعتمد روميل على قلة عدد الجيش البريطاني الظافر ، وافترض بأنه وصل الى حد الانهاك ، فقذف ضده فورا بمفرزة من جيشه للهجوم ، ومع انه لم يكن ضليعا في استخدام الدبابات ، الا انه كان يملك حسا مرهفا بالقدرة على الحركة ، وغريزة المباغتة ، فانقض على البريطانيين المنتشرين والمشتتين الذين كانت معظم دباباتهم مجمدة بسبب بعض الاعطال . وأضيفت سرعة عمله واستخدام سحب الغبار الى نجاح الهجوم . وطُرِدَ البريطانيون من برقة وقذف بهم الي ما وراء الحدود المصرية .

وخلال الشهور الثمانية عشرة المقبلة اخذت سمعة روميل تنمو وتزدهر ، بفضل الطريقة التي كان يحبط بها سلسلة الهجمات البريطانية ، وخصوصا بفضل الردود الصاعقة التي كانت تكذب في كل مرة البيانات الانكليزيةالسابقة لاوانها والتي تعلن عن تدميره . وتوصل جنود قطعات الجيش الثامن البريطاني الى تقدير روميل واحترامه اكثر من تقدير واحترام قادتهم . وكان ظهوره كشيطان مفاجىء يسليهم الى حد كبير ، حتى ان اعجابهم

به قد امتزج بنوع من المودة . وبلغ روميل ذروة مجده في عام ١٩٤٢ عندما مزق الجيش الثامن بين غزاله وطبرق ، وطارد أجزاءه المتراجعة عبر الصحـراء ، الى مشـارف دلتـا النيل .

وتدخل الجنرال اوكينلك القائد العام البريطاني للشرق الاوسط ، في تلك اللحظة الحرجة ، وتسنم قيادة بقايا الجيش الثامن واعاد تجميع القطعـات المنهـارة معنـويا لكي تقاوم ، مهما كان الثمن ، في موقـع العلمـين . وصـدّت هذه البقـايا قطعـات روميل المتعبة ، والتي كانت تفتقر الى التموين بعد قيامها بمطاردة طويلة ، وبمحاولتين للهجوم على العلمين . ووجهت هذه الهزيمة ضربة قاتلة لمشروعات المهاجم .

وأبدى رومل قناعته بامكانية نجاح محاولته الثالثة رغم أنه كان يستشعر الامل وهو يتخلى عنه ، وأضاع وقتا ثمينا بغية اعادة امداداته واستغل البريطانيون هذا الوقـت في تلقي النجدات من انكلتـرا وتبـديل القيادات . وكان تشرشـل يرغـب بانتقـال الجيش البريطاني الى الهجوم عند وصول النجدات . بيد ان اوكينلك الذي كان اكثر منه حذرا ، نصح بانتظار تكيف الجنود مع الحياة في الصحراء . ثم استبدل اوكينلك فيما بعد بالكسندر كقائد عام ، وتولى مونتغومـري قيادة الجيش الثامـن . وبـدأ روميل بالهجـوم في نهـاية أغسطـس (آب) فصُدَّ من جديد ورُدَّ على أعقابه . وغدت المبادأة بين يدي خصمه .

وشن مونتغومري بعد استراحة طويلة مخصصة لاستكمال الاستعدادات ـ وهي استراحة اطول من الاستراحة التي طلبها اوكينلك ـ هجوما في الاسبوع الاخير من اكتوبر (تشرين الاول) ، وهو ضامن لتفوق هائل في الطيران والدبابـات والمدفعية . وكانـت المعـركة شرسة حتى في هذه الشروط ، ودامت اسبوعا كاملا ، لان كل مناورة التفاف حول العدو من الاجنـاب كانـت مستحيلـة . وكان اختفـاء ناقـلات البتـرول المخصصـة للقـوات الالمانية ، في البحر الابيض المتوسط ، يزيد دقة وضع هذه القـوات المنتشرة على جبهـة واسعة . وقد سبب هذا التدني والتخلف في القوات انهيار العناصر الامامية . ومنذ ذلك

الوقت كان الالمان عاجزين عن المقاومة الجدية قبل أن ينسحبوا الى الطرف الغربي من ليبيا ، على بعد ١٦٠٠ كم الى الخلف .

وقد تلقى روميل شخصيا ضربة رهيبة بعد اخفاق هجماته التي قام بها في شهر اغسطس (آب) . وزعزعته خيبة الامل بصورة عميقة جدا حتى قلص وهن عزيمته مقاومته البدنية . واضطر الى أخذ إجازة مرضية قضاها في فيينا ليعتني بجروح أصيب بها من جراء الاقامة في الصحراء . وعندما علم بهجوم مونتغومري ألح على العودة فوراً الى افريقيا بالطائرة ، دون أن يستمع الى ارشادات الاطباء . ولكن صحته لم تكن قد تحسنت بعد بما فيه الكفاية لكي يظهر في الشهور التالية ، على مستوى سمعته السابقة . وقاد روميل بمهارة كبيرة الانسحاب الطويل الذي نجح في تجنيبه كل محاولات تطويق مونتغومري . ولكنه بالمقابل لم يستسنح الفرص لتوجيه ضربات ايقاف للعدو . وبالاضافة الى هذا ينبغي ان نعزو الى انهياره البدني الخطيئة الكبرى التي ارتكبها في معركة ماريت ، تلك المعركة التي أعدت الانهيار التام لجيش أفريقيا بفتح الطريق الى تونس أمام مونتغومري . وغادر روميل افريقيا ليتابع علاجه في مارس (آذار) قبل شهر من الكارثة . وكان هتلر يقدر ان من الضروري الحفاظ على سلامة سمعة روميل ومجده العسكري ، توقعا لتعيينه في منصب آخر في المستقبل .

وقد كان هناك اتجاه بعد العلمين الى الحديث عن « اسطورة روميل » مع الايحاء بأن سمعته العسكرية كان مبالغا فيها . وغالبا ما يرافق مثل هذا التشهير صروف الحظ وتقلباته . وقد أضيف الى هذا التشهير بروميل سبب أعمق . فقبل ظهور مونتغومري كان الجيش الثامن يعتبر روميل بطلا . وأصبحت اهمية شعبية في صفوف الجنود واضحة باستخدام التعبير التالي : « هذا هو روميل ! » لوصف انتصار ناجح بصورة خاصة . وتضمن هذا الاعجاب خطرا حقيقيا على معنويات القطعات . وعندما استلم مونتغومري القيادة ، حاولت الدعاية البريطانية اطفاء « اسطورة روميل » وخلق اسطورة مضادة عن « مونتي » .

ونشرت هذه الدعاية تدريجيا الفكرة القائلة بأن سمعة روميل مبالغ فيها وهي أقل مما نسجه خيال العسكريين . اما مونتغومري ، فقد أوضح رايه الشخصي بوضوح بمجموعة من الصور الفوتوغرافية لروميل علقها بقرب مكتبه . ورغم هذا . فقد لاحظ منتغومري فيما بعد ان رونشتدت يبدو بالنسبة اليه أهم منافس بين الاثنين . وينبغي ان نتذكر ان مونتغومري لم يصطدم بروميل ابدا وهو في أفضل حالاته . وعندما تجابها في المعركة لم يكن المرض قد اضعف روميل فحسب ، بل انه كان مشلولا ايضا بتخلف عددي محسوس وبالافتقار الى المحروقات لآلياته .

ان انتصارات روميل أروع بكثير ، خاصة لانه انتزعها بقوات أقل ودون سيادة جوية . ولم يحصل اي جنرال آخر ومن كلا الجانبين على انتصارات في مثل هذه الظروف ، فيما عدا بعض القادة البريطانيين بقيادة ويفل في بداية هذه الحرب . ومع هذا ، يجب ان نضيف بأن القطعات المهزومة كانت ايطالية . ومن الواضح والطبيعي ان روميل ارتكب بعض الاخطاء . ولكن عندما نهاجم قوات متفوقة ، فان اقل خلل يمكن أن يتحول الى هزيمة ، في حين من الممكن ان يرتكب الجنرالات الذين يتمتعون بالتفوق في القوات اخطاء عديدة دون ان يكون لها آثار خطيرة .

وكان ميل روميل الى اهمال جانب الاعداد المنهجي للاستراتيجية وافتقاره الى العناية بالتفاصيل تشكل ابرز عيوبه . ولم يكن يعرف أبدا نقل جزء من سلطته الى مرؤوسيه المباشرين ، الامر الذي كان يثيرهم الى حد كبير . ولم يكن يحاول ان يفعل كل شيء بنفسه فحسب ، بل انه كان يود ان يكون في كل مكان ، وهذا ما افقده غالبا الاتصال مع مقر قيادته ، وكان من الواجب احيانا الذهاب للبحث عنه حتى في ساحة المعركة ، في حين كانت هيئة اركانه تنتظر قرارا سريعا . وبالمقابل ، كان يملك موهبة الظهور في اللحظة الحرجة في قطاع ذي اهمية حيوية ليطبع العمليات عندئذ بزخم حاسم . وكان يعطي أيضا لصغار الضباط النشيطين ، الراغبين باثبات قيمتهم ، هامش مبادأة اكبر مما يمنحه لبعض الجنرالات الاكبر منهم سنا . وكانت نتيجة كل هذا ان الشباب اولعوا به واحبوه وشاركهم في هذا الشعور كثير من الجنود الايطاليين الذين رأوا فيه

نقيضا مدهشا جدا لضباطهم الكبار ، الذين اضعفتهم الشيخوخة ، واصبحوا من انصار الامن قبل كل شيء .

وغالباً ما كان روميل يبرز كتكتيكي في الحيلة والمراوغة . ولقد دفع دباباته بجرأة كبيرة خلال هجومه الاول في افريقيا ، حتى ان قسما كبيرا منها ضل في الصحراء . وعندما وصل الى الموقع الرئيسي البريطاني ، أخفى ضعفه العددي بمهارة باحداث سحب كبيرة من الغبار بواسطة سيارات النقل ، وخلق بهذا الشكل وهما بأن دباباته تتلاقى من كل الانحاء . وحصل بهذا الشكل على نجاح كامل .

وكان يضيف الى جرأته الكبيرة حدة الذهن . وقد استخدم في معاركه مرارا دباباته كطعم لجذب الدبابات البريطانية الى مصايد مزودة بالمدافع المضادة للدبابات . وكان يمزج بهذا الشكل بمهارة بين الدفاع والهجوم . وقد طُبقت « تكتيكات روميل » هذه فيما بعد من قبل كل الجيوش .

وعندما غادر افريقيا ، أسف خصومه الى حد ما من مغادرته . تلك هي المكانة التي نجح في الحصول عليها في حياتهم وخيالهم ! وتعزى هذه الشعبية في جزء منها الى الروح الانسانية التي كان يعامل بها الاسرى البريطانيين . وفي الحقيقة ، اعلن عدد كبير من الاسرى الذين نجحوا في الفرار والعودة الى خطوطهم ، بعد اتصالهم الشخصي به ، ان مشاعره النبيلة لم تكن خالية من المهارة السياسية . وكانت سرعة مناوراته وردآته الصاعقة بعد تظاهر بالهزيمة تحدث انطباعا اقوى أيضا .

وكانت عيوبه كاستراتيجي توازن ذكائه وجرأته بشكل خطير . وكانت ميزاته كتكتيكي تميل الى تغطية عيوبه . وتمتزج شخصيته كقائد بصورة استثنائية بقوة القيادة والنشاط الذي يسري منه الى غيره ، يضاف الى ذلك مزاج متغير كان يحدث لديه تبدلات عنيفة تبدأ بالاثارة وتنتهي بالانهيار النفسي .

وقد عاد روميل للظهور كقائد لمجموعة جيوش في فترة انتظار الغزو الانكلو امريكي في عام ١٩٤٤ على ساحل المانش . وكان في هذا المنصب بامرة الفيلد مارشال فون

رونشتدت القائد العام للقوات الغربية . وكانت آراؤهما متباينة حول الوسائل التي ينبغي استخدامها لمقاومة الغزو ، والمكان الذي يجب توقعه منه . وكان فون رونشتدت يوصي باندفاع عمقا ، معتمدا على فعالية هجوم مضاد قوي يشن بعد تورط المهاجمين بالتقدم بسرعة اكثر مما ينبغي . وكان روميل الميال بطبيعته الى اتباع هذا الاسلوب الذي مارسه في غالب الاحيان في افريقيا ، لا يؤيد هذا الاسلوب في فرنسا لان التجربة قد علمته عدم فاعليته ازاء عدوٍ مدعوم بطيران اقوى من الطيران الذي كان بوسعه ان يمتلكه . وكانت فكرته هي التعجيل بالحشد الفوري لقواته لايقاف الغزو قبل أن يتوطد ويثبت أقدامه على اليابسة . وكان فون رونشتدت يفكر بأن الاندفاع الرئيسي سيتم بالطريق المباشر ، وفي أضيق ممر في المانش ، بين السوم وكاليه في حين كان روميل ينظر بالاحرى الى امكانيات غزو في غرب النورماندي بين كان وشيربورغ . وكان متفقا مع هتلر على هذه النقطة .

ولقد ثبتت صحة توقعات روميل (وهتلر) فيما بعد . وبالاضافة الى هذا ، فاننا نملك الدليل بانه استغل بنشاط الشهور الاربعة الاخيرة لتقوية دفاعات النورماندي الساحلية التي أهملت في السابق لمصلحة دفاعات الباد وكاليه . ومن حسن حظ الحلفاء ان جهوده تعرقلت بسبب نقص مواد التحصين ، حتى ان وضع حواجز الاعماق واقامة الدفاعات الساحلية لم ينتهيا في الوقت الملائم . واما فيما يتعلق بالاسلوب الذي ينبغي تطبيقه في وقت الغزو ، فان الحلفاء ، والقادة العسكريين خصوصا ، كانوا يقرون عموما فكرة رونشتدت بالاحتفاظ بالقوات الاحتياطية لزجها فيما بعد في هجوم كثيف في اللحظة المنتقاة . وأضافوا بأن روميل خرب هذه المناورة باستخدام قطعاته لايقاف الانكليز في داخل رأس جسرهم في النورماندي ، وكان الجنرالات الالمان ، وخصوصا اولئك الذين كانوا ينتمون الى « طبقة » هيئة الاركان العامة يفكرون التفكير ذاته ويعتبرون روميل قائدا « هاويا » اقل هواية بالكاد من هتلر ، وكانوا يرون أيضا أن روميل لم يتمكن خلال حملاته من اكتساب تجربة حربية مماثلة للتجربة التي استخلصت من الحملة الروسية ، وأظهرت ضرورة وجود قوات احتياطية على عمق كبير .

وتتطابق خطة فون رونشتدت بالتأكيد وبصورة افضل مع النظريات الرئيسة .

للاستراتيجية ، ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار قوة جيوش الحلفاء ، المدعومة بقوة جوية متفوقة جدا ، وسعة الاراضي وامتدادها ، الذي كان يسمح لها بالمناورة ، بدا لنا بوضوح ان من المشكوك فيه أن يستطيع هجوم مضاد أعده الالمان مسبقا ايقاف جيوش الغزو بعد اختراق عميق في فرنسا . ولم يكن بوسع الالمان في الوضع الذي كان قائما ان يأملوا بمنع الحلفاء من التوطد في رأس جسر هام يسمح لهم بامتلاك موقع قوي في هذا الجانب من المانش . وكاد روميل يحبط املهم هذا منذ الايام الاولى ، وكان بحاجة الى جهد بسيط لكي يقضي عليه ، ويجب ان نتحرى أسباب اخفاقه النهائي لا في أخطائه ، بل في الوصول المتأخر للنجدات القادمة من الباد وكالية . وتقع مسؤولية خطيئة التأخير هذه على عاتق القيادة العليا التي لم تر في عملية النورماندي سوى مقدمة لانزالات كثيفة تتم بين الهافر وكاليه . وفضلا عن هذا ، فقد كان روميل يفتقر الى قوات احتياطية عامة في الغرب ، وكان فون رونشتدت يود خلق هذه القوات بتعرية المنطقة الجنوبية من فرنسا ، ولكن هتلر كان يرفض اتخاذ مثل هذا التدبير .

واصبحت نتيجة نقاط الضعف هذه مشؤومة عندما منع هتلر كل تراجع في النورماندي ، في حين كانت استحالة احتواء مد المهاجمين واضحة كل الوضوح لفون رونشتدت وروميل . وكان بوسع تراجع يتم في الوقت الملائم ان يسمح للقوات الالمانية المقاومة على السين في بادىء الأمر ، ثم المقاومة اطول وقت ممكن على الحدود الالمانية . لكن هتلر كان يرفض أن يسمع أي حديث عن انسحاب عام ، ويمنع القادة الموجودين في الجبهة الغربية من اتخاذ اية مبادرة دون اذن منه للقيام بتراجع محلي حتى ولو كان مقتصرا على بعض الكيلومترات . وهكذا اضطرت الفرق الى الصمود في مواقعها الى أن مزقت اربا . وكانت نتيجة هذا الموقف الصلب حدوث حركات تراجع في النهاية اهم من الحركات التي اقترحها فون رونشتدت وروميل .

وكان هذان الاخيران يتفقان حول نقطة مشتركة تقرب فيما بينهما هي رأيهما في السياسة الهتلرية المثبطة للعزيمة . ففي نهاية يونيو (حزيران) جاء هتلر الى فرنسا بناء على

طنبها المللح . وكانت زيارته هذه الزيارة الـوحيدة للجبهـة الغـربية في عام ١٩٤٤ . والتقوا به في سواسون . وقد رفض الفوهرر بأن يأذن لهما بالقيام حتى بتراجع محضر كان من الممكن ان يسمح لهما بالتمركز خلف الاورن واعداد هجوم مضاد بالمدرعات . وفي الاسبوع التالي ، تفاقم التوتر على الجبهة . وأشار فون رونشتدت عندئذ بقسوة الى أن من غير المجدي متابعة المعركة وان من الواجب انهاء الحرب ، فاستشاط هتلر غيظا من آرائه ومقترحاته ، وقرر القيام بتبديل في القيادة العليا ، وعين أكفأ جنرالاته في الجبهة الشرقية الفيلد مارشال فون كلوج ليحل محل فون رونشتدت .

ومن الامور ذات الدلالة ان هتلر بدأ يرتاب في روميل دون ان ينقله من منصبه . فقد أزعجه موقف هذا الاخير في سواسون . وبدل روميل من ناحيته رأيه في هتلر . وقد أسرّ لبعض القادة الذين كان يترأسهم ان الامل الوحيد لالمانيا يكمن في التخلص من هتلر بأسرع ما يمكن ، والشروع فيما بعد بمفاوضات السلم . ومن المؤكد انه كان على الاقل مطلعا على المؤامرة التي انتهت بمحاولة اغتيال هتلر الفاشلة في ٢٠ يونيو (حزيران) حتى ولو انه لم يشترك فيها .

وقبل المؤامرة بثلاثة أيام هوجم روميل وهو في سيارته على طريق قريب من الجبهة من طـائـرات معادية تحلق على ارتفاع منخفض . فانقلبت سيارته وانكسرت جمجمته عند سقوطه من السيارة . وقد وقع الحـادث في القـرية التـي سميت سانـت ـ فوي ـ دو ـ مونتغومري . ونقل الى المستشفى في باريس . وعندما شفي من الكسر ، عاد الى منزله في اولم . وفي هذا الوقت كانت « الغستابو » [الشرطة السرية النـازية] قد استكملـت تحقيقها حول المؤامرة ضد هتلر . فذهب جنرالان الى منزل روميل ، واقتاداه في سيارة ، وأبلغاه رسالة من هتلر تعطيه الخيار بين تناول السم أو المجيء الى برلين للتحقيق معه . فاختار السم . وأعلن عن موته اثر حادث ، وأجريت له مراسم دفن قومية .

وهكذا انتهت خدمة عسـكري كان موهوبـا بعبقـرية حقيقية من وجهـة النظـر التكتيكية ، وبحيوية هائلة في قوة التنفيذ . بالرغم من عيوبـه في الاستـراتيجية العليا

وتفاصيل التنظيم . وكانت بصيرته التي لا تخطىء تحدد له بالتأكيد الساعة والنقطة الحرجة . وكان معشوقا من جنوده مع أنه مثير لغيظ هيئة أركانه

الفصل السادس

بطل في الظل

لقد سردنا في الفصل الرابع سير الحرب من الجانب الالماني حتى نهاية عام ١٩٤١ . وبعد أن تابعنا روميل في افريقيا عدنا اليه في الفصل التالي على الجبهة الغربية أثناء تجدد العمليات الحاسمة لصيف عام ١٩٤٤ . ولكن هذا السرد يترك فجوة في تتابع السرد . فقبل أن نصل فيه الى المرحلة الاخيرة من المفضل ان نعيد شريط الاحداث في أوروبا منذ نهاية عام ١٩٤١ ، لملء هذا الفراغ ، ولكي نتجنب الحديث مسبقاً عن القصة المفصلة المسرودة في الجزء الثالث من الكتاب فاننا سنقتصر في هذا الفصل الوسيط على الاشارة الى الوقائع الرئيسة باختصار ، ومن وجهة نظر القادة العسكريين .

آخر جهد لهالدر

كان الجنرال فرانز هالدر رئيس هيئة الاركان العامة ، الذي يقود العمليات على الجبهة الروسية في عام ١٩٤٢ خاضعا لتوجيهات هتلر الصارمة . وكان هالدر موهوبا من الناحية الاستراتيجية ، كما كانت خططه السابقة ، التي كللت بالنجاح ، مصممة حقا من قبله وغير مستوحاة من مرؤوسين لامعين يعملون في الكواليس . ومن الملاحظ ان القيادة العامة للجيش والقوات البرية .o.k.h. التي قادها بعد نقل فون براوخيتش ، قد أخضعت بصورة صارمة للقيادة العليا لقوات « الوايهرماخت » (o.k.w.) التي كانت تسمى باستهزاء « المكتب العسكري للعريف هتلر » .

وكان هالدر يتحسر كثيرا في هذا الموقف الصعب على الدعم الذي كان يتلقاه من

سلطة فون براوخيتش . وكان النقاش مع القائد العام لقوات « الويهرماخت » اسهل بكثير عندما كان القائد العام للجيش موجودا كسند داعم . وأية مهمة كأداء ينبغي التغلب عليها عندما تجتمع القيادتان في يد رجل واحد ، خصوصا اذا كان يملك شخصية هتلر !
وكان اختلاف وجهات النظر بين فون براوخيتش وهالدر ضعيفا جدا ، ويسود بينهما انسجام نادراً مالوحظ في القيادات العامة ، وحسب شهادة القادة الذين كانوا يعرفونهما ، كان هذان الرجلان يعملان باتفاق تام حتى أصبح من الصعب بالرغم من ميل هالدر الواضح الى التحكم والسيطرة ، التمييز بين وظيفتيهما أو بين نفوذيهما المتبادل .
« فما كان هالدر يعده ويركبه ، يقدمه فون براوخيتش لهتلر . ولم ير هالدر هتلر أبدا دون أن يتأكد من وجود فون براوخيتش ودعمه » ولكن هالدر اضطر الى خوض معاركه وحده فيما بعد بعد غياب براوخيتش .

وقد بدأت حملة صيف عام ١٩٤٢ بانتصارات براقة ، وكانت دليلا واضحا على التنظيم الرائع لهالدر . وكان للتأجيل الماهر في بدء الحملة على الجبهة الرئيسة وللهجوم الصاعق ضد شبه جزيرة القرم . تأثير كبير دفع الروس الى أخذ المبادأة بشن هجوم ضد خاركوف . وبعد ان ترك الالمان الجيوش الروسية تتورط بعمق في الجنوب ، شنوا هجومهم الرئيسي على طول الجبهة الروسية ووجدوا الطريق حرا لعبور الممر بين الدون والدونيتز . وبعد أن عبروا الدون الاسفل ، قسم هتلر الاندفاعة الالمانية . وضُحّي بمشروع التقدم في القفقاس والرامي لاحتلال منابع البترول نظرا لرغبة هتلر بالتعويض عن الاخفاق الذي تعرض له أمام ستالينغراد خلال العمل الذي كان هدفه - وهوهدف ثانوي في الاساس - تغطية جناح الاندفاعة باتجاه القفقاس . وهناك ما هو أسوأ ايضا .
وهو أن ستالينغراد سحرت هتلر بقوة هائلة اكثر مما سحرته موسكو في العام السابق . حتى وكأن اسمها ذاته يشكل تحديا له . وهكذا فان اختيار هتلر لهدف محدد سمح للروس بحشد قواتهم الاحتياطية ومقاومته . وقد طلب هالدر ايقاف الهجوم عندما أصبح ضعفه امرا مؤكدا . وتضايق هتلر من اعتراضاته المتكررة ، وفي نهاية سبتمبر (ايلول) رد الفوهرر على نصائح هالدر المزعجة بطرده من منصبه .

حل كورت زيتزلر محل هالدر ، مع انه استلم رئاسة هيئة الاركان العامة في المسرح الغربي مؤخرا . ووجد زيتزلر الذي لم يكن مطلعا كما يجب على الموقف في الشرق ، وتسنم منصب القيادة في لحظة حرجة ، أن من الصعب انتقاد توجيهات هتلر في هذه الجبهة .

لم يكن زيتزلر ، الذي كان اكثر شبابا من هالدر ، قبل الحرب سوى عقيد يقود فوج مشاة . ثم أصبح فيما بعد رئيسا لهيئة اركان جيش البانز العامل تحت قيادة فون كليست . وكان هو الذي حل مسألة تموين المدرعات في التنقلات السريعة أو للمسافات الطويلة . وكان يمثل بامتياز ككفاءة ونشاط النموذج المثالي للقادة النازيين ، ونموذج « رجل العمل » المتناقض في هذا مع هالدر الذي يعتبر « المفكر الرياضي والعالم النباتي والكاتب العسكري المتميز » .

وكان زيتزلر ، مع أنه أقل تعمقا بالاستراتيجية من خلفه ، يمثل عونا لا يقدر بثمن في اعداد الحركات الاستراتيجية لانه كان يصمم استخدام القوات الآلية بصورة مدهشة . ولقد اشتهر بتنظيمه الرائع لاندفاعة دبابات البانزر عبر الآردين ، ثم عبر كل فرنسا في عام ١٩٤٠ ولكنه تفوق على نفسه بعد ذلك عندما قام في عام ١٩٤١ بمناورات مركبة حاذقة : فقد رسمت دبابات فون كليست في بادىء الامر قوسا معقوفا عبر اوكرانيا لايقاف تراجع بوديني ، عن طريق البوغ والدينيبر ، ثم غيرت اتجاهها وانقضت باتجاه الشمال للاتصال بغودريان واكمال التطويق الواسع لكييف . ثم استعادت طريق الجنوب لتعقب مؤخرة القطعات الروسية التي كانت تهاجم رأس الجسر الالماني في دينيبر وبتروفسك على الدينيبر . وبعد أن كانت سببا في انهيار الروس في هذا القطاع ، تابعت طريقها نحو حوض الدونيتز لتعزل القطعات الروسية المحتشدة قرب بحر آزوف . وكانت أهم مشكلة هي الحفاظ على انتظام التموين عندما كانت « تزج الجيوش بهذا الشكل في مجالات بعيدة » كما اعلمني فون كليست وهو يمتدح رئيس هيئة اركانه بدون تحفظ .

واستحوذ نجاح زيتزلر على انتباه هتلر ، الذي استدعاه لمقابلته في بداية عام ١٩٤٢ . وتعزز انطباع هتلر بالتقرير الذي قدمه زيتزلر عن تدابير الامن المبتكرة في جيش البنزر الاول لمساعدة الرجال على تحمل الايام القاسية الاولى من فصل الشتاء . وقد ثارت هذه القصة اعجاب هتلر الى حد كبير ، مع انه كان مقتنعا بأن العسكريين المحترفين الالمان المغرورين بالأساليب الجاهزة والمحضرة ، عاجزون عن القيام بمبادرات خلاقة . وبعد وقت قصير من الزمن ، عُيِّنَ زيتزلر رئيساً لهيئة الاركان في الغرب لإعادة تنظيم الدفاعات . وفي سبتمبر (ايلول) بعد محاولة انزال الحلفاء في دييب ، استُدعي للعودة الى الشرق ، وأبلغه هتلر تعيينه في وظيفة رئيس هيئة الاركان العامة . فكم كان هذا الترفيع مذهلاً بالنسبة لعميد !

ويكفي تفضيل هتلر للضباط الشبان الذين كانوا يفهمون الحرب الآلية ، كما تكفي نجاحات زيتزلر في هذا المجال لتفسير هذا الاختيار . وكان لهتلر دافع آخر : فقد كان يأمل من تعيين جنرال شاب جدا على رأس القيادة العامة للقوات البرية(.o.k.h) كسب هذا الجنرال الى جانبه عن طريق اعترافه بالجميل بشكل يكون فيه ولاؤه لهتلر اقوى من ولائه العسكري ، الامر الذي يسمح له بضمه كتابع له على غرار ضمه لكيتل ويودل وكان هتلر يستهدف من وراء عزل هالدر التخلص أيضا من الاعتراضات الدائمة لهذا « الداعية المعربد » للنظام العسكري القائم .

وقد أسكر هذا المنصب زيتزلر لبعض الوقت . فأعطى موافقته على مواصلة الهجوم على ستالينغراد والتقدم في القفقاس لدرجة زادت عمق تورط الجيوش الالمانية ـ أو بالاحرى ما تبقى منها بعد جهود لا جدوى منها ـ حتى أصبح من المستحيل تملصها .

وراودت زيتزلر الشكوك حول حكمة قرارات هتلر عندما أمره هذا الاخير بالتمسك بالمواقع الامامية قبالة ستالينغراد خلال فصل الشتاء . وفي الوقت الذي بدأ فيه الهجوم المضاد الروسي كان زيتزلر يريد سحب جيش فون باولوس فورا . فرفض هتلر اقتراحه وهو غاضب . وتعددت فيما بعد نقاط الاحتكاك لان هتلر رفض حتى بعد تطويق

جيش فون باولوس أن يسمح له بالتخلي عن مواقعه ليحاول شق طريق له باتجاه الغرب . فاضطر زيتزلر الى تقديم استقالته : فرفضها هتلر .

وبعد استسلام جيش ستالينغراد ، نجح زيتزلر باقناع هتلر للسماح له بتصفية الجيبين الخطرين في الشمال ، مقابل موسكو ولينينغراد . وحسّنَ هذا التدبير الوضع وسمح بالاحتفاظ بسلامة هذه الجبهة رغم الانقضاضات اللاحقة مع تحرير وحدات احتياطية لقطاعات أخرى . ومن ناحية أخرى ، لم يكن هتلر يريد سماع اي شيء عن النقاش الذي يجري حول انسحاب استراتيجي عام ، لانه أحس بجرح عميق من جراء الانسحابات المأسوية ، التي استحال اخفاؤها امام المدينتين الروسيتين الكبيرتين. ولم يكن زيتزلر يفتقر الى الشجاعة وهو يعاند هتلر بمفرده دون أي دعم ، لان كيتل ويودل كانا يؤيدان الفوهرر دوما . وزاد من حدة العقبات التي واجهها لمحاربة نفوذهما ان مكاتبهما تشكل جزءا لا يتجزأ من القيادة العامة لهتلر ، على حين كانت قيادته بعيدة جدا عنهما . ولم يكن خلافه معهما خلافا على التراجع الى عدة كيلومترات فحسب ، فلقد أضيف الى أسباب ان احتجاجات زيتزلر المتكررة أدت الى جفاء هتلر ونفوره الذي كان يظهر خصوصا خلال المؤتمرات اليومية .

وساهم كل هذا في زيادة نفوذ الجنرال يودل رئيس هيئة الاركان الشخصية لهتلر ، الذي كان بالتالي يترأس اشراف هتلر ذاته على العمليات . واحتفظ يودل بوظائفه طوال مدة الحرب . ولم يكن من الممكن أن يستمر لمثل هذه المدة الطويلة لو لم يعرف « فن المحافظة على منصبه » دون تجاوز الحدود التي رسمها له هتلر . فقد كان مرؤوسا مثاليا . وكان زيتزلر على العكس يرفض كل موقف خانع . وكان مندفعا يحتد في غالب الاحيان أثناء مناقشاته مع هتلر . وكان هذا الاخير يتردد في الانفصال عن رجل ممتاز جدا في معرفة الوسائل الآلية ، وقادر على حل مسائل الحركة ، الامر الذي لا يستطيع كيتل ويودل القيام به .

وانتهت حياة زيتزلر العسكرية في بداية يوليو (تموز) ١٩٤٤ بعد انهيار الجيوش

الالمانية على أعالي الدينيبر . وجرت مقابلة خاصة بينه وبين هتلر والح زيتزلر على ضرورة اصدار الأوامر لسحب مجموعة جيوش الشمال التي كانت مطوقة في دول البلطيق . فرفض هتلر . واحتدم النقاش بين الرجلين . فتمارض زيتزلر بعد أن رأى هتلر يرفض استقالته مرارا ، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للتخلص من المسؤوليات التي كان يرفض المشاركة فيها وقتا أطول . فانتقم منه هتلر بحرمانه من المزايا المختلفة لرتبته ، واعطى أمرا مهينا بشطب اسمه من كوادر الجيش ، مع منعه من ارتداء البزة العسكرية .

غودريان

لجأ هتلر الى رجل اكبر سنا ، واختصاصي منذ وقت طويل بمسائل الدبابات هو غودريان ، لاشغال منصب زيتزلر . وقد صدم هذا التعيين عددا من أعضاء هيئة الاركان العامة الذين لا يرون في غودريان سوى مهووس في اختصاصه ، ينقض في المعركة « كثور » مجرد من الحس الاستراتيجي والتوازن الضروري لرئيس هيئة اركان عامة . وقد اثبت هذا الاختيار التفضيل الغريزي لهتلر للافكار الثورية ، وتقديره لخدمات غودريان السابقة[1] . وبدا انه يتوج بهذا الشكل الحياة العسكرية لمحرك القوات المدرعة ، ولرائد سلسلة الانتصارات الالمانية . وفي الحقيقة ، كان هتلر يناور مناورة ظاهرة ذكية مخصصة لخداع عالمه .

وفي الحقيقة ، كان هتلر قد استولى منذ مدة طويلة على ادارة الحرب ، وحوّل القيادة العامة للجيش والقوات البرية(o.k.h.) الى مجرد أداة مكلفة بنقل أوامره الى الجبهة الشرقية واتخاذ التدابير التفصيلية بغرض تنفيذها . وحتى لو ان غودريان كان يملك الشخصية والتجربة الضروريتين لرئيس هيئة اركان عامة ، فان هتلر لم يكن ليسمح له بالقيام بهذا الدور . وكان الموقف مضطربا لدرجة استولى فيها الشلل على جهود غودريان بصورة مزدوجة من جراء مناخ الحذر المسلكي وبسبب هتلر ذاته .

وكان مرؤوسوه في هيئة الاركان العامة يقولون عنه بتسامح ممزوج بالحقد : « انه

---

(١) انظر الفصل ٩ « ظهور المدرعات » .

عسكري لساحة المعركة ، لا لمدرسة الحرب » . وكانوا يترصدون كل خطيئة من اخطائه . ولو ان هتلر دعمه لتغلب على هذه المقاومة . ولكنه لم يلبث ان وجد نفسه كالآخرين في نزاع معه . فقد استلم وظيفته في فترة سيئة لدافعين : كان ذلك بعد محاولة اغتيال ٢٠ يوليو (تموز) وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الالمانية تنهار . وكان حذر هتلر في ذلك الوقت كبيرا جدا ، حتى انه كان يعتبر أي لون من الوان المعارضة ظاهرة من ظواهر الخيانة . وكان بوسع بعض الضباط الصغار نزع فتيل الاشتعال من شكوكه ومناقشته الى حد ما ، ولكن غودريان لم يكن يعرف كيف يتصرف معه .

وكان غودريان يتقادم في العمر ويفقد حيوية الامجاد الغابرة . واستنزف طاقته في النضال ضد الناقدين والمشككين . وخلال هذه المعارك كان تشبثه مهددا بالتحول الى عناد ، وطاقته التي لا تقهر الى نزق وغضب ، كما يحدث غالبا لرجال يمتلكون طبعه . وعندما سنحت الفرصة امامه أخيرا للعمل ، تفاقمت هذه الاتجاهات المزعجة لديه بالعقبات التي اضطر للتغلب عليها . ورغم هذا يبدو أن هذا المبشر بانجيل جديد للهجوم قد لاحظ بشكل أوضح مما لاحظ سيده الحاجات الملائمة والمناسبة للقيام بالدفاع . وفي بداية عام ١٩٤٤ ، وفي الوقت الذي كان ما زال فيه مفتشا عاما لفرق البانزر ، نصح هتلر بالقيام بتراجع استراتيجي في الشرق ، واعداد خط دفاعي قوي الى الخلف لهذا الغرض على حدود عام ١٩٤٠ . وعندما أصبح رئيسا لهيئة الاركان العامة كان الجزء الشمالي من الجبهة ، الواقع في مستنقعات بريبيه قد بدأ ينهار ، ولكن الاندفاعة الروسية توقفت على خط يقع تقريبا على ارتفاع الموقع الخلفي الذي حدده سابقا . واقتلعت عشرون فرقة المانية من جذورها ، او تخلت عن تجهيزاتها وعتادها في الانسحاب المباغت ، بعد الانهيار ، ولم يوفق الالمان في سد الثغرة الا بواسطة الفرق التي أعيدت من رومانيا على عجل . ولم تتأخر الجبهة التي ضعفت في هذا القطاع الاخير من جراء نقل بعض الفرق منها ، عن الانهيار بدورها ، وساعد على انهيارها التحول المفاجيء السريع لرومانيا . ووجدَ الروس الطريق حرا لتهديد أوروبا الوسطى بهجوم واسع على مجنبات العدو يخوضونه عبر الكاربات .

وفي الخريف ، حاول غودريان تقوية الخط الجديد الذي يغطي بروسيا الشرقية وبولونيا الوسطى ولكن جهوده تعرقلت بسبب توجيه القوات الاحتياطية التي إستخدمت لدعم القطاعات الهنغارية كما تعرقلت أيضاً برغبة هتلر في القيام بهجوم آخر في الغرب . فقد حشدت كل القوات الاحتياطية الممكنة بأمل خادع لدفع البريطانيين الى عملية « دنكرك » جديدة بعد هجوم جانبي عبر الأردين . ومع ذلك ، وحتى في هذه اللحظة الاخيرة رفض هتلر الاقرار بضرورة سحب بعض القطعات من دول البلطيق ، والبلقان ، وايطاليا لتشكيل قوات احتياطية للجبهة الرئيسة في الشرق .

وعارض هتلر أيضاً حجج غودريان ومبرراته حتى بعد اخفاق هجوم الآردين . ولم يرسل الى الشرق الا نجدات ضعيفة ، بالرغم من تحذيرات غودريان عن احتمال وقوع هجوم روسي قريب ضد احدى الجبهات الالمانية الضعيفة أكثر مما يجب . وهناك ما هو أسوأ أيضا : لم يعد لوصول هذه النجدة الضعيفة أية فاعلية بسبب الامر الذي أعطاه هتلر لارسال ثلاث من أفضل فرقه المدرعة في بولونيا الى الجنوب لتحاول عبثا تحطيم التطويق الروسي لبودابست .

وعندما شُن الهجوم الروسي بتاريخ ١٢ يناير (كانون الثاني) لم يكن لدى غودريان اي احتياط متحرك سوى ١٢ فرقة لجبهة عرضها ١٣٠٠ كم . وفضلا عن هذا ، كان هتلر قد رفض له قبل ثلاثة أيام اقتراحا بسحب القوات الالمانية من الجيوب المهددة لوقاية القوات الالمانية والحيلولة دون قيام الهجوم الروسي . وبناء على هذا ، انهارت الجبهة البولونية بسرعة ، ولم يتمكن غودريان من احتواء المد الروسي قبل اختراقه المانيا بعمق ووصوله الى الاودر. وكان هناك امكانية ضئيلة للرد لان تقدم الروس بسرعة زائدة لم يسمح لهم باعادة تموينهم في حين كانت اجنحتهم مكشوفة . وكان هتلر قد قبل أخيراً استدعاء جيش البانزر السادس من الغرب ، ولكن بدلا من أن يسمح باستخدامه في هذا الهجوم المضاد عاند وأرسله الى هنغاريا بغية تخليص بودابست دون جدوى . وكان هتلر ولا شك يعيش في عالم الاحلام بعيدا عن الحقيقة .

وبحث غودريان يائسا ، مع بعض القادة النازيين، امكانات اجراء مفاوضات لتحقيق السلم . فاطلع هتلر فورا على هذه النشاطات وخلعه من منصبه في مارس (آذار) قبل شهر تقريبا من الهزيمة النهائية .

فون مانشتاين

كان الفيلد مارشال ايريخ فون مانشتاين أكفأ الجنرالات الالمان على وجه الاحتمال . وهذا هو حكم معظم من قابلتهم من العسكريين الالمان ، ورأي فون رونشتدت الهام من بينهم أيضاً . ويعترف الجميع لفون مانشتاين بحسه الاستراتيجي العميق المترافق مع معرفة بالآليات المدرعة تفوق معرفة كل الجنرالات غير الاختصاصيين . ومع هذا فانه لم يكن من المتعصبين لفكرة ثابتة ، لم يكن يهمل ضرورة تحسين بعض الاسلحة الاخرى أيضا واستكمال وسائل الدفاع . وكان قد عاون قبل الحرب بوقت قصير في تطوير دبابة الانقضاض المجهزة بمدفع بدا ضروريا فيما بعد .

وقد تبنته عائلة فون مانشتاين منذ طفولته مع انه ولد من عائلة ليفينسكي . وغدا ضابطا قبل حرب عام ١٩١٤ ، ومع أنه شاب أكثر مما يجب لاتباع دورات الاركان ، الا انه برز في هيئة اركان الجنرال فون لوسبرغ التي دشنت في عام ١٩١٧ النظام الدفاعي الجديد في العمق . وعندما جاء عام ١٩٣٥ ، كان فون مانشتاين رئيسا لمكتب عمليات هيئة الاركان العامة ، واصبح في العام التالي ، معاونا لبيك الذي كان رئيسا لتلك الهيئة . وفي فبراير (شباط) ١٩٣٨ اضطر فون مانشتاين الى ترك القيادة العامة للقوات البرية(O.K.H) أيضاً بعد طرد فون فريتش . واكمل تركه سحق معارضة الضباط الكبار للقيادة العليا للقوات المسلحة ومعارضة الخطط النازية . وأرسل مانشتاين الى سيليزيا ليقود احدى الفرق . ورغم هذا عين في عشية الحرب عام ١٩٣٩ رئيسا لهيئة اركان مجموعة جيوش فون رونشتدت التي مثّلت دورا حاسما في حملة بولونيا . ثم تبع فون رونشتدت الى الغرب .

وهنا كان فون مانشتاين مصدر الاشراقة العبقرية المتمثلة في فكرة الهجوم بالدبابات

عبر الآردين والتي كانت نتيجتها هزيمة فرنسا : ولتغليب هذه المبررات ، دفع من شخصه ثمنا لهذه الفكرة . وفي الحقيقة ، كانت الدوائر العليا في الجيش تجده طموحا أكثر مما يجب ، فتخلصت منه بتعيينه في نهاية يناير (كانون الثاني) قائدا الفيلق المشاه ٣٨ - ورُفض طلبه لقيادة فيلق بانزر بحجة افتقاره الى التجربة . وفي هذا الوقت استُدعي لمقابلة هتلر ، فانتهز الفرصة ليعرض عليه فكرته . فوافق هتلر عليها . وبعد اسبوع ، أخرجت القيادة العامة للقوات البرية (o.k.h.) هذه الخطة بعد استكمال كل جوانبها .

ولم تتح لفون مانشتاين الفرصة في المرحلة الاولى من الحملة لاظهار كفاءاته في القيادة ، لان فيلقه قام بدعم البانزر فقط . ولكن فيلقه زج في المعركة فيما بعد خلال الهجوم على خط الدفاع الفرنسي الجديد على السوم ، ونجح في القيام بأول اختراق شرقي آميان . واستغلت مدرعات روميل الثغرة ، ولكن فون مانشتاين تجاوزها في المطاردة ، مستخدماً مشاته كقطعات منقولة . وكان فيلقه أول فيلق بلغ السين وعبره بتاريخ ١٠ يونيو (حزيران) ، وقطع في هذا اليوم ذاته أكثر من ٦٠ كيلومترا . واندفع الى اللوار بسرعة كبيرة وعندما بُحث موضوع غزو انكلترا فيما بعد ، تلقى المهمة الرائعة للقيام بأول انزال عبر الباد وكاليه ، بقرب فولكستون . ولكن هذه الخطة ولدت ميتة .

ثم تلقى قيادة فيلق بانزر جديد قبل غزو روسيا ، هو الفيلق ٥٦ في بروسيا الشرقية . وخرق الجبهة الروسية في سبعة أماكن ، وسارع بزخم كبير حتى أنه بلغ الدفينا (مسافة ٣٠٠ كم) في أربعة أيام ، بفضل الاستيلاء على الجسور الرئيسة . ولكنه لم يسمح له بمتابعة انقضاضه على لينينغراد ، كما كان يرغب ، واضطر الى انتظار وصول فيلق البانزر الآخر التابع للجيش طوال اسبوع كامل . وعاود تقدمه عندئذ الى بحيرة ايلمن ، في ١٥ يوليو (تموز) ، ولكنه أوقف من قبل القطعات الاحتياطية الروسية التي اتيح لها الوقت للتجمع . وفي سبتمبر (ايلول) تلقى قيادة الجيش الحادي عشر ، في الطرف الجنوبي ، وشق لنفسه طريقا الى القرم بتحطيم مقاومة القسيمة الضيقة المحصنة لبرزخ بيريكوب - وهو عمل رائع يبرهن على تفوقه في تقنية حرب الحصار .

وعندما تعثر غزو روسيا في ذلك الشتاء في الوحل والثلج امام موسكو ، وخلع هتلر فون براوخيتش من منصبه واعتبره كبش الفداء للهزيمة ، أمل كثير من الجنرالات الشباب في الجيش الالماني بان يستلم فون مانشتاين مركز القيادة العامة . ولكن هتلر كان يريد هذا المنصب لنفسه . ففكر في تعيين فون مانشتاين على رأس هيئة الاركان العامة ولكنه خشي من أن يكون التعامل معه أصعب من التعامل مع هالدر .

وفي صيف عام ١٩٤٢ ، كلف فون مانشتاين بمهاجمة قلعة سيباستبول المشهورة ، كتمهيد للهجوم الكبير . وحرم نجاحه الروس من قاعدتهم البحرية الرئيسة على البحر الاسود . ثم اختير فيما بعد لكي يقود الهجوم على لينينغراد بقوات نقلت لهذا الغرض ، من أحد أطراف الجبهة الى الطرف الآخر . ويبدو أن منطقة العمل التي كانت تخصص له مقتصرة دوما على تكتيكات الحصار ، وهو اختصاص برهن فيه على كفاءته وذكائه .

ولم تتم أخيرا مهمة فون مانشتاين لان القوات تلقت أمرا بالتوجه الى ستالينغراد قبل أن توجه الى لينينغراد حيث أوقف الروس تقدم القوات الهتلرية . ووجد الجيش الالماني نفسه حالا في طريق مسدود حرج : فقد طوّق . وامام المأساة الوشيكة الوقوع ، تلقى فون مانشتاين الذي أرسل للنجدة ، قيادة مجموعة جيوش شُكلت انذاك وسُمّيت : مجموعة جيوش الدون .

وكان الوقت للتدخل متأخرا جدا - وبعد اكثر الاشتباكات استماتة في الحرب - اخفق الجهد . وفي التراجع التالي ، استعاد زمام الخط الدفاعي الذي كان معرضاً للانهيار ومنع الروس من عبور الدينيبر .وشن هجوماً مضاداً سريعاً دفع القوات الروسية مسافة بعيدة وسمح باستعادة خاركوف في مارس (آذار) ١٩٤٣ . كان فون مانشتاين في هذا الوقت يقود مجموعة جيوش « الجنوب » وفي صيف العام ذاته ، خاض آخر هجوم الماني في الشرق بالتعاون مع فون كلوغ (مجموعة جيوش « الوسط ») .

وكان قد اقترح عدة خطط بديله . تشتمل الخطة الاولى على الضرب في بداية مايو (أيار) قبل أن يستعد الروس ، وتفكيك عرى تحضيراتهم في هجوم خريفي ضد جيب

« نتوء » كورسك . وتتضمن الخطة الثانية انتظار الهجوم الروسي ، والتراجع امامه ، ثم شن هجوم جناحي اعتبارا من قطاع كيف ليطوي خطهم ويدفعه إلى وراء . ورفض هتلر هذا المشروع الاخير خشية الاخطار التي تتضمنها عملية استراتيجية جريئة ، ولكنها تحمل من المجازفة إكثر مما يجب . وبعد ان اختار المشروع الاول وحدد تاريخ الهجوم أوقف تنفيذه في اللحظة الاخيرة وهو يعتقد بأن الوقت سيسمح له بزيادة قواته ومضاعفة فرصه . وهكذا انتظر حتى يوليو (تموز) قبل شن الهجوم ، وأفاد الروس من هذه المهلة . ونجح الرأس الجنوبي من الكماشة (فون مانشتاين) في الاختراق بعمق لا بأس به ، ولكن الفرع الآخر الذي أنهك في بادىء الأمر بفضل عناد الدفاع الروسي ومرونته ، تحطم فيما بعد بردة هجومية روسية اتخذت فورا ابعاد هجوم مضاد حقيقي لا يملك الالمان القوات الضرورية لمقاومته . وبالرغم من بعض الحواجز الهائلة ، ظهر فون مانشتاين ماهرا جدا في قيادة التراجع خطوة فخطوة حتى الحدود البولونية . واكن هتلر لم يكن يريد أبدا قبول حله المتمثل بالتملص من القبضة الروسية بالقيام بانسحاب واسع النطاق .

وانتهى هتلر الذي ضاق ذرعا بهذه المناقشات الحادة الى التخلص منه في مارس (آذار) ١٩٤٤ ، واصدر مرسوما يؤكد بان معرفة المقاومة شبرا شبرا أفضل بكثير من معرفة المناورة بمهارة وحذق . وكان لعزله بعض الدوافع السرية من بينها حذر هتلر وهيملر من موقف فون مانشتاين السياسي . وهكذا انتهت الخدمة العسكرية لاعظم خصم للحلفاء ، ولرجل كان يجمع الى جانب أفكاره الحديثة عن القدرة على الحركة حسا تقليديا بالمناورة وسيطرة كاملة على التفاصيل التقنية وقوة ديناميكية كبرى .

وقد قال لي بلومنتريت وهو يلح بأسف على اختفاء فون مانشتاين : « لم يكن المع استراتيجي بين جنرالاتنا فحسب ، بل كان اكثرهم موهبة بالحس السياسي أيضا . وكان من الصعب على هتلر أن يتحمل وقتا طويلا رجلا يتسم بهذه الشخصية . وغالبا ما كان مانشتاين يعارض هتلر في المؤتمرات علنا ، حتى انه كان يتمادى الى حد وصف مفاهيمه وتصوراته بانها سخافات اكيدة » .

وقبل طرد مانشتاين بعده أشهر ، كان هتلر قد حُرم من قائد آخر من بين أشهر القادة الذين كانوا موجودين على الجبهة الشرقية وهو : فون كلوغ ، الذي جُرح في حادث طائرة . وعندما شفي من جرحه ، في صيف ١٩٤٤ ، سلمه هتلر منصبا آخر وعيّنه قائدا عاما للجبهة الغربية ، مكان فون رونشتدت .

كان الفيلد مارشال غونتر فون كلوغ ، القائد الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من قادة جيش عام ١٩٣٩ . وكان قد قاد الجيش الرابع خلال الحملات على بولونيا ، وفرنسا ، وخلال حملة روسيا في عام ١٩٤١ . وكان جيشه في الحملة الاولى والثالثة منها يشكل جزءاً من مجموعة جيوش فون بوخ . ولقد أوكلت اليه مهمة الهجوم على موسكو ، مع انه لم يكن يشارك هتلر وفون بوخ تفاؤلهما . ومما يشرفه الى حد كبير ، بالاضافة الى قوة شخصيته انه تحمل فون بوخ مدة طويلة جدا ، مع انه من الصعب جدا أن يكون مرؤوسا له . فقد كان فون كلوغ يملك الشجاعة المعنوية أيضا لعرض آرائه على هتلر بصراحة ، دون أن يصر مع ذلك على ان يكون ملحاحا ومتعبا . وعندما « طُرد » فون بوخ في بداية عام ١٩٤٢ ، خلفه فون كلوغ في قيادة مجموعة جيوش « الوسط » وأنشأ في هذا القطاع دفاعا متراصا صمد أمام عدة هجمات روسية خلال السنتين التاليتين .

وأثارت نجاحاته في العمليات الدفاعية ، وشخصيته وامانته انتباه هتلر عندما اخفق فون رونشتدت وروميل في تحقيق المهمة المستحيلة ، وأغضبا هتلر بتنبؤاتهما عن حتمية الهزيمة . وعندما استلم فون كلوغ القيادة فيما بعد ، كان الحلفاء قد زجوا في النورماندي عدداً كبيراً من القوات في داخل رأس جسرهم الموسع ، حتى ان وزنهم وحده كان كافيا فيما بعد لنسف السد الذي اتسع اكثر مما يجب والذي حاول الالمان اقامته في وجههم . وهذا ما حدث بعد ثلاثة أسابيع في الناحية الغربية ، عندما بدأت الاندفاعة الجديدة للجيش الثالث بقيادة الجنرال باتون . بيد ان هتلر كان يرفض دوما السماح بالتراجع .

ولم يكن بوسع فون كلوغ ، المشبع بالروح الانضباطية ، تجاوز تعليمات صارمة

استشعر الكثيرون آثارها ونتائجها وخصوصا بتاريخ ٦ أغسطس (آب) . ففي هذا التاريخ حاول الالمان القيام بردة هجومية ضد اختناق آفرانش ، الذي بدأ منه جيش باتون عملية الاجتياح . وكان من الممكن أن تكون هذه الردة قاتلة نظرا لقيادتها بصورة أريبة ، لو أنه كان لدى فرق البانزر عدد كاف من الدبابات ، ولكن ضعفها الذاتي حتى قبل القضاء عليها بحشد من القوات الجوية ، جعل فرص نجاحها قليلة لدرجة تدعو الى اليأس . والانكى من ذلك ، أن هتلر لم يسمح للقطعات الالمانية بالتملص من هذا الالتحام عندما تلاشى كل أمل بالنجاح . ومع أن التراجع كان حتمياً في ذلك الوقت فإن كل تخل عن الارض قد تم دوما متأخراً اكثر مما يجب وكان التراجع عن الارض غير كاف من الناحية الجغرافية . فنتج عن ذلك انهيار عام للجيوش الالمانية في فرنسا . وبناء على هذا ، طرد هتلر فون كلوغ ، وعين الفيلد مارشال مودل في مكانه .

وتلقى فون كلوغ عزله بهدوء مصطنع . وقضى يوما ونصف يفسر الموقف ويشرحه لخلفه ، ثم ابتلع حبة سامة خلال رحلة العودة الى المانيا . ولا يفسر انتحاره هذا خيبة أمله من أن تنتهي حياته العسكرية بهذا الشكل ، بل يفسر يقينه من انه سيعتقل فور عودته ، لانه شارك عن قرب ، منذ عام ١٩٤٢ ، بالمؤامرة التي انتهت بمحاولة الاغتيال الفاشلة بتاريخ ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٤٤ ضد هتلر . انه لم يعرض نفسه للشبهة أبدا ، ولكنه كان يعرف ان اسمه موجود في الوثائق التي حصل عليها « الغستابو » بعد اخفاق هذا العصيان .

مودل

كان عمر ولتر مودل ٥٤ عاما ، أي أصغر من معظم القادة الالمان الرئيسيين بعشر سنوات ، ومن المعروف ان متوسط عمر القادة الالمان أعلى بكثير من متوسط أعمار القادة في الجيوش الاخرى . وكان أصله الاجتماعي مختلفا أيضا . فقد كان يقدم كثيرا من التناظر في هذه النقطة ، كما في نقاط أخرى مع روميل ، مع أنه أفاد من تدريب مهني أفضل وعندما عاون النظام الهتلري على توسيع الجيش ، عمل مودل تحت قيادة فون براوخيتش

في ادارة التدريب في وزارة الحربية ، وكان على علاقات وثيقة بالزعماء النازيين . واثر تاثيرا قويا في غوبلز الذي قدمه لهتلر . ثم استلم فيما بعد رئاسة ادارة الابحاث . وكان يسد النقص في عدم كفاية معلوماته التقنية بخياله وطاقته . وقد فعل الكثير لا ... أعتدة جديدة رغم ان حماسه المفرط كان يهدد بان يحجب عنه عدم الفائدة النسبية لبعض الافكار .

وبعد أن كان رئيسا لهيئة أركان الفيلق الرابع في الحملة البولونية ، ثم رئيسا لهيئة اركان الجيش السادس عشر في حملة فرنسا . استلم فيما بعد قيادة فرقة البانزر الثالثة . وتميز في غزو روسيا بحيويته وكان في مقدمة القوات خلال السباق الى الدينيبر . وقد منحته طاقته الهائلة تقدما سريعا ، فاستلم في بادىء الامر فيلق بانزر ، ثم استلم في الشتاء قيادة الجيش التاسع . وبرز في الدفاع عندما وضع في ظروف صعبة .

وفي عام ١٩٤٣ ، عين للقيام بدور هام في الهجوم الصيفي : قيادة الفرع الشمالي من الكماشة الموجهة ضد بروز (جيب) كورسك . وهنا أضاع فرصه في النجاح ـ خلافا لرأي فون كلوغ ومانشتاين ـ بتأخير العملية لكي يجمع عدداً اكبر من الدبابات وليعزز قوته الهجومية . واعطت هذه المهلة للروس الوقت لاستكمال تحضيراتهم . وتحطم هجوم مودل ، وتعرض لخسائر فادحة ، ضد الدفاعات المعادية المرنة المتراصة بآن واحد ولكنه نجح في احتواء الهجوم الروسي الخطر الذي جاء فيما بعد . وعُينّ في اكتوبر (تشرين الاول) قائدا لمجموعة جيوش « الشمال » وفي عام ١٩٤٤ نقل الى مجموعة جيوش « الجنوب » ليأخذ محل فون مانشتاين ، وحال دون الضربة الروسية الموجهة ضد مضايق الكاربات . وفي يونيو (حزيران) شن هجومهم الصيفي ضد مجموعة جيوش « الوسط » التي انهارت . وكلف مودل بانقاذ الباقي . وكان قد أوقف الروس على الفستول عندما تلقى امراً بالذهاب الى الغرب ليقوّم الموقف فيه .

وكان مودل قد ضرب المثل بعد محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ يوليو (تموز) عندما أعاد تاكيد ايمانه بالفوهرر وارسل برقية التأييد الاولى القادمة من الجبهة الغربية . وعزز سلوكه

هذا ثقة هتلر بالصفات العسكرية لمودل . فقد كان هذا الاخير أيضا واحدا من القادة الوحيدين الذين تجرأوا على تجاوز أوامر هتلر والعمل طبقا لفكرته الخاصة .

وقد لاحظت في أحاديثي مع بعض الجنرالات الذين عملوا تحت قيادته انهم كانوا معجبين بقوة قيادته ، بيد انهم يعترفون بمزاجه الصعب كقائد لهم وكمرؤوس لغيرهم . وقال فون مانتوفيل عنه ما يلي : « كان مودل قائداً تكتيكيا جيدا جدا وممتازا في الدفاع اكثر من الهجوم . ويملك موهبة تقدير امكانات القطعات . وكانت أساليبه القاسية ووسائله ، غير المقبولة في غالب الاحيان في دوائر الجيش الالماني العليا ، تحظى بتقدير هتلر الى حد كبير . ولقد تصرف مودل امام هتلر بعناد لم يجرؤ عليه أحد ، حتى انه رفض تنفيذ بعض الاوامر التي لا يقرها » .

وفي الغرب نجحت القوات الالمانية المزعزعة في اعادة تجمعها المذهل على حدود بلادها وحرمت الحلفاء من النصر الشامل الذي كانت تتوقعه في خريف ١٩٤٤ ويرجع الفضل في ذلك الى جهود مودل ، وقدرته المدهشة على تجميع القوات الاحتياطية على أرض خالية تقريبا . ولقد ساهم بقسط هام في ايقاف هجمات الحلفاء التالية ، وشارك في ديسمبر (كانون الاول) في نجاح الهجوم المضاد الالماني في الآردين . ومع ذلك فان الادارة العليا للعمليات النهائية « لمعركة المانيا » كانت بيد فون رونشتدت . وفي الحقيقة كان هتلر قد استدعى « الحرس القديم » امام خطر انهيار المانيا الوشيك .

الفصل السابع

« الحرس القديم » : فون رونشتدت

كانت العجلة قد أنهت دورتها . وفي جهد أخير يائس لاعادة الثقة الى الجيش ، اضطر هتلر الى التنازل عن زمام القيادة العليا الى الرجل الذي يمثل بصورة أفضل من غيره المانيا القديمة والتقاليد العسكرية ، مع عبادته للواجب ، وروحه المحافظة السياسية ، ونبذه المهني واحتقاره للاستراتيجيين الهواة من أمثال هتلر وأضرابه . وبالاضافة الى كل هذا ، كان فون رونشتدت سيدا كاملا بكل معنى الكلمة . وكانت هيبته ودماثته الطبيعيتين توحيان بالاحترام حتى بالنسبة للذين لا يتفق معهم في الرأي . ومع ذلك كانت ديموقراطية جمهورية فيار التي يصعب أن يطبقها رجل ارستوقراطي مثله امرا يمكن تحمله بالنسبة اليه اكثر بكثير من الاساليب النازية .

وكان عمره يقارب السبعين ، أي أنه كان من سن هند نبورغ نفسه عندما تسنم هذا الاخير منصب القيادة العليا خلال الحرب السابقة . وكان عمره وأعماله المجيدة قد جعلت منه رمزا قوميا مثله مثل هند نبورغ . وكان مع ذلك أكفأ بكثير من هند نبورغ في المجال العسكري ، وأكفأ أيضا منه ومن لودندورف معا . وكان وجهه وهيئته ونجاحاته مطبوعة بالرقة . وكان قوياً عنيفاً ، ولكنه رقيق الى مدى ابعد. وكان يبدو نحيلاً.زاهداً كثير التأمل،بيد أنافكاره تقتصر على مهنته . وكان اخلاصه للجيش ولالمانيا ، وفكرته السامية عن الواجب ، قد جعلته يتجرع كثيرا من الاهانات . وهنا ينبغي أن نتحرى عن أسباب نزاع داخلي ظهر في حياته العسكرية ، وموقف هذا العسكري الحقيقي . فاذا كان قد ازدرى السياسة ، فان السياسة ذاتها لم تكن لتتخلى عنه وتتركه يعمل في هدوء وسلام .

وفي عام ١٩٣٢ ، وبعد ترفيعات متتالية ، أصبح رئيساً لمجموعة الجيوش الاولى في منطقة برلين . وتلقى فورا صبغة سياسية بعد أن آل اليه تنفيذ أوامر المستشار الجديد فون بابن والخاصة بنفي الوزراء الاشتراكيين ـ الديموقراطيين من بروسيا الذين كانوا يرفضون التنازل عن مناصبهم . واستبدل فون بابن ، الذي كان ضحية تطرفه بالجنرال فون شلايخر . ولكن هذا الاخير لم يتمكن من الحصول على الدعامات السياسية الكافية للاحتفاظ بمنصبه . وهكذا كان الطريق حرا أمام هتلر . ومنعت الاحزاب فورا من القيام بنشاط سياسي ، باستثناء الحزب النازي . ولم يوح مجرى الاحداث بشيء ما لفون رونشتدت ؛ وكان يحس بنفور واضح من الاهداف الاجتماعية للحزب النازي وأساليب زعمائه . وبالمقابل ، كان يقر الحملة الشديدة التي خاضوها بغرض تطوير الجيش ، وانشرح حقا من كبح قوة قطعات الصدمة بعد تطهير ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٣٤ . وكان يسره ببساطة العسكري أن يرى الافق مطهرا من هذا العدد من المدعين العسكريين ، وأن يرى الجيش المحترف وقد تخلص من تهديد ما كان يسميه : « الوساخة البنية » [اشارة الى فرق القمصان البنية] .

وكان بوسعه في هذا الوقت بالذات تركيز جهوده على بعث الجيش . ومن وجهة النظر العسكرية ، كان فون رونشتدت يسعى جاهدا لتجديد المشاة وبعثها واعطائها الثقة بقوتها عن طريق « تحديث » عتادها وتدريبها واساليبها القتالية . وكان يتابع النظريات والتجارب البريطانية باهتمام كبير ، وهو مستعد لتبني تقنية جديدة « للقوات الآلية » . ولكنه لم يكن مع كل هذا نصيراً متحمساً لهذه التقنية . وكان ملتزما بالاحرى بمدرسة اكثر اعتدالا تضم أولئك الذين كانوا يعتبرون سلاح الدبابات عنصرا ثانويا ومفيدا لاسيدا مقبلا لساحة المعركة .

وكان فون رونشتدت يجد أن تحسين كفاءة الاسلحة الموجودة بواسطة المكننة ومضاعفة قوتها النارية أفضل بكثير من خلق أسلحة ميكانيكية تماما . وبالاضافة الى هذه التدابير ، شن فون رونشتدت حملة دعائية مخصصة لتحرير المشاة من عقدة النقص وشفائها من « الرعب من الرشاشات الذي يشل حركتها » والذي عانت منه خلال الحرب

العالمية الاولى . ومع هذا كان مساره الفكري علميا لدرجة تمنعه من السير في هذا المجال الى المدى الذي ذهب اليه الجنرالات البريطانيون. والحقيقة ، ان هؤلاء الجنرالات البريطانيين أرادوا خلال المناورات الصيفية الكبرى التي تمت في عام ١٩٣٤ تقديم الدليل على ان بوسع فرقة مشاة أن تشل فرقة مدرعة . ونجحوا في ذلك الدرجة جعلتهم يساهمون في تأخير تشكيل الفرقة المدرعة البريطانية الاولى مدة ثلاث سنوات . وأقر فون رونشتدت انشاء الفرق المدرعة في الجيش الالماني شريطة أن لا تؤخر اعادة تجهيز المشاة وشريطة أن لا تكون نسبة هذه الوحدات مبالغا فيها بالنسبة لبقية القوات . والخلاصة . يعزى تفوق الجيش الالماني في الحملة الفرنسية عام ١٩٤٠ الى ذكاء فون رونشتدت وتلاميذه ، ولكن حدود هذا الذكاء ذاته تفسر عدم الكمال التقني ، الذي كان سبب الاخفاق في روسيا منذ عام ١٩٤١ .

وقد اضطرب عمل فون رونشتدت في بداية عام ١٩٣٨ من جراء صدمة سياسية في الوقت الذي أتاحت مكايد هيملر ودسائسه عذرا لهتلر لكي يطرد فون فريتش قائد الجيش وفون بلومبرغ القائد العام للقوات المسلحة ، وسمحت له بالاستيلاء على القيادة العليا للقوات المسلحة . فقدم فون رونشتدت احتجاجا لهتلر على المعاملة التي تعرض لها فون فريتش ، ولكن رغم ان هذا الاخير بريء من الاتهام بعدم اخلاقيته الا انه لم يعد الى منصبه . وبعد عدة شهور ، وقع فون رونشتدت على نص مذكرة التحذير التي وضعها بيك رئيس هيئة الاركان العامة بهدف كبح جماح السياسة العدوانية لهتلر - بيد أن هذا الاحتجاج لم يؤد الا الى طرد بيك . وفي الخريف ، وبعد احتلال السوديت ، طلب فون رونشتدت احالته الى المعاش بحجة سنّه ، وحصل على اذن بذلك من الفوهرر . وفي أغسطس (آب) ١٩٣٩ ، استُدعي الى الخدمة لقيادة احدى مجموعات الجيوش على الجبهة البولونية . ومن الممكن أن يبدو انصياعه لهذه الدعوة صعب التفسير نظرا لانه كان يلح منذ مدة طويلة على الضرورة الاساسية لتجنب حرب ضد انكلترا . وكان مفهومه القابل للنقاش عن الوطنية هو الذي جعله يتسنم مركزا هاما في قيادة حرب كان قد تنبأ بأنها نموذج قاتل لالمانيا . وينبغي لتفسير انصياعه فهم صلابة مبادىء الواجب العسكري التي

تلقنها . وربما كان العامل النفسي الذي يجعل من الصعب على عسكري ذي حمية وطنية مقاومة أية فرصة تسنح له لممارسة مهنته ، أحد الدوافع الخفية لقراره بالانصياع .

وقد انتهز هذه الفرصة فعلا ، وقاد مجموعة الجيوش التي حصلت بصورة رائعة على النجاحات النهائية في غزو بولونيا وفرنسا . ورغم كل هذا كانت بعض الدلائل البينة تشير الى وجود قلق كامن في نفسه ، يكدر فرحة امجاده . وفي عام ١٩٤١ لمع فون رونشتدت من جديد في حملة روسيا عندما قاد العمليات التي قلبت الجيوش الروسية في الجنوب وسمحت لالمانيا بالاستيلاء على الثروات المعدنية والزراعية لأوكرانيا . ولكن في هذه المرة ، كانت الانتصارات ذاتها غير قادرة على الوصول الى الحسم النهائي ، وكان هذا نذيرا بالمأساة النهائية . وتأكدت بسرعة المخاوف التي كانت قد دفعت فون رونشتدت سابقا الى تقديم النصائح لهتلر حول خطورة مهاجمة روسيا فوجدها هتلر مزعجة ومتعبة .

وعندما نوقشت في الخريف متابعة التقدم الى موسكو لم يقترح فون رونشتدت التوقف فحسب ، بل انه اقترح أيضا القتال التراجعي للعودة الى قاعدة الانطلاق ، وهو ما وجده هتلر أقل بكثير مما يلائمه . وفي الوقت ذاته كانت ثورة فون رونشتدت وغضبه يزدادان حدة من تدخلات « العريف هتلر » في تفاصيل العمليات . وأخيرا في الايام الاخيرة من نوفمبر (تشرين الثاني) تلقى هتلر من فون رونشتدت ردا برقيا على أمر أرسله اليه يتضمن ما يلي : اذا كان الفوهرر لا يثق بتقدير فون رونشتدت لتنفيذ العمليات ، فان عليه أن يجد رجلا آخر يحل مكانه في القيادة . وقبلت هذه الاستقالة من هتلر فورا . فقد كانت شكوك فون رونشتدت واحتجاجاته تثير أعصاب هتلر المتوترة اساسا من السعي وراء انتصار لا يمكن تحقيقه .

ولم يبعد فون رونشتدت مدة طويلة . فقد طلب اليه هتلر ابتداء من مطلع عام ١٩٤٢ تسنم القيادة في الغرب ، وقضى على تردده باستثارة مفهوم الواجب الوطني لديه . وأثار دخول الولايات المتحدة الحرب خوف القادة الالمان من امكانية استخدام الجيوش الامريكية لانكلترا كقاعدة للانطلاق لغزو القارة الاوروبية . وكان فون رونشتدت

يشارك كل القادة هذا الخوف . واستخدم العامين التاليين للحيلولة دون وقوع هذا الاحتلال ولمحاولة حل المسائل التي خلقها احتلال فرنسا والبلاد الواطئة . وفي يونيو (حزيران) ١٩٤٤ أصبح الخطر مهددا . وقد رسمنا فيما سبق هذا الجزء من الاحداث .

لم يكن رونشتدت في الخدمة العاملة في التاريخ القاتل لـ ٢٠ يوليو (تموز) ، حتى انه لم يكن لديه امكانية تثوير الجيش ضد النظام النازي ، عندما وصلت البرقيات الاولى الى مقرات القيادات العامة في الشرق والغرب والتي أعلن فيها المتآمرون موت هتلر . فمن المستحيل ان نقول اذن انه كان من الممكن أن يتصرف بشكل مخالف لتصرف معظم القادة الآخرين الذين وجدوا أنفسهم ، بدون تمييز بين آرائهم ، مشلولين منذ وصول الانباء التي تؤكد أن هتلر ما زال على قيد الحياة . ومما يحمل معانٍ ودلالات ان فون رونشتدت لم يكن مطلعا حتى على المؤامرة .

وكان البعض من العالمين بنفور رونشتدت من النازية يفكر بامكانية اختياره لقيادة المؤامرة ، ولكن يبدو أن الذين كانوا يعرفونه معرفة أعمق وأفضل ، لم تتبادر الى ذهنهم تلك الفكرة . فقد كانوا يعرفونه مستقيما جدا في المقام الاول ، ودقيقا جدا في مفهومه لقانون الشرف العسكري بحيث يصبح من المستحيل اشراكه في مؤامرات تتطلب بعض المكر والدهاء . وأخيرا كان هؤلاء يريدون ايضا صيانته من التلوث الحتمي الذي تؤدي إليه مؤامرة من هذا النوع ، حتى ولو كان هدفها نبيلا ، لانهم كانوا يقدرون القيمة الرمزية لسمعته العسكرية . وأخيرا فقد كان رونشتدت مراقباً بصورة دقيقة من الشبكة النازية المكلفة بالتجسس على الجنرالات نظرا لعلو مرتبته .

وكان بعض هؤلاء الاخيرين يأمل بأن يحصل فون رونشتدت على هدنة من الانكليز والامريكيين أو يتمكن على الاقل من التفاهم مع الحلفاء ليتركهم يدخلون المانيا دون قتال ، على أن يستديروا جميعا لمقاتلة الروس . وخاب هذا الامل بذهاب فون رونشتدت في يوليو (تموز) وعاد يتألق من جديد عند عودته في سبتمبر (ايلول) . وكان فون كلوغ قد واجه امكانية من هذا النوع بتاريخ ٢٠ يوليو (تموز) ولكنه لم يقرر تنفيذها .

فقد كان يتردد في بادىء الامر لانها تعني نقضا لقسم الولاء الذي أعطاه لهتلر ، ثم تردد أيضا نظرا لان الشعب الالماني الذي يجهل الوضع جهلا مطبقا لن يدعم أبدا مثل هذا العمل ، بالاضافة الى أن العسكريين العاملين في الجبهة الشرقية قد يتهمون العسكريين العاملين على الجبهة الغربية بالخيانة . وأخيرا كان فون كلوغ يخشى أن يعتبره التاريخ خائنا لبلاده . وعندما استدعي فون رونشتدت الى الخدمة خلال أزمة سبتمبر (ايلول) مورست هذه الضغوط ذاتها ضده بقوة أكبر أيضا . ويضاف الى هذا الصعوبات العملية الكثير التي يتضمنها تنفيذ مثل هذا المشروع التآمري في ظل رقابة شديدة . وقد تأثر فون رونشتدت بالصراع النفسي الدائر بين قراره وواجبه ، والذي زاد من حدته التدخل المتواصل لهتلر في قيادته ، وحوّل هذا الصراع فون رونشتدت تقريبا الى رجل عاجز خلال شهور الخريف ، على حين كان الحلفاء يعتقدون بأنه يقود الدفاع الالماني في الغرب .

واقتصر دوره فيما سمي « بهجوم رونشتدت » في ديسمبر (كانون الاول) الذي جرى في الآردين على المراقبة والشك عن بعد . إذ كان الهجوم مشروع هتلر فيما يتعلق بالهدف من الهجوم وسيره ومكانه . وقد طرأت بعض التحسينات على مشروع الهجوم من الناحية التقنية بناء على اقتراحات فون مانتوفيل قائد جيش البانزر الخامس . وأوكلت مهمة التنفيذ الى مودل والى معاونيه الرئيسيين فون مانتوفيل وسيب ديتريخ قائد جيش البانزر السادس .

وفي نهاية اكتوبر (تشرين الاول) ارسل هتلر خطته الى فون رونشتدت . وكانت تتضمن نفس الخطوط الكبرى لخطة ١٩٤٠ الرائعة . وكان عليه أن يستفيد من الطريقة التي سيزج الحلفاء فيها قواتهم في الاندفاعة عبر السهل البلجيكي نحو اكس لا شابيل وكولون ، دون أن يتوقعوا هجوما مضادا لمانيا في هذا الوقت أو في الآردين بالذات . وقد ظهر هذا الحساب النفسي صحيحا . وكان على الجهد الرئيسي أن ينصب على تقدم مضاعف من جيشي البانزر الخامس والسادس ، بغية خرق الجبهة الامريكية ، الرقيقة الى حد ما في الآردين ، ثم الاستدارة الى الشمال ، وعبور الموز والتوجه الى أنفرس .

وكان دور جيش البانزر السادس التقدم على طول التفوس الداخلي للدائرة ما وراء ليج ، اما الجيش الخامس فيتقدم خارج هذا الخط ، فيما وراء نامور . وكان على الجيش الخامس عشر مساعدة جيش البانزر السادس باندفاعة جانبية شمال ليج في حين يقوم الجيش السابع بتغطية جناح جيش البانزر الخامس خلال تقدمه نحو الشمال .

وكان هتلر يأمل بضربة المنجل الكبير هذه قطع مجموعة جيوش مونتغومري الواحدة والعشرين عن قواعدها وحلفائها الامريكيين ، والتوصل الى دحرها ودفعها للاستناد الى « دنكرك » هولندية اذا لم يدمرها . فأن لم يجد انكلترا التي هي خارج مدى الاصابة في مواجهته ، فان الجيوش البريطانية موجودة في متناوله . وتشكل هدف الاندفاعة النهائي . ولكن القادة المكلفين بتنفيذ هذه الخطة اعتبروا هذا الهدف اكثر طموحا من امكانات الوسائط الموضوعة تحت تصرفهم .

واتفق فون رونشتدت ومودل وفون مانتوفيل على اقتراح خطة أكثر تواضعا على هتلر بعد ان فهموا ان الاحتجاج المباشر غير مجد وكانت خطتهم المقترحة تتضمن الاطباق على البروز الامريكي شرقي الموز من كل جانب وتدميره حول اكس ـ لا ـ شابيل . ورفض هتلر تقليص حجم خططه بهذا الشكل ، ولكنه اقتنع من فون مانتوفيل بتعديل بعض اجراءات التوقيت والاسلوب . وكان استعداده لقبول حجج الجنرالات الصغار أكبر من استعداده لقبولها من الجنرالات القدامى، وكان جاهزا دوما للاصغاء الى الافكار الجديدة ، في حين كان يبقى أصما امام النصائح التي تطالبه بالتعقل . وكانت التبديلات المتبناة تتيح فرصا اكبر في المباغتة الاولية ، ولكن لم يكن بوسعها زيادة امكانات النتيجة النهائية .

وكان شن الهجوم بقوات ضعيفة بالنسبة لقوات العدو يعني المجازفة بالمصير . وعرف كل المنفذين الكبار بان المانيا تلعب ورقتها الاخيرة وان مواردها لم تكن لتسمح لها باحتمال صغير للنجاح ، الا اذا اتيحت لهاضربة حظ غريبة ساعدها فيهاالقدر ، أوحماقة استثنائية ارتكبها قادة الحلفاء . ولم يكن هذا الوضع المسبق مشجعا ابدا للهجوم . وزحزح عنف الضربة موقف الحلفاء بصورة كافية لكي تثير لديهم صعوبات جدية

ولتقنعهم بوجود خطر مبالغ فيه . ولكن ضعف الجيوش الالمانية آنذاك جعلها عاجزة عن القيام بمناورات غير مناورات الايقاف والتعديلات التي تطرأ عادة خلال الهجوم .

وتمكن فون مانتوفيل تقريبا من الوصول الى الموز ، في حين تعرض سيب ديتريخ لكثير من المصاعب رغم ان قواته كانت اكبر من قوات فون مانتوفيل ورغم ان واجبه كان يتمثل في تحقيق هدف أقرب . ووصلت القوات الاحتياطية المرسلة لدعم فون مانتوفيل متأخرة بشكل افقدها القدرة على تحقيق أية نتيجة ، لان الحلفاء اتخذوا بسرعة تدابير مضادة . وكان الهجوم بعيدا عن تحقيق هدفه . وعندما انتهى هذا الهجوم ، أصبحت المانيا بسببه فقيرة بالقوات الاحتياطية ولا تملك امكانية الدفاع عن نفسها مدة طويلة .

الجزء الثاني

التمهيد للحرب



الفصل الثامن

وصول هتلر الى السلطة

لقد رُوي تاريخ استلام هتلر للسلطة عدة مرات من وجوه مختلفة . ويبقى علينا أن نعرض وجهة نظر الجيش الذي غالبا ما اتهم قادته بمساعدة هتلر وتشجيعه في صعوده على المسرح السياسي . ومع كل هذا ليس هناك سوى بعض الادلة التي تدعم هذا التأكيد وتسنده .

مما لا شك فيه ان منهاج بعث الجيش الذي وضعه هتلر أتاح مزايا مؤكدة لضباط الجيش . وفضلا عن ذلك ، فلقد اعترف فون بلومبرغ وبعض الجنرالات الآخرين بانهم بدأوا ينشرحون ويتمتعون بالنظام الهتلري ، لانه كان يحرر المانيا والجيش من قيود معاهدة فرساي . فهل هناك شيء يمكن أن يثير سعادة عسكريين متحمسين لمهتهم اكثر من هذا العمل ؟ ومع ذلك ما كاد بعض الوقت يمضي، حتى ندموا وأسفوا . وهناك آخرون ، أكثر ذكاء وفطنة ، استشعروا بعض المخاوف منذ البداية ، لأنهم كانوا يملكون أسبابا جدية للاعتقاد بأن العسكريين النازيين الهواة أو « غيز النبلاء » والذين ترأسوا فصائل الانقضاض لن يقبلوا بأن يحتفظ الجيش التقليدي المحافظ باحتكار الكوادر العسكرية عندما يستولي حزبهم على السلطة .

ويجب أن لا نستنتج من تعاطف عدد كبير من الضباط مع هتلر أنهم شاركوا بقسط فعلي في اقامة النظام الجديد ، وان لا نستنتج أيضا بأن الجيش كله قد استخدم لهذا الغرض . وفي الحقيقة ، لم يكن مثل هذا العمل ممكنا لولا ان بعض قادة الجيش قد

اظهروا استعدادهم الملائم لقبوله . بيد ان الوقائع الاساسية تبدو وكأنها بالاحرى تشير الى عكس ذلك . ففي هذه اللحظة الحرجة ، كان قائد الجيش ، على المستوى السياسي ، هو الجنرال فون شليخر الذي سمي وزيرا « للرايخز ويهر » في وزارة فون بابن . وكان من العاملين تحت امرته العقيد فون برودو ، مدير « الغرفة العسكرية » التي أصبحت فيما بعد القيادة العليا « للويهر ماخت » . وكان القائد العسكري للجيش هو الجنرال فون هامر شتاين .

وبعد وقت قصير من وصول هتلر الى السلطة ، سُحبت قيادة الجيش من فون هامر شتاين . ثم اغتيل فون شليفر وفون برودو في عملية التطهير الدموية بتاريخ ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٣٤ . واعتبر اغتيالهما دليلاً على ما كان يؤكده بعض الضباط الآخرين : فقد حاولا اعاقة تقدم الحزب النازي .

وقد وصف لي الجنرال روهر يخت احد مساعدي شليخر في هذه الفترة ظروف هذه المرحلة الحرجة ، والمراحل التالية للصراع بين الجنرالات وهتلر . وتختلف روايته عما استطعنا معرفته من طرف ثالث ، ولكنها تستحق أن يوجه اليها الاهتمام : فهي شهادة واحد من النادرين الباقين على قيد الحياة من بين الذين كان لهم دور في هذه الاسابيع الحاسمة .

لقد رسم روهر يخت في ملاحظاته التمهيدية صورتَيْ فون شليخر وفون هامر شتاين . وها هو وصفه لفون شليخر : « لم يكن عسكريا بمقدار ما هو خبير في السياسة الداخلية مع انه لا ينتمي الى أي حزب سياسي . وكان يتمتع بنوع من الشعبية في أوساط النقابات نظرا لتعاطفه معها ، ولكن المحافظين كانوا يحذرون منه بسبب حبه للاصلاحات الاجتماعية . كان فون شليخر النقيض التام « للسيد » وتكتيكياً محنكا وماهراً في السياسة ، ويفتقر الى مقومات رجل الدولة ، تلك المقومات الضرورية في تلك الفترة . » وعندما تحدث روهر يخت عن فون هامر شتاين صرح قائلا : « كان حاذقاً ، وموهوبا الى حد كبير ، ورزيناً من وجهة النظر السياسية ، لكنه خامل كعسكري . وكان

يتقيد بسياسة فون شليخر لانه من أشد المعارضين للاشتراكية ـ الوطنية . » وتابع روهر بحث روايته قائلا :

بقية الاحداث :

قررت حكومة فون بابن وفون شليخر في معركتها ضد الحزب الاشتراكي ـ الوطني في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٢ حل الرايخستاغ وتقديم استقالتها . وخسر هذا الحزب ذاته كثيرا من الاصوات في الانتخابات ، ولم يكن بوسعم فون بابن أو بوسع المعارضة في المجلس النيابي الجديد الاعتماد بثقة على كتلة قوية تشكل أكثرية برلمانية محددة . ومن ناحية أخرى كانت المعارضة مقسومة الى جزء يميني ، وجزء يساري . وأراد الرئيس تكليف فون بابن من جديد بتأليف الحكومة . ولكن العلاقات كانت متوترة مع كل مجموعات المعارضة الثورية . وخلال اضراب عمال النقل في برلين ، في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٢ ، كان التفاهم بين الشيوعيين والاشتراكيين ـ الوطنيين واضحا وجليا . وكان هذا التفاهم يشكل ظاهرة خطرة !

وعقد مؤتمر في هذا الوضع السيء لتحري بعض الاحتمالات الممكنة . وتم انعقاده حوالي ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) في مبنى وزارة « الرايخز ويهر » ؛ اشتركت فيه وزارة الداخلية . ودرس المجتمعون المسألة التالية : هل ستكون القوات المسلحة الموجودة تحت تصرف الدولة كافية لتحطيم ثورة يقوم بها تحالف يضم أقصى اليسار وأقصى اليمين ؟ من الممكن وقوع هذا الاحتمال لو ان حكومة جديدة برئاسة فون بابن اعتمدت على اليمين المحافظ (الدويتش ناسيونال) الذي يضم منظمة « الخوذ الفولاذية » (ستاهلهلم) .

وكان الاستنتاج ان قيام اضراب عام لعمال النقل سيشل تماما نشاط الدولة والجيش وتنظيمهما ، لان الجيش لم يكن آليا الا بصورة جزئية ، وتبقى مفارز النجدة التقنية فيه غير كافية . وكان من الواجب حسب رأي فون شليخر تجنب دفع القطعات الى اطلاق النار على المواطنين ، ولم تكن الحكومة تريد « الجلوس وسط الحراب » .

في هذا الوقت دُفع فون شليخر ، خلافا لرغبته وارادته ، الى استلام منصب المستشار شخصيا ، ، وهو يفكر بأن هذا المنصب سيكون موقتا أساسا . وكان الجميع يعتبرونه عسكريا محايدا لا ممثلا للدوائر المحافظة والرجعية على غرار فون بابن . وهكذا قبله المعتدلون والاشتراكيون ـ الديموقراطيون على أنه اهون الشرين . ووافق الاشتراكيون ـ الوطنيون أيضا عليه ، ووجدوا في هذا الاجراء « الذي يسد الثغرة » مقفزا ممكنا لتسلق السلطة ، وكان لهذا التعيين في نهاية نوفمبر (تشرين الثاني) اثر مهدىء ، وسمح لجميع الناس بأن يتنفسوا الصعداء .

وكان فون شليخر يأمل بتحطيم انقضاض الاشتراكيين ـ الوطنيين بتقسيمهم في داخل « الرايخستاغ » . وكانت الفرصة تبدو ملائمة لان الحزب ، الذي خاب أمله بتراجعه في الانتخابات ، كان يمر بضائقة مالية . وجرت مفاوضات مع ستراسر ومع حوالي ثمانين نائبا آخرين . وتأجل افتتاح « الرايخستاغ » .

وبدأ المستقبل يتوضح أيضاً عندما تم الحصول على نجاح في المجالات الدولية في بداية ديسمبر (كانون الاول) : فقد منح مؤتمر نزع السلاح تحت ضغط القلق الذي سببته الاضطرابات الداخلية في الماتيا ، منح هذا المؤتمر لالمانيا مبدأ حق المساواة العسكرية .

واصطدم فون شليخر منذ البداية بمعارضة قوية من قبل المحافظين (الدويتش ناسيونال) بسبب الاصلاحات الاجتماعية الهامة الواردة في برنامجه . وعلى هذا ، هدد فون شليخر بفضح المحاباة الفظيعة في استخدام أموال المعونات للدول الشرقية (اوستهليلف) . وكان كبرسن الرئيس هتدنبورغ يجعله عاجزا عن الحكم بصورة صحيحة . فوقع تحت تأثير نفوذ بعض اصدقائه ومعاصريه المحافظين الذين اتهموا فون شليخر بأنه ذو إتجاهات « بلشفية » وأشاعوا بأنه يريد افساد الجيش لتحقيق أهدافه السياسية الخاصة . وفي الوقت ذاته دبر فون بابن مكيدة (بالاتفاق مع هتلر) كان يأمل بواسطتها استعادة السلطة بمساعدة الاشتراكيين ـ الوطنيين . ولكنه خُدع في نهاية المطاف .

وهكذا أوقفت ازمة هندنبورغ ـ فون شليخر المناقشات التي كانت بداياتها جيدة جدا واحبطت بالتالي المحاولة التي كان يأمل فون شليخر بواسطتها تجزئة الحزب الاشتراكي ـ الوطني . ووجد فون شليخر نفسه حالا في موقف صعب ورأى أنه غدا محروما من دعم الرئيس ومن أمل الحصول على اكثرية في المجلس النيابي . وبتاريخ ٢٦ أو ٢٧ يناير (كانون الثاني) حاول الجنرال فون هامرشتاين ، رئيس هيئة الاركان العليا للجيش مرة أخيرة تغيير موقف الرئيس . فزُجر بعنف وخشونة . وفي اليوم التالي لاستقالة فون شليخر أي بتاريخ ٣٠ يناير (كانون الثاني) عُيِّن هتلر مستشارا .

واختفى باختفاء الجنرال فون شليخر المستشار الوحيد الذي خرج من صفوف القوات المسلحة . وفي أول فرصة ـ وقد لاحت هذه الفرصة بتاريخ ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٣٤ ـ اغتيل شليخر بأيدي بعض عملاء الحزب النازي ، كما اغتيل في الوقت ذاته ستراسر والعقيد فون برودو ، الذي يولغ على ما يبدو بكفاءاته السياسية .

وبعد أن أصبح هتلر مستشارا ، لم يعد الجيش وسيلة العمل الوحيدة للحكومة . وشتت الـ ١٠٠,٠٠٠ رجل الذين كانوا يشكلون الوحدات الصغيرة في الجيش على طول أرض الرايخ ، وغدت الآلة التي كانت تشكل الدولة بكاملها تحت سيطرة الحزب . وسيطر الحزب النازي أيضا على المواصلات ، والنقل ، والمصالح العامة ، وجزء كبير من الطبقة العاملة حتى انه سيطر على رأي رجل الشارع . فقد جرد الجيش من قيمته .

وعند معرفة هذه الوقائع ، اتجرأ فأؤكد بأنه من الخطأ ، من وجهة النظر التاريخية ، اتهام القوات المسلحة الالمانية بمساعدة هتلر على استلام السلطة . ان عرض الاحداث يؤكد عكس ذلك .

ولهذا فانني أريد بحث المسألة التالية : هل كان الجيش يملك امكانية التمرد بصورة صريحة ؟

لقد درست الدوائر التي كان يسيطر عليها فون شليخر وفون هامر شتاين بعد هذه الايام العصيبة وبعد انتصار الحزب النازي امكانية القيام بانقلاب عسكري ينفذه

الجيش ، ثم استبعدوا هذه الفكرة باعتبارها مستحيلة .

وكانت اسبابهم هي التالية :

- عين الرئيس هتلر مستشارا ، تطبيقا لاحكام الدستور كزعيم لاكثر الاحزاب تمثيلا . وبناء على هذا فهو يتسنم هذا المنصب شرعيا .

- ان انقلابا عسكريا يقوم به «الرايخزويهر» بدفع من الجنرالين فون شليخر وفون هامر شتاين ، المعروفين معرفة بسيطة من الجنود قد يبدو موجها لا ضد الوزارة الجديدة هتلر - فون بابن - هوغنبرغ ، بل موجها أيضا ضد الشخص المحترم جدا الرئيس هندنبورغ القائد العام «للرايخزويهر» .

- هل يمكن اقامة تحالف سياسي ؟ كان التحالف السياسي مستحيلا مع الشيوعيين . وليس هناك أية تحضيرات تسمح باقامته مع الاحزاب الجمهورية الاخرى .

- لو ان انقلابا عسكريا وقع لما ايدته القطعات المرتبطة بيمين الولاء لهندنبورغ .

- وفضلا عن هذا ، فان تفاوت القوات وتباينها غير ملائم أيضا أكثر مما كان في نوفمبر (تشرين الثاني) .

- وأخيرا ، فان النتائج المؤلمة لاي فشل لا شك فيها .

من يناير (كانون الثاني) ١٩٣٣ الى موت هندنبورغ (أغسطس - آب ١٩٤٣ ، ابتعد الجيش عن الإحداث السياسية التي بدلت شكل المانيا وبنيتها بسلسلة من التدابير الثورية الجذرية . وشكل هذا الجيش جزيرة تحت قيادة هندنبورغ لا تحت قيادة هتلر . بيد ان هندنبورغ كان يشيخ ويهرم . فأمر بتعيين فون فريتش بديلا عن فون هامر شتاين .

الرجال الجدد

في يناير (كانون الثاني) ١٩٣٣ عُيّن فون بلومبرغ وزيرا للحربية . ولم يكن على

صلة بهتلر لانه كان ممثل المانيا في السابق في مؤتمر نزع السلاح بجنيف . وبالرغم من أنه عسكري بكل معنى الكلمة ، ورجل مجتمع ، ومتعلم ، ويتمتع بذهن متفتح ، الا انه يفتقر الى الشخصية . وكان كثير التأثر بآراء الآخرين وشخصياتهم .

قائد القوات الضاربة ـ كان سابقا مديرا للغرفة العسكرية في وزارة الحربية ـ فون رايخناو ، الموهوب بشخصية قوية ، والمفعم بالمبادأة ، كان رجل عمل ، ومندفع أكثر مما هو مفكر ، بالاضافة الى انه طموح ، وماهـر جدا ، ومثقف جدا ، وشاعـر حتـى في اوقات العمل ، الامر الذي لم يكن ليمنعه نظرا لمزاجه الذي يتسم بالرجولة ، من ممارسة الالعاب الرياضية . وكان يعرف هتلر منذ عدة سنوات ويستشعر الارتباط بشخصه أكثر من الارتباط بالحزب .

اما الفـارس فون فريتش (رئيس اركان الجيش ، والـذي أصبـح القائـد العـام للجيش فيما بعد) فقد كان عسكريا ممتازا ، وسيدا مهذبا كاملا ومتدينا جدا . ولم يكن يهتم حقا الا بالامور العسكرية .

وكان فون بلومبرغ وفون رايخناو يتوليان مهمـة مزدوجـة : ضمان مكان للجيش جدير به في الدولة الجديدة ـ إضطرا الى قبوله طوعا أو كرها ـ والمساهمة في توطيد حياة عامة متوازنة بالقضاء على العناصر الثورية للحزب .

ومن الملاحظ أن فصائل الانقضاض الثورية ، التي كانت تسيطر في تلك الفترة على الجماهير والحزب ، انتصبت منذ البداية ضد الجيش . وكانت فصائل الإنقضاض تدّعي انها تخلق بوجودها جيش الدولة الجديدة . وكان الجيش يستعد للكفاح من أجل المحافظة على وضعه . واضطر هتلـر ، ككل الحكام الفـرديين الى التخلص من أكثـر العناصر الفوضوية في فصائل الانقضاض ، ومن أولئك الـذين كانـوا يشكلـون حرس الطاغية ، ورفعوه الى السلطة . وتبنى هتلر الجيش ، وبتاريخ ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٣٤ ، حل فصائل الانقضاض (روهم) دون أن يستعين بالجيش .

واعتبر الجيش هذا التاريخ علامة للنجـاح ، بالرغـم من بعض اعمال التطـرف

الجدية ضده (كمقتل فون شليخر واخرين .) . ومع هذا كان هذا الانتصار ذا ثمن غال ، لانه اعتبارا من هذا اليوم ، رأى الجيش خصما اخطر ينتصب امامه هو : فصائل الحرس النازي (س .س .) التي أنشئت مجددا .

من موت هندنبورغ الى عام ١٩٣٨

استلم هتلر منصب رئيس الدولة بعد وفاة هندنبورغ . وأصبح بهذا الشكل قائدا أعلى للقوات المسلحة .

وامتصَّ كل نشاط الجيش ووسائطه في بادىء الامر بالهدف الاول لاعادة تسليح المانيا بغية الوصول الى المساواة مع جيرانها . وكانت كل مرحلة جديدة تتحقق على طريق هذا الهدف تضعف الاسس المتينة للجيش المحترف ، الذي كان متماسكا ومنسجما حتى ذلك الوقت . وكان الاربعة آلاف ضابط محترف يعملون لتشكيل نواة كوادر جيش في طور الانشاء ولتشكيل نواة ضباط الطيران أيضا . وجاء بعض الضباط الآخرين لزيادة عدده ، وكانوا من الضباط الذين اعيدوا الى مناصبهم من المهن والاوساط المتباينة والمختلفة . وأدخل جميع هؤلاء ، والشباب منهم على وجه الخصوص ، افكارهم السياسية . وتحولت طبيعة هيئة الضباط بهذا الشكل ، وبدأ الحزب في ربح الارض داخل الجيش . ولم تلبث روح القطعة القديمة ان اختفت .

ومع عودة الخدمة العسكرية ، لم يعد من الممكن استخدام الجيش في حال الاضطرابات الداخلية . وضعف الجيش أيضا بانشاء « اللوفتوافه » القوة الجوية الالمانية - المشبعة منذ البداية بالعقائد الاشتراكية - الوطنية . وضمت القوات الجوية الالمانية المدفعية المضادة للطائرات اليها . ولم يكن ذلك دون سبب ، فقد حرم الجيش بهذا الشكل من حمايته المضادة للطائرات . وتضاءلت امكانات تدخل الجيش في حالة الحرب الاهلية اكثر أيضا .

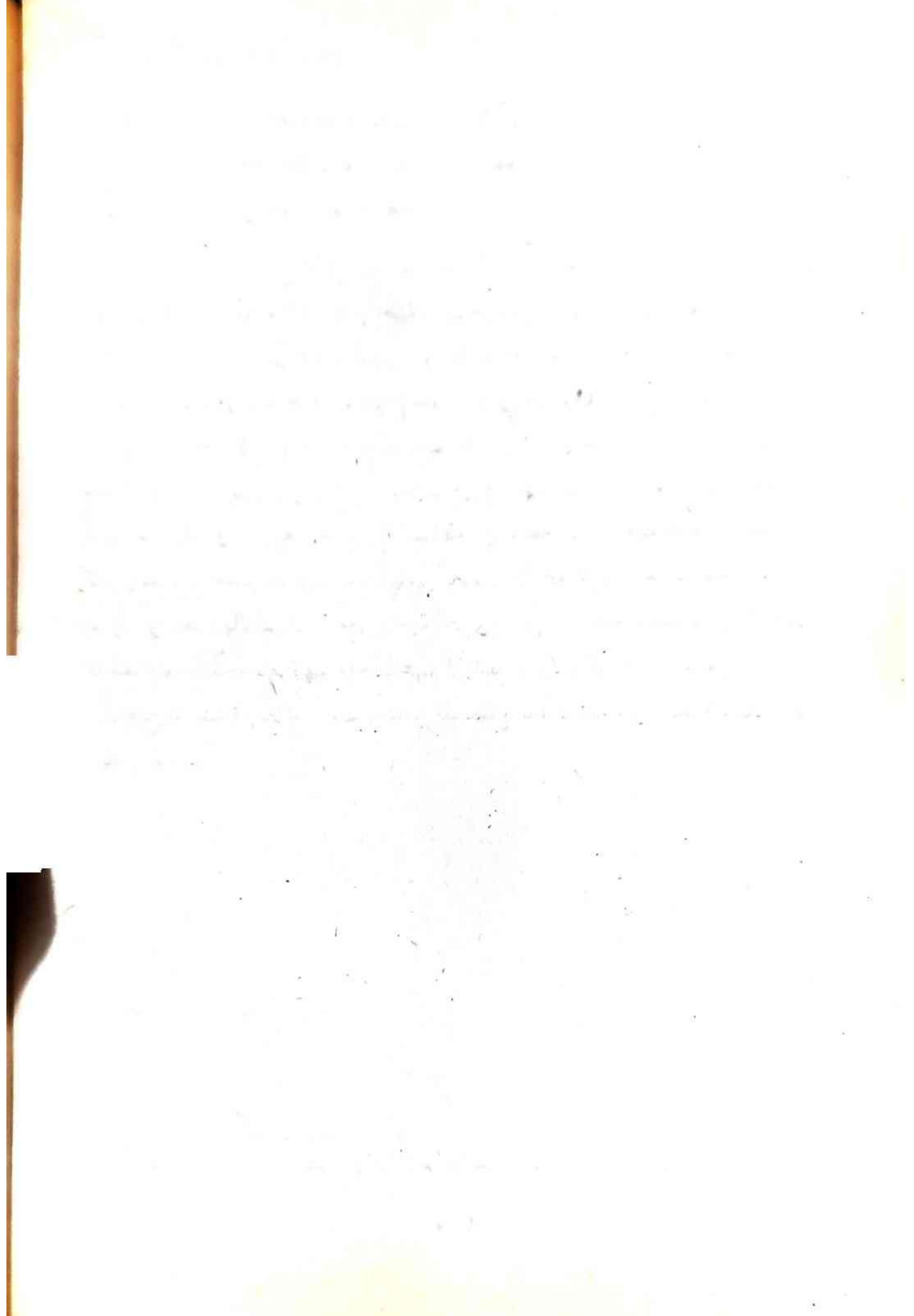
وبالرغم من هذا ، فكر قادة الجيش من جديد بأن يثوروا ضد هتلر عندما وقع صراع خطير حول موضوع شخص الجنرال فون فريتش في يناير (كانون الثاني) وفبراير

(شباط) ١٩٣٨ ، عندما وقعت حادثة طرد فون بلومبرغ . فتسنم هتلر بشخصه القيادة المباشرة للقوات المسلحة مكان فون بلومبرغ واحتفظ بكيتل (خلف فون رايخناو) الذي لم يتجاوز دوره مدير مكتب مهذب لهتلر .

وأثار الظلم الفادح الذي وقع على الجنرال البارز فون فريتش حنق الجنرالات المعينين في مراكز القيادة العليا (والمطلعين الوحيدين على وقائع المؤامرة)[1] . وتحت القدور المعدنية التي يغلي فيها التمرد ، كانت مجموعة معارضة سرية تؤجج النار وتذكيها . وكان مؤسسو هذه المجموعة هم : غورد ولر وشاخت اللذان يريدان المغامرة بكل شيء من أجل كل شيء . ومع ذلك لم يكن يجمع بين الجنرالات التماسك الضروري لعمل حاسم . فلم يكونوا يؤلفون ابدا ، كما في عهد سيكت ، جماعة موحدة قوية . وكانوا يفتقرون الى التوابع الضرورية للسلطة أي للقطعات المستعدة لخدمة مخططاتهم . وكانوا يفتقرون خصوصا الى زعيم سياسي مصمم على العمل ومستعد لرئاسة الحكومة . فلم يحاولوا القيام بالعصيان . ومن ناحية أخرى ، شرع هتلر منذ البداية في الايقاع بين قادة القوات المسلحة لتفرقتهم واخضاعهم لارادته . وكان كل قائد يستشعر العزلة دون أن يستطيع استشارة زملائه . ولم يعد من المستطاع أبدا الاعتماد على وحدة وتماسك العمل السياسي للجيش .

---

(١) يتهم خصوم هتلر من المدنيين الجنرالات بانهم تركوا غضبهم بحنق بهدوء دون أن يصلوا به الى مرحلة الانفجار .



الفصل التاسع

ظهور المدرعة

بدّل وصول هتلر الى السلطة وظهوره على المسرح السياسي الخارطة الاوروبية بسرعة أكبر ، ولكن لمدة أقل بكثير مما فعله وصول نابليون الى السلطة . وكان تطور المدرعات في الجيش الالماني هو الذي سمح لهتلر باكمال سلسلة فتوحاته . ولولا هذا السلاح لما أمكن قلب احلامه الى حقيقة . وكانت المدرعات ادوات هتلر الممتازة لتحقيق هذه الاحلام أكثر بكثير من الطيران والعملاء من أمثال كيسلينغ . ولم تكن الوسائل الاخرى المستخدمة كافية لتأمين نصر خاطف بدون القوة الوحيدة لاختراق المدرعات واندفاعها . وكان هتلر يملك البصيرة النافذة في تعميم هذا السلاح الجديد . ومع ذلك كان عليه فيما بعد أن يدفع غاليا ثمن عدم تطويره بصورة كافية .

وقد أتيح لي الحظ بأن اسمع بالتفصيل رواية ظهور دبابات « البانزر » من فم الجنرال فون توما ، وهو اشهر داعية من الدعاة الاوائل لاستخدام الدبابات بعد غودريان . وكان ودودا بالرغم من خشونته ، ومن الواضح كل الوضوح انه مفعم بالحماسة منذ ولادته ، ويعيش في عالم الدبابات ، ويحب القتال من أجل القتال . وكان شخصا مجردا من الاحقاد ، يحترم كل خصم جدير بهذا الاسم . ولو انه عاش في القرون الوسطى لكانت فرحته في أن يعيش كفارس مقاتل ، يستفز أول قادم يصادفه ليبارزه في احد مفترقات الطرق كي ما يستشعر لذة استلال سيفه . وكان اختراع الدبابات نعمة وهبة من الله لمثل هذا الرجل ، تسمح له ببعث شخصية الفارس ذي الدرع الزردي .

وقد وصف ولادة الدبابات في الجيش الالماني عندما خلّص هتلر هذا الجيش من قيود معاهدة فرساي قائلا ما يلي : « كان رائعا أن يكون لدينا أخيرا دبابات حقيقية في عام ١٩٣٤ ، بعد أن اضطررنا خلال عدة سنوات الى استخدام دبابات وهمية للشروع بمناورات تكتيكية ، وحتى ذلك الوقت ، كانت تجربتنا الحقيقية الوحيدة هي التجربة المكتسبة في معسكر التجارب الذي وضع تحت تصرفنا في روسيا بفضل اتفاق سابق مع حكومة السوفييت. وكن المعسكر الواقع بالقرب من قازان خصيصا لدراسة بعض المسائل التقنية . وفي عام ١٩٣٤ ، شكلنا أول كتيبة المانية للدبابات في أوهردروف تحت اسم « مجموعة التدريب الآلية » . وقد كُلّفت بقيادتها . وكانت نواة كل الكتائب التي شكلت فيما بعد .

« ثم كبرت هذه الكتيبة وأصبحت فوجا يتضمن كتيبتين، وأنشىء فوجان آخران في زوسن . وتحقق تجهيزهما رويدا رويدا ، وببطء يتوافق مع ايقاع انتاج المصانع في ذلك الوقت .وكان لدينا في بادىء الامر الدبابة كروب مارك ٢ ٠ مع محرك يبرد بواسطة الماء . وفي عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ تحقق تقدم ضخم مع الدبابات الاولى مارك ٣و٤ . وفي غضون ذلك، كان تنظيمنا يتطور. ورأى عام ١٩٣٦ تشكيل لواءي دبابات ، لواء في كل فرقة من الفرقتين المدرعتين اللتين انشئتا في ذلك الوقت . وكان ضباط الدبابات الالمان يدرسون عن قرب المذاهب البريطانية في استخدام الدبابات ، وخصوصا مذهبكم ومذهب الجنرال فوللر ، في حرب المدرعات. وكانوا مهتمين ويعنون عناية فائقة بنشاطات سلاح المهندسين في أول لواء بريطاني للدبابات . » (أنشىء هذا اللواء موقتا في عام ١٩٣١ ، على سبيل التجربة ، وتحت قيادة العقيد ـ الآن جنرال ـ برواد ، وشكل نهائياً في عام ١٩٣٤ بقيادة العميد هوبار ـ الذي حصل على عدة ترقيات فيما بعد) .

وسألته عما اذا كانت المبادىء المتعلقة باستخدام الدبابات الالمانية قد تأثرت بالكتاب المعروف جيدا للجنرال ديغول ، كما ادعى البعض في غالب الاحيان . وكان رده : « كلا ، اننا لم نعره اهتماما كبيرا ، لاننا وجدناه «غريبا» . فلم يكن يعطي أبدا

نصائح تكتيكية وانماكان يحلق في الغيوم، ومن ناحية أخرى فقد صدر هذا الكتاب بعد البيانات العملية البريطانية بمدة طويلة » .

وأضاف فون توما قائلا : « من المحتمل أن تفاجأ عندما تعرف بأن انشاء العناصر المدرعة اصطدم بمقاومة قوية في أوساط القيادة العليا للجيش الالماني ، كما حدث عندكم . وكان الضباط القدماء لا ينظرون نظرة سليمة وصائبة الى نمو مثل هذه القوات لانهم هم انفسهم لم يكونوا يفهمون استخدامها، ولا يحسون بالراحة فيها . ورويدا رويدا ، بدأوا يهتمون بها ، ولكن بحذر وشك . ولولا تحفظاتهم لاستطعنا التقدم بصورة أسرع . » .

وأرسل فون توما ذاته الى اسبانيا في عام ١٩٣٦ ، في أيام الحرب الاهلية . . وقد علق على تلك الفترة قائلا : « في الحقيقة ، كنا نتوقع أن تكون اسبانيا ، « حقل تجارب أوروبي » . « اما انا فقد سافرت في الليلة التي حددها الجنرال فرانكو لبدء تمرده . ومررت بمارسيليا وليشبونة والتقيت به في ميريدا للاتفاق معه على المساعدة التي سنقدمها له . وكنت على رأس قطعاتنا البرية في أسبانيا طيلة الحرب . وقد بالغت الصحف الى حد كبير بعدد هذه القطعات الذي لم يتجاوز تعدادها في وقت من الاوقات ٦٠٠ رجل (فيما عدا أفراد الخدمات وأفراد الطيران) . وكان واجبهم تدريب جنود فرانكو ، وخصوصا الجنود المعينين في الدبابات واكتساب تجربة المعركة لانفسهم .

« وكان القسط الرئيسي من مساعدتنا لفرانكو في العتاد : طائرات ودبابات . فلم يكن يملك في البداية الا عددا صغيرا من الدبابات من نموذج عفى عليه الزمن . ووصلت أول مجموعة من الدبابات الالمانية في سبتمبر (ايلول) ، تلاها مجموعة أهم في اكتوبر (تشرين الاول) . وكانت الدبابات من نموذج كروب مارك ١ .

« وكان الروس أسرع في تزويد خصوم فرانكو بالدبابات . فقد وصلت اليهم في نهاية يوليو (تموز) . وكانت هذه الدبابات أثقل من دباباتنا ، ومجهزة بالرشاشات فقط . وحددت مكافأة قدرها ٥٠٠ بيزيتا لكل من يستولي على احدى هذه الدبابات ، لانني

سأكون في غاية السرور اذا تمكنت من استخدامها . واستولت قطعات المغرب الاسباني على كميات منها. واعتقد أنه يهمك ان تعرف أن خصمي في المعسكر الآخر كان كونييف الذي يحمل الآن رتبة مارشال في الجيش السوفييتي .

« وبفضل توزيع أريب لمجموعة الافراد الالمان ، تمكنت فورا من تدريب عدد كبير من سدنة الدبابات الاسبانية . ووجدت انهم كانوا يتعلمون بسرعة . . . . ولكنهم كانوا ينسون أيضاً بالسرعة ذاتها. وفي عام ١٩٣٨ ،كان تحت قيادتي اربع كتائب دبابات، تضم كل كتيبة منها ثلاث سرايا، وتضم كل سرية خمس عشرة دبابة . وجهزت أربع سرايا منها بدبابات روسية . وكان لدي أيضا ثلاثون كتيبة مضادة للدبابات مسلحة بمدافع عيار ٣٧ مم .

« وكان الجنرال فرانكو يريد توزيع دبابات الانقضاض بين وحدات المشاة تبعا لتصورات كثير من جنرالات االمدرسة القديمة . وكنت أعارض دوما هذا الاتجاه لكي استطيع استخدام الدبابات بكثافة .ويعزى جزء كبير من نجاحات فرانكو الى اسلوبي هذا .

« عدت من اسبانيا في نهاية الحرب الاهلية ، في يونيو (حزيران) ١٩٣٩ وألفت كتابا عن تجاربي والدروس التي استخلصتها منها. ثم تسنمت قيادة فوج للدبابات في النمسا . وعرضت عليّ قيادة أحد الالوية ، ولكنني اعتذرت مفضلا دراسة التجارب الالمانية الحديثة بامعان عن طريق البدء باستخدام فوج ، لانني كنت قد فقدت منذ زمن طويل الصلة بكل ما كان يجري في بلادي . فوافق الجنرال فون براوخيتش . وفي أغسطس (آب) استلمت قيادة أحد الوية الدبابات في فرقة البانزر الثانية ، بغرض الاشتراك في حملة بولونيا .

« كانت هذه الفرقة جزءا من جيش الجنرال فون ليست ، في اقصى الجناح الجنوبي فيما وراء الكاربات ، وتلقيت الامر بالانتقال الى مضيق جابلونكا ، بيد انني اقترحت ارسال اللواء الآلي بدلا من لواء الدبابات ، في حين قمت بحركة التفافية جانبية بلوائي -

عبر غابات كثيفة ومارأً من الذروة . وعندما نزلت الى السهل ، وصلت الى احدى القرى فوجدت الناس في طريقهم الى الكنيسة. فاحكم انت بنفسك على ذهولهم عندما رأوا دباباتي ! وبعد مسيرة تقرب ليلي لمسافة ٨٠ كيلو مترا ، قمت بالالتفاف حول دفاعات العدو دون ان أخسر دبابة واحدة .

« وبعد الحملة البولونية عُينت في هيئة الاركان العامة لقيادة القوات المتحركة . وكان هذا المنصب يتضمن قيادة الدبابات ، والقوات الآلية والخيالة الراكبة - التي بقي منها فرقة - وبعض وحدات الدراجات . وكان لدينا في الحملة البولونية ست فرق مدرعة وأربع فرق خفيفة . وكانت كل فرقة من الفرق المدرعة تضم لواء من الدبابات يتألف من فوجين ، يضم كل فوج منهما كتيبتين . وكان الملاك الحربي للفوج في الاساس ١٢٥ دبابة تقريبا . وتبرهن التجربة على انه بعد عملية تستمر عدة ايام ، لا بد من ان يسقط من حسابنا ربع عدد الدبابات لنأخذ بعين الاعتبار الدبابات المعطلة التي ينبغي ان تنتقل الى ورش الاصلاح ، ويشكل الباقي الملاك المتوسط الجاهز للقتال » .

وأوضح فون توما بأنه لم يكن يحسب كدبابات جاهزة للمعركة سوى دبابات انقضاض القتال التابعة للسرايا . واذا ما اضفنا دبابات الاستطلاع الخفيفة وجدنا ان الملاك الكامل للفوج هو ١٦٠ دبابة .

« وكانت الفرق الخفيفة الآلية آنذاك في مرحلة التجربة . وكان تشكيل كل منها مختلفا . وكانت تضم ، في المتوسط ، فوجين محمولين من الرماة ، يضم كل واحد منهما ثلاث كتائب ، وكتيبة دبابات ، وتممت كما تممت الفرق المدرعة بكتيبة استطلاع مدرعة ، وكتيبة دراجات نارية وفوج مدفعية .

« وقد تخلينا عن هذه الفرق الخفيفة بعد تجربة الحملة البولونية ، وتحولت الى فرق مدرعة ، وكانت هذه القوات تضم في الهجوم على الغرب الذي تم في عام ١٩٤٠ عشر فرق مدرعة كاملة وفوج دبابات.S.S. لايبستاندارت ، الذي كانت قوته اكبر بكثير من قوة

فوج دبابات عادي . وزيدت نسبة عدد الدبابات المتوسطة للفرقة . وبقي عدد الدبابات الحقيقية في الفرقة أكثر مما يجب . »

وكشف لي فون توما بصورة أذهلتني ان عدد الدبابات التي اشتركت في غزو فرنسا ٢٤٠٠ دبابة فقط لا ٦٠٠٠ دبابة كما كانت تشير التقارير الفرنسية في ذلك التاريخ ، وأضاف فون توما قائلا بأن هذا الرقم لا يشمل دبابات الاستطلاع الخفيفة التي كان يسميها « علب السردين » . ثم استطرد قائلا : « وكانت الدبابات الفرنسية افضل من دباباتنا وكثيرة جدا ، ولكنها كانت أبطأ مما يجب . وقد هزمنا الفرنسيين بسرعتنا وبآثار المباغتة (المفاجأة) ونتائجها . » .

وعند مناقشة مختلف نماذج دبابات الانقضاض وصفاتها ، اعترف فون توما انه لو كانت له حرية الاختيار بين دبابة « بدرع ضخم » ودبابة « سريعة جدا » لاختار الدبابة الاخيرة دوما . وبعبارات أخرى كان يفضل السرعة على الدرع السميك ، بعد أن اقتنع بالتجربة ان السرعة أجدى من الدرع السميك . وأضاف أيضا أن فوج الدبابات المثالي في رأيه هو الفوج الذي يتألف ثلثاه من الدبابات الضخمة السريعة الى حد ما ، ويتألف الثلث الآخر من دبابات سريعة جدا ومزودة بدرع خفيف .

وتحدث فون توما عن هجوم ١٩٤٠ قائلا : « كان كل ضباط الدبابات يرغبون في ان يروا غودريان على رأس جيش البانزر الذي نفذ الهجوم في الآردين. فلم يكن لدى فون كليست نفس المعرفة بالدبابات ، وكان في السابق أحد اكثر خصوم الدبابات استماتة . وكان وضع رجل متشائم حول مستقبل الدبابات ، حتى ولو كان قد غير رأيه ، على رأس القيادة العليا للقوات المدرعة صفة مميزة للاسلوب الذي كانت تتم فيه الامور في الجيش الالماني ..... كما حدث في جيشكم . ولكن غودريان كان يتمتع بسمعة مرؤوس سيء . واتخذ هتلر في نهاية المطاف قراره ، وأقر تعيين فون كليست . ورغم هذا ، كُلف غودريان بتنفيذ هذا الهجوم . وقام فيه بتطبيق الاساليب التي جربها في مناورات ١٩٣٧ . ثم قاد فيما بعد الهجمة على المانش . واكب على استثمار النجاحات المكتسبة

متخذا السلوك التالي : « الى جهنم كل ما يحدث خلفي ! » . وكانت هذه الحيوية في الهجوم حاسمة لأنها لم تتح للفرنسيين الوقت لاعادة تجمعهم .

« كان البعض يقولون في الجيش الالماني أن غود ريان كان يرى دوما اللون احمر ، وكان ميالا الى الانقضاض كالثور[1] . وانني لا اوافق على هذا الرأي . فقد كنت تحت قيادته في عام ١٩٤٢ على جبهة ستالينغراد حيث اصطدمنا بدفاع مستميت ، وقدرت صفاته كقائد في هذه الظروف الصعبة . » .

وطلبت الى فون توما أن يذكر لي ما هي في رأيه العوامل الاساسية لنجاحات المدرعات الالمانية في سلسلة اختراقاتها التي تحققت في بداية الحرب . فأشار الى الاسباب الخمسة الرئيسة التالية :

١ ـ حشد كل القوات مع دعم القاذفات في نقطة الاختراق .

٢ ـ كانت الحركات الليلية في استثمار الخرق ، والتي كانت تسمح بالظهور بعيدا جدا عن الجبهة ، على مؤخرات القطعات المعادية مع عامل المباغتة (المفاجأة) أحد عوامل النصر .

٣ ـ عدم كفاية الدفاع المضاد للدبابات لدى الخصم وتفوق طيراننا .

٤ ـ كان مدى عمل الفرقة المدرعة ، باستخدام المحروقات التي كانت تنقلها بوسائطها الخاصة من ١٥٠ ـ ٢٠٠ كم ، مع امكانية تموين اضافي للرؤوس المدرعة المتقدمة بواسطة الاسقاط المظلي .

---

(١) غالبا ما لاحظت الامر التالي : عندما كان يريد أقدم الجنرالات الالمان نقد قائد قوي بصورة استثنائية ، ولا يتقيد بأنماط عملياتهم « الروتينية » التي تقاد بصورة منهجية وكأنها لعبة شطرنج ، يصفونه بأنه « ثور » . أن هذا التعبير يلائم بصورة أفضل أولئك الذين يستخدمون الضربات العنيفة لتغمير بعض المواقع الدفاعية المتينة ، اكثر من انصار الجرأة والسرعة ، وهما صفتان قادرتان على تفكيك العدو .

٥ ـ كان سدنة الدبابات يحملون معهم مؤنا تكفي لثلاثة أيام ، كما كان قَفَلُ [رتل تموين]الفوج[1] يحمل مؤنا تكفي لستة أيام ، ويحمل قَفَلُ [رتل تموين]الفرقة[2] مؤنا تكفي لتسعة أيام .

ووصف لي فون توما حالات تقدم طويلة وسريعة قامت بها المدرعات . قائلاً : « في الحملة البولونية ، تم المسير الى وارسو اعتبارا من سيليزيا العليا في سبعة أيام ، بمعدل ٤٥ كم في اليوم الواحد مع القتال . وحدث الشيء ذاته في الجزء الثاني من الحملة على فرنسا ، في المسيرة بين المارن وليون . وفي الحملة على روسيا في عام ١٩٤١ ، تم التقدم من روسلاول الى ما وراء كييف في عشرين يوما ، اي بمعدل ٢٥ كم في اليوم الواحد ، أما التقدم من كلوكوف الى اوريل فقد تم بمعدل ٦٠ كيلومترا في اليوم الواحد خلال ثلاثة أيام . وبلغ الرقم القياسي ١٠٠ كم في يوم واحد . »

وألح فون توما على أهمية وجود قيادة المدرعات في مقدمة قطعاتها « وسط دباباتها » . فعلى قائد الدبابات أن يقود « بالصوت وبالاشارة » كما كان قائد فوج الخيالة يقود في الماضي . « ان مكان القائد هو في الامام ، حيث تكون مهمته التكتيكية . وينبغي أن يترك لمعاونه الاول مهمة السهر على تفاصيل التنفيذ . »

ثم حدثني فون توما عن اعادة تنظيم الوحدات المدرعة التي تمت في المانيا قبل الحملة على روسيا . ولم يخف عني بأنه يرى بأنهم ارتكبوا خلال اعادة التنظيم خطيئة كبرى . « فلكي يضاعفوا عدذ الفرق المدرعة ، سحبوا من كل فرقة فوجي دبابات . وحصلوا بهذا الشكل على ٢٠ فرقة مدرعة . وكنت معارضا تماما لهذا الاجراء . وقدمت احتجاجا لهتلر ، لأنه كان دائم الاهتمام شخصيا بالمسائل ذات الصبغة التقنية . » وشرح له فون توما محاذير عملية اعادة التنظيم التي كانت تتطلب في نهاية المطاف ، مضاعفة الكوادر والخدمات دون الحصول على قوة هجوم أكبر . « ولكنني لم أنجح في اقناع

TRAINREGIMENTAIRE (١)

TRAIN DIVISIONNAIRE (٢)

هتلر : فقد كان مؤمنا بالفوائد التي يمكن أن يقدمها العدد المتزايد للفرق . فقد كانت الارقام تمارس على خياله جاذبية كبرى .

« لم يتدخل هتلر في عمليات المسرح البولوني ، ولكنه سكر بالمديح المتكرر الذي كان له الرأي العام في ذلك الوقت ، واصبح ثملا اكثر أيضا من « استراتيجيته » الناجحة بعد الحملة الفرنسية . وكان ميالا للاستراتيجية والتكتيك ولكنه لا يفهم شيئا في تفاصيل التنفيذ ، وكان لديه معظم الاحيان افكار جيدة ، بيد ان عناده الذي لا يقف عند حد كان يفسد عليه التطبيق .

« كان رقم ٢٠ فرقة مدرعة يوهمه بزيادة هامة ، بيد أن الكمية الحقيقية للدبابات بقيت على ما هي عليه . وكان ملاكنا الجاهز للقتال ٢٤٣٤ دبابة لا ١٢٠٠٠ دبابة كما اكد الروس . ولكن ثلثا دباباتنا اصبح من الدبابات المتوسطة بعد أن كان في الحملة الأولى عبارة عن دبابات خفيفة .

وعند الحديث عن الجبهة الروسية ذكر فون توما ان الوحدات الالمانية كانت قد ابتكرت اسلوبا اثبت فعاليته الى حد كبير . « كانت الفرق المدرعة تخرق الجبهة الروسية وتجتازها ليلا ، ثم تختفي في الغابات خلف الخطوط المعادية . وكان الروس يسدون الثغرة . وفي الصباح كانت المشاة الالمانية تشن هجوما على هذا القطاع الذي أصلح جزء منه بصورة رديئة ، ووقع في حالة فوضى بالضرورة ، فتخرج الفرق المدرعة عندئذ من مخابئها لتنقض على مؤخرات الروس . . »

وأنشأ الالمان لحملة عام ١٩٤٢ فرقتين مدرعتين جديدتين امتصتا فرقة الخيالة التي حُلّت نظرا لعدم فاعليتها . وحولت ثلاث فرق مشاة أخرى الى فرق آلية بالاضافة الى الفرق العشر التي كانت موجودة في حملة عام ١٩٤١ . وتابع فون توما حديثه بقوله : « لم تشكل سوى ١٠ فرق مدرعة من الـ ٢٠ فرقة السابقة . كل ذلك بأمر هتلر لان زيادة انتاج دبابات الانقضاض أهمل لمصلحة بناء الغواصات . »

وانتقد فون توما بشدة هتلر وجنرالات المدرسة القديمة لعدم بصيرتهم ، وافتقارهم

الى بعد النظر ، لانهم لم يعرفوا الاهمية الحيوية للقوات المدرعة ، ولم يعرفوا كيف يدفعوا عجلة انتاجها في الوقت الملائم وبالمقياس والشكل الضروريين . « كان ما نملكه من القوات المدرعة كافيا لهزيمة بولونيا وفرنسا ، ولكنه لم يكن كافيا لغزو روسيا . وكان علينا مضاعفة عدد دبابات فرقنا المدرعة التي لا تملك أفواج المشاة التابعة لها قدرة كافية على الحركة ، وذلك نظرا لسعة الارض وصعوبتها .

« كان التشكيل الاساسي لفرقتنا المدرعة مثاليا : فوجا دبابات ، وفوجا مشاة آلية . وكان من الواجب ان يحمل هذان الفوجان الاخيران على عربات مجنزرة ، رغم ما يسببه ذلك من استهلاك للمحروقات . وفي بداية الحملة الروسية كان من الممكن استخدام القطعات بنقلها في سيارات النقل . وكانت تنزل احيانا على مسافة ٤٠٠ متر من الخطوط الاولى . ولكن لم يعد هذا الامر ممكنا عندما اشتد عود الطيران الروسي وزاد عدده . فكانت قوافل السيارات تشكل هدفا رائعا جداً ، وكانت المشاة مضطرة الى النزول بعيدا عن الخطوط اكثر مما ينبغي . وكانت المشاة الآلية وحدها قادرة على الاشتراك في المعركة بسرعة لمتابعة مطالب المعركة المتحركة .

« والانكى من هذا : كانت سيارات النقل هذه تغوص في الوحل . وكانت الارض الفرنسية مثالية للمدرعات ، لكن الارض الروسية مخيبة للآمال بسبب مستنقعاتها التي تشغل مساحات واسعة أو رمالها التي تغطي جزءا كبيرا من الارض . وكان الرمل يصل احيانا الى سماكة متر تقريبا . وعندما تمطر السماء تتحول الارض الى مستنقعات من الوحل . »

وأضاف فون توما قائلا ما يلي : « وبالمقارنة مع هذا الوضع ، كانت افريقيا تعتبر جنة من الجنان ، فقد وجد سدنة الدبابات الذين قاتلوا في روسيا التكيف مع الظروف والاحوال الافريقية اسهل من التكيف مع المناخ الروسي . ومن الخطأ الاعتماد على حملة افريقيا لاستخلاص بعض التعاليم الصالحة للتطبيق في مكان آخر . وفي المستقبل ، ينبغي ان تكون روسيا هي المثل بالنسبة اليكم لا الصحراء ! » . انه استنتاج متميز !

وكشف فون توما خطيئة اخرى في الحملة الروسية : الافتقار الى التنسيق بين القوات المدرعة والمنقولة جوا . « لقد أحبط عدم وجود التنسيق هذا عدة عمليات كان ينبغي ان تنجح . السبب ؟ كانت القطعات التي أنزلت جوا تشكل جزءا من « اللوفتوافه » سلاح الطيران . ومن هنا نشأت نزاعات في الدوائر العليا حول اسلوب استخدامها . وكنا نصطدم خصوصا بغورينغ حول هذا الموضوع . وكان عدم كمال مدفعيتنا ذاتية الحركة يشكل نقطة ضعف أخرى . إن قيمة هذا العتاد لا تقدر بثمن . ولكننا لم نكن نملك من هذا النوع الا معدات أولية كانت حمولتها أثقل مما يجب على الهيكل . » .

ولم يستطع فون توما الذي أسر في العلمين في خريف عام ١٩٤٢ أن يقدم اعترافات حول أحداث عاشها قبيل نهاية الحرب . فخلال هذه المرحلة الاخيرة كان فون مانتوفيل أبرز قادة المدرعات . وتؤكد استنتاجاته بمجملها استنتاجات فون توما وتتممها من زوايا عديدة . وقد تضايق ملاحظات فون مانتوفيل ، المفصلة أكثر مما ينبغي القراء غير التقنيين . ومع هذا فان أهم بعض هذه الملاحظات يستحق ان يذكر هنا : « ينبغي ان تكون الدبابات سريعة . وسأقول بأن هذا الدرس هو الدرس الاساسي الذي ينبغي على صناع الدبابات استخلاصه من هذه الحرب . إن نموذج « البانتير » (الفهد) يحقق الشروط المطلوبة . اما دبابة « النمر » فكنا نسميها « مقطورة الانتقال » مع انها كانت مفيدة في البداية . ان طول المسافات في روسيا يجعل بطء دبابة « النمر » ضاراً بشكل اكبر بكثير في روسيا منه في فرنسا . »

ويجد فون مانتوفيل ان الدبابة الروسية « ستالين »(j.s.) من أفضل الدبابات في العالم . فهي تجمع بين التسليح القوي ، والدرع السميك ، والبنية القصيرة وسرعة أعلى من سرعة دباباة « النمر » المتخلفة بالكاد عن سرعة دبابة « الفهد » . وكانت مناورتها أسهل من مناورة أية دبابة المانية .

وأشار فون مانتوفيل فيما بعد الى نقطتي ضعف للمدرعات الالمانية كان من الممكن

تجنبهما . « ينبغي ان يرافق كل فرقة ، في النسق المتقدم ، ورشتهـا المتحـركة الخاصة بالاصلاحات . وقد ارتكب جيشنا خطأ جسيما عندما قرر ترك ورش التصـليح هذه في المؤخرات . فمن الواجب أن تتمركز هذه الـورش في الامـام وتحـت قيادة قائـد وحـدة القتال ، وأن تكون على اتصال لاسلكي معه . .وهـذا أمـر اسـاسي ، فيما عدا حالات العطل الخطير ، للسماح باصلاح الدبابات خلال الليل . ويسمح هذا الاسلوب بتجنب كثير من الحوادث التي تسبب الخسائر والتبديد . ويكون بوسعنـا بهـذا الشـكل تجنب النتائج الخطرة لاسلوبنا في القتال الذي يلزم قادة الوحدات بمتابعة هجومهم بأعداد قليلة من الدبابات لانهم لا يستطيعون انتظار اصلاح دباباتهم . وغالبا ما كان هؤلاء القـادة يهاجمون لتحقيق مهمات لا تتوافق مع وسائطهم ، وهي مهمات تعطى عادة لفرق كاملة الملاك من الناحية النظرية .

« ومن الضروري أيضا لفرقة مدرعة أن تملك طيرانها الخاص : سرب استطلاع وسرب قاذفات تكتيكية وسرب طائرات ارتباط أقل سرعة توضع تحت تصرف قائد الوحدة الكبرى وهيئة اركانه . وعلى قائد الوحـدة المدرعـة أن يقـود المعـركة دومـا من احـدى الطائرات . وفي بداية الحملة على روسيا كان للفرق المدرعة عناصر من القوات الجوية الخاصة بها . ولكن القيادة العليا سحبتها في نوفمبر (تشرين الثانـي) ١٩٤١ ، لكي تمارس رقابة مركزية اكثر ، وكان هذا العمل خطيئة كبرى . وبالاضافة الى هذا ، ينبغي ان يتم تدريب الاسراب منذ زمن السلم مع تدريب الفرق .

« والطائـرات ضرورية أيضـا لنقـل الذخائـر ، والمحروقـات ، والتمـوين ، والجنود . لان على الفرق المدرعة في المستقبل ان تقطع مسافات أكبر بكثير . وينبغي ان تكون مستعدة للتقدم ٢٠٠ كم يوميا . لقد قرأت ، وترجمت عددا من كتبك التي ظهرت قبل الحرب ، وانني ادرك الاهمية التي تعطيها لتطوير طيران الخدمة في حرب المدرعات . ان روح حرب المدرعات تختلف عن روح حرب المشاة ، وجنود المشاة لا يفهمون ذلك . ولقدكانت هذه الخطيئة احدى صعوباتنا الجدية خلال الحرب . »

وطلب إليَّ فون مانتوفيل وهو يتحدث عن صنع الدبابات واستخدامها ان ألاحظ اننا عندما نقلل من ارتفاعها نحولها الى أهداف أقل وضوحا ، والعقبة هي التوفيق بين هذا الشرط وضرورة الحفاظ على أسفل الدبابة بعيدا بصورة كافية عن الارض لتجنب التوقف أمام الحواجز كالتحديات الارضية ، والصخور ، وجذوع الاشجار . ومن الممكن التغلب على الصعوبات التي تعزى الى بعد بعض الحواجز الصغيرة بالنسبة للارتفاع الحر فوق الارض اذا عرفنا دراسة الارض . وهذه هي أهم صفة في مناورة الدبابات .

واستشهد فون مانتوفيل بمثل رد فيه على اختراق قام به الروس عبر الحدود الرومانية بقرب جاسي في مايو (أيار) ١٩٤٤ . « جرت معركة للدبابات اشتركت فيها ٥٠٠ دبابة من الطرفين . ودُحر الروس ولم يستطيعوا انقاذ الا ٦٠ دبابة من دباباتهم ، معظمها معطل . ولم أخسر من دباباتي سوى ١١ دبابة . وفي هذه المعركة اصطدمت بدبابات « ستالين » الاولى . وصعقت عندما رأيت دباباتي « النمر » تفتح النار عليها من مسافة ٢٠٠ مترا دون ان تتمكن قذائفها من اختراقها : وكان يجب تقليل هذه المسافة بمعدل النصف للوصول اليها . ولكني تفوقت على تفوقهم التقني بسرعة مناورتي ، مستخدما ثنيات الارض افضل استخدام . » واستنتج فون مانتوفيل من ذلك مؤكدا ما يلي : « اذا بقيت جامدا في معركة للدبابات ، فانك خاسر لا محالة . » وأضاف والرضى باد على وجهه من ذكرى تكتيك ذكي قائلا : « لو انك شاهدت هذه المعركة لسررت الى حد كبير . . . »

وقال أيضا ان من الواجب انتقاء سدنة الدبابات بعناية فائقة لكي نسمح ، بواسطة القابليات التكتيكية ، باستخدام التفوق الذي تقدمه اداة المعركة الحديثة هذه . « وبعد تحقيق هذا الشرط ، على صناعة الدبابات ان تستهدف تحقيق توازن كامل بين الدرع والاسلحة ، والسرعة ، مع أخذ المخاطر التي تشكلها الهجمات الجوية والمظليين والقنابل الطائرة بعين الاعتبار . »

وسألته عن التشكيل المثالي لفرقة مدرعة حسب رأيه . وكان رده هو التالي :

« أولا ، فوج دبابات مؤلف من ثلاث كتائب تضم كل واحدة منها ٦٠ دبابة ، لكي نضمن حوالي ١٥٠ دبابة جاهزة للقتال ، نظرا للاعطال التي قد تصيبها . ثم فوجان من المشاة ، كل فوج مؤلف من كتيبتين ، تنقلها سيارات مدرعة نصف مجنزرة . وينبغي ان تصفح سيارات نقل أحد الافواج تصفيحا جيدا ، فالدرع الذي تبلغ سماكته سبعة ميليمترات ، وهو الدرع الذي كنا نملكه خلال الحرب غير كاف للمقاومة تحت النار الغزيرة . اما عربات نقل الفوج الآخر فينبغي ان تكون مدرعة أيضا ، ولكن بصورة أخف . وهكذا فان بوسعها ان تنتقل بسرعة وأن تستغل الفرص لدفع بعض الطلائع الى مواضع المقاومة الاضعف . ومن الضروري للفرقة أيضا أن تملك وحدة استطلاع منقولة في سيارات مجنزرة . وقد استخدمت اثناء هذه الحرب سيارات نصف مجنزرة غير فعالة للقيام بدور الاستطلاع في ظروف الطبيعة الروسية . وينبغي ان يكون هناك ايضا كتيبة مرممين : وهو ما تسمونه المهندسين . وبوسع هذه الكتيبة ان تحتفظ بالملاك المحدد لها بصورة اعتيادية ، لان كل وحدة في الفرقة ينبغي ان تملك فصيلة الهندسة الخاصة بها ، القادرة على وضع الالغام ونزعها واقامة الجسور . والعنصر الرئيسي الآخر هو المدفعية . وينبغي وجود ٤ كتائب تضم كل كتيبة منها ٣ بطاريات . وينبغي ان تكون ثلاث كتائب منها مختلطة ومشكلة من بطاريتين خفيفتين وبطارية ثقيلة من القذافات (O Lusiers) وينبغي ان تملك الكتيبة الرابعة ثلاث بطاريات ثقيلة مع مدافع من عيار ١٥٠ . ومن أصل الكتائب الثلاث المختلطة ينبغي ان تكون اثنتان منها على الاقل مجهزة بالمدافع ذاتية الحركة ، غير مقطورة بالجرارات . »

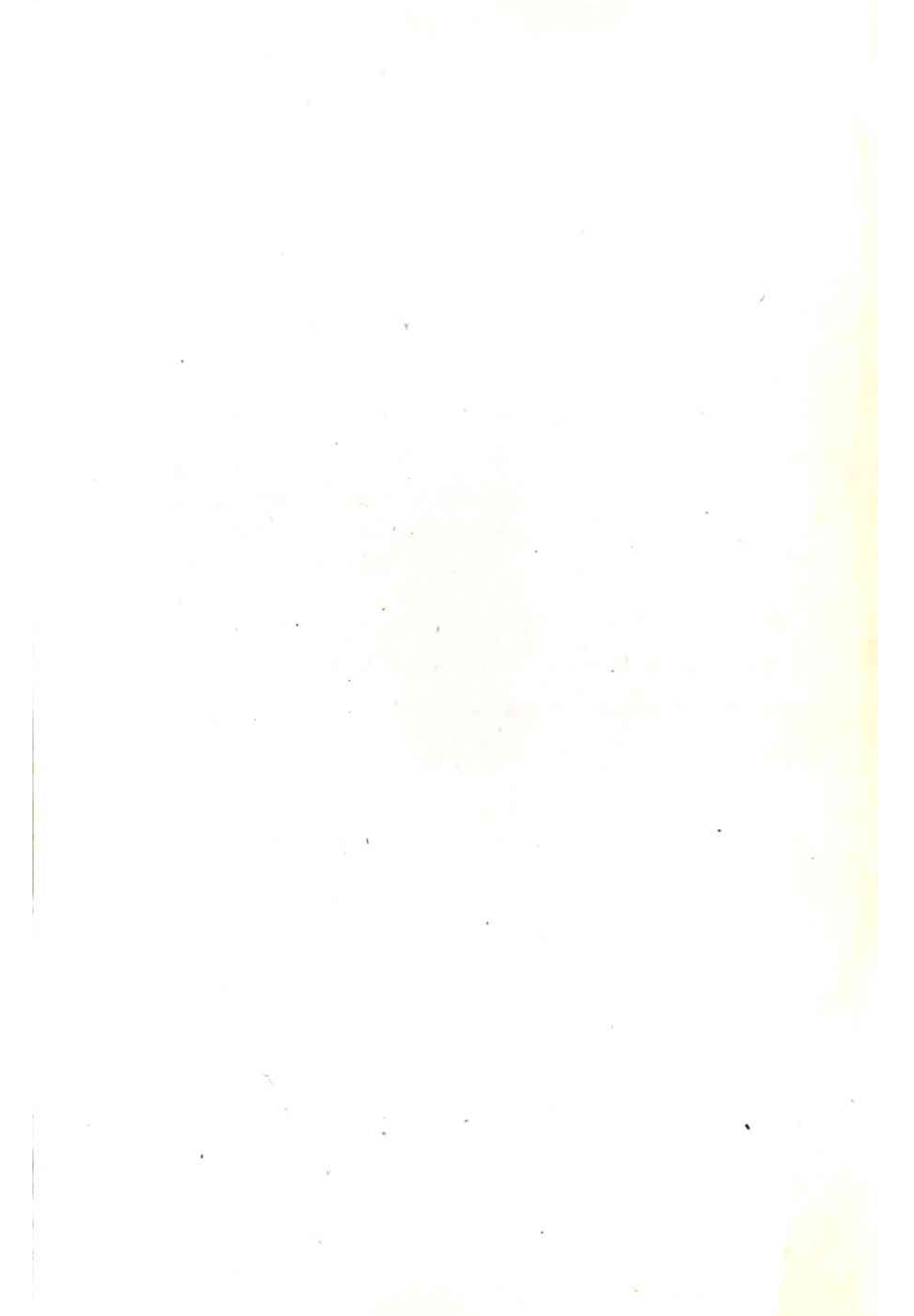
وفي حديث آخر ، عرض فون مانتوفيل افكاره عن جيوش المستقبل ، « تظهر لنا الشروط الحديثة انه يجب أن يكون هناك نوعان من القطعات داخل الجيش . ومن الافضل تشكيل نخبة . وينبغي ان يشكل لهذا الغرض عدد من الفرق المنتقاة ، تملك افضل تجهيز ، وميزانية تدريب كافية ومجموعة أفراد مختارين بدقة . وان بوسع بلد كبير انشاء جيش يضم حتى ثلاثين من هذه الفرق . ومن المؤكد ان أي بلد لن يستطيع بمثل هذه الخطة تجهيز ملايين من الرجال . وان وجود جيش من النخبة ، مخصص لاهم

العمليات ، أفضل من وجود جيش أكبر عددا ولكنه سيء التجهيز والتدريب . وتكون نسبة القوة الجوية والقطعات المحمولة جوا في هذا الجيش المؤلف من النخبة نسبة كبيرة ، وينبغي ان يملك هذا الجيش قنابل طائرة . ويعيق العيار الحالي لمدفعية القوات المدرعة قدرة هذه القوات على الحركة . ويعلل وجود هذا العيار بضرورة الحصول على رمي منحن . وان القذافات وحدها هي التي تعطى حاليا مثل هذا المحرك المنحنى ، بيد ان تطور القنابل الطائرة قد يحل بصورة مفيدة محل مثل هذا النموذج من المدافع . »

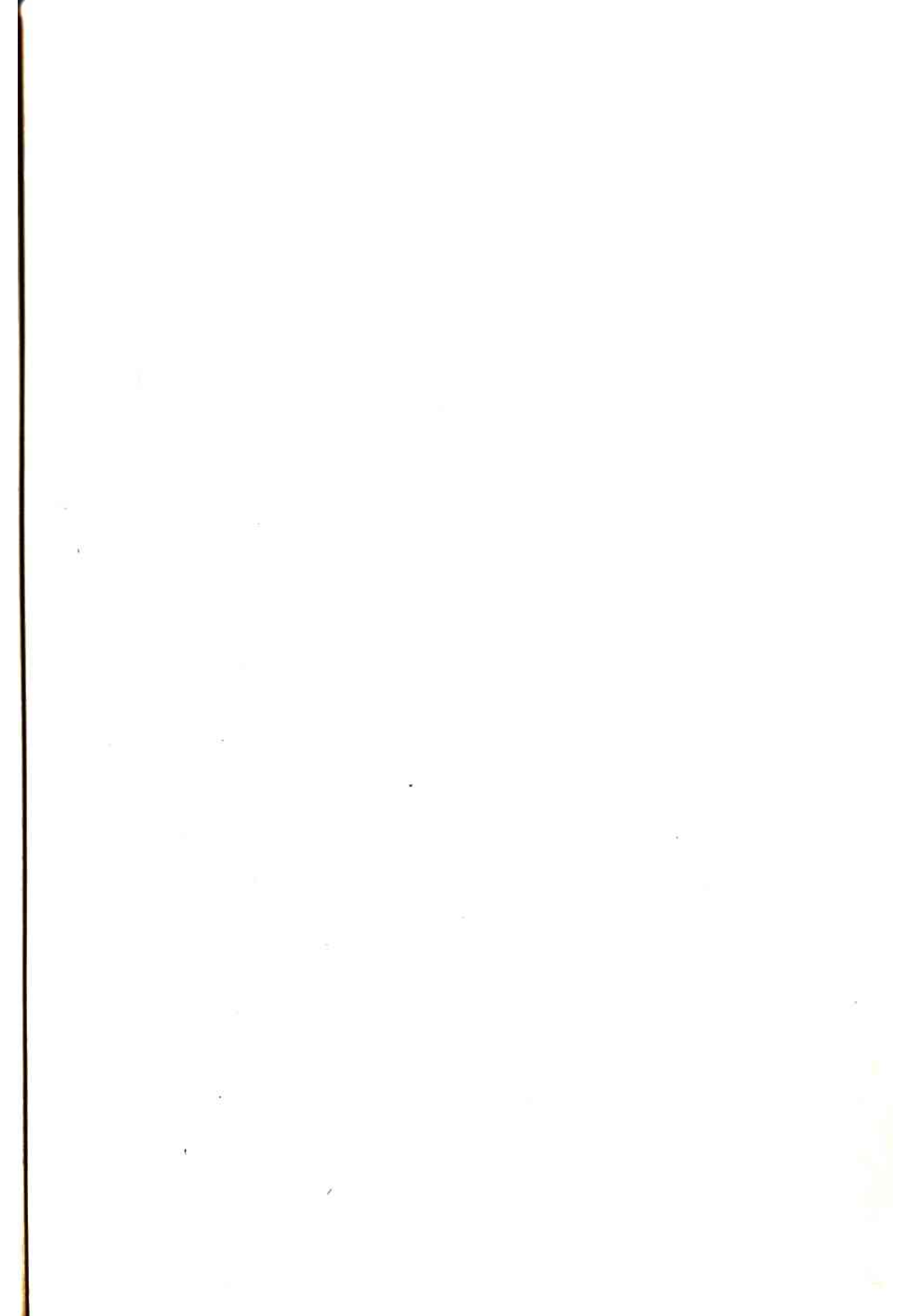
وقال فون مانتوفيل أيضا انه يوافق على الرأي الذي غالبا ما عبرت عنه في كتبي ، وهو ان المسألة العسكرية الاساسية للازمان الحاضرة هي تقليل عدد القطعات وآليات الخدمة بالنسبة للجيوش المقاتلة . « ولكن ينبغي على القيادة العليا لتحقيق مثل هذه النتيجة ان تكتسب روح العمليات الآلية . »

ثم استطرد فون مانتوفيل قائلا :

« يتطلب الجيش الحديث وضع تصورات استراتيجية جديدة . ولكي تكون هذه الافكار مقبولة ، من المهم أن تكون كل الوحدات من النموذج الحديث خاضعة لقيادة قائد واحد متميز . وفي الوقت ذاته ، ولإذكاء روح القطعة في القطعات التي تؤلف جيش النخبة هذا ، ينبغي ان لا تكون مزودة بأفضل العتاد وان تتلقى أحسن تدريب فحسب ، بل ينبغي أن يعاد تجهيزها ببزة خاصة ، من أكثر البزات اناقة اذا امكن » .



الجزء الثالث
وجهة النظر الالمانية



الفصل العاشر

كيف هزم هتلر فرنسا وأنقذ انكلترا

غالبا ما تكون ظواهر حدث كبير خداعة . . . خصوصا عندما تكون الحرب مطروحة على بساط البحث . ويتعلق مصير الملايين من الافراد بالقرارات التي يتخذها رجل واحد . بيد أن بوسع هذا الرجل ان يتخذ قرارا يحول مجرى التاريخ تحت تأثير الدوافع المفاجئة غير المتوقعة . ولا يعرف ملابسات هذا القرار الا عدد صغير جدا من الاشخاص الذين يملكون عموما أسباباً وجيهة للسكوت لانهم يعملون في الكواليس بحكم وضعهم . وتنتشر الحقيقة في بعض الحالات ، وفي حالات اخرى لا تنتشر أبداً ولا تظهر .

وعندما تتضح الحقيقة ، تؤكد غالبا المثل القائل : « يمكن للحقيقة احيانا ان تكون غير محتملة » . وقد يتردد الروائي ، الذي يبحث عن كتابة مغامرات معقولة في استخدام بعض المعطيات المتناقضة بهذا الشكل والمدهشة كالمعطيات التي نصادفها في التاريخ نتيجة حادث غريب أو خطأ نفسي .

ولا شيء يمكن أن يكون اكثر دهشة من الطريقة التي جرت فيها الاحداث الحاسمة لعام ١٩٤٠ . فقد هُزمت فرنسا بهجوم شرع به المهاجمون وهم متشائمون . ويعزى نجاح الهجوم الى تبديل أخير في الخطة الالمانية استفادت من افتقار الخطط التي صممها الفرنسيون الى المرونة ، وثقتهم الكبرى بأنفسهم . وان الطريقة التي تخلص فيها الجيش البريطاني وانسحب من القارة الاوروبية ، وانقاذ بريطانيا ـ العظمى من الغزو غريب

أكثر أيضا . وكانت الحقيقة في هذه المصادفة مختلفة كل الاختلاف عن الصورة المعروفة من الجمهور . وكان من الممكن أن تبدو ، في تلك الفترة غير معقولة للانكليز ولمعظم انصار هتلر المتحمسين في المانيا . ولم تبرزها اكتشافات وتحقيقات نورمبرغ . فقد كانت الوقائع معروفة من دائرة ضيقة من الضباط الكبار في الجيش الالماني . اما الكلمة النهائية للتاريخ فقد كان يعرفها فقط بعض الرجال ، ولم يكونوا من أولئك الرجال المهمين الذين كانوا موجودين في المقر العام لفون رونشتدت في اليوم الذي كشف فيه هتلر الستار عن افكاره .

لقد شاع وصف الطريقة التي تخلص بواسطتها الجيش البريطاني من فرنسا بأنها « معجزة دنكرك » . وفي الحقيقة كانت المدرعات الالمانية قد وصلت الى المانش على مؤخرة الجيش البريطاني ، في حين كان هذا الجيش ما زال متورطا بعمق داخل الفلاندر . وكان يبدو من الممكن عزله أيضا عن البحر ، خصوصا لانه كان مقطوعا عن قواعده وعن الجزء الاكبر من الجيش الفرنسي . وغالبا ما تساءل الذين تملصوا من هذا الوضع كيف تمكنوا من تحقيق ذلك بنجاح .

وها هو الجواب : ان تدخل هتلر وحده هو الذي انقذهم . ولم يكن بوسع اي شيء آخر انقاذهم . فقد أوقف هتلر بغتة بأمر هاتفي اندفاع المدرعات التي كانت قد وصلت الى مشارف دنكرك ، وألجمها الى ان وصل البريطانيون المتراجعون الى الميناء وفروا . وقد روى لي فون رونشتدت وبعض الجنرالات الآخرين الذين كانوا يتسنّمون مراكز القيادة أو يعملون في هيئات اركان الوحدات الكبرى تاريخ هذا الامر الذي لا يصدق ونتائجه ، من زوايا مختلفة .

ومع أن الجيش البريطاني حاول تجنب الاسر في فرنسا ، الا انه لم يكن في حالة تسمح له بالدفاع عن انكلترا ذاتها . فقد تخلى تقريبا عن كل اسلحته وكانت ترسانات بلده خالية تقريبا . وفي الشهور التالية واجهت قوات انكلترا القليلة ، المسلحة تسليحا رديئا القطعات المجهزة بصورة متفوقة عليها والتي اجتاحت فرنسا ولم يكن يفصل بينهما

سوى ذراع مائي رفيع . بيد ان غزو انكلترا لم يحدث أبدا .

وفكرنا في غضون ذلك بأن « المعركة فوق انكلترا » قد انقذتنا بصد هجمات « اللوفتوافه » ودحرها . ان هذا ليس سوى جزء من التعليل وأقله أهمية . فالسبب الاصلي والاعمق هو ان هتلر لم يكن يريد غزو انكلترا . ولم يكن ليهتم أبدا بتحضيرات غزو بريطانيا ، ولم يفعل شيئا للتعجيل بها ، والغاها لدى أول عذر مستساغ .

وقبل أن نسرد بالتفصيل تكون هذه القرارات القاتلة لهتلر ، يجب أن نكشف منها قرارا سابقا عليها . ففي الحقيقة ، يصعب تصديق تطور الانسحاب ذاته وآثاره أكثر بكثير من الاحداث التي سبقته . ففي حين كان هتلر ينقذ انكلترا ، اجتيحت فرنسا رغم ارادة الجنرالات الالمان !

وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا واهنة تحت الحذاء الالماني ، كان من الممكن أن يندهش الجنود المنتصرون لو انهم علموا بأن اكبر قادتهم العسكريين لم يكونوا يؤمنون بامكانية مثل هذا النصر ، وان هذا النصر قد تحقق بفضل خطة مفروضة على هيئة اركان حذرة ، بعد مباحثات سرية . هؤلاء الرجال كان من الممكن أن يروعوا لو انهم سمعوا بأنهم كانوا قاب قوسين أو ادنى من تلقي الاوامر بالتحرك الى برلين بدلا من المسير باتجاه باريس . كان هذا مع ذلك ما كانت تخفيه هذه الواجهة المنتصرة .

« عاصفة تحت الافق »

يبدو غزو الغرب ، بنظرة الى الماضي ، كاندفاعة لا تقاوم . ومع ذلك فقد صححه الالمان وسط مناخ من الشكوك والمخاوف . وقد اطلق المعلقون الامريكيون عليه تسمية « الحرب العجيبة » ساخرين من عطالة الحلفاء وسلبيتهم . ولم تكن هذه التسمية مبررة بهذا المعنى ، لان الحلفاء لم يكونوا مجهزين للقيام بالهجوم - وسنجد الدليل على ذلك في الفصول التالية . ولكن كان هناك في الحقيقة اشياء عجيبة وقعت في الجانب الالماني .

فبعد أن غزا هتلر بولونيا واقتسمها كغنيمة مع روسيا ، قدم للدول الغربية عروضا

للسلم . وعندما رفض الغرب هذه العروض ، انتابه الخوف وهو يقابل وجها لوجه شريكه الموقت ، مع ما حركة واثاره من مخاطر . ولاحظ هتلر ان حرب استنزاف طويلة ضد بريطانيا ـ العظمى وفرنسا ستستنزف تدريجيا الموارد المحدودة لالمانيا وستعرضه لهجوم مشؤوم يقوم به الروس على مؤخرته . فقال لجنرالاته ما يلي : « لا يمكن ضمان حياد روسيا بأية معاهدة دائمة » . ودفعته مخاوفه الى فرض السلم على فرنسا بهجوم في الغرب . وكان يأمل بأن تصدر أية بادرة من الانكليز توحي باستعدادهم للتفاهم معه وقبول عقد معاهدة للصلح عندما تحل الهزيمة بالفرنسيين . ولاحظ بأن عامل الزمن يلعب ضده في كل الاحوال .

ولم يكن هتلر ليتجرأ على انتظار ملل الفرنسيين من الحرب . فكان يفكر في هذا الوقت بالحصول على القوات والعتاد الكافيين لقهر فرنسا « ففيما يتعلق ببعض الاسلحة الاساسية ، فان المانيا تملك اليوم تفوقا واضحا لا جدال فيه . » واستشعر هتلر أن من الواجب الضرب وبأسرع ما يمكن قبل أن يتأخر الوقت أكثر مما يجب . وصدرت أوامره كالتالي : « سيبدأ الهجوم في الخريف اذا سمحت الظروف بذلك » .

وعرضت حسابات هتلر وتعليماته في مذكرة طويلة بتاريخ ٩ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٩ . وكان تحليله للمعطيات العسكرية عن الوضع رائعة وجديرة بمعلم كبير ، ولكنه أهمل عاملا سياسيا اساسيا هو : العناد الشرس الذي يظهره الانكليز عندما يُستشارون ويُستفزون .

وشاركه جنرالاته مخاوفه فيما يتعلق بالمستقبل البعيد ، ولكنهم لم يشاركونه ثقته بالمستقبل القريب . فلم يكونوا ليقدرون ان الجيش الالماني كان قويا بشكل يسمح له بهزيمة فرنسا .

واعترف القادة الكبار الذين حدثتهم ، بما فيهم فون رونشتدت وبلومنتريت رئيس هيئة اركانه بالمخاوف التي كانت تؤرقهم قبل الهجوم على الغرب . وكما لاحظ بلومنتريت : « كان هتلر وحده مؤمناً بامكانية تحقيق نصر حاسم » .

وقال الجنرال سيفرت ، المساعد المباشر لفون براوخيتش من عام ١٩٣٩ الى ١٩٤١ انهم حتى لم يضعوا خطة هجوم في الغرب قبل حملة بولونيا ، وان رئيسه ذهل عندما تلقى من هتلر في بداية اكتوبر (تشرين الاول) الامر بوضع هذه الخطة « وكان الفيلد مارشال فون براوخيتش معارضا لوضعها كل المعارضة . ويمكن الاستئناس بكل الوثائق المتعلقة بهذه الخطة في المصنفات - اذا وجدت - فانها كلها ستثبت انه نصح الفوهرر بعدم مهاجمة الغرب . وقابله شخصيا ليعرض عليه جنون مثل هذا المشروع . وفكر بالاستقالة عندما تحقق من عدم امكانية اقناعه » . وسألته عن الاسس التي اعتمدت عليها اعتراضات فون براوخيتش . فأجاب سيفرت قائلا : « لم يكن الفيلد مارشال فون براوخيتش مقتنعا بأن القوات الالمانية الجاهزة آنذاك كافية لغزو فرنسا » . وأضاف قائلا بأنه كان مقتنعا أيضا بأنها حتى لو توصلت الى غزوها وقهرها فان انكلترا ستزج بكل قواتها في المعركة . فاستخف الفوهرر بهذا المبرر . ولكن الفيلد مارشال حذره قائلا : « اننا نعرف البريطانيين منذ الحرب الاخيرة : اننا نعرفهم عنيدين » .

وعقد هتلر مؤتمرا في برلين بتاريخ ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) عندما لاحظ الشكوك التي أبرزها قادة الجيش . وكان الهدف من المؤتمر فرض قناعاته الخاصة . وحصلت على وقائع هذا المؤتمر من الجنرال روهريخت ، الذي كان في ذلك الوقت رئيسا لهيئة التدريب في الاركان العامة ، وكلف فيما بعد بجمع دروس حملة ١٩٤٠ . وقال روهريخت ما يلي : « امضى الفوهرر ساعتين في عرض الموقف بالتفصيل ، محاولا اقناع القيادة العليا للجيش بضرورة الهجوم في الغرب . واحتج الفيلد مارشال فون براوخيتش ، وتعرض لزجر جاف من الفوهرر لاحتجاجاته . وكان الجنرال هالدر غير واثق أيضا من نجاح هذا الهجوم . وبرهن الاثنان على أن الجيش الالماني غير قوي بما فيه الكفاية - وهو المبرر الوحيد الذي يجعل الفوهرر يتردد . ولكن الفوهرر أصر لتغليب ارادته على الجنرالات . وبعد هذا المؤتمر ، أنشئت عدة تشكيلات جديدة لزيادة قوة الجيش . وكان هذا هو كل ما منحه الفوهرر للمعارضة ..... »

وعبر هتلر في عرضه للقادة الكبار عن قلقه من الخطر الروسي وضرورة التحرر من

الخطر في الغرب بالتالي . ولكن الحلفاء لم يكونوا راغبين في قبول عروضه للسلم ، وتمترسوا مختفين وراء خطوطهم المحصنة ، جاهزين للقفز منها عندما يريدون . فكم من الوقت تستطيع المانيا احتمال مثل هذا الموقف ؟ انها تتفوق في الوقت الحاضر : فهل يكون الوضع على هذا الغرار بعد ستة شهور ؟ « ان الوقت في مصلحة الخصم » . حتى ان الغرب يقدم أسبابا للقلق . « ان لدينا عقب آخيل هو الروهر . . . فاذا دخلت بريطانيا - العظمى وفرنسا ، مخترقتين هولندا وبلجيكا الروهر ، فاننا نتعرض لاكبر خطر . ومن الممكن شل المقاومة الالمانية » . وكان من الواجب ابعاد التهديد عن طريق البدء بالضرب !

ومع ذلك ، لم يكن هتلر نفسه ، في تلك الفترة ، ليؤكد نجاح الهجوم . فقد وصف الهجوم بأنه « لعبة المصادفة » واختيارا « بين الانتصار أو الابادة » . وفضلا عن ذلك ، فقد انهى ارشاداته بنغمة حزينة تحمل طابع النبوءة عندما قال : « سأخرج حيا أو ميتاً من هذه المعركة . ولن أبقى على قيد الحياة ابدا اذا هزم شعبي » .

وقد وُجدت نسخة من هذه الخطبة في مصنفات القيادة العليا بعد سقوط المانيا ودُرست في محكمة نورمبرغ . ولكن لم يُعثر على اي اثر للمعارضة التي اصطدم بها هتلر ، أو لذيولها التي كان بوسعها ان تختم حياته السياسية في أول خريف للحرب .

وفي الحقيقة ، فكر الجنرالات مدفوعين بمشاعرهم الخفية ، باستخدام ادوية شديدة . وقال لي روهريخت : « درس فون براوخيتش وهالدر في القيادة العامة للجيش والقوات البرية (O.K.H.) الحالة التي يرفض الفوهرر فيها تخفيف حدة سياسته ويصر على تنفيذ خطط قد تجر المانيا الى حرب شاملة ضد فرنسا وانكلترا . وقررا ان يعطيا في هذه الحالة اوامر للجيش الالماني في الجبهة الغربية بالاستدارة والسير الى برلين وقلب هتلر والنظام النازي .

« ومن المؤسف ان الرجل الوحيد الضروري حقا لنجاح هذا المشروع رفض المشاركة فيه وهو الجنرال فروم قائد الجيش المحلي في المانيا . وتذرع بأن الجنود سيرفضون

اطاعة الاوامر اذا ما تلقت القطعات أمراً بالتوجه ضد النظام ، لانهم كانوا يؤمنون بهتلر اكثر مما يجب . وكان فروم على صواب من هذه الزاوية . ولم يكن رفضه للتعاون بسبب اخلاصه لهتلر : فقد كان يحتقر النظام مثل ما يحتقره الآخرون ، وسقط ضحية لهتلر في مارس (آذار) ١٩٤٥ » .

وتابع روهر يخت كلامه قائلا : « بصرف النظر عن تردد فروم ، فانني اعتقد على كل حال ان الخطة لم يكن مقدرا لها أن تنجح . فقد كان بوسع « اللوفتوافه » الطيران الالماني ، المتعصب للمبادىء النازية ، تحطيم اية محاولة لتمرد الجيش ، لان المدفعية المضادة للطائرات كانت تحت أوامره . وكان الاجراء الذي وضع المدفعية المضادة للطائرات تحت اشراف غورينغ والقوات الجوية اجراء في منتهى الذكاء ، لانه اضعف الجيش » .

ومن المحتمل أن تكون فرضية فروم عن ردود فعل القطعات صحيحة . ويعترف الآن بصحة هذه الفرضية الجنرالات الذين انزعجوا من رفضه في ذلك الوقت . ونلاحظ بأنفسنا كم كان من الصعب زعزعة ايمان الجماهير بهتلر ، حتى في الايام الاخيرة ، المليئة بالخرائب والدمار والمآسي . وكان من المحتمل أن تخفق مؤامرة ١٩٣٩ ، او على الاقل ، ان يفشل تحقيق هدفها الرئيسي وهو سقوط هتلر . ورغم هذا ، كان من الممكن أن تكون المحاولة مفيدة : فقد كان من الممكن أن تزعزع المانيا بشكل يكفي لالغاء خطط غزو فرنسا التي وضعها الفوهرر . فلو تمت المؤامرة لتجنبت شعوب اوروبا المآسي التي تعرضت لها بعد هذا النصر الخادع ، ولتجنب الشعب الالماني ذاته المشاق القاسية التي سببتها حرب طويلة ، ولتحاشى وقوع الدمار في أرضه من جراء الغارات الجوية التي قام بها اعداؤه.

ولم يتمكن هتلر من شن هجومه في عام ١٩٣٩ كما كان يرغب بذلك رغم اجهاض خطة الجنرالات . وفسر فون رونشتدت هذا الوضع بقوله : « كان الوقت عائقا ، أكثر من أي شيء آخر . فقد أجِّل اليوم (ى) (يوم الهجوم) خلال الشتاء عدة مرات » .

واوضح بلومنتريت ان الجيوش تلقت احدى عشرة مرة - بين نوفمبر وأبريل

(تشرين الثاني ونيسان) - أمر الاستعداد للهجوم خلال ثمان واربعين ساعة . وكان الامر يلغى في كل مرة قبل ساعة الصفر . « وجعلتنا التأجيلات المتواصلة نعتقد بأن هتلر كان يخادع ويستخدم التهديد بالهجوم لدفع الحلفاء الى النظر بعين الاعتبار الى اقتراحاته بالسلام » . وفي مايو (أيار) أعطي الامر للمرة الثانية عشر ، وبدأت الآلة الرهيبة حركتها .

تغيير حاسم في الخطط

تشبه الخطة الاصلية التي وضعتها هيئة الاركان العامة برئاسة هالدر في خطوطها الكبرى خطة عام ١٩١٤ ، مع ان اهدافها أقل طموحا . وكان على الكتلة الرئيسة من القوات ، وهي مجموعة الجيوش « ب » بقيادة فون بوخ أن تحتشد على الجناح الايمن وتجتاز سهول بلجيكا . وتلعب مجموعة الجيوش « آ » التي يقودها فون رونشتدت ، والموضوعة في الوسط ، في مواجهة الآردين ، دورا ثانويا . أما مجموعة الجيوش « ج » التي يقودها فون ليب والتي تشكل الجناح الايسر في مواجهة الحدود الفرنسية ، فقد كانت مهمتها تثبيت الجيوش الفرنسية المتمركزة في خط ماجينو وتهديدها . وكان لدى فون بوخ الجيوش الثامن عشر ، والسادس ، والرابع . وقد وضعها في هذا الترتيب من اليمين الى اليسار . وكان فون رونشتدت يقود الجيشين الثاني عشر والسادس عشر . ويقود فون ليب الجيشين الأول والسابع . ولا بد من الاشارة الى عامل هام هو ان القسم الاكبر من الدبابات أعطي لفون بوخ ولم يستلم فون رونشتدت اية قوة دبابات لان مهمته تقتصر على التقدم الى الموز ، وتغطية الجناح الايسر لفون بوخ في هذا المكان .

وفي يناير (كانون الثاني) عُززت جيوش فون رونشتدت بفيلق مدرع (بانزر) ، وازدادت اهمية مهمتها التي غدت اجتياز الموز واقامة رأس جسر واسع ، والقيام بالاتصال مع قطعات جناح فون بوخ بغية حمايتها بشكل أفضل . وكان هذا الامر تعديلا محدودا ، لا تغييرا جذريا للخطة . واحتفظت خطة العمليات لعمل الجناح الايمن بكل اهميته .

ومن الواضح ، في الوقت الحاضر ، ان هذه الخطة كانت ستتعرض للاخفاق حتماً لو أنها نُفذت . وفي الحقيقة ، لو نفذت هذه الخطة لاصطدمت القوات الالمانية بالجيش البريطاني وبأفضل جزء مجهز من الجيش الفرنسي . ولأدى عمل القوات الالمانية حتى لو تمكنت من خرق الجبهة ، الى مجرد دفع الحلفاء نحو خطوطهم المحصنة في شمال فرنسا وتقريبهم من قواعد تموينهم .

واذا نظر الى تاريخ تغيير الخطة من الداخل بدا عجيباً وغريباً . ولم اكتشفه الا رويدا رويدا . وقد تحدث معي الجنرالات الالمان ، منذ بدء محادثاتنا الاولى عن العمليات العسكرية بمحض اختيارهم . فهذه الموضوعية المهنية هي احدى خصائصهم المميزة . ولاحظت انهم كلهم مستعدون لتبادل الآراء معي لانهم كلهم قد درسوا مؤلفاتي العسكرية . وتحدثوا أيضا بصراحة عند التطرق الى الزعماء النازيين الذين كانوا ينفرون من نفوذهم . اما فيما يتعلق بهتلر فقد كانوا متحفظين الى حد ما في البداية . ويبدو واضحا انهم تعرضوا لطغيانه أو هيمنته بقوة لدرجة أصبحوا معها يترددون في لفظ اسمه . وتدريجيا ، وبعد ان اقتنعوا بموته ، قل كبتهم وانتقدوا اعماله بحرية اكبر (كان فون رونشتدت دوما قاسيا جدا إزاءه) . ورغم صراحتهم ، كان لديهم ميل طبيعي جدا لاخفاء خلافاتهم الداخلية . واحتجت الى عدة اجتماعات معهم قبل ان اكتشف حقيقة الهام هتلر في الساعة الاخيرة ، الذي هزم تطبيقه فرنسا .

لقد جاءت الخطة من الجنرال فون مانشتاين ، الذي كان في ذلك الوقت رئيسا لهيئة اركان فون رونشتدت . وبدت له الخطة المتبناة سابقا مكشوفة اكثر مما يجب ، ومشابهة اكثر مما ينبغي لخطة الحرب السابقة . وكانت هذه الخطة هي التي توقعت قيادة الحلفاء العليا تنفيذها .

وكان الجانب الالماني يتوقع اختراق الحلفاء لبلجيكا ، وان ينتج عن هذا الاختراق صدام جبهي بين الجيشين ، دون أن ينجم عن الصدام انتصار حاسم . وهناك عائق آخر هو أن يكون الخصم الرئيسي في هذه الحالة هو الجيش البريطاني ، الذي سيكون اكثر

استماتة من القطعات الفرنسية في رأي فون مانشتاين . وبالاضافة الى هذا ، فان على الدبابات الالمانية التي يعتمد عليها النجاح أن تخترق بلاداً سهلية من دون شك ، ولكنها مليئة بالانهار والقنوات ، التي تشكل عائقا جديا في معركة يرتبط كل شيء فيها بالسرعة .

وهكذا صم فون مانشتاين الفكرة الجريئة للتوجه الى الآردين المحور الرئيسي للهجوم ودعم رأيه بأن العدو لا يتوقع بالتأكيد استخداما كثيفا للدبابات عبر ارض بمثل هذه الصعوبة[1] . ولا بد أن يكون باستطاعة الدبابات الالمانية أن تخترقها نظرا لان من المحتمل أن لا تلاقي أية مقاومة في اللحظة الصعبة من تقدمها . وعندما يتم اجتياز الآردين وعبور الموز تمتد سهول شمال فرنسا امامها حتى البحر ، وهي أرض مناورة مثالية لهجمة دبابات سريعة .

وأفزعت جرأة هذا التصميم رؤساء فون مانشتاين الذين كانوا اكفاء حقاً بيد انهم محافظون اكثر مما يجب . وانتهز مانشتاين فرصة سنحت له عندما وجد ان من الصعب اقناع رؤسائه وعرض فكرته على هتلر الذي أعجب بها فورا . وهكذا تم تبني خطة فون مانشتاين .

وعوقبت جرأة الرجل الذي أثار الهامه هزيمة فرنسا : فلم يُعط أي دور في تنفيذ خطته الخاصة . فقد ازعج رؤساءه بالحاحه لفرض افكاره ، وبدأوا يشتبهون فيه ويعتقدون بأنه يريد تملّق هتلر بطرائق ملتوية . وزاد حنقهم عندما سمعوا ان عددا من اعضاء هيئة الاركان العامة الاحدث منهم يكررون « بأن من الضروري تسمية فون مانتشاين قائدا عاما » . وقبل الهجوم بثلاثة شهور ، وضع مانشتاين على رأس أحد الفيالق ، واعطى منصبه في هيئة اركان فون رونشتدت الى الجنرال فون سودنشترن . ويمثل هذا الترفيع وسيلة مريحة للتخلص منه باعطائه شرف مثل هذه القيادة ، مع الرضى الكبير لرؤسائه . اية مهزلة للقدر : فون مانشتاين ، الذي عرف كيف يستخدم كل

---

(١) من الطريف مقارنة هذه التصريحات بذكريات بعض الضباط الفرنسيين الذين قاموا بتمارين على الخارطة في مدرسة الحرب العليا بين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٣٩ وكان موضوعها اختراق العدو للآردين (ملاحظة مترجمة النص عن اللغة الانكليزية) .

امكانات قدرة الدبابات على الحركة ـ مع أنه ليس اختصاصيا في الدبابات ـ يرسل لقيادة وحدة مشاة ، اكتفت في العمليات باستخدام اقدامها في الوقت الذي وصل فيه النموذج الجديد لحرب الحركة الى ذروته .

آراء قصيرة النظر الى أبعد مدى

لاحظت عموما وأنا اتحدث عن الحملة مع بعض القادة الالمان الذين لعبوا فيها دورا انهم لم يكونوا يتوقعون نصرا بهذا الشمول والامتداد . وقد عبر روهر يخت عن الرأي العام المشترك فيما بينهم بقوله :

« كنا نأمل النجاح الى الحد الذي يسمح لنا ببلوغ خط السوم ، وفصل البريطانيين عن الجزء الاعظم من الجيوش الفرنسية واحتلال بلجيكا وشمالي فرنسا » . وكان بلومنتريت أكثر وضوحا ايضا اذ قال ما يلي : « كنا واثقين بأن جناح الحلفاء الايسر سيخترق بلجيكا ، حتى بروكسل على الاقل ، وكنا نفكر بقطعه عن بقية الجيوش . ولم نكن نتوقع نجاحا أهم من ذلك . وكان شمول انتصارنا وكماله مفاجأة لنا » .

واعترف معظم الجنرالات تقريبا بخوفهم من أن يؤخرهم الحلفاء عند عبورهم للموز . ويبدو انهم لم يزنوا المعضلة التالية : ماذا سيحدث لو ان الاختراق لم ينجح ، وتحول هجومهم الى فشل كامل ؟ ربما كانت مثل هذه الفكرة كامنة في الاعتراضات التي قدمها فون براوخيتش وهالدر لهتلر . وفي هذه الحالة ، كانوا هم الوحيدين الذين فكروا فيها . فلو ان عملية الاختراق لم تؤد الى انهيار فرنسا ، وتوصلت الى غزو جزء من أرضها فقط ، لغدا احتلال الالمان لهذا البلد أصعب منالاً ، اذ كان بوسع الوضع الجديد ان يستثير شجاعة الفرنسيين وصمودهم . هكذا فقد كان الهجوم غير الحاسم بالنسبة للالمان أسوأ من الهجوم وأقل ذكاء بكثير من الحفاظ على وضع قائم مكرس لتعزيز دفاعاتهم بانتظار ملل الفرنسيين من حرب لا نهاية لها . ويبدو ان الجنرالات الالمان لم يفكروا بهذا الاحتمال . وقد صرح بلومنتريت انه لا يتذكر انه سمع نقاشا حول هذا الموضوع في مؤتمر من المؤتمرات أو في الاحاديث الخاصة . وأجابني معظمهم بأن المسائل المماثلة لهذه المسألة

كانت من اختصاص السياسة وخارج نطاق مسؤولياتهم .

ويكشف اهمال بحث مثل هذه الفرضيات ونتائجها الحيوية بوضوح حدود افق القادة الالمان المهني . ويظهر افتقارهم الى الحس الاستراتيجي العام ونقص التقدير الصحيح لاهداف الحرب عندما تكون هذه الاهداف متميزة عن الاهداف العسكرية . وكانت صفاتهم تقف عند حدود الاستراتيجية العسكرية البحتة ، وهذا ما يجعلهم يجدون انفسهم حتما غير متكافئين مع هتلر الذي كان موهوبا بكل الصفات الضرورية للابداع في الاستراتيجية العامة المتمثلة في فهم لاهداف السياسة وأساليبها ، واهداف الاستراتيجية وأساليبها في الوقت ذاته . ولم يكونوا قادرين على تصحيح الاخطاء التي ارتكبها الفوهرر في الاستراتيجية العامة أو التخفيف من مطامحه التي اخذت تتجاوز الحدود ، لانه يستحيل عليهم مناقشته مناقشة الند للند . ولم تنفعهم مهارتهم المهنية في مستويات الاستراتيجية البسيطة والتكتيك في شيء سوى انها أودت بهم وبه في هوة سحيقة لم يتمكنوا من الخروج منها .

ومع كل هذا ، وفي سخرية من التاريخ ، كانت أهم مساعدة للنجاحات التي حددت معالم طريق هتلر الى هذه الهوة ، هي المساعدة التي قدمها له خصومه .

الخطة الفرنسية

يعزى الاثر الصاعق للضربة التي وجهتها المانيا في الآردين ، في جزء كبير منه الى الخطة التي وضعتها فرنسا ، وهي خطة كانت تخدم بصورة كاملة المشروعات الالمانية الجديدة . ولا يمكن اعتبار الموقع الدفاعي أو « خط ماجينو » السبب الذي قاد الى هزيمة فرنسا ، والسبب الحقيقي الذي قادها الى الهزيمة هو العمليات الهجومية التي كانت تشكل جزءا من الخطة الفرنسية .

كان اختراق بلجيكا بواسطة الجناح الايسر ، يعني مساعدة لعبة الخصم والوقوع في الفخ . وكان الخطر في هذه المرة أيضا اكبر نظراً لأن الاختراق يتم في مواجهة خصم أكثر قدرة على الحركة ، يناور بسرعة السيارة لا بسرعة جندي المشاة . وكانت النتائج أخطر

أيضا ، لان ضربة الجناح الايسر هذه ، التي نفذتها الجيوش الفرنسية الاول والسابع والتاسع وقوة الحملة البريطانية ، تضم اكثر قوات الحلفاء قدرة على الحركة وارقاها تجهيزا وعتادا ، حتى ان هذه القوات ، ما ان اشتبكت في المعركة بعمق ، حتى فقدت القيادة الفرنسية العليا الجزء الاكبر من امكاناتها في المناورة . فكل وثبة الى امام يقوم بها الحلفاء تجعلهم اكثر تعرضا لمخاطر هجوم جانبي يوجهه فون رونشتدت عبر الآردين . وكانت هذه المزية الهائلة للخطة الالمانية متوقعة من قبل واضعيها . واوضح لي فون رونشتدت هذا الامر بقوله : « كنا نعتقد بأن الحلفاء سيحاولون الوصول الى الروهرعبر بلجيكا وجنوبي هولندا ـ الامر الذي كان سيعطي لهجومنا أثر ومزايا هجوم مضاد . ولا أهمية أبدا لان نعرف فيما اذا كان هذا الاحتمال قد تجاوز نيات الحلفاء » .

وكان لهجوم الجناح الايمن الالماني على حدود بلجيكا وهولندا أثر بالغ على الحلفاء الذين تصرفوا وكان الهجوم الالماني اشارة انطلاق لهم : فقد اندفعوا في هذين البلدين ، كما خططت الخطة (د) التي وضعت في الخريف . واخرجتهم الضربة المباشرة لفرن بورخ من خطوط دفاعهم ، فاشتبكوا مكشوفين وتركوا جناحهم ومؤخرتهم معرضين لهجوم فون رونشتدت غير المباشر .

ولم يكن من الصعب توقع رد فعل الحلفاء ، ولم يكن قرار هتلر في النهاية بتبني خطة مانشتاين نتيجة بصيرة ذكية فقط . فقد قام بلومنتريت بكشف له دلالة عندما عرض عليّ وجهة نظره في هذه الاحداث قائلا ما يلي : « قهرت المعارضة في النهاية وعدلت الخطة نتيجة بعض المعلومات التي وصلت من بروكسل حول خطط الحلفاء » .

غلالة مصارع الثيران

بدأ الغزو الالماني في الغرب بنجاحات كبرى في أقصى الجبهة ، من جهة البحر . ولفتت هذه النجاحات الانتباه حتى أصبحت كغلالة مصارع الثيران ، لتحويل الانظار عن الضربة الموجهة ، عبر الآردين الى قلب فرنسا .

وهوجمت عاصمة هولندا وعقد مواصلات روتردام ، في فجر ١٠ مايو (ايار)

بقوات محمولة جوا . وفي الوقت ذاته كانت القطعات الالمانية تعبر الحدود على مسافة ١٥٠ كم . وازدادت الفوضى والقلق اللذين سببتهما هذه الضربة المزدوجة الموجهة الى امام والى المؤخرة بالتهديد الجوي القائم في كل مكان . وانقضت المدرعات الالمانية مستغلة الفوضى عبر ثغرة في الجناح الجنوبي ، وفي اليوم الثالث اتصلت هذه المدرعات بالقطعات المحمولة جوا والتي تم انزالها في روتردام . وسارت بصورة مستقيمة نحو هدفها تحت سمع وبصر الجيش السابع الفرنسي الذي كان في طريقه لنجدة البلاد الواطئة . وفي اليوم الخامس استسلم الهولنديون .

واقتحم الالمان المدخل الرئيسي لبلجيكا أيضا بضربة مباغتة . فقد فتحت القطعات المحمولة جوا القفل بالاستيلاء على الجسور الواقعة فوق قناة البرت بقرب مايستريشت . وفي اليوم الثاني تقدمت المدرعات وهي مكشوفة ملتفة على رأس جسر لييج المحصن . وفي مساء اليوم ذاته اضطر الجيش البلجيكي الى التخلي عن تحصينات حدوده التي تشكل خطا دفاعيا ، وانسحب الى الغرب ، في حين كانت قوات الحلفاء تنتقل بسرعة الى الديل ، حسب الخطة المرسومة .

في تلك الفترة كانت هذه الانقضاضات المباشرة على هولندا وبلجيكا تعطي الانطباع بأنها تحققت بقوات هائلة . ومن المفيد ان نعرف بأن القوات التي زجها الالمان كانت على العكس من هذا الانطباع قليلة الاهمية ، وخصوصا في هولندا . وهزم الجيش الثامن عشر بقيادة الجنرال فون كلوشر الهولنديين بقوات أقل من قواتهم . ومع هذا كانت شبكة القنوات والانهار ، التي كان من الواجب الدفاع عنها بسهولة ، تبطىء تقدمه . وكان النصر مؤكدا منذ البداية ، بفضل استخدام بعض القطعات المحمولة جوا . ورغم كل هذا ، كان هذا السلاح الجديد (أي القوات المحمولة جوا) ضعيف التجهيز بصورة غريبة .

وقد اعطاني الجنرال شتودنت القائد العام للقطعات المحمولة جوا التفاصيل التالية : « كان مجموع ما لدينا في ربيع عام ١٩٤٠ (٤٥٠٠) مظلي مدرب . ولكي

نعطي للهجوم على هولندا كل فرص النجاح ، كان من الواجب زجها كلها . وقد عينا لهذه المهمة خمس كتائب (٤٠٠٠ رجل تقريبا) تساعدهم الفرقة ٢٢ المنقولة جوا التي تضم ١٢٠٠٠ رجل .

« واضطرتنا هذه القوات المحدودة الى أن نركز قواتنا ضد الهدفين اللذين بديا لنا اساسيين لنجاح العملية . ووجهت الاندفاعة الرئيسة ، بقيادتي ، الى الجسور الواقعة في روتردام ، ودوردريخت ، ومويرديجك التي تسمح للطريق الرئيسي القادم من الجنوب باجتياز مصب الراين . وكانت مهمتنا الاستيلاء على هذه الجسور قبل تدميرها من قبل الهولنديين ، والاحتفاظ بها سليمة الى ان تصل قواتنا البرية . وكان لديَّ أربع كتائب مظليين ، وفوجاً منقولا جواً مؤلفاً من ثلاث كتائب . وقد حصلنا على نصر كامل ، ولم نخسر سوى ١٨٠ رجلا . وكان لزاما علينا أن ننجح . ولو اننا اخفقنا لكان اخفاقنا اخفاقا للهجوم كله » . وقد جرح شتودنت نفسه بعد أن أصيب برصاصة في رأسه اطلقها أحد القناصة عليه ، وبقي خارج الخدمة الفعلية خلال ثمانية شهور .

« ووُجه الهجوم الثانوي ضد لاهاي مع مهمة الاستيلاء على العاصمة الهولندية ، واحتلال مكاتب الحكومة والمقر العام للخدمات الكبرى خصوصا . وكان الجنرال الكونت سبونيك يقود هذه المجموعة المؤلفة من كتيبة مظليين وفوجين منقولين جوا . واخفق الهجوم . وقتل عدة مئات من الرجال أو جرحوا ، وأُسر عدد مماثل » .

وبعد أن لبينا المطالب الملحة لعملية هولندا ، لم يبق لدينا سوى ٥٠٠ رجل من القطعات المنقولة جوا للمشاركة في غزو بلجيكا . ولعبت هذه المجموعة من الرجال دوراً اساسياً . وفي الحقيقة كان من الواجب أن يتم التقرب من الحدود البلجيكية من جنوب الارض الهولندية المسماة « ممر مايستريشت » . ولكن في الوقت الذي سيدخل فيه الجيش الالماني الى هولندا سيكون لدى حرس الحدود البلجيكيين على قناة البرت متسع من الوقت لنسف الجسور قبل أن تتمكن أية قطعة من قطعات الجيش البري اجتياز مسافة ٢٥ كم عن هذا الممر . وقدم بعض المظليين الذين تم اسقاطهم من الجو بهدوء وسيلة جديدة ، هي

الوحيدة حقا ، للاستيلاء على الجسور الحيوية وهي ما تزال سليمة .

ويعطي العدد المحدود جدا للقطعات المحمولة جوا المستخدمة في بلجيكا مظهرا غريبا لتقارير تلك الفترة التي تشير الى انزال الوف من المظليين الالمان في عشرين نقطة من النقاط المختلفة . وقد اعطى شتودنت الايضاح التالي : انزل الالمان اجساما هيكلية (دمى) في عدة أماكن في الوقت ذاته للتعويض عن عدم كفاية العدد وبقصد اثارة البلبلة . وحققت هذه الخدعة نجاحا زائدا نظرا لان الخيال تأثر لدرجة كبيرة دعته الى تضخيم الارقام .

وقد وصف لي الجنرال فون بوشتولشايم تتمة الغزو ، وكان آنئذ رئيسا لهيئة عمليات الجيش السادس ، الذي نفذ هذا الهجوم الجبهوي بقيادة فون رايخناو . وكنت أعرفه منذ مدة طويلة ، اذ قابلته في لندن قبل الحرب عندما كان ملحقا عسكريا . قال فون بوشتولشايم :

« كان محور هجوم الجيش السادس يمر بمايستريشت باتجاه بروكسل . وانطلق جناحه : الايمن من رويرموند ، مارا بتونهوت باتجاه مالين وانطلق جناحه الايسر من اكس - لاشابيل ، مارا بلييج باتجاه نامور . وكان المركز الحيوي للمرحلة الاولى هو مايستريشت ، أو بالاحرى الجسرين على قناة البرت ، الواقعين الى الغرب من مايستريشت . وسمح الانزال الجوي بالطائرات الشراعية على الضفة الغربية بالاستيلاء عليها سليمة . وتم الاستيلاء على معقل ايبن ايمايل بالطريقة ذاتها ، ولكن بسرعة أقل . ومنذ اليوم الاول أخر ظرف طارىء وصول النجدات المرسلة الى قطعات قناة البرت ، والمحمولة بالطائرات الشراعية : كان الهولنديون قد نسفوا الجسور على الموز في مايستريشت .

« ورغم هذا ، عبر فيلق البانزر السادس عشر بقيادة هوبنر نهر الموز منذ ان تم انشاء جسر على هذا النهر . وكان هذا الجسر الوحيد يشكل اختناقا ينبغي على دبابات البانزر ان تسير عليه في اتجاه واحد . وعندما تم عبوره ، اتجهت الدبابات الى نيفيل .

وتم التقدم بسرعة اكبر .

« لم تكن الخطة تتضمن الهجوم على ليبج . وكان من الضروري الالتفاف على هذا الموقع المحصن المستور في الشمال بجناحنا الايسر ، وفي الجنوب بالجناح الايمن للجيش الرابع . ولكن جناحنا الايسر ، المندفع باتجاه ليبج نجح في الدخول اليها من المؤخرة دون أن يصادف أية مقاومة جدية .

« واندفع القسم الاكبر من قواتنا باتجاه الغرب ، واحتك بالجيش البريطاني على الديل . وعندئذ بدأنا حركة التفاف منطلقة من الشمال . ولكن البريطانيين انسحبوا الى الشلدت قبل تطوير هذه الحركة . وقمنا بوقفة قصيرة على الديل للسماح لفرقنا باعادة تجمعها .

« وكنا نتوقع هجوما مضادا يقوم به الحلفاء موجهاً من انفرس على جناحنا الايمن اثناء تقدمنا الى بروكسل .

« وفي غضون ذلك كان فيلق البانزر السادس عشر قد تقدم على جناحنا الجنوبي وهزم فيلق الخيالة الفرنسي الذي انتقل قريبا من هانو وجمبلو . وفي البداية كانت دباباتنا متخلفة في العدد بالنسبة لعدد الدبابات الفرنسية ، بيد ان ضعف قدرة الفرنسيين على الحركة شلت هذه المزية . وفضلا عن هذا ، فقد سمح افتقارهم الى الحسم لبقية فيلق هوبنر بالوصول الى اهدافه . وهكذا ربحنا معركة جمبلو بتاريخ ١٤ . ولكننا لم نتمكن من استثمار نجاحنا ، لان فيلق هوبينر سحب منا لدعم الاختراق الذي تم في الآردين جنوبي الموز . وحرم قرار القيادة هذا الجيش السادس من المدرعات حرمانا تاما » .

وحرك هذا الامر كثيرا من الاحقاد وأثار احتجاجا شديد اللهجة من فون رايخناو الذي اضطر مع كل هذا الى الخضوع للمصالح العليا للهجوم العام . ولعب الجيش السادس ازاء القيادة العليا الفرنسية دوره جيدا كطعم محولا انتباهها عن تهديد أهم هو التهديد الذي يتطور في الآردين . وقام هذا الجيش أيضا بتثبيت القوات المتحركة لجناح

الحلفاء الايسر في اللحظة الحرجة . وفي الحقيقة ، كانت طلائع الاختراق الامامية لمدرعات فون رونشتدت تعبر الموز بقرب سيدان بتاريخ ١٣ وتنحدر في سهول شمال شرقي فرنسا . وعندما فكر غاملان القائد العام للقوات الفرنسية بنقل الخيالة المحمولة من جناحه الايسر لايقاف المد المعادي في سيدان واحتوائه ، ردوا عليه بأن عليها واجبا كبيرا تقوم به في جمبلو . . .

وكان من المنطقي تقليص قوات فون رايخناو بعد تحقيق هذا الهدف ، نظرا لانه لم يكن من الواجب اثارة تراجع متعجل اكثر مما يجب لجناح الحلفاء الايسر قبل أن تلقى شبكة فون رونشتدت على مؤخراته .

وسحب الطيران الذي كان يساعد فون رايخناو قبل سحب مدرعاته . ويذكر فون بوشتولشايم ذلك بقوله : « تلقى الجيش السادس في المرحلة الاولى من الهجوم دعما قويا جدا من « اللوفتوافه » الطيران الالماني لعبور الموز وقناة البرت بقرب مايستريشت ، ولكن معظم اسراب القاذفات المنقضة كانت مركزة عندئذ باتجاه الجنوب لحماية عبور الموز على مقربة من سيدان » . وسألت فون بوشتولشايم عما اذا كان الالمان قد تجنبوا عمدا قصف قوة الحملة البريطانية اثناء تقدمها الى الديل ، بغرض جذبها لمسافة أبعد أيضا . فرد علي قائلا : « ربما تقرر هذا في الدوائر العليا ، ولكننا لا نعرف عن ذلك شيئا في المقر العام لقيادة الجيش السادس » .

قبل أن ننتقل الى سرد الحركة التي قام بها فون رونشتدت والتي طوقت كل الجناح الايسر للحلفاء ، ابتداء من الآردين الى المانش ، من المفيد ان نتابع المراحل الرئيسة للتراجع المتأخر للحلفاء والجيش السادس يطاردهم ابتداءً من الديل حسب رواية فون بوشتولشايم التي سردها على مسامعي .

« كان اتجاه محور تقدمنا الآن الى ليل ، ويتقدم جناحنا الايمن الى غاند وجناحنا الايسر الى مونز وكونديه . ووقع أول اشتباك جدي مع البريطانيين على الشلدت . وكان الجنرال فون رايخناو يريد تطويق ليل بحركة التفاف الى الشمال ، ولكن القيادة العامة

للجيش والقوات البرية (O.K.H) أمرت بنقل الهجوم الرئيسي الى الجناح الآخر - لمساعدة الجيش الرابع بقيادة فون كلوغ (في الجناح الايمن لمجموعة جيوش الجنرال فون رونشتدت) ، الذي اشتبك بقوة في قطاع روبيكس - كامبري . وخاض فيلقنا الرابع معركة قاسية خلال هذا التقدم في تورني دون أن ينجح في خرق الدفاعات البريطانية .

« ووصلتنا بعض التقارير التي تشير الى ان الموقف بدأ بالتحسن في قطاع كامبري . فاقنع الجنرال فون رايخنا والقيادة العامة للجيش والقوات البرية (O.K.H) عندئذ بتنفيذ خطته : الالتفاف على ليل من الشمال والسير الى ايبر . وقام الفيلق الحادي عشر بهجوم عنيف خرق الجبهة البلجيكية على الليس ، بقرب كورتري . وحشدنا بعد هذا النجاح كل قواتنا الجاهزة باتجاه رولزوايبر . فانهى الجيش السادس هزيمة الجيش البلجيكي .

« وفي مساء ٢٧ مايو (ايار) اعلمنا الفيلق الحادي عشر ان احد الجنرالات البلجيكيين حضر الى مقر قيادته وطلب شروط الهدنة . ونقل هذا الطلب الى القيادة العامة للقوات المسلحة (O.K.W.) التي ردت بما يلي : « استسلام بدون قيد أو شرط » . واضطر البلجيكيون الى القبول واستسلموا في فجر اليوم التالي . وذهبت لمقابلة الملك ليوبولد في بروج ، في اليوم التالي . ولم يكن يروق له أبدا الاقامة في قصر لايكن . وسأل اذا كان بوسعه الذهاب الى منزله الريفي . فنقلت طلبه الى القيادة العامة فلم توافق عليه » .

ووجهت الى فون بوشتولشايم السؤال التالي : هل كان بوسع الجيش البلجيكي الصمود وقتا أطول ؟ فرد عليَّ قائلا : « اجل ! كان بوسعه الصمود لان خسائره لم تكن كبيرة ، ولكن عندما انتقلت بالسيارة وسط القطعات البلجيكية ، كان القسم الاعظم من رجالها يغمرهم الحبور لانهم سيتوقفون عن القتال » .

وطرحت سؤالا آخر : هل كنت مطلعا على التحضيرات التي تمت في هذا الوقت لاجلاء قوة الحملة البريطانية ؟ فرد عليَّ قائلا : « كنا نعرف وجود حشد كبير من السفن في دنكرك . وقد دفعنا هذا الامر الى الافتراض بأن عملية الاجلاء تعد . وقد فكرنا في

بادىء الامر ان الانكليز سينسحبون الى الجنوب » .

وأضاف ملخصا هذه الحملة المختصرة : « نجمت الصعوبة الوحيدة التي صادفناها عن الانهار والقنوات التي ينبغي عبورها ، لا عن المقاومة المعادية . وعندما سحبوا منا فيلق البانزر السادس عشر ، خسرنا في الوقت ذاته وحدات تركيب الجسور ، وتأخر تقدمنا بسبب هذا » . وعدد بوشتولشايم ايضا الدروس الرئيسة للحملة حسب رأيه بما يلي :

« ١ ـ أهم استنتاج : ضرورة وجود ارتباط جوي ـ ارض خلال المعركة . فاذا كان هذا الارتباط قد نجح الى حد ما في المعارك الرئيسة ، كمعركة مايستريشت ، وسيدان ، فهو لم ينجح عموماً . ففي مايستريشت كان دعم وتعاون طائرات الانقضاض التابعة لريختوفن مع الجيش السادس كاملا ، ولكن هذه الطائرات ارسلت فيما بعد لدعم هجوم فوت كليست في سيدان . وعلى الطيران أن يعرف دوما الوقت الذي ينبغي عليه فيه التوقف عن مهاجمة خطوط المواصلات ليشارك بصورة فعالة في المعركة . ونحتاج في هذا الصدد لكثير من المرونة .

٢ ـ برهنت الاحداث حتى عندما حرمنا من مجموعة البانزر ، ان من الممكن للمشاة القيام بالهجوم دون دعم من الدبابات ، وذلك بفضل التدريب الخاص للمشاة ، وبفضل نيران دعم منظمة بصورة جيدة ، وبفضل تكتيكات التسلل . وبوسع انتشار التهديدات بالهجوم على جبهة واسعة خلق بعض المنافذ للتسلل والهجوم .

٣ ـ عندما تجد المدرعات نفسها متكافئة بعضها مع بعض ، يحدث نوع من المعركة التقليدية ، نفتقر خلالها فيه الى مجال للمناورة .

٤ ـ ضرورة وجود مرونة كبيرة في الحركة لتبديل محور هجوم قوة ما عندما يزج بها في المعركة .

طعنة مصارع الثيران القاضية

تجمع في ١٠ مايو (ايار) قبل الفجر أكبر حشد للدبابات لم يعرفه التاريخ أبدا

مقابل الحدود اللوكسمبورغية ، مستعدا للاقتحام عبر هذا البلد وعبر اللوكسمبورغ البلجيكي ليبلغ ، على مسافة ١٠٠ كم من تلك النقطة الحدود الفرنسية بقرب سيدان . وقد حشدت ثلاثة فيالق بانزر في ثلاث مجموعات ، تضم بعض الفرق المدرعة في المجموعتين الاوليتين وبعض فرق المشاة الآلية في المجموعة الثالثة . وكان الجنرال غودريان الاختصاصي الالماني الرئيسي في الدبابات يقود الطليعة . اما الجنرال فون كليست فقد كان يقود مجموع القوات .

ووصف بلومنتريت هذا الحشد قائلا ما يلي : « كانت المجموعات الثلاث واقفة الواحدة وراء الاخرى في صفوف منضمة كجحفل جيش كبير « فالانج » . وقد بلغ طولها ١٥٠ كم ، نظرا لان الصف الاخير منها وقف على بعد ٨٠ كيلومترا الى الشرق من الراين . وقد جعلتني ملاحظة مدهشة جدا لفون كليست ادرك ابعاد هذا الانتشار للمدرعات : « فلو ان مجموعة البانزر هذه وقفت في رتل أحادي ، لكانت مؤخرتها في كونيغسبرغ في بروسيا الشرقية ، ولوصل رأس هذا الرتل الى تريف » .

والى يمين مجموعة فون كليست كانت هناك مجموعة بانزر مستقلة مهمتها الانقضاض بقيادة هوث عبر شمال الآردين الى الموز بين جيفيه وديانان .

ومع ذلك لم تكن ارتال المدرعات هذه تشكل الا جزءا من كتلة الدبابات التي تمتلىء بها الحدود الالمانية ، وهي مستعدة للانقضاض في الآردين . وحسب اعترافات بلومنتريت « كان لدى مجموعة الجيوش آ ٨٦ فرقة من كل الانواع ، محتشدة على جبهة ضيقة وعميقة جدا . ولم يشكل هذا التقدم عبر الآردين عملية حقيقية ، بالمعنى التكتيكي للكلمة ، ولكنه يمثل مسيرة تقرب . وقد فكرنا عند وضع الخطة اننا لن نصادف أية مقاومة جدية قبل الوصول الى الموز . وتكشفت صحة هذه التنبؤات . فلم يكن هناك أية مقاومة في اللوكسمبورغ . واعترضتنا قناصة الآردين والخيالة الفرنسية في اللوكسمبورغ البلجيكي ، ولكن كان من السهل تجاوزها .

« لم تكن المعضلة الاساسية ذات طابع سياسي ، بل كانت مسألة تنظيمية تتعلق

بالحركات المعقدة والتموينات . وكان من الواجب استخدام الطرق والدروب السالكة استخداما كاملا . وكان من الضروري وجود دقة مطلقة في رسم المسلك على الخارطة ، وفي تنظيم السير ، وفي حماية الارتال من كل تدخل جوي أو أرضي معاد . وكان على وحدات المشاة المتعددة ان تتحرك عبر المسالك أو تسير عبر الحقول محشورة بين الفرق المدرعة التي كانت آلياتها تشغل الطرق . وكان مطلوبا من هيئات الاركان القيام بعمل معقد جدا لتحديد خطوط انطلاق مجموعات البانزر المتعاقبة . في حين كانت بداية ونهاية مرور كل فرقة موقوتين بعناية . وكانت الارض مزروعة بالحواجز العوائق ـ الجبال والغابات ـ كما كانت الطرق تتميز في الغالب بمنحدرات شديدة ، ومنعطفات حادة ، ولكن تكسيتها كانت في حالة جيدة . وظهرت أعقد مشكلة فيما بعد عبر وادي الموز الإدنى ، عند مرور هذه الارتال المنضمة من الدبابات والمشاة ، إذ كانت حركة المرور من هذا الوادي تشكل صعوبة كبرى » .

وكانت فرص النجاح مرتبطة خصوصا بالسرعة التي تستطيع بواسطتها قوات فون كليست عبور الآردين والموز بالقرب من سيدان . وبعد العبور ، سيكون لدى الدبابات مجال كاف للمناورة . وكان من الضروري ان تجتازهما قبل أن يستعد الفرنسيون ويتمكنوا من جمع قواتهم الاحتياطية لايقافها . وقد لوحظ على الصور الجوية التي أخذها الالمان للمنطقة نوع من رأس الجسر المحصن ، يغطي مشارف النهر في سيدان . وقد ازدادت شكوك كل الذين اعتقدوا بتعذر تنفيذ خطة هتلر ـ فون مانشتاين عندما قرأوا هذا الاكتشاف على الصور الجوية . وكانوا يجدون ان من المستحيل على الدبابات التغلب على هذا الموقع المحصن ، ويخشون من تأخير التقدم عدة أيام .

ورغم هذا ، أعيدت دراسة الوثائق من جديد قبل الهجوم بعدة أيام ، من قبل ضابط نمساوي اختصاصي في دراسة الصور الجوية . فقرأ فيها ما لم يره أحد غيره : لم تكن التحصينات الفرنسية في هذا المكان الا في طور الانشاء . وبدد تقريره ، الذي أرسل فورا الى فون كليست الترددات الاخيرة . ورأى فون كليست ان بوسعه التعجيل بالتقدم

بزج مدرعاته ومشاته معا دون انتظار فتح الطريق للمشاة من قبل الدبابات . وأصبح المسير الى الموز سباقا اكثر من عملية عسكرية حقيقية . ووصل فيلق المشاة التابع لجيش ليست الثاني عشر « الذي سار بسرعة هائلة » الى الموز بعد يوم واحد فقط من وصول المدرعات ، التي كانت قد عبرت النهر فعلا .

وفتش فون رونشتدت بنفسه الفرق المدرعة في غابة سيدان بعد اندفاعها الى الموز ، وتبعها حتى النهر ليغد نصب الجسور من قبل سلاح المهندسين لانه كان راغبا بأن يتحسس بأصبعه نبض المعركة .

وقد قال لي فون كليست وهو يشرح لي تلك العمليات بالتفصيل : « دخلت قطعاتي الامامية فرنسا بتاريخ ١٢ مايو (ايار) بعد ان اخترقت الآردين واجتازته . وجاء الجنرال شموندت رئيس هيئة اركان الفوهرر ليراني في صباح هذا اليوم ، وسألني عما اذا كنت افضل متابعة التقدم فورا وعبور الموز او انتظار وصول فيلق المشاة . فقررت محاولة تسديد الضربة دون تضييع الوقت . واكد لي الجنرال شموندت عندئذ ان الفوهرر سيضع تحت تصرفي منذ صباح اليوم ، أقصى ما يمكن من الدعم الجوي ، بما في ذلك فيلق ريختوفن الجوي المؤلف من القاذفات المنقضة . ووُضعت التفاصيل بشكلها النهائي في مؤتمر عقد في مساء ١٢ مع الجنرال سبرل ، الذي جاء لمقابلتي بالطائرة ، وكان مقر قيادتي قريبا من برتري .

« وكان كشافو تشكيلاتنا قد اجتازوا خلال اليوم الحزام المشجر شمالي الموز ، وبلغوا الذرى المشرفة على النهر من الجنوب . وكانت وحدات الكشافين مستعدة للهجوم بالقوة بعد ان انضمت اليها الوحدات الاحتياطية خلال الليل . وفي صباح ١٣ ، اندفعت افواج مشاة الفرق المدرعة الى النقطة ذاتها . وظهر سلاح الطيران الالماني - ١٠٠٠ طائرة - عند الظهر . وتم عبور الموز في بداية ما بعد الظهر في ثلاث نقاط : نقطتان بالقرب من سيدان ، وقد تم عبور فيلق الجنرال غودريان منهما ، ونقطة أخرى على مقربة من مونتيرميه ، وقد تم عبور فيلق الجنرال رينهاردت منها . ونجحت نقاط

العبور الثلاثة ، الا انها صادفت في مونتيرميه صعوبات اكثر من النقطتين الأخريتين ، بسبب الارض المتضرسة خصوصا وطريق التقرب الوعر المتعرج .

« ولحسن الحظ لم تكن المقاومة جدية لان مدفعيتي لم تكن تملك الا خمسين صلية في كل بطارية - وقد تأخر التموين بالذخيرة بسبب الازدحام على طرق الآردين . وفي مساء ١٣ ، اقامت فرقي المدرعة رؤوس جسور متينة على الموز . ولم يصل فيلق مشاة الرأس الا بتاريخ ١٤ » .

وسألت فون كليست عن رأيه في الدفاعات الفرنسية . فأجاب قائلا : « كان هناك على طول الموز عدد معقول من المعاقل الاسمنتية بيد ان تسليحها غير كافٍ . فلو كان لدى الفرنسيين فيها اسلحة مضادة للدبابات ، لكنا تأثرنا بذلك بالتأكيد لان معظم دباباتنا كانت من النموذج القديم مارك ١ الكثيرة التعرض للاخطار ! وكانت الفرق الفرنسية لهذا القطاع مؤلفة من جنود متوسطي القيمة ، وسيئي التسليح . وقد توقفت قطعاتهم بسرعة كبيرة عن القتال بعد ان تعرضت للغارات الجوية او لقصف المدفعية ، وهي حالة تكررت خلال هذه الحملة » .

وفي الجانب الفرنسي ، كانت أربع فرق مؤلفة من رجال من احتياط الخط الثاني ، تدافع عن جبهة عرضها اكثر من ٦٥ كم . وكانت تفتقر بالاضافة الى الظلم الذي لحق بها من جراء طول هذه الارض التي ينبغي الدفاع عنها ، الى العدد الطبيعي من المدافع المضادة للدبابات ، ولم تكن تملك مدفعا واحداً مضادا للطائرات . وليس من المدهش ان تنهار هذه المشاة الصعيفة التي هوجمت في اول الامر باسراب من القاذفات المنقضة ، بينما كان الالمان ينصبون الجسور على النهر ، ثم هوجمت بموجة من الدبابات .

الاستراحة الاولى

كان بوسع القادة الالمان ان يرتابهم الشك في نجاحهم . فهم لم يفهموا السبب الذي دفع الحلفاء الى عدم القيام بهجوم مضاد . وكان فون رونشتدت قد خشي من وقوع

هجوم قوي ضد جناحه الايسر اثناء عبوره للآردين . وقد صرح قائلا : « كنت أعرف غاملان قبل الحرب ، وكنت اتوقع وانا احاول التنبوء بمشروعاته ان يقوم بحركة جناحيه بقواته الاحتياطية ابتداء من منطقة فردان . وقدرنا عدد الفرق التي يمكن استخدامها لهذا الغرض بثلاثين او اربعين فرقة . ولكن لم يحدث اي شيء من هذا القبيل » .

وكان هتلر يشارك فون رونشتدت هذه المخاوف . وهذا ما دفعه الى كبح جماح تقدم قطعاته . وكان هذا الكبح أول تدخلاته . وكان لتدخله الثاني آثار أخطر . وقد روى لي سيفرت الاستراحة الاولى في هذه العبارات : « عندما عبرنا الموز أراد القائد العام الانقضاض على آبفيل وبولون ولكن الفوهرر كان يخشى من ان يستدير الجزء الإعظم من الجيوش الفرنسية باتجاه الغرب . ولهذا أوقف التقدم خلال الوقت الضروري لتغطية جناح جيوشه ، على طول الايسن ، بفرق مشاة جديدة » .

وكان روهريخت ، الذي كان عندئذ ضابط الارتباط بين القيادة العامة للقوات البرية (.O.K.H) والمقر العام للجيش الثاني عشر واضحا اكثر عندما قال : « تلقى الجيش الثاني عشر الذي كان يتبع مجموعة البانزر العاملة بقيادة فون كليست ، الامر بالقيام بدوران الى الجنوب نحو الايسن ، في حين كانت الدبابات تتجه نحو الغرب والمانش بعد ان عبرت الموز . واستُدعي الجيش الثاني بقيادة وايخ من المؤخرة لتقديم دعم المشاة الضروري لهذا السباق الى البحر . كان هذا القرار في رأيي خطيئة : فقد كلفنا تأخير يومين . وكان من المفضل أن يقوم الجيش الثاني بدوران الى الجنوب نحو الايسن وان يذهب الجيش الثاني عشر مباشرة لدعم القوات المدرعة » .

وأكد فون كليست هذا الرأي . « أبقيت قطعاتي في مكانها خلال يوم كامل . وكانت طليعتي قد بلغت الواز بين غيز ولافيز عندما وصلني امر الفوهرر الشخصي بالتوقف . ولا اعتقد ان لهذا القرار علاقة بقرار تخصيص الجيش الثاني بدلا عن الجيش الثاني عشر كدعم . وقد نتج هذا الايقاف على ما يبدو عن خوف الفوهرر من هجوم مضاد على جناحنا الايسر . ولم يكن يريد ان يتركنا نقتحم اكثر مما يجب قبل ان ينجلي الموقف » .

ويمكن فهم مثل هذا القلق خصوصا من جانب هتلر الذي كان موجودا بعيدا الى الخلف . وفي الحقيقة ، كان الانهيار المفاجيء للفرنسيين على الموز وعدم وجود هجوم مضاد للحلفاء ، كان كل هذا يبدو اروع من ان يكون حقيقيا . ومع كل هذا ، سارعت الاحداث في منطقة العمليات في تبديد هذه المخاوف . وكانت صدمة الحرب الخاطفة « البليتزكريغ » الآلية قد شلت الجيش الفرنسي ، الذي كان عجزه المادي والمعنوي يمنعه من مجابهتها . ولم يتمكن الفرنسيون وهم في حالة الذهول التي كانوا عليها من الافادة من الراحة القصيرة التي أتاحها لهم تدخل هتلر وايقافه لقطعاته .

وبعد عبور الموز ، استدار فون كليست الى الغرب واصطدم ببعض المقاومة . وتحركت دباباته في منطقة خالية من الحواجز في مؤخرة جناح الحلفاء الايسر في بلجيكا . ولم تقم « معركة الحدبة » بهذا الاسم الجذاب الا في التقارير الرسمية لتلك الفترة . ولم تكن سوى تقدم سهل . وكانت الهجمات المضادة الموجهة ضد جناح فون كليست تشنجية وغير متماسكة . ووقع الهجوم المضاد الاول في ستون جنوبي سيدان حيث احدثت الفرقة المدرعة الفرنسية الثالثة اضطرابا لمدة قصيرة قبل ان يتم الهجوم عليها من الجناح وتدحر . اما الهجوم المضاد التالي ، بالقرب من لاوون فقد شنته الفرقة المدرعة الرابعة ، التي أنشئت مؤخرا ، ووُضعت بامرة الجنرال ديغول . ويتحدث فون كليست بالعبارات التالية عن هذه الهجمات : « لم تعرضنا هذه الهجمات المضادة للخطر أبدا ، كما قيل فيما بعد ، فقد تولى غودريان امرها حتى دون ان يزعجني ، ولم اسمع عنها الا في اليوم التالي » . ومن بين الفرقتين المدرعتين الاخريتين ، طوقت احداهما التي كانت تفتقر الى المحروقات ، وكانت متوقفة بالتالي . اما الفرقة المدرعة الثانية فقد جزأتها القيادة العليا الى مجموعات صغيرة مخصصة لحماية الجسور .

واندفعت مدرعات الالمان الى الغرب بايقاع سريع أذهل الخصم بصورة شاملة ، ولم تتأخر الا عند وقفاتها القصيرة على الواز . وسرد لي فون كليست مثالا على هذا :

« كنت في منتصف الطريق الى البحر عندما قرأ لي أحد ضباطي خلاصة اذاعة بيان فرنسي يعلن بأن قائد الجيش السادس الفرنسي على الموز خلع من منصبه وان الجنرال جيرو تسلم قيادة هذا القطاع . وكنت استمع الى البيان عندما فتح باب مقري ، وادخل جنرال فرنسي حسن الهيئة . وقدم نفسه على الشكل التالي : « أنا الجنرال جيرو » . وروى لي أنه كان ذاهبا في سيارة مدرعة بحثا عن الجيش الذي ينبغي ان يلتحق فيه ووجد نفسه وسط الالمان الذين كان يجهل وجودهم القريب جدا .

وتابع فون كليست كلامه قائلا :

« وفي اليوم ذاته اصطدمت بالبريطانيين على الشكل التالي : صادفت دباباتي كتيبة مشاة وسحقتها ، وكان جنودها مجهزين بطلقات التدريب . وتعطي هذه النكات فكرة عن سرعة وصولنا المباغتة للانكليز » واجتاح الالمان الارض كالطوفان خلف قوة الحملة البريطانية التي كان قسمها الاكبر ما زال مشتبكا في بلجيكا بعمق .

وأضاف فون كليست : « والخلاصة ، لم تصادف اندفاعاتنا مقاومة جدية . فقد خاض فيلق البانزر بقيادة رينهاردت معركة بالقرب من كاتو ، لكن هذا الحادث هو الحادث البارز الوحيد . وبلغ فيلق البانزر بقيادة غودريان في سباقه الى الجنوب آبفيل بتاريخ ٢٠ ، وقطع جيوش الحلفاء الى جزءين . ولحقت به الفرق الآلية لفيترشايم عن قرب ، وأمنت بسرعة الدفاع عن القطاع الواقع على طول السوم ، بين بيرون وآبفيل ، في حين كان غودريان يستدير منذ اليوم التالي باتجاه الشمال . وكان يريد الآن بعد أن عزل قوة الحملة البريطانية عن قواعدها أن يقطع عليها طريق التراجع الى البحر .

وكانت القيادة العليا الالمانية قلقة جدا في هذا اليوم . ولكن فون كليست الذي لم تنتابه المخاوف في شيء بعد ان وصل فورا الى آبفيل بتاريخ ٢٠ بعد احتلال المكان ، لم يكن يساوره أي قلق . وفي حين كان فون كليست يخترق فرنسا ويتقدم فيها ، كانت قطعات مجنبته تستبدل بالتتابع بنظام استبدال يستهدف المحافظة على كل زخم التقدم . وكانت قطعات المشاة تدعم دباباته البانزر وتضع نفسها تحت قيادتها ليوم أو يومين ، لدى

كل وثبة ، خلال كل الوقت الذي كان عليها فيه أن تحمي اجنحة المدرعات . ومع كل هذا أصبح الايقاع فيما بعد سريعا جدا لدرجة تكون فيهـا خلفهـا مجـال فارغ خطـر . وتسللت مفرزة بريطانية ، وهي تقوم بالهجوم المضاد ، ودخلت كإسفين في أحـد هذه الشقوق .

وقال لي فون رونشتدت في هذا الصدد ما يلي . « عندما بلغت قطعاتي المانش ، كانت هناك لحظة حرجة : كان البريطانيون يشنون هجوما مضادا باتجاه الجنوب من آراس الى كامبري بتاريخ ٢١ مايو (ايار) . وخشينا أن تعزل فرقنا المدرعة قبل أن يتاح لفرق المشاة وقت الوصول . ولم يثر أي هجوم فرنسي مثل هذا الخطر الكبير » (ومن المهم أن نعرف أن الالمان استشعروا هذه الضربة بقوة . فقد عرقلت تقدمهم بالرغم من أنها نُفِّذت بمفرزة صغيرة جدا من الفرقة نورثومبريان الخمسون بقيادة الجنرال مارتل ، مع الكتيبتين ٤ و٧ من فوج الدبابات الملكي . ومـن الـواضح انـه لو كان هنـاك فرقتـان مدرعتـان بريطانيتان بدلاً من الكتائب لامكن شل كل العمليات الالمانية) .

كان هذا هو آخر جهد لقطع الشبكة التي رماها الالمان على مؤخرات جيوش الحلفاء في بلجيكا . وأخذت عقد الشبكة تنضم . واثبتت النهاية أن هتلر كان محقاً وان جنرالاته كانوا على خطأ ومع هذا كانت شكوكهم حول امكانيات الحملة مبررة . فلم يكن بوسع أية فرضية معقولة للعوامل المجهولة أن تواجه خطأ أوليـا بمثـل الخطـأ الاولي للجنـرال غاملان ، القائد العام الفرنسي الذي كشف مفصلة تقدمـه ، في حـين كان يرسـل كل جيوش جناحه الايسر الى بلجيكا للاصطدام بالهجوم المعادي . ومن المؤكد أنه لولا هذا الخطأ الغريب ، لما حصل هجوم هتلر الا على نجاح محدود . ولو ان الجيوش الالمانية بعد ان احتلت قسما ضئيلا من الارض الفرنسية فيما وراء الحـدود ، أوقفـت فيهـا وبقيـت معطلة ، لتغير مجرى الحرب ولتغير مصير العالم تغيرا تاما .

وقال بلومنتريت (وصادق على قوله كثيرون) : « كان هتلر ثملا عندما تحقق من ان صحة « تقديره » رغماً عن آراء جنرالاته . وأصبحت مناقشته أو تخفيف حدة حماسه

أصعب من أي وقت مضى » . وهكذا ، وفي نهاية المطاف ، أصبح ۱۳ مايو (ايار) أكثر شؤما بالنسبة للجنرالات الالمان ـ ولالمانيا ـ من شؤمه بالنسبة لفرنسا .

وبعد اسبوع تقريبا انقلب الحظ . وسخر القدر مرة أخرى . وجاء الانقلاب في هذه المرة بسبب كبح غريب لهتلر لا بسبب تعقل جنرالاته .

هتلر يصدر أمره بالوقوف

تحرك فيلق غودريان المدرع الى كاليه بعد ان استدار نحو الشمال ، في حين كان رينهاردت ينتقل الى غرب آراس باتجاه سانت ـ اومير ودنكرك . وبتاريخ ۲۲ عزلت اندفاعة غودريان بولون . وفي اليوم التالي تعرضت كاليه للمصير نفسه . وفي الوقت ذاته بلغ رينهاردت قناة اير ـ سانت ـ اومير ، على أقل من ۳۰ كم من دنكرك . وكانت المدرعات الالمانية أقرب الى هذا الميناء من الجزء الاعظم من القوات الانكليزية ، وهو الوحيد الذي تستطيع قوة الحملة البريطانية الوصول اليه . وقال لي فون رونشتدت : « في هذا الوقت ، وصلت مخابرة هاتفية غير متوقعة من العقيد فون غريفنبرغ من القيادة العامة للقوات البرية (O.K.H) تطلب من قوات فون كليست التوقف على خط القناة بأمر شخصي من الفوهرر . وكان هذا الامر يتعارض مع نيات الجنرال هالدر . فأرسلت برقية احتجاج . ولكني تلقيت ردا برقيا جافا جدا يقول ما يلي : « ينبغي أن تبقى الفرق المدرعة بعيدة عن دنكرك بما يعادل المدى المتوسط للمدفعية (من ۱۳ الى ١٥ كم) . ولا يسمح لكم بالقيام الا بحركات الاستطلاع والحماية فقط » .

وقال لي فون كليست ما يلي : بدا لي الامر الذي استلمته غير منطقي . « فقررت تجاهله وعبور القناة . ودخلت سياراتي المدرعة هازبروك ذاتها وقطعت طرق التراجع البريطانية . وعلمت فيما بعد ان اللورد غورت القائد العام البريطاني كان موجودا في هازبروك في هذا الوقت بالذات . وتلقيت أمرا الزاميا أكثر ايضا ، ينذرني بالانسحاب الى الجانب الآخر من القناة . فأوقفت دباباتي في هذا المكان لمدة ثلاثة أيام » .

وقال لي فون توما قائد دبابات الاركان العامة انه كان متقدما جدا مع الدبابات

الاولى ، بالقرب من بيرغ ، حيث كان بوسعه ان يرى منهـا دنكـرك . فاتصـل فورا ولاسلكيا بالقيادة العامة للقوات البرية (O.K.H) يرجوها بأن تتركـه يتقـدم . وكـان رجاؤه دون جدوى . وأشار عند حديثه عن موقف هتلر بنغمة لاذعة : « لا جدوى من مناقشة أحمق . لقد دمر هتلر فرص الانتصار » .

وفي غضون ذلك ، كانت القطعات البريطانية تجتاح دنكرك وتتحصـن لتغطي عملية اجلائها . واضطر قادة الدبابات الالمان الى البقاء في اماكنهم بدون أي نشاط ، ينظرون الى البريطانيين وهم يفرون .

وقال فون كليست : « وبعد ثلاثة أيام ألغي أمر منع التقدم ، وعاودنا تقدمنا ، فاصطدمنا بمقاومة تزداد شدة وضراوة . وما كدنا نتقدم حتى تلقيت أمرا جديدا من هتلر يقضي بأن أتخلى عن عملية المطاردة وان أوجه كل قواتي باتجاه الجنوب لمهاجمة خط الدفاع المرتجل الذي شكلته بقايا الجيش الفرنسي على السوم . وأوكلت مهمة احتلال دنكرك الى وحدات مشاة قادمة من بلجيكا . . . وكان البريطانيون قد أنهوا انسحابهم » .

دوافع هتلر

التقى فون كليست وهتلر بعد عدة أيام في مطار كامبري . وسمح فون كليست لنفسه بالتلميح للفرصة الجميلة الضائعة بعدم احتلال دنكرك قبل أن يفـر البريطانيـون منها . فرد عليه هتلر : « هـذا ممكـن ، ولكنني لم أكـن اريـد ارسال الدبابـات الى مستنقعات الفلاندر ، وان لا نسمع بعد ذلك شيئا عن الانكليز خلال هذه الحرب » .

واعطى هتلر لبعض الاشخاص الآخريـن دوافـع أخـرى : كان عدد الدبابـات المتعطلة كبيرا جدا لدرجة كان هتلر يريد معها معرفة الموقف الصحيح قبل أن يندفع الى مدى أبعد . وكان يدّعي ايضا انه كان يريد الاحتفاظ ببعض الدبابات الكافية للهجوم المقبل ضد بقايا الجيش الفرنسي .

وقد لاحظت ان معظم الجنرالات ، ومنهـم فون كليست قد قبلـوا التفسير دون

ابداء فضول اكثر ، بالرغم من خيبة املهم واقتناعهم بالخديعة ، ومن خيبة أملهم بالحصول على انتصار كامل . وكانوا يجدون قلق هتلر من دخولهم الارض المستنقعية مبالغا فيه . فقد كانوا مقتنعين بانهم سيتغلبون بسهولة على هذه الصعوبة . وكانوا يعرفون ان كميات من الدبابات الجديدة تصل يوميا لتعويض الخسائر . ومع هذا ، لم يروا في قرار هتلر الا خطأ في الحكم أو مبالغة في الحذر .

ومع هذا كانت هذه الاعذار تبدو واهية لبعض ضباط اركان فون رونشتدت . ولم يكونوا يفسرون لانفسهم امر الايقاف هذا الا في الاشتباه بوجود سبب خفي لهتلر . وقارنوا هذا الموقف بالاقوال الغريبة التي أدلى بها الفوهرر عندما زار مقر قيادتهم العامة في شار لفيل بتاريخ ٢٤ مايو (ايار) في اليوم التالي لليوم الذي أوقفوا فيه مدرعاتهم .

وجرى حديث خاص بين هتلر ، يتبعه ضابط واحد ، وبين فون رونشتدت الذي كان يرافقه سودنشترن وبلومنتريت محورا هيئة اركانه . واليكم ما قاله لي بلومنتريت حول هذا الحديث : « كان مزاج هتلر رائعا . واعترف بأن الحملة « معجزة من المعجزات » وبأن الحرب ستنتهي خلال ستة اسابيع . وبعدها يعقد سلم معقول مع فرنسا ويصبح حرا في التفاهم مع بريطانيا .

« وبدأ يتحدث معنا ونحن مندهشون بعبارات المديح للامبراطورية البريطانية ، وضرورة وجودها ، وعن الحضارة التي ادخلتها بريطانيا ـ العظمى الى العالم . وأشار وهو يهز كتفيه ان امبراطوريتها قد أسست بوسائل غالبا ما كانت جريئة . ولكن « يمكن صنع العجّة دون كسر البيض » . وشبه الامبراطورية البريطانية بالكنيسة الكاثوليكية ، معتبرا ان الاثنتين عنصران ضروريان لاستقرار العالم . وأضاف الى أنه سيطلب الى بريطانيا ـ العظمى الاعتراف فقط بالوضع الالماني في القارة . وان عودة مستعمرات المانيا اليها أمر مستحسن ، ولكنه ليس أساسيا ، وانه سيقدم لانكلترا ، في حالة وجود أية صعوبة للتفاهم معها ، أو أي شيء آخر مهما كانت طبيعته ، دعم جيوشها الخاصة . وتابع حديثه قائلا : ان المستعمرات لا تشكل الا مسألة هيبة ، نظرا لانه لا

يمكن الاحتفاظ بها خلال حرب من الحروب ، وان عدد الالمان الذين يتحملون المناخ الاستوائي قليل جدا على كل حال .

« وأكد وهو يختم كلامه الى أنه يرغب بقيام سلم مع انكلترا على أسس تقر انكلترا بأنها لا تمس شرفها وعزتها .

« وعبر الفيلد مارشال فون رونشتدت الذي كان دوما من أنصار التفاهم مع فرنسا وانكلترا عن ارتياحه ، وتعجب فيما بعد لدى مغادرة هتلر وهو يتنفس الصعداء ، واطلق زفير الارتياح قائلا : « حسنا ! اذا كان لا يريد شيئا آخر ، فسنحصل على السلم أخيرا » .

وفي حين كان هتلر يأمر المدرعات بالتوقف ، فكر بلومنتريت من جديد في هذا الحديث . وقال لنفسه ان هذه « الوقفة » تشكل جزءا من وضع سياسي مخصص لتسهيل عقد اتفاقية للسلم . فلو ان الجيش البريطاني أسر في دنكرك اذن لاعتقد الانكليز بأن شرفهم قد لطخ ولا بد من رد اعتبارهم . فقد كان هتلر يريد أن يتفاهم معهم بتركهم يفرون .

ويؤكد هذه الفرضية عن الدوافع الخفية لهتلر عدم قناعته التامة بمشروعات الانزال في انكلترا . وقد قال بلومنتريت : « لم يكن (هتلر) يهتم بخطط العمليات ، ولم يقم بأي عمل للتعجيل باعدادها . وليس هذا من طبيعته » . فقد كان قبل غزو بولونيا وفرنسا ، وقبل غزو روسيا فيما بعد على العكس من هذا يستعجل القيادات في اعدادها . بيد انه انتظر في هذه المرة .

وقد اعطى بعض الجنرالات الذين عارضوا سياسة هتلر خلال مدة طويلة تقريرا عما دار في مؤتمر شارلفيل ، وعن التوقفات التي فرضها هتلر فيما بعد . وكانت شكوك هؤلاء الجنرالات قد ازدادت بهتلر خلال الحرب . وان موقفهم يجعل شهاداتهم مذهلة أكثر . فقد انتقدوا هتلر في كل المجالات تقريبا . وفي الموقف الذي وُجدوا فيه اثناء محادثاتي معهم ، كان بوسعهم اتهام هتلر بأنه أراد أسر الجيش البريطاني وان يدعوا بأنهم

هم أنفسهم كانوا يريدون منعه . ولكنهم أكدوا عكس هذا ، فلقد وقعوا في حيرة كجنود حقيقيين يريدون استكمال النصر وهو يمنعهم من ذلك . ومن الأمور ذات الدلالة أن وصفهم لتأملات هتلر عن انكلترا ، في اللحظة الحاسمة لدنكرك ، تتفق مع ما كتبه هو نفسه في السابق في كتابه كفاحي . ومن المدهش ان نلاحظ الاسلوب الذي تفيد فيه بانجيله الخاص ، حول نقاط أخرى .

فهل كانت رغبته السياسية باقامة تحالف مع انكلترا ، تلك الفكرة التي طالما داعبت احلامه ، هل كانت هذه الفكرة هي التي املت عليه موقفه ازاء انكلترا ؟ او انها مستوحاة من احساس أعمق تأكد من جديد في هذه اللحظة الحرجة ؟ كان سلوكه يكشف بعض العناصر المعقدة ، وكأن لديه ازاء انكلترا شعور كراهية مشوبة بالحب مشابه الى حد ما شعور القيصر .

ومهما يكن التفسير الحقيقي فان بوسعنا على الأقل ان نكون راضين بالنتيجة لان تردده كان لمصلحة بريطانيا ـ العظمى في احرج لحظات تاريخها .

الفصل الحادي عشر

هزيمة فرنسا
وأول خيبة أمل

شنت المرحلة الثانية والاخيرة من حملة فرنسا بتاريخ ٥ يونيو (حزيران) بهجوم الماني جديد موجه الى الجنوب فيما وراء السوم ، بعد اسبوع تقريبا من انطلاق آخر سفينة تنقل قوة الحملة البريطانية من دنكرك الى انكلترا .

وهكذا حرم الجناح الايسر الفرنسي ، الذي أصبح منعزلا ، من ثلاثين فرقة (ثلث قواته الكاملة تقريبا) تضم اكثرية الفرق الآلية التي كان عددها أساسا قليلا جدا . وقد خسر هذا الجناح أيضا مساعدة اثنتي عشرة فرقة بريطانية . وفي الحقيقة ، لم يترك الانكليز وراءهم الا فرقتين ، كانتا معزولتين عن الفرق الاخرى في وقت الهجوم الالماني . وحل ويغان محل غاملان ، الذي لم يكن لديه سوى ٦٦ فرقة ، معظمها قد استنزف او من نوعية منخفضة . وكان ترتيبها يمتد على جبهة أكثر اتساعا من الجبهة الاصلية . اما الالمان ، فقد كان لديهم متسع من الوقت لجمع كتلة مشاتهم التي لم تقم حتى ذلك الوقت بأي عمل .

واتسم التمهيد للهجوم الجديد بسمة بارزة : لقد تمكنت الفرق الالمانية التي زجت كلها في السباق الى البحر ، من الاستدارة بسرعة كبيرة جدا باتجاه الجنوب او الشرق ، مستعدة للهجوم فورا . وأكدت هذه السرعة في الحشد باتجاه جديد تحول الاستراتيجية بفضل القدرة الحركية الميكانيكية .

ولعبت مجموعة جيوش فون رونشتدت في هذا الهجوم الدور الحاسم الذي لم يكن مقررا لها بدقة وتفصيل في خطة العمليات . فقد كان فون رونشتدت يدافع عن اطول جبهة ويملك أهم القوات . ورغم هذا ، كان فون بوخ قد تلقى لمجموعة جيوشه في بداية الهجوم ست فرق مدرعة من أصل عشرة فرق كان يضمها الجيش الالماني . وكان مفهوم المرونة يسود تنظيم الحملة ، وتتخذ الخطة شكلها حسب مجرى المعركة . وتُعطي التبديلات الطارئة على الخطة اثناء التنفيذ دليلا آخر على القوة التي تتيحها القدرة الحركية الميكانيكية . وقد لخص لي فون رونشتدت في حديثنا الاول المعركة بعبارات ليس هناك أوضح ولا أدق منها : « كانت المعركة قاسية الى حد ما خلال عدة أيام ولكن مآلها الى النجاح لا يتطرق اليه الشك . فقد شنت مجموعة جيوش فون بوخ الهجوم على الجناح الايمن . فانتظرت الى ان عبرت السوم وقامت بالاندفاعة الى أمام لأزج بجيوشي في المعركة . واصطدمت هذه الجيوش بمقاومة عنيفة على الايسن ، ولكنها تقدمت بسهولة بعد عبور هذا النهر . وتمت الاندفاعة ذات الاهمية الحيوية على هضبة اللانغر باتجاه بيزانسون والحدود السويسرية ، في ظهر الجناح الايمن الفرنسي الذي يدافع عن خط ماجينو » .

وتكشف الهجوم الذي خاضه الجناح الايمن الالماني عن خيبة أمل في القطاعات التي كنا نعتمد فيها أكثر من غيرها على النجاح . وعلى العكس تم التغلب في بعض القطاعات الثانوية على الحواجز التي اعتبر التغلب عليها صعبا ، وكللت العمليات بالنجاح .

وفي أقصى اليمين ، بين آميان والبحر ، شن الجيش الرابع بقيادة فون كلوغ هجومه معززا بفيلق دبابات بانزر . وكان الجيش الثامن عشر ، على عادته ، مشغولا بتطهير دنكرك وتنظيفها من المقاومات . وبفضل الاختراق السريع لفرقة روميل السابعة ، بلغ فون كلوغ السين حالا عند روان والمناطق المجاورة لها . واجتاز الالمان النهر في اعقاب القطعات الفرنسية ، التي كانت تتراجع بصورة فوضوية ، ولم تحاول الدفاع جدياً عن النهر .

ورغم هذا ، لم يكن من المتوقع الحصول على نتائج هامة في هذا القطاع . وفي الحقيقة ، يبدو من غير المنطقي الاعتماد على عبور سهل لنهر واسع يسهل الدفاع عنه بهذا الشكل . وكان الامل منصباً على القطاع الواقع الى الشرق من آميان للحصول على الحسم النهائي بواسطة الجيش السادس الذي يقوده رايخناو ، والذي يشكل جزءا من مجموعة جيوش فون بوخ .

وقد روى لي بوشتو لشايم رئيس هيئة اركان فون رايخناو ما حدث هنا قائلا ما يلي : « وضعت مجموعة البانزر التابعة للجنرال فون كليست تحت تصرف الجيش السادس للقيام بهذا الهجوم . ولم تكن مؤلفة من نفس العناصر التي شنت الهجوم الاول ، اذ تم نقل غودريان الى شامباني في مجموعة الجيوش « آ » واستبدل فيلقه بالفيلق السادس عشر بانزر بقيادة هوبنر . وشرعنا بهجوم متشعب يتجه بعدة اتجاهات كأصابع الكف . وهاجم فيلق البانزر الرابع عشر بقيادة فيتر شايم منطلقا من رأس جسر السوم المحتل في آميان، وانطلق هوبنر من رأس جسر بيرون . وكانت مهمتاهماتحقيق الاتصال فيما بينهما على الواز ، فيما وراء سان ـ جوست ـ آن ـ شوسيه . وتقرر عندئذ متابعة التقدم الى شرقي باريس او الى غربها .

« وأثار وضع هذه الخطة بعض الانتقادات . ولو كان لي الخيار لهاجمت بفيلقي البانزر مجتمعين ، ولكن الجنرال فون رايخناو قرر الهجوم بكماشة في نهاية المطاف بدءاً من رأسي الجسرين . وكان من الممكن حسم المعركة بسرعة أكبر في هجوم مكثف .

« كانت بداية العملية صعبة . فقد دافع « خط ويغان » بصورة شرسة خلال ثلاثة أو أربعة أيام . وفي النهاية وخلافا لكل التوقعات ، لم يحدث الاختراق الرئيسي في قطاعنا ، بل حدث على الايسن ، شرقي سواسون . وهنا قررت القيادة العامة للقوات البرية (.O.K.H) سحب مجموعة البانزر التابعة للجنرال فون كليست من محورنا وارسالها الى الشرق لاستثمار هذه الثغرة . وسبب لنا سحب المجموعة وحرمان قواتنا منها خيبة أمل شديدة ، لانه كان تكرارا لما حدث في بلجيكا

« وكان فيلق فيتر شايم قد أقام رأس جسر على الـواز في بون ـ سانت ـ ماكسانس ، ولكن تقدم هوبنر تعطّل بمعارك قاسية غربي نويدون . وفي غضون ذلك ، تم اختراق آخر في شامباني . ولم يتم شن الهجوم الا بتاريخ ٩ ، ولكن عبور الايسن نفذ بسرعة ، وانتقلت مجموعة البانزر بقيادة غودريان من الثغرة التي فتحها الجيش الثاني عشر شرقي ريمس . وكان الجيشان التاسع والثاني يتقدمان أيضا الى الغرب من ريمس . فتلقيت الامر بسحب قواتي من المعركة الجارية وزجها في هذه الثغرة الاخيرة لكي استثمرها . وسرنا لمسافة طويلة في مؤخرة الجبهة في شمالي كومبين ، وعبرنا الايسن في سواسون كما عبرنا المارن في شاتو تييري ، لنأخذ اخيرا اتجاه تروي . وكان الفرنسيون ينسحبون في فوضى ، الامر الذي سمح لنا بالمرور دون ازدحام من ديجون الى ليون عن طريق وادي الرون . وحدثت مناورة هامة اخرى قبل وصولنا الى مبتغانا ، اذ أعيد فيلق فيتر شايم الى الخلف ودُفع نحو الجنوب الغربي باتجاه بوردو ، ثم دُفع الى ما وراء بياريتز ، حتى الحدود الاسبانية . »

وروى لي بلومنتريت الاختراق على الايسن قائلا : «أتخذ قرار استراتيجي كبير وحيد خلال هذا الهجوم . وعندما وجدت دبابات غودريان ، التي اخترقت الجبهة الفرنسية ، بين سانت ـ ديزيه وشومون ، طُرحت مسألة المسلك الذي ينبغي ان تتبعه . وترددنا بين ثلاثة مسالك : مسلك في الشرق عن طريق هضبة لانغر باتجاه الحدود السويسرية ، لعزل الجيوش الفرنسية في الالزاس . ومسلك في الجنوب الشرقي ، عن طريق هضبة ديجون وليون لبلوغ البحر الابيض المتوسط ومساعدة الايطاليين في اجتياز جبال الالب . ومسلك في الجنوب الغربي ، باتجاه بوردو لقطع خط التراجع على الجيوش الفرنسية المنسحبة من باريس الى اللوار وما وراءه . وأعدت مسبقا ثلاثة توجيهات لنقلها لاسلكيا . »

وقد تقرر أخيرا ارسال غودريان في الاتجاه الاول ، في حين قامت مدرعات فون كليست على يمينه باقتحام من الثغرة على الايسن وسارت في الوقت نفسه في الاتجاهين

الثاني والثالث . وفي الحقيقة ، كان تشتت الفرنسيين وارتباكهم كبيرين جدا في هذه المرحلة من الحملة بشكل تمكن الالمان معه من تجزئة جهدهم دون أن يخشوا العواقب .

وكان غودريان قد اندفع على مؤخرات خط ماجينو ، عندما دخلت مجموعة الجيوش (جـ) بقيادة فون ليب بتاريخ ١٤ يونيو (حزيران) في المعركة لمهاجمة هذه التحصينات المنيعة . وهناك سمة مميزة لهذا الهجوم : لم يجازف الآلمان بمهاجمة التحصينات قبل محاصرتها . ولم يكن هذا الهجوم الاول يشكل مع ذلك الا عملية جس نبض . وقام الفيلق الثاني عشر التابع للجيش الاول بقيادة هنريس بالجهد الاكبر على جبهة ضيقة ، باتجاه بوتنغن ، الى الجنوب من ساربروك ووُجه هجوم ثان ، على ١٦٠ كم الى الجنوب ، من قبل الجيش السابع الذي عبر الراين بالقرب من كولمار .

وقال لي هنريس انه خرق خط ماجينو في اثنتي عشرة ساعة . ومع هذا ، فقد اعترف خلال الاحاديث التالية بأن هذا الانتصار قد تحقق ضد دفاعات اعتراها الضعف والوهن خلال تراجع الفرنسيين . « بتاريخ ١٤ اخترقت قطعاتي في نقطتين بعد معارك شرسة . فأعطيت الامر بمتابعة الهجوم بتاريخ ١٥ عندما التقطنا في منتصف الليل أمرا موجها الى القطعات الفرنسية يوصيها باخلاء المواقع . وهكذا كانت عمليتنا في اليوم التالي مطاردة أكثر من ان تكون انقضاضاً . »

وروى لي بيرختولشايم ما كان يجري ، في غضون ذلك ، على الجناح الآخر الذي بدأ منه الهجوم الالماني . وكانت روايته تبدأ من اللحظة التي كان قد أقام فيها احد فيالق البانزر التابعة لفون كليست رأس جسر على الواز في بونت ـ سانت ـ ماكسانس قبل ارساله الى الايسن . « عندما حلت مشاتنا محل الدبابات وتقدمت الى ما وراء الواز طُرحت مسألة التحصينات التي تغطي مشارف باريس . وكان الجنرال فون رايخناو مترددا حول الوسيلة التي ينبغي استخدامها لاقتحام هذا الحاجز . وقرر اخيرا الالتفاف عليها من الشرق . ورغم هذا فقد وفر علينا تراجع الفرنسيين هذا الشاغل . وعندما انسحب الفرنسيون من باريس ، التحق فيلقنا اليميني بقوات الجيش الثامن عشر ، الذي وصل

من الشمال ، لكي يدخلا معا العاصمة الفرنسية ، في حين تابعنا طريقنا الى الجنوب . وسرنا الى اللوار ونحن نعبر السين في كوربي ومونتورو . وكان الفرنسيون قد نسفوا جسري سولي وجيان ، ولكننا استولينا على جسور اورليئان باغارة . وكانت المعارك قليلة . واقتصر التقدم على مطاردة من المارن الى الشير ، حيث انتهت المطاردة . »

وقال بلومنتريت ملخصا الاتجاه العام للهجوم : « كان الايسن هو الحاجز الوحيد الذي دافع الفرنسيون عنه بشدة ، وهو الحاجز الوحيد المحفوف بالصعوبات والذي قاوم الفرنسيون عبوره . ولم تندفع الفرق المدرعة في هذا المكان الا عندما اقتحمت المشاة معابر النهر . وحتى بعد عبور النهر ، اضطررنا الى القتال ضد مقاومة مستميتة . وأصبحت المعركة فيما بعد أقل شراسة . واجتاحت الفرق المدرعة ، المتقدمة بدون توقف ودون خشية من تعريض اجنحتها جنوبي فرنسا . وتبعتها وحدات المشاة بسير حثيث بلغت سرعته من ٤٠ الى ٦٠ كم يوميا ، وهي تقوم بتطهير أعشاش المقاومة الضعيفة التي كان من الممكن بقاؤها بعد مرور الدبابات . وتجاوزت مدرعاتنا في كثير من الطرق الوطنية ودون ازدحام ارتال الفرنسيين المتراجعين الذين كانوا يسيرون في الاتجاه ذاته » .

« وكان سلاح الطيران الالماني خلال هذه العمليات يعمل بالتعاون الوثيق مع الفرق المدرعة ، مستثمرا شكلا جديدا من « تكتيك الشوارع » . وكانت القاذفات تهاجم المدن المدافع عنها ، ثم تنقض عليها المفارز الامامية للفرقة . وفي غضون ذلك ، كان القسم الاكبر من الفرقة ينتظر بصورة عادية دون أن يترك الطريق ، وهو متجمع برتل عميقه ١٥٠ كم ، الى ان يصبح الطريق حرا . ولم يكن هذا التكتيك قابلاً للتطبيق لولا تفوق طيراننا ، وافتقار العدو الى الاسلحة المضادة للدبابات وعدم انتشار استخدام الالغام آنذاك على نطاق واسع .

« لقد قاتل الفرنسيون في حملة ١٩٤٠ بشجاعة ، ولكنهم لم يكونوا ابدا بمثل شجاعة مقاتلي الحرب العالمية الاولى ، أولئك الذين صمدوا في فردان وقاتلوا على السوم . ودافع البريطانيون عن أنفسهم بشراسة أقوى مما فعلوا في عام ١٩١٤ - ١٩١٨ . وقاتل البلجيكيون في بعض الاماكن بشجاعة . وقاوم الهولنديون بضعة أيام

فقط . وكنا نملك قوة جوية أقوى ودبابات أحدث من دبابات الفرنسيين . وكانت دباباتنا اكثر قدرة على الحركة ، ومتفوقة في القتال التصادمي ، وقادرة وسط المناورة ، على الاستدارة والتوجه في أي اتجاه ، حسب امر قائدها . أما الفرنسيون فقد كانوا عاجزين عن ذلك . وكانوا يفكرون ويقاتلون بمبادىء وتقاليد الحرب العالمية الاولى . فلم تكن قيادتهم أو اتصالاتهم اللاسلكية على مستوى العصر . فلكي يبدلوا اتجاه قواتهم خلال القتال ، كانوا يتوقفون في بادىء الأمر ، ثم يعطون اوامر جديدة ، وينطلقون أخيرا من جديد . كانت تكتيكات دباباتهم قديمة ، ولكنهم كانوا شجعاناً حقيقيين . »

ان هذا الحكم الذي أعطاه احد المسؤولين الالمان ينبغي أن يصحح الحكم المتعجل اكثر مما يجب للعالم ضد القوات التي دافعت عن فرنسا . وزادت حدة الهزيمة النهائية بتثبيط كثيف للعزيمة انتشر بسرعة . أما نتيجة الهجوم الثاني فقد كانت معدة مسبقا . ولم يكن من الممكن أن تكون الهزيمة ، المحتومة منذ البداية ، الا متأخرة بعض الشيء .

ووجد ويغان نفسه أمام مسألة غير قابلة للحل ، لو أخذ بعين الاعتبار عدد قواته بالنسبة للارض التي ينبغي الدفاع عنها بين السوم والحدود السويسرية . وكان الحل ميؤوسا منه لو انه حاول حل المسألة عن طريق ضرب الكمية التي كان يملكها بمعامل النوعية التقنية ، ومن المدهش ان نرى عسكريين كويغان وبيتان يفقدان كل أمل عندما بدأ خط السوم ـ الايسن بالاستسلام ولكن من المدهش اكثر ان نرى الحكومة البريطانية وجزءاً من الحكومة الفرنسية يفكران بامكانية تحقيق النصر بعد دنكرك . وان أغرب سمة لكل هذه الفترة هي ان الجنرالات الالمان كانوا يتوقعون قطع الجناح الايمن للحلفاء في بلجيكا ، ولكنهم لم يكونوا يتوقعون أبدا الانهيار العام للمقاومة الفرنسية ـ الذي كان مع ذلك نتيجة مؤكدة تقريبا . واتضح بعد الانهيار فورا انهم لم يتوقعوا هذا ولم يكونوا مستعدين لاستثمار نجاحهم .

« أسد البحر » في حالة سيئة

زال توتر الجيش الالماني بعد هزيمة فرنسا ، وهو سعيد في الاعتقاد بأن بوسعه أن

يتمتع بثمار انتصاره بعد انتهاء الحرب . وقد وصف بلمونتريت بصورة مدهشة الفرحة التي كانت تسود في ذلك الوقت : « فما ان تم عقد الهدنة مع فرنسا حتى شكلت القيادة العامة للقوات البرية هيئة اركان مكلفة بتنظيم استعراض النصر في باريس وجمع القطعات المعينة للمشاركة فيه . وقضينا اسبوعين في تحضير هذه التظاهرة . وكانت الفرحة تغمر كل المشاعر ، وتوقع الجميع سلما عاما . وبدأت تحضيرات تسريح القوات حتى اننا تلقينا جدولا بالفرق التي ينبغي اعادتها الى المانيا لتسريح افرادها من الخدمة .

ومع هذا ، انطفأت تدريجيا وخلال عدة أسابيع ، الحماسة الرائعة للمنتصرين ليحل محلها استياء متزايد : اذ لم تظهر بريطانيا العظمى أية بادرة تؤكد رغبتها بعقد السلم . وسرت بعض شائعات الامل : « كان البعض يتحدث عن مفاوضات مع بريطانيا العظمى تقوم السويد بدور الوسيط فيها اولا ، ثم بواسطة الدوق دالب » ولكن لم يكن هناك أية واقعة تؤكد هذه الشائعات .

وبتاريخ ٢ يوليو (تموز) كشف هتلر للمرة الاولى بأنه كان يفكر بغزو انكلترا . وأمر قادة الجيوش البرية والبحرية والجوية بدراسة هذه الفكرة ، وطلب اليهم اعداد تقدير للموقف في هذا الصدد . ومع كل هذا أوضح وهو ينهي أمره بأن الموضوع لا يتعدى « مشروعا ينبغي وضع مسودته » وأضاف قائلا : « في الوقت الراهن ، تقتصر المسألة على تحضير احتمال من الاحتمالات » . وانقضى اسبوعان قبل الانتقال الى المرحلة الثانية .

وفي ١٦ يوليو (تموز) بعد هزيمة فرنسا بشهر واحد تقريبا ، أرسل هتلر التوجيهات التالية : « نظرا لان انكلترا ، بالرغم من وضعها العسكري اليائس ، لا تبدي أية بادرة تدل على الرغبة في البدء بالمباحثات ، فقد قررت تحضير عملية انزال ، وتنفيذها اذا كان ذلك ضروريا . . . وينبغي أن تنتهي التحضيرات كلها في أواسط شهر أغسطس (آب) » . وكان الهامش المتروك لـ « اذا » يعطي هذا الامر طابعا افتراضيا جدا .

واتضح نفور هتلر من غزو انكلترا بتاريخ ١١ يوليو (تموز) خلال اجتماع عقد مع الاميرال رايدر ، القائد العام للبحرية - ومحضر هذا الاجتماع موجود في المصنفات التي ضبطت بعد الحرب - وافتتح الاجتماع بنقاش طويل لا حول غزو انكلترا ، بل حول التحسينات التي ينبغي ادخالها في النرويج ، وهو موضوع كان يهم هتلر الى حد كبير . وأعرب هتلر عن نيته لبناء « مدينة المانية جميلة » في الفجورد ، بالقرب من تروندهايم ، وطلب تقديم خططها اليه . ثم نوقشت بعد ذلك مسألة غزو انكلترا . وكان رأي رايدر « عدم القيام بغزو لاجبار بريطانيا - العظمى على طلب الصلح الا في المطاف الاخير » . وألح على عدد من الصعوبات لتنفيذ مثل هذه المغامرة ، وعلى مدة تحضيرات النقل ، وضرورة وجود طيران أقوى من طيران العدو . وعندما انهى كلامه ، أعرب هتلر عن وجهات نظره الملخصة في التقرير على الشكل التالي : « يعتبر الفوهرر أيضا الغزو الوسيلة الأخيرة ، ويرى من الضروري عدم الشروع به الا بعد الحصول على السيادة الجوية » .

وازدادت حدة الطابع المحتمل للتوجيهات المعطاة بتاريخ ١٦ في موقف هتلر الذي اتخذه بعد ثلاثة أيام ، في خطابه الموجه للرايخستاغ عن الانتصار في فرنسا ، والذي قدم فيه لبريطانيا - العظمى عروضاً سلمية . واستهل هذه العروض بعبارات رائعة في اعتدالها ، وابدى حزنه من التفكير بامكانية اندلاع حرب قاسية لا رحمة فيها ولا شفقة . وألح على ضرورة قبول الطرفين لتقديم التضحيات والتنازلات . وقد تأثر الكونت شيانو ، وزير الخارجية الايطالي عندما سمع هذه العروض ، فكتب في صحيفته ما يلي : « انني اعتقد بأن رغبة هتلر في السلم صادقة . وحتى في وقت متأخر من المساء عندما أصبحت ردود الفعل البريطانية الاولى معروفة ، أخذ الالمان يحاولون اخفاء خيبة املهم العميقة . . . . فقد كانوا يودون بكل مشاعرهم أن لا ترفض بريطانيا هذه الدعوة للسلم . »

وفي الصباح التالي ذهب شيانو لمقابلة هتلر وكتب في صحيفته ما يلي : « ان هذا اللقاء يؤكد انطباعي بالامس . انه يريد التفاهم مع بريطانيا - العظمى . ويعرف ان

المعركة ضدها ستكون مستميتة ودموية وان كل الشعوب في ايامنا هذه تعارض اهراق الدماء . » وعند عودة شيانو الى روما ، وجد موسوليني قلقا جدا من هذا الخطاب ، خائفا من أن يلبي الانكليز دعوة هتلر لعقد الصلح ويبدأوا بمفاوضات السلم . وقد علق شيانو على هذا قائلا : « سيكون موسوليني منزعجا من هذا لانه يريد الحرب أكثر من أي شيء آخر » .

وبتاريخ ٢١ عقد هتلر مؤتمرا مع قادته العسكريين الرئيسيين . وكشفت اقواله الاولى عن حيرته ازاء الدوافع التي كانت تدفع البريطانيين الى متابعة الحرب . ولم يكن بوسعه ان يتصور الا دافعا واحدا : كانت انكلترا تأمل دخول أمريكا وروسيا الحرب . وهو أمر بعيد الاحتمال . وسيكون اشتراك روسيا في الحرب « شؤما على المانيا ، وخصوصا بسبب الخطر الجوي . » . ثم انتقل فيما بعد الى موضوع غزو انكلترا ووصفه بأنه « مشروع محفوف بالمخاطر لانه ، بالرغم من المسافة القصيرة التي ينبغي عبورها ، فلا بد من عبور بحر يسيطر عليه الخصم ، لا عبور نهر . وينبغي علينا أن لا نعتمد على أثر المباغتة : فالعدو مصمم بعناد ، ومتحصن وراء دفاعات متينة تواجهنا » . وألح بشكل خاص على صعوبات نقل النجدات والتموين بعد الانزال . وأشار الى الضرورة المطلقة للحصول على « سيادة جوية » قبل العمليات . وترتبط هذه العمليات اذن بالطيران ، الذي كان استخدامه ذاته مرتبطا بالاحوال الجوية . الا ان الوقت كان سيئا عموماً في النصف الثاني من سبتمبر (ايلول) ، وينبغي ان تنتهي العملية الرئيسة في ١٥ من هذا الشهر . وبعد ان استعرض الشروط المختلفة استنتج ما يلي : « اذا لم نكن واثقين من امكان استكمال التحضيرات في بداية سبتمبر (ايلول) ينبغي التفكير بخطط أخرى . » وكان كل الخطاب يفتقر الى القناعة بامكان الغزو ، وكانت آخر كلماته تشير الى انه كان يفكر بمشروعات أخرى .

ومن المفيد أن نسترجع الملاحظات المتعلقة بالموقف في انكلترا في هذا الوقت بالذات . واننا لنجد ان التدابير التي اتخذتها البحرية البريطانية لم تكن تتوقع تدخلا مباشرا

في المانش ، لان الاميرالات البريطانيين كانوا يخشون الطيران الالماني بمقدار ما كان الاميرالات الالمان يخشون بحرية صاحب الجلالة . وفي اليوم الذي قرر فيه هتلر تحضير غزو انكلترا علمت من مصدر موثوق ان طائرات المطاردة البريطانية ، التي دمرت اثناء عملية الاجلاء عن دنكرك ، كانت موجودة من جديد بنفس العدد الذي كانت عليه قبل عملية الاجلاء : ٥٧ سربا ، تضم اكثر من ١٠٠٠ طائرة دون حساب الاحتياط .

وخلال الاسابيع الستة التي تلت عملية دنكرك ، كانت الجيوش البرية الانكليزية الجاهزة لمواجهة الغزو قليلة جدا ، حتى ان بوسع مجموعة من الفرق المعادية دحرها بسهولة . وبالرغم من اعادة تجهيز وتنظيم القطعات التي أجليت عن فرنسا ، كان هناك احساس بأن اعادة تشكيل القوة الحربية لسلاح الطيران ، يشكل ضمانة أساسية ضد غزو كانت فرص نجاحه تتضاءل بنفس المقدار . ولو اننا استطعنا ان نلقي نظرة « على الجانب الآخر من التل » ، أي على مؤتمرات هتلر ، وعلى نشرات مصلحة الاستعلامات النازية لدب فينا مزيد من النشاط والحيوية . وفي الحقيقة ، كانت هذه النشرات تبالغ بحجم قواتنا ، بما فيها قواتنا البرية ، وتقدم ارقاماً مضخمة تدعو الى السخرية . وليس هناك ما يدهش في شكوك هتلر وجنرالاته وهم يتقدمون في دراسة المسألة . وكان جنرالات الطيران الالماني وحدهم ، وعلى رأسهم غورينغ ، يبدون واثقين من دورهم المتمثل في التفوق على سلاح الطيران الملكي البريطاني والحاق الهزيمة بالبحرية الانكليزية . ومن الممكن ان يكون تأكيدهم وحده هو الذي حافظ على الخطة .

وكان الجنرالات والاميرالات الالمان ، المنقسمين من ناحية أخرى متفقين جميعا على أخذ وعود غورينغ بعين الحذر والقلق . وعّينت أربعون فرقة في بادىء الأمر للقيام بالانزال على الشاطىء الانكليزي ، ثم قلص هذا الرقم الى ثلاث عشرة فرقة لان القيادة العليا للبحرية صرحت بأنها لا تستطيع أن تنقل قوات اكثر . وكان من واجب بقية الفرق أن تلحق بها على فواصل زمنية متتالية ، وعلى ثلاثة انساق اذا سمحت الاحوال الجوية بذلك . ولم يكن تهديد دبابات البانزر المحتمل بالخطورة التي كان البريطانيون

يتصورونها لان عددا الدبابات التي يتوقع اشتراكها في الانزال صغير جداً . وكان على القسم الاكبر من الدبابات أن يلتحق بقوات الانـزال فيما بعـد . وكانـت القيادة العليا للجيش تطالب بانزالات على اكبر طول ممكن من الساحل ـ من رامسغات الى ليم بي على الاقل ـ لتشتيت القوات الاحتياطية البريطانية ، وشـل قواهـا العقلية . بيد ان القيادة العليا للبحرية كانت تؤكد عدم امكانها حماية العبور والانزال الا على جبهة ضيقة لا تتجاوز ايستبورن في الغرب . وجرت مناقشات صاخبة خلال اسبوعين أو ثلاثة أسابيع . واعتبر هالدر أن اقتراح البحرية « حكم بالانتحار » بالنسبة للجيش . وقال : « هذا يساوي نقل قطعات الانزال مباشرة الى المسلخ . » فرد عليه رئيس هيئة اركان البحرية بأن من الانتحار أيضا عبور المانش على جبهة أكبر .

وانتهى الجـدل الى تسـوية ، أمـر بهـا هتلـر ، ولكنهـا لم ترض أي طرف من الاطراف . وتم ذلك في منتصف أغسطس (آب) ، وتأجل انهاء التحضير الى منتصف سبتمبر (ايلول) . ونظـرا لان غورينغ أنهى منذ١٣ هجومـه التمهيدي ، فقـد كان الجنرالات والاميرالات ميالين الى الانتظار للتحقق مما اذا كانت « اللوفتوافـه » ستقضي على سلاح الطيران الملكي البريطاني او إن اخفاقها سيحسم مصير الهجوم نهائيا ويقضي على احتمال تنفيذه .

وعندما ناقشت موضوع الغزو مع فون رونشتدت طرحت عليه أسئلة عن تنظيمه والاسباب التـي الغتـه . فرد عليَّ قائـلا : « تمـت التحضـيرات الاولى بعـد استسـلام الفرنسيين ، وكان من المستحيل تحديد تاريخ معين للغزو عند وضع المشروعات . فقد كان كل شيء مرتبطا بالوقت الضروري لجمع المراكب ، وتحويلها لجعلها صالحة لنقـل الدبابات ، وتدريب القطعات على مناورات الركوب والنزول . وكان الغزو سيتـم في أغسطس (آب) اذا أمكن أو في سبتمبر (ايلول) على أبعد تقدير . وكانت الاسباب العسكرية لالغائه كثيرة جدا . فقد كان على البحرية الالمانية أن تسيطر على بحر الشمال بالاضافة الى بحر المانش ، وكانت قواتها لا تسمح لها بذلك . ولم يكن الطيران الالماني

كافيا لحماية العبور . فقد كان من المحتمل أن تنزل العناصر الاولى للجيش على اليابسة وان تجد نفسها مقطوعة فورا عن تموينها ونجداتها . » وسألت فون رونشتدت هل كان من الممكن تموين قطعات الغزو جوا خلال بعض الوقت ، كما حدث في روسيا على نطاق واسع ، خلال شتاء ١٩٤١ . فأكد بأن اسلوب التموين جوا لم يكن معدا بصورة كافية في عام ١٩٤٠ ليكون صالحا للاستخدام .

ثم رسم فون رونشتدت التنظيم العسكري للخطة : « كانت مسؤولية قيادة الانزال على عاتقي ، نظرا لان مجموعة جيوشي هي التي عينت لهذه المهمة . وكان على الجيش السادس عشر الذي يقوده الجنرال فون بوش ، الى اليمين ، والجيش التاسع بقيادة الجنرال شتراوس الى اليسار ، ان ينطلقا من خط الموانىء الواقعة بين هولندا والهافر . وكانت مهمة الجيش السادس عشر استخدام موانىء آنفرس في بولون ، كما كانت مهمة الجيش التاسع استخدام الموانىء الموجودة بين السوم والسين . ولم يكن هناك أي انزال قد أعد في شمالي نهر التايمز . » وعين لي فون رونشتدت على الخارطة القطاع الذي كانت ستتم فيه عمليات الانزال بين دوفر والمناطق المجاورة لبروتسماوث . « وكانت مهمتنا فيما بعد التقدم الى أمام ، واقامة رأس جسر اكبر ، وفق قوس دائري جنوبي لندن ، ينطلق من الضفة الجنوبية للتايمز ويصل الى ضواحي العاصمة ويتجه فيما بعد الى الجنوب الغربي ، نحو ساوثامبتون ووتر . » ورد على سؤال آخر ان جزءا من الجيش السادس بقيادة فون رايخناو ـ من مجموعة جيوش فون بوخ ـ كان سينزل على الشاطىء غربي جزيرة وايت ، من جانبي فايماوث ، لكي يعزل بهذا الشكل شبه جزيرة دوفون كورنواي ويندفع الى الشمال باتجاه بريستول . ولكننا امتنعنا عن القيام بهذا المشروع ، الذي كان بوسعنا تطبيقه فيما بعد .

وخلال حديث آخر ، اعترف لي فون رونشتدت بأنه لم يعلق ابدا أملا كبيرا على نجاح الانزال ، وأنه كان يفكر في غالب الاحيان بفشل نابليون . ويبدو أن عقل الجنرالات الالمان قد شل ببعض الذكريات التاريخية المبهمة فيما يتعلق بانكلترا ، تماماً كما حدث في روسيا في الخريف التالي .

وكان فون براوخيتش يبدو اكثر تفاؤلا من فون رونشتدت . وهذا هو على الاقل الانطباع الذي تركه في نفس الجنرال سيفرت الذي كان معه في تلك الفترة . وعندما سألت هذا الاخير عن رأي فون براوخيتش في موضوع قيمة الخطة ، أجاب بما يلي : « كان الفيلد مارشال فون براوخيتش يقدر اننا اذا وضعنا في الاعتبار الخسائر الفادحة التي تعرض لها البريطانيون في دنكرك ، وجدنا أن هناك امكانيات للنجاح ، اذا ما كانت الاحوال الجوية ملائمة ، وكان لدينا متسع من الوقت لاعداد أنفسنا . » ولكني فهمت انه كان يعتبر رغباته وكأنها حقائق . وفي الحقيقة ، لم يكن يرى وسيلة أخرى للتخلص في مواجهة الموقف العنيد لتشرشل الذي رفض اخذ اقتراحات السلم بعين الاعتبار . « وكانت فكرتنا انهاء الحرب بأسرع ما يمكن ، ولهذا كان علينا بالتأكيد عبور المانش . » فسألته لماذا لم تتم العملية اذا كان الامر كذلك . فرد قائلا : « كانت هناك تحضيرات كثيرة تتم ، ولكن التنبؤات الجوية لم تكن مشجعة وكان على المحاولة ان تتم في سبتمبر (ايلول) بيد ان هتلر امتنع عن ذلك ، لانها لم تبد له ميسورة وممكنة . ولم تتحمس البحرية لها ، ولم تكن قوية بما فيه الكفاية لحمايتنا . ولم يكن بوسع الطيران الالماني شل البحرية البريطانية . » .

وقد تأكد لي ما قاله العسكريون الالمان عن الموقف الذي اتخذته البحرية الالمانية بالاحاديث التي التقطتها من عدد من الاميرالات ، من بينهم فوس ، وبرينكمان ، وبراونيننغ ، وانجل . ويمكن تلخيص هذا التيار العام بما يلي : « لم تكن البحرية الالمانية مهيأة أبدا لردع البحرية البريطانية ، حتى ولو لبعض الوقت . وبالاضافة الى هذا كانت كل الزوارق ، القادمة من الراين ، والالب ، والقنوات الهولندية ، غير ملائمة . » واعترف لي البعض بأنهم لم يؤمنوا أبدا بالاستخدام المحتمل لهذا الاسطول الصغير من الصنادل ، كما انهم لم يؤمنوا ابدا بحقيقة مشروعات الغزو . وكانت كل هذه التحضيرات تعطى انطباع الاخراج ، كما لو ان معظم المعنيين بها كانوا يريدون اقناع غيرهم بقناعة لا يملكونها . « وحسب ما علمناه فيما بعد عن وضع بريطانيا العظمى يبدو انه كان بوسعنا ربح الحرب في يوليو (تموز) ١٩٤٠ لو كانت ادارة المخابرات الالمانية

أفضل مما كانت عليه . ولكن معظم ضباط البحرية ، ومن بينهم أقدم الضباط ، اعتبروا الحرب خاسرة بتاريخ ٣ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٩ . » وبعبارات أخرى ، كانت خاسرة في اليوم الذي دخلت فيه بريطانيا العظمى الحرب .

واعطاني الجنرال شتودنت بعض التفاصيل عن الدور الذي اعطي للقطعات المنقولة جوا في خطة الغزو ، وأضاف الى ذلك تعليقات مهمة حول الطريقة التي كان يريد تطبيقها خلال استخدامها . ونظرا لانه دخل المستشفى بعد اصابته بجرح في رأسه أثناء معركة روتردام ، فقد استلم الجنرال بوتزيه قيادة القطعات المنقولة جوا . « كان علينا استخدام فرقتين [1] و ٣٠٠ طائرة شراعية ـ تحمل كل واحدة منها طيارا وتسعة رجال ، أي ٣٠٠٠ رجل في المجموع . وكان الهدف هو استخدام القطعات المنقولة جوا لاقامة رأس جسر عرضه ٣٠ كم وعمقه ٢٠كم بالقرب من فولكستون . وراقب طيراننا المنطقة المختارة للانزال الجوي بكل عناية ، وقد لاحظنا وضع حواجز في الحقول الملائمة للهبوط ، وامتلأت هذه الحقول بأوتاد مغروزة في الأرض ، وربما امتلأت بالالغام في منطقة العمليات المنتقاة والتي يراقبها الطيران بدقة .

« ولهذه الاسباب أعلم بوتزيه في نهاية أغسطس (آب) انه لا ينبغي أبدا الاعتماد على عمل القطعات المحمولة جوا .

« ولو كنت آنذاك على رأس عملي لتبنيت استخدام المظليين ضد انكلترا في الوقت الذي تم فيه جلاء القوات البريطانية عن دنكرك ولاعطيت القوات المظلية مهمة الاستيلاء على الموانىء (الأنكليزية) التي كانت قطعاتكم ستنزل فيها . وكنا نعرف انها قد تركت كل عتادها الثقيل وراءها .

« وحتى لو رفض هذا المشروع ، فانني كنت سأعطي للقطعات المحمولة جوا دورا في خطة الغزو مختلفا عن الدور الذي حدد لها . كنت سأستخدم قواتي للاستيلاء على أراضي الهبوط الواقعة الى مدى أبعد بكثير من رأس الجسر المعد وفي داخل الاراضي

---

(١) فرقة المظليين والفرقة ٢٢ المحمولة جوا ، اللتان تشكلان الفيلق الجوي الثامن .

الانكليزية . ولو انني سيطرت على هذه الاراضي ، لنقلت بالطائرات فرق المشاة بدون دبابات ومدفعية ثقيلة ، ولهاجمت بعض الفرق مؤخرة الدفاعات الساحلية ، ولسارت بعض الفرق الاخرى باتجاه لندن . ولقد قدرت ان بوسعنا نقل فرقة مشاة بالطائرات في يوم ونصف أو يومين . وان من الممكن الحفاظ على هذا الايقاع لنقل النجدات . » وظهرت لي خطة شتودنت متفائلة ، نظرا للقوات القليلة التي يمكن نقلها بهذه الطريقة والوقت الكبير اللازم لزيادة عددها .

وأضاف شتودنت قائلا : « وانني أصر على ان الفرصة الملائمة كانت بعد دنكرك فورا ، قبل أن تصبح دفاعاتكم متينة . وقد علمنا فيما بعد أن الانكليز كانوا مرتبكين خوفا من المظليين . ولكم أمتعنا هذا الخوف ، ولكن من المؤكد انكم اتخذتم تدابيركم الدفاعية على أحسن وجه » .

وكان موقف الالمان في قرار التخلي عن مشروع القطعات المحمولة جوا أمرا له دلالته ومعناه . فقد كانت تحضيراتهم مستمرة ، ولكن كلما كانوا يقتربون من النهاية كانت الرغبة بتطبيقها تذبل وتذوب . ولم يتطور الهجوم الذي خاضه سلاح الطيران بصورة مرضية . وهرع كل المتشائمين من قادة صنوف الاسلحة الاخرى ليؤكدوا بأن آمال غورينغ لن تتحقق بالسرعة التي وعد بها . وقد أراد البعض بدون وجه حق اعتبار التقارير عن المقاومة التي أبداها المدافعون عن الجزيرة اثناء هذه « المعركة في سماء بريطانيا » مبالغا فيها . وفي الوقت نفسه كانت تقارير مصلحة الاستعلامات تبالغ بتطور الدفاعات الانكليزية على الارض . وهناك مجال للاعتقاد بأن جزءا من هذه الاخطاء كان متعمدا . وكان هتلر نفسه ميالاً لا الى ابراز الصعوبات فحسب بل الى ابراز النتائج الخطيرة لاخفاق الهجوم ايضاً . واصبح الانتظار والترقب شائعا أكثر فأكثر ، في حين كان التاريخ المقرر للغزو يقترب . واستمر هتلر في عدم تحديد اليوم « ي » (وهو يوم الغزو) . وبتاريخ ١٧ سبتمبر (ايلول) أجلت عملية أسد البحر الى أجل غير مسمى .

ولم يكن يبدو على هتلر طوال كل هذه الفترة ، وفي كل المؤتمرات ، شكوك دائمة

فحسب ، بل كان يبدو عليه أيضا ازدراء عميق للعملية المقررة . ويؤكد كل هذا رواية بلومنتريت التالية : « رغم الاوامر المعطاة والاعمال التي بُدىء بها ، فان تحضيرات «عملية أسد البحر» لم تكن ابدا تحضيرات نشطة . حتى ان هتلر لم يكن يهتم بها كما يجب - وهو موقف غريب جدا من ناحيته - وتابعت هيئات الاركان وضع الخطط بدون حماس . واعتبرت هذه الخطة كتمرين على الخارطة . ولم يكن الفيلد مارشال فون رونشتدت يأخذها على محمل الجد ولم يكن يخصص لها انتباهه أبدا . وكان الجنرال فون سودنشترن رئيس هيئة أركانه يأخذ اجازات متكررة . وبعد منتصف أغسطس (آب) لم يعد أحد يؤمن بالحملة . ومنذ منتصف سبتمبر (ايلول) جرى توزيع سري لوسائط النقل ، التي لم تكن في الأصل كافية . وفي نهاية سبتمبر (ايلول) اصبح جليا انه لم يكن هناك أية جدية في هذا المشروع ، ولم يعد أحد يتحدث عنه . وكنا نعتبره فيما بيننا خدعة ، ونأمل بأن نطلع قريبا على ان اتفاقا قد عقد مع بريطانيا - العظمى . »

وهكذا يبدو من المؤكد ان الجنرالات لم يتحمسوا لمشروع الغزو . أما الاميرالات فكان تمسكهم به أقل ، ولم يكونوا ينظرون الى البحرية البريطانية نظرة مجردة من بعض المخاوف العميقة . وكان غورينغ وقادة الطيران متحمسين لهذه الخطة . وسمح لهم هتلر بأن يجربوا المبارزة مع سلاح الطيران الملكي البريطاني ، ولكن عندما انكشف عجزهم في ابطال هذا السلاح وشله ، القى الجنرالات والاميرالات بسرعة باعتراضاتهم على المائدة ، واظهر هتلر استعداده بصورة مدهشة لقبول الاسباب التي قدموها للامتناع عن القيام بهذا المشروع . والحقيقة ان انتباههم قد توجه آنذاك نحو الشرق .

الفصل الثاني عشر .

فرص ضائعة في البحر الأبيض المتوسط .

قدمت لي محادثاتي مع الجنرالات الألمان وجهات نظر جديدة حول عدد من مظاهر حملة شمالي أفريقيا ، وحول الحرب في البحر الأبيض المتوسط بصورة عامة . وهذه بعض النقاط الهامة بعد توضيحها وتسليط الأضواء عليها .

كانت القوات البريطانية مصابة بوهن كبير ، ومع هذا فقد تم انقاذ مصر وقناة السويس بفضل غيرة الإيطاليين من الالمان ، وبفضل عدم اهتمام هتلر بمسألة الاستيلاء على هذين الموقعين الهامين في الشرق الأوسط .

ونجم إنقاذ قبرص عن الثمن الفادح الذي أضطر الألمان لدفعه عند احتلال جزيرة كريت التي دافع عنها البريطانيون بعنف .

وجاء انقاذ جبل طارق من امتناع فرانكو عن السماح للألمان بدخول اسبانيا .

ولم تنج مالطة الا بفضل حذر هتلر ازاء البحرية الايطالية .

ولقد وقعت جميع هذه الأحداث في عام ١٩٤١ . ولم يكن مصير بريطانيا العظمى في موقف حرج كتلك الحقبة . وبدأ انقلاب الحظ في عام ١٩٤٢ نظراً لأن روسيا جابهت الغزو بمقاومة عنيدة ، ولأن الولايات المتحدة دخلت الحرب بعد الهجوم الياباني . واستعادت انكلترا بعض قواها . ولكن كان عليها ان تبذل جهوداً اضافية كثيرة . وكان من الممكن أن تضطر لبذل جهود اكبر لو لم يساعدها هتلر نفسه .

ومن المؤكد ان هتلر هو الذي جعل البريطانيين يحصلون على إمكانية النجاح في العلمين وتحقيق نصر حاسم قرر مضير الحرب في شمالي أفريقيا ، والحقيقة أن هتلر منع جنرالاته من استباق الأحداث ، واحباط هجوم مونتغمري بانسحاب منتظم ، كان بوسعه ، لو نفّذ في الوقت الملائم ، أن ينقذهم من هذه الهزيمة الساحقة .

ولقد حصلتُ على هذه الحقائق من عدة جنرالات ، وخاصة الجنرال فون توما ذلك القائد الشهير الذي أسرته قوات الحلفاء في العلمين ، والجنرال شتودنت قائد القوات الالمانية المحمولة جواً .

وحدثني الجنرال فون توما عن أصل دخول المانيا الحرب في منطقة البحر الأبيض المتوسط بقوله : « لقد أرسلت الى شمالي أفريقيا في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٠ ، بمهمة الاطلاع على الموقف ، واتخاذ القرار حول ضرورة إرسال قوات ألمانية لمساعدة الايطاليين في طرد البريطانيين من مصر . وقابلت المارشال غرازياني ، ودرست الموقف ، وقدمت تقريري الذي اكّدت فيه على الأهمية الحاسمة لمعضلة الامداد والتموين ، لا بسبب صعوبات الصحراء فحسب بل لأن البحرية البريطانية تسيطر على البحر الأبيض المتوسط أيضاً وأضفت أنه يبدو لي أن من المستحيل الحفاظ في افريقيا على عدد كبير من القوات الالمانية بالنسبة للجيش الايطالي الموجود .

« واستنتجتُ ما يلي : إذا ما قررنا ارسال قوات ، فان علينا أن نرسل قوات مدرعة . وكنت أرى أن أربع فرق مدرعة على الأقل ضرورية لتأمين النجاح . وكانت حساباتي تقول بأن هذا العدد هو الحد الأقصى الذي يمكن تموينه وإمداده في الصحراء خلال التقدم نحو وادي النيل . ثم أعلنت ايضاً أن من الضروري شن هذا الهجوم بقوات ألمانية لا إيطالية وكان من الضروري الاستعاضة عن العدد بالنوعية ، واختيار جميع الرجال بكل عناية .

« ولكن بادوغليو وغرازياني رفضا قبول استبدال الايطاليين بجنود ألمان . ولم يكونوا يودون سماع الحديث عن المساعدة الالمانية بل كانوا يرغبون في الحفاظ على شرف

الاستيلاء على مصر . ودعم موسوليني اعتراضاتهم . ولكنه لم يطبّق آراءهم بشكل كامل . فلقد كان راغباً في الحصول على مساعدة المانية ، دون أن تكون هذه المساعدة اكبر مما ينبغي . » .

وتبدو أهمية هذه الشهادة كبيرة إذا ما تذكرنا ان مهمة الجنرال فون توما في أفريقيا تمت قبل شهرين من موعد الهجوم الناجح الذي شنّه أوكونور تحت قيادة ويفل وحطم به امل غرازياني باجتياح مصر .

وهكذا انتصر الجيش البريطاني رغم نقص معداته ، وتمكن من سحق قوات إيطاليّة تفوقه عدداً ، ولكنها أسوأ منه عدة وإعداداً . ولو كانت الدبابات الالمانية موجودة على مسرح العمليات آنذاك لكان بوسعها زيادة صعوبة الأمور بالنسبة للبريطانيين .

ومن المؤكد ان أربع فرق مدرعة مختارة من النخبة وفق اقتراح فون توما كانت قادرة على اجتياح مصر في اية لحظة من لحظات ذلك الشتاء . خاصة وأن قوات اوكونور كانت عبارة عن فرقة مدرعة وفرقة مشاة مزودتين بكميات غير كافية من المعدات والاعتدة .

وهذا كشف آخر لا يخلو من الأهمية : لقد انتصر موسوليني في الدفاع عن فكرته ، وأدى هذا النصر الى هزيمته . ويرجع السبب في ذلك الى ان هتلر لم يكن راغباً رغبة اكيدة في طرد الانكليز من افريقيا . ويختلف هذا الأمر كل الأختلاف عما كنا نعتقده في انكلترا خلال تلك الحقبة . ويرجع موقف هتلر الى نفس الدوافع التي كانت وراء موقفه الغريب من الانزال على البر الانكليزي . ولقد فوجىء فون توما بلا مبالاة هتلر ، مع ان تحليل الاسباب الخفية لم يكن من طباعه .

« عندما قدمت تقريري ، اعترض هتلر قائلاً بأنه لا يمتلك لهذه المهمة سوى فرقة مدرعة واحدة . فأجبته أن من المفضل في مثل هذه الحالة عدم ارسال اي شيء . وأدى ردي الى انفجار غضبه . وكانت دوافع مساعدته للايطاليين سياسية بحتة . إذ كان يخاف ان يبدل موسوليني المعسكر الذي يقاتل معه اذا لم تدعمه المانيا . ولكنه كان يود في الوقت نفسه ارسال اصغر مفرزة ممكنة » (لنذكر بهذا الصدد أن هتلر كان قد تخلى في هذه الفترة

عن فكرة اجتياح انكلترا واخذ يعد العدة لمهاجمة روسيا) .

وتابع فون توما كلامه : « كان هتلر يعتقد بأن الايطاليين قادرون على الحفاظ على الأرض في افريقيا اذا ما حصلوا على مساعدة المانية صغيرة . وكان ينتظر منهم اكثر مما يمكنهم تقديمه . لقد رأيتهم « يقاتلون » في اسبانيا الى جانبنا . ويبدو أن هتلر كان يحكم عليهم وفق اقوال رؤسائهم التي كان يسمعها عندما يلتقي بهم في حفلات العشاء . وعندما سألني عن رأيي بهم أجبته : « لقد رأيتهم في حقل المعركة لا في نادي الضباط فقط » (اذا كانت هذه هي لهجة فون توما فاننا لا نستغرب غضب هتلر عليه وابعاده بعد هذا الحديث) « قلت لهتلر ان جندياً بريطانيا يعادل اكثر من ١٢ إيطالياً » ثم أضاف : « إن الايطاليين عمال جيدون ولكن يتعذر عليهم ان يكونوا مقاتلين ، فهم لا يحبون الضوضاء » .

وكانت هيئة الأركان الالمانية العامة ضد ارسال قوات كبيرة او صغيرة الى افريقيا . ويؤكد فون توما أن فون براوخيتش وهالدر كانا عازفين عن التدخل في أحداث منطقة البحر الأبيض المتوسط . « وقال لي هالدر أنه تحدث مع هتلر عن الخطر الكامن في بعثرة قواته . وذكر أمامه هذه الملاحظة القاسية : ما هو الخطر الذي نتعرض له ؟ انه يتمثل في ربح جميع المعارك باستثناء المعركة الأخيرة » .

ومع هذا ، فقد بقي هتلر مصراً على التدخل في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، مع الرغبة في حصر هذا التدخل ضمن حدود معينة . وبعد هزيمة غرازياني ارسل هتلر مفرزة من النخبة بقيادة روميل بغية تحسين الموقف . وكانت هذه المفرزة كافية لأن تمنع خلال سنتين تنفيذ مخططات البريطانيين الرامية الى احتلال ليبيا . ولكنها لم تكن كافية للقيام بعمل حاسم . وبدّل النصر معسكره اكثر من مرة في الفترة الواقعة بين ربيع ١٩٤١ وخريف ١٩٤٢ .

وخلال هذه الفترة ، كان وضع بريطانيا العظمى جد مهدد في أماكن اخرى من منطقة البحر الابيض المتوسط . وبما أن هذه التهديدات لم تقع ، فاننا لم نلاحظ بأن

نتائجها المحتملة كان من الممكن ان تصبح قاتلة . ولقد جمعت كثيراً من التفاصيل بهذا الصدد عندما تحدثت مع الجنرال شتودنت القائد الأعلى للقوات الالمانية المحمولة جداً .

وكان أخطر هذه التهديدات مشروع الهجوم على جبل طارق . ذلك المشروع الذي كان بوسعه ان يمنعنا من العمل في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط . ولقد قال لي شتودنت بأنه تلقى امراً في يناير (كانون الثاني) ١٩٤١ لوضع خطة للاستيلاء على جبل طارق بانقضاض يشنه المظليون . وكان يعتقد بأنها مهمة جد ثقيلة بالنسبة لمظليين يعملون لوحدهم . وكان استنتاجه : « لا نستطيع احتلال جبل طارق إذا لم نضمن حياد إسبانيا . »

وتابع شتودنت كلامه قائلاً : « وبعد تقديم تقريري جرى تعديل الخطة وتطويرها : وصار على القوات الالمانية ان تهاجم جبل طارق براً . ان ثماني فرق تنطلق من فرنسا قادرة على اجتياز اسبانيا بسرعة . ولكن من الضروري في هذه الحالة أن يسمح لنا فرانكو بالعبور . ولم يكن هتلر يود المجازفة بالقتال في سبيل اجتياز اسبانيا لذا فقد حاول اقناع الكوديو * الذي اصم أذنيه عن سماع أي شيء . واستمرت المناقشات فترة من الزمن دون جدوى . ثم تم التخلي عن خطة جبل طارق » .

وكشف لي شتودنت امراً آخر على غاية من الأهمية : لقد فقد هتلر كل حماسة لعملية احتلال كريت التي كان من المنتظر أن يكون لها انعكاس كبير على وضع البريطانيين في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط . « كان يود ايقاف حملة البلقان عندما يتوصل إلى احتلال جنوب اليونان . وعندما علمت بذلك ، ركبت الطائرة ، وذهبت لمقابلة غورينغ وتقديم اقتراح باحتلال جزيرة كريت بقطعات محمولة جواً . وكان غورينغ شخصاً تسهل استثارة حماسته ، لذا فقد كان قادراً على رؤية امكانات المشروع ، وارسلني الى هتلر الذي قابلته في ٢١ أبريل (نيسان) . وعندما شرحت للفوهرر فكرتي قال لي: « ان هذا المشروع جذاب ، ولكنني أشك بامكانية تحقيقه . . » بيد انني

(*) الكوديو : القائد العام ـ لقب من القاب فرانكو .

استطعت في النهاية اقناعه .

« واشترك في العملية القوات التالية : فرقتنا المظلية الوحيدة ، وفوج الطائرات الشراعية الوحيد ، وفرقتنا الجبلية الخامسة التي نُقلت بالطائرات لأول مرة . وكانت فرقتنا الثانية والعشرون المحمولة جواً والتي اكتسبت خبرة قتالية في حملة هولندا قد أرسلت الى بلويستي في مارس (آذار) لحماية آبار البترول الرومانية التي كان الفوهرر يخشى تعرضها للتخريب . ولقد وجد هتلر أن خطر التخريب كبير لدرجة جعلته يرفض السماح لهذه الفرقة بترك مهمتها والانضمام للقوات المشتركة في حملة كريت » .

اما القاذفات المنقضة ومطاردات الفيلق الجوي الثامن التي مثَّلت دوراً هاماً جداً في غزو فرنسا وبلجيكا ، فقد كان عليها ان تقدم دعمها . ولقد قال لي شتودنت : « ورُفض طلبي الخاص بوضع هذه الطائرات تحت قيادتي أسوة بالقوات المحمولة جوا . وسُلّمت القيادة العليا في هذه العملية للجنرال لوهر الذي قاد مجموع القوات الجوية في حملة البلقان . ومع هذا فقد أُلقي على عاتقي عبء التنظيم . وتُركت لي حرية العمل في هذا المجال . وكان الفيلق الجوي الثامن ممتازاً ، ولكن كان من الممكن أن يقدم فائدة اكبر لو أنه وُضع تحت قيادتي مباشرة .

« ولم يقع أي إنزال بحري . وكان البعض قد فكر بهذا الانزال في البداية ولكننا لم نكن نملك سوى مراكب يونانية صغيرة . ثم تم فيما بعد تشكيل قافلة بحرية تضم هذه المراكب الصغيرة لتقل المعدات الثقيلة اللازمة لهذه الحملة مثل : المدافع المضادة للدبابات والمضادة للطائرات ، والمدفعية ، وبعض الدبابات وكتيبتين من الفرقة الجبلية الخامسة . وكان على القافلة المحروسة بعدد من قوارب الطوربيد الأيطالية ، أن تتجه نحو ميلوس ، وأن تمكث هناك بانتظار معلومات مؤكدة عن وضع الاسطول البريطاني ، وعندما وصلت القوات الى ميلوس قيل لها بأن الاسطول البريطاني موجود في الاسكندرية . . . والحقيقة أنه كان قد أبحر متجهاً نحو كريت . واصطدمت القافلة البحرية بالاسطول البريطاني وتبعثرت . وانتقم سلاح الطيران الالماني لهذه النكسة بأن هاجم المراكب الانكليزية

بفاعلية والحق بها خسائر كبيرة . ومع هذا فان عملياتنا البرية في كريت تعرقلت بشكل جدي بسبب انعدام المعدات الثقيلة التي كنا ننتظرها .

« ونجحنا في الاستيلاء على الجزيرة . ولكننا دفعنا ثمن ذلك خسائر فادحة بلغت ٤,٠٠٠ قتيل ومفقود ، بالاضافة الى العديد من الجرحى . وأنزلنا في الجزيرة ٢٢,٠٠٠ رجل - منهم ٢٤,٠٠٠ مظلي ، أما البقية الباقية فهي وحدات من الفرقة الجبلية . وكان الإبرار الجوي[الإنزال] السيء سبب معظم الخسائر تقريباً . ولم يكن في كريت اراض كثيرة ملائمة لعملية الإبرار الجوي [الانزال] ، وكان الهواء يعصف باتجاه البحر . ولقد خاف الطيارون من اسقاط الجنود داخل الماء ، فقذفوا بهم داخل الجزيرة بعمق أكبر مما ينبغي ، وكان الابرار الجوي [الانزال] في بعض الحالات داخل الخطوط البريطانية نفسها . وسقطت أسلحة الدعم في اغلب الأحيان بعيداً عن الرجال ، وكان هذا واحداً من الأسباب المتعددة لخسائرنا الكبيرة . واستطاعت الدبابات البريطانية الموجودة آنذاك في المنطقة ازعاجنا في البداية بشكل مرهق ، ومن حسن حظنا أن عددها لم يكن يتجاوز ٢٤ دبابة . أما المشاة التي كان أغلبها من الوحدات النيوزيلندية فقد دافعت بشجاعة رغم تعرضها للمفاجأة .

« وتأثر الفوهرر الى حد بعيد بالخسائر الفادحة التي اصابت وحدات المظليين . واستنتج من ذلك أن هذه الوحدات لم تعد تحقق المفاجأة التي كانت تحققها من قبل . ولقد قال لي فيما بعد اكثر من مرة : « لقد انتهى عصر المظليين » .

« ولم يكن يود تصديق التقارير التي تشير الى تطور القطعات المحمولة جواً في الجيشين البريطاني والامريكي . وكان تنفيذ اغارتي سانت نازير وديبب دون استخدام المظليين عاملاً إضافياً أكد وجهة نظره . ولقد قال لي : « هل ترون ! انهم لا يستخدمونها لقد كنت على حق » . ولم يبدل رأيه الا بعد احتلال الحلفاء لجزيرة صقلية في عام ١٩٤٣ . وبعد ان اقتنع باسلوب الحلفاء في استخدام القوات المحمولة جواً اصدر اوامره بتطوير هذا السلاح عندنا . ولكن بعد فوات الأوان ! لأنكم حققتم منذ ذلك

الوقت السيطرة على الأجواء ، الأمر الذي جعل من الصعب استخدام القوات المحمولة جواً » .

ثم عاد شتودنت الى أحداث ١٩٤١ وقال لي : « عندما نجحت في اقناع هتلر بالخطط الخاصة بكريت ، اقترحت عليه أيضاً احتلال قبرص بالشكل نفسه ، والانطلاق من قبرص لاحتلال قناة السويس . ولم يكن هتلر يعارض الفكرة ، ولكنه لم يشأ أعطاء وعد نهائي بذلك فلقد كان مشغولاً الى أبعد مدى بهجومه الواسع في روسيا . وبعد صدمة الخسائر الفادحة في كريت ، رفض الفوهرر محاولة اجراء أي عمل من هذا النوع . وحاولت أن اثنيه عن عزمه اكثر من مرة ، ولكن دون جدوى .

« وفي السنة التالية ، وافق هتلر على خطة تتعلق باحتلال مالطة . وكان ذلك في أبريل (نيسان) ١٩٤٢ . وكان على الايطاليين أن يشاركوا في الهجوم . وكانت الخطة عبارة عن قيام قوات المانية وايطالية محمولة جواً بعملية ابرار جوي [انزال] فوق الجزيرة بغية تشكيل رأس جسر ، تدعمه بعد ذلك قوات ايطالية كبيرة تصل الى الجزيرة عن طريق البحر (٦ ـ ١٠ فرق) . وكانت قواتي مؤلفة من فرقتنا المظلية الوحيدة ، وثلاثة افواج مستقلة لم تنظّم داخل فرقة بعد ، بالاضافة الى فرقة مظلية ايطالية .

« وكنت آمل تنفيذ الخطة قبل اغسطس (آب) ـ ويتعلق هذا الاختيار بالظروف الجوية ـ وقضيت عدة اشهر في روما اقوم بالاعداد للعملية . وفي يونيو (حزيران) دُعيت الى مقر قيادة هتلر العامة لحضور مؤتمر اخير، وشاء سوء الحظ أن يستقبل هتلر قبل قدومي بيوم واحد الجنرال كوريل الذي عاد من افريقيا وقدم للفوهرر تقريراً سلبياً عن الحالة المعنوية السائدة في القطعات الايطالية .

وأصاب القلق هتلر فوراً ، وقال لنفسه ، إذا ما ظهر الاسطول البريطاني فان جميع المراكب الايطالية ستنسحب نحو موانئها تاركة الألمان . لذا قرر الغاء فكرة غزو مالطة . » .

وكان لهذا القرار دلالة كبيرة ، خاصة وأنه تم في الوقت الذي حقق فيه روميل

انتصاراً رائعاً على البريطانيين في شمالي افريقيا . فلقد احتل طبرق ، وطرد الجيش البريطاني الثامن من الغزالة ، واستغل روميل اضطراب البريطانيين فطاردهم خلال انسحابهم عبر الصحراء الغربية ، ووصل الى مقربة من وادي النيل ، ثم توقف عند خط العلمين في بداية يوليو (تموز) .

وكانت هذه هي احرج اللحظات التي عاشها البريطانيون في الشرق الأوسط . وزاد الوضع سوءاً بسبب هزيمة الجيوش الروسية في جنوب البلاد ، وعجزها عن ايقاف الاجتياح الالماني المتجه نحو القفقاس . وكان روميل يضغط في العلمين على باب الشرق الاوسط ، على حين كان فون كليست يضغط في القفقاس مهدداً باقتحام الباب الخلفي .

ويذكر فون توما ان هذا التهديد جاء بالصدفة لا اثر تخطيط مسبق . « إن حركة الكماشة الكبيرة التي تصوّر شعبكم انها موجهة للشرق الأوسط لم تكن أبداً نتيجة خطة مرسومة . ولقد تمت مناقشتها بشكل عام غامض في الأوساط المقربة من هتلر . ولكن هيئة اركاننا العامة لم تقرّها مطلقاً ، لأنها لم تكن تعتقد بانها صالحة للتنفيذ » .

وحتى تهديد مصر ، فقد تم قسم من تطوره عن طريق الصدفة : إذ اننا لم نكن نعتمد مطلقاً على هزيمة الجيش الثامن في معركة الغزالة ـ طبرق . ولم يكن روميل يملك في اي حال من الأحوال القوات اللازمة لمحاولة احتلال مصر . ولقد استثاره انتصاره ، فلم يعرف كيف يقاوم اغراء مطاردة الخصم المنسحب ، وكان عمله هذا خطوة نحو ضياعه .

وسألت فون توما عما اذا كان روميل يود بالفعل الوصول الى قناة السويس ، كما اعتقد بعض ضباطه اثر عدد من ملاحظاته حول هذا الموضوع . فرد تون توما بما يلي :

« إنني على ثقة من أنه لم يكن يود ذلك ! ولقد أكد ذلك بغية تشجيع قواته وتشجيع الايطاليين بصورة خاصة . ثم استفاق من نشوته عندما أجبره البريطانيون على التوقف عند العلمين . وكان يعرف انه لا يستطيع اخراجهم من هذا الخط الا عن طريق

المفاجأة . وهذا أمر صعب نظراً لوقوف القوات الالمانية امام دفاعات العلمين . وبالاضافة الى ذلك فانه كان يعلم علم اليقين ان البريطانيين يتلقون سيلاً لا ينقطع من الامدادات والنجدات .

« وفهم روميل أن قلة عدد قواته وصعوبات الأمداد والتموين التي تعترضه تجعل تقدمه حتى العلمين تقدماً اكثر مما ينبغي . ولكن النجاح الذي حققه خلال التقدم كان رائعاً لدرجة تجعل من الصعب اتخاذ قرار بالتراجع . ولم يسمح له هتلر بهذا التراجع . واخيراً اضطر روميل الى البقاء في مواقعه حتى جمع البريطانيون قوات كافية لسحقه » .

وأعلمني فون توما انه اخذ كل هذه المعلومات من روميل ومن كبار مساعديه . ولم يترك فون توما روسيا ويتجه الى افريقيا الا في شهر سبتمبر (ايلول) .

« وعندما تلقيت الأمر بالسفر لأحل محل روميل بعد اصابته بمرض اليرقان رفضت هذا الأمر بالهاتف وقلت : « انظروا ما كتبته منذ سنتين » . ولكن الفوهرر اصر على ضرورة التنفيذ . فماذا كان بوسعي ان أفعل ؟ وصلت الى أفريقيا في ٢٠ سبتمبر (ايلول) وأمضيت عدة أيام في مناقشة الوضع مع روميل . ثم سافر روميل بعد ذلك للعلاج في ويزرتو ستادت قرب فيينا . وبعد اسبوعين حضر الجنرال ستوم المعكف بقيادة مسرح العمليات في افريقيا . وهذا يعني انه لم يكن تحت تصرفي سوى قوات مجمّعة ، الأمر الذي يحدد الوسائل التي امتلكها لإجراء محاولة تستهدف تحسين التنظيم العام . ثم توفي ستوم بعد فترة وجيزة على أثر انفجار في الدماغ ، وعرقلت كل هذه التأخيرات استعداداتنا لصد الهجوم البريطاني الواسع .

« ونقلت افضل ما يمكنني القيام به بغية تدعيم وضعنا رغم هذه الصعوبات ، طالما اننا مُنعنا من الانسحاب قبل بدء الهجوم البريطاني . وكان من الممكن ان نضطر لترك الموقع رغم اوامر هتلر لو اننا لم نتمكن من اطعام جنودنا بفضل الغنائم التي وجدناها في

مستودعات طبرق . فلقد ساعدتنا هذه الغنائم على الصمود . »

وعندما وصل الى هذه النقطة من الحديث قلت له بأن ضياع طبرق الذي بدا آنذاك كارثة ضخمة ساعدنا في الحقيقة على ربح الحرب في شمالي افريقيا . والحقيقة انه لو ترك الألمان العلمين قبل هجوم مونتغمري ، لكان من المحتمل ان لا تكون هزيمتهم كاملة الى هذا الحد . ولم يبد لي ان فون توما قد أخذ هذه النقطة بعين الاعتبار .

واخيراً شرح لي فون توما انطباعاته الشخصية حول المعركة التي بدأت في ٢٣ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٢ . وقال لي : « إن تفوق الجيش الثامن بالاسلحة الحديثة تفوقاً ساحقاً جعل انتصاره شبه مؤكد قبل بدء المعركة .

« لقد حسبت بأنكم تملكون ١٢٠٠ طائرة مع ان عدد طائراتي انخفض الى ١٢ طائرة تقريباً . وعاد روميل من فيينا بعد بدء الهجوم باسبوع واحد . وكان اوان تعديل تدابيرنا قد فات . وبدا روميل عصبياً جداً ، ولم يكن قد أبلّ من مرضه بعد ، وكان يبدل رأيه باستمرار . ولم أعد أحتفظ بعد عودته الا بقيادة جزء من الجبهة . ولكنه قرر فجأة ان يجعلني قائد الجبهة كلها تحت اشرافه المباشر . وأصبح الضغط البريطاني اثقل فأثقل . وأدى هذا الأمر الى إنهاكنا .

« وعندما بدا من الواضح انه لم يعد بوسعنا أن نأمل بايقاف الهجوم ، قررنا التراجع حتى خط يقع قرب الضبعة وهي على بعد ٨٠ كيلومتراً الى الغرب . وكان من الممكن لهذا التدبير ان ينقذنا . وكان علينا القيام بالمرحلة الأولى من الانسحاب في ليلة ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) . وبدأت المرحلة الأولى بالفعل عندما وصلنا من هتلر عن طريق اللاسلكي امر يمنع كل تراجع ، ويؤكد على ضرورة الصمود في مواقعنا مهما كلف الأمر . لذا اضطرت قطعاتنا الى العودة بغية الاشتباك بمعركة يائسة كانت في نهاية المطاف معركة قاتلة » .

وحدثني فون توما عن ظروف اسره . لقد تجول في حقل المعركة بدبابته ، واندفع نحو جميع الأماكن المعرضة للخطر . وأصيبت دبابته اكثر من مرة . وأخيراً اندلعت فيها

النار ، فخرج من الدبابة ليقع في الأسر . « ووجدت ان هذه نهاية ملائمة » وأراني فون توما الثقوب في عمرته ، وهي تمثل ذكريات الأحداث القاسية التي نجا منها . ثم قال لي بصوت تشوبه الحسرة بأنه لم يستطع المشاركة الا في ٢٤ معركة من معارك الدبابات خلال الحرب - في بولونيا وفرنسا وروسيا وأفريقيا . « اما في الحرب الأهلية الاسبانية ، فقد تمكنت من المشاركة في ١٩٢ اشتباك دبابات » .

ونُقل فون توما الى مونتغمري ، وجرت بين الضابطين مناقشة حول المعركة على طاولة الرمل . « ولم يطرح مونتغمري عليّ أية اسئلة ، بل اخذ يشرح لي على العكس حالة قواتنا وامداداتها ومواقعها وتشكيلاتها . ولقد ذهلت من دقة معلوماته ، وخاصة فيما يتعلق بنقاط ضعفنا وخسائر اسطولنا . وبدا لي انه يعرف عن مواقعنا بقدر ما أعرف ! »

واعطاني فون توما بعد ذلك رأيه حول ادارة العمليات من قبل خصمه الذي انتصر عليه :

« وجدته حذراً جداً رغم تفوقه الساحق بالقوات . ولكنه - هنا توقف فون توما عن الكلام ، ثم استطرد بلهجة تنم عن التفخيم - الفيلد مارشال الوحيد الذي ربح كافة المعارك في حربنا هذه . »

ثم استنتج فون توما « لا يشكل التكتيك العنصر الأساسي في حرب الحركة المعاصرة . والعامل الحاسم هو تنظيم القواعد والامدادات حتى يمكن متابعة الاندفاع بعد البدء به » .

الفصل الثالث عشر

خيبة الأمل في موسكو

لقد أضاع هتلر فرصته في روسيا لأنه لم يكن مقداماً كما ينبغي . ففي اللحظة الحرجة تردد الفوهرر طوال عدة أسابيع ، وأضاع بذلك ساعات ثمينة يستحيل تعويضها . ثم ضاع وطاش صوابه ، وجر بلاده معه خلال سقوطه ، لأنه رفض السماح لجيوشه بالتراجع . وهذه بعض الشهادات التي جمعتها من أقوال جنرالاته .

إن حكاية غزو روسيا تشبه قصة نابليون مع عدد من المظاهر المتبدلة الأساسية . لقد أضاع هتلر فرصة الاستيلاء على موسكو ، ولكنه كان أقرب إلى النصر الحاسم من نابليون . واحتلت القوات الألمانية أراض روسية أوسع مما احتلته القوات النابليونية ، ومكثت فيها مدة أطول لتتعرض في نهاية المطاف لكارثة أشد هولاً . كان هتلر يتوقع تدمير كبد الجيش الأحمر قبل الوصول إلى الدينيبر . وكان قاب قوسين من الهدف عندما أضاعه ووجد نفسه عندئذ تائهاً . وعندما قرر أخيراً التقدم باتجاه موسكو . كان الأوان قد فات ، ولم يعد من الممكن ربح المعركة قبل حلول الشتاء .

ولقد لاحظت في أحاديث الجنرالات أسباباً أخرى أدت إلى فشل هتلر . وكان الجنرالات يروون الأحداث أمامي دون أن يميّزوا الاستنتاجات التي يمكن الوصول إليها من هذه الروايات . لأن اهتمامهم بالتفصيلات كان اكبر من أن يسمح لهم برؤية الصورة بمجملها .

وهناك أمر من أهم الأمور وأكثرها تأثيراً ، وهو أن انقاذ روسيا لم يتم بفضل تطبيق

اكتشافات حديثة ، بل كان على العكس بفضل الاشياء البدائية في روسيا نفسها . ولو كان النظام السوفييتي قد أنشأ في البلاد شبكة طرق مشابهة لشبكات الطرق في البلدان الغربية لكان من الممكن اجتياحها بسرعة . لقد تعطل تقدم الوحدات الآلية الالمانية وتعرض للتأخير بسبب سوء حالة الطرق . ومن ناحية أخرى فإن الألمان أضاعوا النصر لأنهم أرادوا التقدم بسرعة كبيرة عن طريق استخدام عربات ذات عجلات بدلاً من العربات المجنزرة . ولكن جميع العربات تعثرت على هذه الطرقات الموحلة باستثناء الدبابات .

وكان بوسع وحدات البانزر المدرعة التي ترافقها قوافل من السيارات المجنزرة الوصول إلى المراكز الحيوية في روسيا قبل حلول الخريف بزمن طويل رغم رداءة الطرق . وكان أي شخص يحسن الملاحظة وتصور الأحداث المقبلة قادراً على استخلاص المعلومات والنتائج من الحرب العالمية الأولى . لقد كانت بريطانيا العظمى مهد الدبابات . وكان كل من نادوا عندنا بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ بضرورة استخدام اساليب الحرب الميكانيكية المتسمة بقدرة حركية واسعة يطالبون بأن تُزوّد الوحدات الحديثة بعربات صالحة للسير في مختلف الأراضي . وتجاوز الجيش الألماني جيشنا وجميع الجيوش الأخرى عندما استخدم أحدث الاختراعات ، ولكنه أضاع هدفه بأن أهمل تطوير معدات النقل الصالحة للسير في مختلف الأراضي . والخلاصة أن الجيش الألماني ، الذي كان في فترة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ أحدث جيوش العالم ، فشل في تنفيذ مشروعه لأنه لم يعرف بشكل جيد قيمة الأفكار القديمة التي مضى على ظهورها عشرون عاماً .

لقد اندفع الجنرالات الألمان منذ شبابهم نحو رفع مستوى مهنتهم على الصعيد التقني ليصبحوا سادة هذه المهنة ، ولم يكونوا يهتمون بالسياسة أو بما يجري في العالم . وقد يتمتع مثل هؤلاء الرجال بكفاءة عالية ، ولكنهم لا يملكون قسطاً كافياً من الخيال ومن حسن حظ البلدان الأخرى أن أجرأ أنصار استخدام الدبابات في المانيا لم يحصلوا على حرية عمل واسعة إلا بعد فترة طويلة ، عندما وصلت الحرب إلى مرحلتها الأخيرة .

ولننتقل الآن إلى النقاط الرئيسة في الشهادات الخاصة بحملة روسيا .

نتيجة حملة البلقان

قبل دراسة نتائج حملة روسيا نفسها ، لا بد لنا من الرد على السؤال التالي : هل تأخرت بداية هذه الحملة بسبب حملة اليونان ؟

لقد أكد الناطقون الرسميون البريطانيون أن إرسال قوات الجنرال ويلسون الى اليونان كان عملاً مبرراً ، لأنه بالرغم من الجلاء السريع الذي انتهت إليه هذه الحملة فقد كان وجود القوات البريطانية في اليونان عاملاً أدى إلى تأجيل غزو روسيا مدة ستة اسابيع . ولقد نوقشت أسس هذه التأكيدات ، ووصف المشروع نفسه بأنه مناورة سياسية تحمل قسطاً كبيراً من المغامرة ، قام بها عسكريون متأثرون بالوضع في البحر الأبيض المتوسط ومن بينهم الجنرال دوغينغاند الذي كان عضواً في لجنة التنسيق العسكرية بين الحلفاء ومقرها القاهرة . ثم غدا فيما بعد رئيس أركان قوات مونتغمري .

ولقد برهنوا ، ولا يزالون يقدمون حتى الآن الحجج التي تؤكد بأن الحلفاء أضاعوا فرصة نادرة عندما لم يستغلوا هزيمة الايطاليين في برقة ،ولم يحتلوا طبرق قبل وصول النجدات الألمانية ؟ ويعيدون كل ذلك إلى إرسال قوات غير كافية إلى اليونان ، وتكليفها بحماية هذه البلاد من الغزو الالماني دون أن يكون لها أي أمل بالنجاح . ويشيرون إلى أن زعماء اليونان ترددوا في بادىء الامر ثم مالوا إلى الاقتناع بفضل الوعود الخلابة التي قدمها إيدن ودعمها بمبالغات كبيرة حول قيمة المساعدة التي تستطيع بريطانيا العظمى تقديمها .

وعلى المؤرخ أن يعترف بأن الأحداث تؤكد هذا الرأي . فلقد تم اجتياح اليونان خلال ٣ أسابيع ، وتم طرد الانكليز من البلقان . أما بقايا قواتهم في برقة فكانت مطاردة من قبل روميل الذي نجح في انزال قواته في طرابلس . وأدت هذه النكسات إلى انخفاض هيبة بريطانيا العظمى إلى حد بعيد ، وعرضت مستقبلها للخطر ، وأصابت اليونان بضرر بالغ . ولا يمكن تبرير مشاركة بريطانيا العظمى في حملة اليونان بالرغبة في تأخير الهجوم

الالماني على روسيا ، لأن من المؤكد أن بريطانيا العظمى لم تفكر بأن يكون لقرارها مثل هذه النتيجة .

ومن المهم تاريخياً أن نحدد ما اذا كانت الحملة قد حققت هذه النتيجة غير المباشرة وغير المتوقعة أم لا . ويتمثل الاثبات الايجابي بما يلي : لقد جدد هتلر في الأصل تاريخ ١٥ أيار لإنهاء الاستعدادات اللازمة لمهاجمة روسيا .

وفي نهاية آذار جرى تأجيل الموعد شهراً كاملاً ، ثم حُدد يوم ٢٢ حزيران لبدء الحملة . وقال لي الفيلد مارشال فون رونشتدت أن استعدادات مجموعة جيوشه تعرقلت نظراً لتأخر وصول بعض الفرق المدرعة من حملة البلقان ، وأن هذا العامل الرئيسي والظروف الجوية غير الملائمة كانت سبب تأجيل الهجوم .

وتحدث الفيلد مارشال فون كليست ، مساعد فون رونشتدت في قيادة القوات المدرعة ، وشرح وجهة نظره بشكل أوضح عندما قال : « صحيح أن القوات المستخدمة في البلقان لم تكن سوى جزء صغير من طاقتنا ، ولكنها كانت تضم الكثير من الدبابات . إن معظم الدبابات التي عملت تحت قيادتي خلال الهجوم على الجبهة الروسية ، وفي بولونيا الجنوبية ، اشتركت من قبل في حملة البلقان . وكانت الآلات بحاجة للإصلاح كما كان السدنة بحاجة للراحة . لقد قاد معظم هؤلاء الرجال دباباتهم حتى بلاد البيلوبونيز قبل أن يتم إرجاعهم من هذه المسافة البعيدة » .

ويرجع رأي فون رونشتدت وفون كليست إلى ارتباط الهجوم على جبهتهما ، بعودة هذه الفرق المدرعة . ولقد لاحظت أن جنرالات آخرين أعطوا لحملة البلقان أهمية أصغر . وأشاروا إلى أن الدور الرئيسي في الهجوم على روسيا قد ألقي على عاتق مجموعة الجيوش الوسطى بقيادة فون بول الموجودة في بولونيا الشمالية ، وأن فرص النجاح كانت مرتبطة بتقدم هذه المجموعة . أما مجموعة جيوش فون رونشتدت فلم يكن لها سوى دور ثانوي ، لذا لم يكن تخفيض عدد قواتها ليؤثر على نتيجة الحملة خاصة وأن الروس كانوا يجدون آنذاك صعوبة كبيرة في تحريك قوات كبيرة . ولو تم تخفيض هذه القوات بالفعل

لكان من المحتمل أن تمنع هتلر من تبديل محور جهده باتجاه الجنوب في المرحلة الثانية من الغزو . ولقد كان لهذا القرار الأخير نتيجة مؤكدة تمثلت في تأخير احتمال الوصول إلى موسكو قبل الشتاء كما سنرى ذلك فيما بعد . وكاد الهجوم أن يبدأ قبل وصول فرق البلقان . ولكن عاملاً إضافياً لعب لمصلحة الانتظار وهو : أن الأرض كانت غارقة في المياه إلى درجة تمنع البدء بحركة فورية . وقال لي الجنرال هالدر أن الظروف الجوية لم تكن مناسبة في اليوم الذي تقرر به الهجوم .

فكيف كان من الممكن رؤية الوضع لولا تعقيدات البلقان ؟ إن من المتعذر علينا معرفة ذلك ، لأن التصريحات البعدية التي قدمها الجنرالات لا تؤمن الدقة الكافية . ومع هذا فان بوسعنا القول أنه لو تم تأجيل التاريخ المحدد لمهاجمة روسيا بسبب البلقان ، لكان من الضروري انتظار عودة الفرق المقاتلة في البلقان قبل بدء الهجوم الجديد .

ومهما يكن من أمر ، فان حملة اليونان لم تكن السبب الرئيسي للتأخير . فلقد توقع هتلر هذه الحملة في عام ١٩٤١ ، عندما كان غزو اليونان محدداً في البرنامج كمقدمة للهجوم على روسيا . وكان انقلاب يوغوسلافيا العسكري السبب الحقيقي لهذا التأجيل : ففي ٢٧ آذار قام الجنرال سيموفيتش وأعوانه بقلب الحكومة التي زجت بلادها في الحرب بعد أن عقدت حلفاً مع دول المحور . ولقد تضايق هتلر من هذا النبأ لدرجة جعلته يقرر في اليوم نفسه الاندفاع نحو يوغوسلافيا وسحقها . وكانت القوات البرية والجوية المخصصة لهذه الحملة تشغل هتلر اكثر من حملة اليونان . وهكذا اضطر الفوهرر الى اتخاذ قرار محتوم بتأجيل الهجوم على روسيا .

ولم يندفع هتلر إلى مهاجمة اليونان بسبب الانزال البريطاني ، بل بسبب الخوف من مثل هذا الإنزال . ثم جاء نجاح عملياته بعد ذلك ليطمئنه . ولم يستطع الانزال البريطاني أن يمنع الحكومة اليوغوسلافية آنذاك من توقيع الاتفاق مع هتلر . ولكن من المحتمل أن هذه العملية شجعت سيموفيتش على القيام بانقلابه الذي تكلل بالنجاح ، كما شجعته على تحدي هتلر . . . بنجاح أقل .

الإغراء الروسي .

وفي المرحلة التالية من بحثي عن المعلومات جمعت شهادات الجنرالات حول الموضوع التالي : لماذا غزا هتلر روسيا ؟ ولكن إجابتهم لم تقدم لي إيضاحاً كبيراً .

إن هذه الخطة التي داعبت رأس هتلر منذ تموز ١٩٤٠ أخذت شكلها النهائي قبل نهاية ذلك العام . ومن المهم أن نلاحظ هنا بأن الجنرالات كانوا يجهلون جميع أسباب مشروع قرر فيما بعد مصيرهم ، واستقبلوا المعلومات عنه بكثير من القلق . ولم يأخذ الجنرالات علماً بهذا المشروع إلا بصورة جد متأخرة ، ودون إعطائهم أية تفصيلات . فلقد كان هتلر ماهراً في الحفاظ على حواجز كتيمة تفصل بين القادة العاملين معه . ولم يكن يعلم أي واحد منهم إلا بالمعطيات الضرورية جداً لتنفيذ مهمته ضمن حدود اختصاصه . وكانت معاملته لهم أشبه بمعاملة السجناء الذين يعملون بالقطعة داخل صف من السجون الانفرادية .

ولقد اتفق كافة الجنرالات على القول بأن فون رونشتدت كان يبدي عداءً شديداً لهذا الهجوم ، كما كان أول من حاولوا اقناع هتلر بالتخلي عنه. لذا دفعني الفضول إلى معرفة رأيه حول هذه المسألة . فقال لي :

« كان هتلر يصر على مهاجمة روسيا قبل أن تصبح أقوى مما ينبغي ، وقبل أن تبادر هي بتسديد الضربة الأولى (الأمر الذي كان منتظراً) . ولقد قدم لنا معلومات كاملة تؤكد أن روسيا تعد العدة لشن هجوم على بلادنا في صيف ١٩٤١ . وكنت أشك بصحة هذه الاعدادات المزعومة ـ ولم أجد لها أي أثر عندما اجتزنا الحدود مهاجمين . أما من خاف منا من هذا التهديد المحتمل فقد طُمئنوا بأنه لن يقع أي شيء أثناء انشغالنا في الغرب خلال عام ١٩٤٠ . ولحماية أنفسنا من الخطر ، وجدت أنه أفضل السبل هي تدعيم دفاعاتنا على الحدود ، وترك الروس يأخذون المبادرة بالهجوم اذا ما قرروا ذلك . وكنت أرى أن هذه الوسيلة الجيدة تكشف نيات الروس ، وتعرضنا لأقل قسط من المخاطر » .

وحاولت معرفة الأسباب التي جعلت فون رونشتدت يشك بمعلومات هتلر حول

توقع الهجوم الروسي ، فأجاب : « لقد فوجىء الروس بهجومنا عندما بدأ . كما انني لم الاحظ أي إعداد هجومي في المنطقة القريبة من الجبهة حيث كنت ، ولقد لاحظت بالكاد مظاهر مثل هذا الإعداد عندما توغلت بعمق داخل البلاد . وكان للروس ٢٥ فرقة في قطاع الكاربات مقابل الحدود الهنغارية ، وهذا ما دفعني إلى الاعتقاد بأنهم سيدفعون هذه الطرق على مجنبتي اليمنى خلال تقدمي . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل سحبوا الفرق إلى الخلف . فاستنتجت من ذلك أنهم لم يكونوا مستعدين ، وأن القيادة الروسية العليا لم تكن تنوي في تلك الفترة شن أي هجوم على ألمانيا » .

ثم سألت بعد ذلك الجنرال بلومنتريت الذي كان رئيساً لهيئة أركان جيش فون كلوغ الرابع ، في قطاع الهجوم الالماني الرئيسي ، ثم أصبح في نهاية العام نائباً لرئيس هيئة الأركان العامة في القيادة العامة للجيش والقوات البرية (.O.K.H) حيث شغل منصباً جعله قادراً على أخذ المعلومات عن العمليات وتحليلها .

وقال لي بلومنتريت أن القائد العام فون براوخيتش ورئيس هيئة الاركان العامة الجنرال هالدر عارضا مع فون رونشتدت فكرة مهاجمة روسيا « فلقد كانت خبرات هؤلاء القادة الثلاثة في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ تجعلهم قادرين على تصور الصعوبات الناجمة عن طبيعة البلاد ، وخاصة صعوبات التنقل وجلب النجدات والامدادات . ولقد سأل الفيلدمارشال فون رونشتدت هتلر بكل صراحة : « هل فكرتم جيداً بما تنوون القيام به في روسيا ؟ » » .

وبقي هتلر ثابتاً على موقفه . ولكنه اضطر إلى التصريح بأن مصير حملة روسيا ينبغي أن يُقرر غرب الدينيبر . وكان هذا اعترافاً مباشراً منه بصعوبة نقل وادامة كميات كافية من النجدات وراء هذا الخط . وعندما لاحظ أن الجيوش الروسية لم تُسحق نهائياً غرب الدينيبر خضع لاغراء تكرار أمر نابليون : « تابعوا الهجوم ، وتقدموا » . وكان هذا أسوأ قرارات الحملة وأشدها ضرراً . وزاد من مأسوية هذا القرار عدم تصميم هتلر فيما يتعلق باختيار أفضل اتجاه للتقدم .

وأخذت معلومات أخرى من الجنرال فون كليست . فلقد قال لي أن هتلر لم يعلمه عن مشروعه الخاص بغزو روسيا إلا قبل بدء الهجوم بمدة قليلة .

« وكان الأمر مماثلاً بالنسبة لبقية أفراد القيادة العليا . لقد قيل لنا بأن الروس سيشنون الهجوم وإن من الواجب استباقهم إلى ذلك ، وأن الفوهرر لا يستطيع تحقيق مشروعاته الأخرى بنجاح طالما أن هذا التهديد يخيم علينا لأن جزءاً كبيراً من قواتنا سيبقى مجمداً في الشرق لحراسة الحدود . والخلاصة أن الهجوم هو الطريقة الوحيدة للخلاص من خطر هجوم روسي .

« واعتقد بأن يودل عارض مشروع هتلر مثلما عارضه فون براوخيتش وهالدر . وكان لدى كيتل عدد من الشكوك ، ولكنه تردد في اعلام هتلر عن شكوكه .

« ولم نكن نستخف بالجيش الأحمر كما تصور الكثيرون . فلقد قدم لنا آخر ملحق عسكري ألماني في موسكو - وهو ضابط واع يدعى الجنرال كوسترينغ - معلومات صحيحة حول الجيش الروسي . بيد أن هتلر رفض تصديقها وأخذها على محمل الجد .

« وكان الأمل بالنصر يعتمد قبل كل شيء على فكرة أن الغزو سيؤدي عند وقوعه إلى اندلاع انتفاضة سياسية داخل روسيا . وكنا نحن الجنرالات متفقون بالاجماع تقريباً على أنه إذا ما انسحب الروس فان حظنا بالنصر مرهون إلى حد بعيد باندلاع الثورة داخل البلاد .

وكنا نعتمد اكثر مما ينبغي على قيام الشعب بقلب ستالين بعد التعرض لنكسات فادحة . وأذكى مستشارو هتلر السياسيون هذا الأمل .

أما نحن فاننا لم نكن كجنود نملك المعطيات السياسية الكافية لتبديد الآمال المنتظرة .

« وكان هناك ايمان فعلي بالحصول على نتيجة حاسمة ، الأمر الذي دفع إلى عدم الاعداد لحرب طويلة الأمد » .

وما أن حل الشتاء حتى دفع الألمان غالباً ثمن تفاؤلهم .

وهناك أمر أشد غرابة أيضاً ، وهو أن هتلر اندفع في هذا الهجوم وهو يعلم علم اليقين أن قواته ستكون في بداية الأمر أصغر من قوات الخصم ، وأن هذا الاختلاف في حجم القوى سيتزايد مع مرور الزمن . إن هذا العامل وحده كاف لجعل الهجوم مغامرة لا مثيل لها في التاريخ الحديث . وعندما كشف هتلر مخططه للجنرالات في شباط ، وقدم كيتل معلوماته وأرقامه عن القوات العدوة والصديقة ،وقارن قوات الطرفين أصيب الجنرالات بالاضطراب . فلقد اكدت هذه الأرقام أن الجيش الأحمر يمتلك ما يعادل ١٥٥ فرقة جاهزة في روسيا الغربية ، على حين لم يكن بوسع الألمان أن يجمعوا سوى ١٢١ فرقة . (كانوا يجهلون أن تقديرات كيتل أقل من الحقيقة بقليل) . ولم يبدد قلقهم ومخاوفهم التأكيد القائل بأن القوات الألمانية « افضل بكثير من الناحية النوعية » .

وسمحت ميزة المبادأة للألمان بأن يجمعوا قوات اكبر من القوات الروسية بقليل في القطاع الواقع شمالي مستنقعات بريبيه حيث تقدمت مجموعة جيوش « الوسط » بقيادة الفيلدمارشال فون بول على طول طريق مينسك ـ موسكو ، على حين كانت مجموعة جيوش « الشمال » بقيادة فون ليب العاملة على مقربة من بحر البلطيق معادلة لقوات الخصم . أما مجموعة جيوش « الجنو » بقيادة فون رونشتدت فقد كانت أضعف من قوات الخصم بشكل ملحوظ وخاصة بالوحدات المدرعة الهامة . ولقد قال لي فون كليست بأن جيشه المدرع الذي كان يشكل رأس الحربة في قوات فون رونشتدت ، كان يضم ٦٠٠ دبابة فقط« وقد يبدو لك ذلك أمراً غير معقول ، ولكن هذا هو كل ما استطعنا جمعه بعد عودة الفرق من اليونان .

وكان جيش بوديني الذي يجابهنا في جنوب البلاد يضم حوالي ٢٤٠٠ دبابة . فاذا ما وضعنا عامل المفاجأة جانباً ، وجدنا أن نجاحنا يعود إلى تدريب قواتنا الرفيع ومهارتها الأكيدة . ولقد قدمت هذه المزايا كل ما تستطيع تقديمه حتى جاء اليوم الذي اكتسب فيه الروس الخبرة القتالية » .

وتدلنا الأحداث على أن إيمان هتلر بتفوق النوعية التقنية على العدد وجد تبريراً يفوق التبرير الذي يمكن استنباطه عند دراسة النتيجة النهائية للحرب . وأكدت النتائج التي تم تحقيقها في حقول المعارك صحة إيمانه مدة طويلة : إذ سيطرت النوعية على الكمية . إن ضربته الجريئة التي بدت لنا خطرة مغامرة اقتربت من النجاح إلى حد بعيد .

إفلاس الغزو .

ثم قمت بعد ذلك بدراسة إفلاس الغزو . وعندما سألت فون كليست عن هذا الموضوع أجابني بقوله : « كان حلول الشتاء قبل الأوان سبب فشلنا . وهناك سبب آخر هو انسحاب الروس بشكل مستمر ورفضهم للاشتباك بالمعركة » .

ولقد وافق فون رونشتدت على فكرة فون كليست ، بيد أنه أضاف إلى ذلك ما يلي : « تناقصت حظوظ النجاح قبل قدوم الشتاء بسبب تزايد التأخير الناجم عن الوحل وسوء حالة الطرقات . وكانت عشر دقائق من المطر تكفي لقلب الأرض الأوكرانية السوداء إلى وحل يعرقل كل حركة حتى تجف الأرض . وكانت هذه السلبية هامة جداً خلال سباقنا مع الزمن . ويضاف إلى ذلك نقص السكك الحديدية في روسيا ، الامر الذي زاد من صعوبة نقل الامدادات اللازمة لقطعاتنا المتحركة . وجاءت صعوبات أخرى من النجدات الدائمة التي كان الروس يجمعونها من داخل البلاد خلال انسحابهم . وبدا لنا أننا لم نكن نسحق جيشاً حتى يسد الطريق أمامنا جيش آخر يضم قطعات طازجة » .

واكد بلومنتريت هذه التصريحات مع التحفظ على تكتيك الانسحاب الروسي . فعلى طريق موسكو حيث جرى الجزء الرئيسي من القتال كان الروس يصمدون في مواقعهم حتى يتم تطويقهم . وهناك حالات وجد المهاجمون فيها أنفسهم عاجزين عن الحركة لدرجة تمنعهم من استغلال الفرصة .

« كان سوء حالة الطرق يشكل اكبر عائق أمام الهجوم ، ويأتي بعده نقص السكك الحديدية التي بقيت غير ملائمة حتى بعد الاصلاحات التي قمنا بها . وتعتبر مصلحة

استخباراتنا مسؤولة لأنها لم تحسن تقدير نتائج هذين العاملين . وبالاضافة إلى ذلك فقد تأخرت عملية تحسين النقل بالسكك الحديدية نظراً لضرورة معالجة مسألة اختلاف عرض المحلية تتمثل بعدد كبير من السكك . وكانت معضلة التموين التي عقّدتها الظروف الصعوبات العويصة » . ويعتقد بلومنتريت انه كان من الممكن احتلال موسكو لو تم تطبيق خطة غودريان رغم أنها غير تقليدية ، أو لو أن هتلر لم يُضع بتردده ساعات جد ثمينة .

وأبرز فون كليست عاملاً آخر هو أن القوات الالمانية لم تعد تملك التفوق الجوي الذي كانت تملكه في عام ١٩٤٠ خلال هجومها في الغرب . صحيح أن الألمان الحقوا بالطيران الروسي خسائر فادحة وحققوا التفوق العددي في الجو ، ولكن دون أن يحصلوا من ذلك على ميزة حقيقية ، لأن تقدمهم المستمر كان يزيد سعة الأراضي التي لا بد من حمايتها . وقال لي فون كليست حول هذا الموضوع : « تعرقلت دباباتي خلال تقدمها أكثر من مرة بسبب نقص الحماية الجوية . لأن المطارات التي تقلع منها المطاردات غدت بعيدة اكثر مما ينبغي . وبالاضافة إلى ذلك فان سيطرتنا الجوية التي حققناها في الأشهر الأولى أصبحت محدودة في بعض النقاط فقط ، ولم تعد سيطرة شاملة عامة . ويرجع الفضل في سيطرتنا إلى مهارة طيارينا لا إلى تفوقنا العددي . » . ثم اختفت هذه الميزة عندما حصل الروس على خبرة اكبر ، وساعدهم عددهم على العمل بنوبات متعاقبة .

ويرى فون رونشتدت أنه بالاضافة إلى هذه الأسباب الأساسية فقد كان في الترتيب الهجومي الذي أخذه الالمان منذ البداية خطأ لم يظهر أثره إلا فيما بعد ، أي بعد الانتصارات الأولى . كانت خطة القيادة العليا قد تركت فرجة واسعة بين الجناح الأيمن لفون رونشتدت والجناح الأيمن لفون بول ، مقابل الطرف الغربي لمستنقعات بريبيه . والحقيقة أن القيادة العليا فكرت بأن طبيعة الأرض تسمح لها بتجاهل هذا القطاع دونما خوف . وكان على الجهد الألماني الرئيسي أن يتم باندفاعين سريعين شمالي حدود المستنقعات وجنوبيها . وفي فترة اعداد الخطة عارض فون رونشتدت هذا التدبير .

« إن تجربتي الخاصة على الجبهة الشرقية في ١٩١٤ - ١٩١٨ جعلتني أخشى أن تستطيع الخيالة الروسية العمل في مستنقعات بريبيه ، وأحسست بقلق بالغ عندما تصورت الفرجة الخالية في جبهتنا والتي يمكن أن يستخدمها الروس ويهددون مجنبتنا . »

وبدت مخاوف فون رونشتدت في بداية الهجوم بلا معنى . وعندما بلغ الجيش السادس بقيادة رايخناو نهر بوغ جنوبي المستنقعات ، اجتازت مدرعات فون كليست النهر واندفعت إلى أمام ، واستولت على لوك وروفنو . ولكن ما أن اجتازت القوات المهاجمة الحدود الروسية القديمة واتجهت نحو كييف حتى تعرضت مجنبتها لهجمات معاكسة شديدة شنتها الخيالة الروسية التي ظهرت فجأة من مستنقعات بريبيه .

وغدا الوضع خطراً ، ولم يُبعد الألمان الخطر إلا بعد معارك عنيفة . بيد أن التأخير الذي أصاب سير العمليات لم يعد يسمح بالوصول إلى الدينيبر في الوقت المحدد .

ويمكن أن نتصور تأثير هذا التوقف المفاجيء في فون رونشتدت . ولكن ليس من الثابت أنه كان لهذا الحادث تأثير كبير على السرعة العامة للحركة . ولم يظهر أي حاجز من هذا النوع أمام تقدم فون بول شمالي المستنقعات ، أي في نقطة تنفيذ مركز ثقل الهجوم .

ففي هذا المكان ، وعلى الطريق المباشر المتجه نحو موسكو ، جمع هتلر أكبر قسط من قواته ، وهو يأمل من ذلك القيام بالمعركة الحاسمة . وأظهر سير الأحداث في هذه المنطقة بصورة مضخّمة جميع الصعوبات المادية التي جابهها فون رونشتدت وفون كليست على الجبهة الجنوبية ، بالاضافة إلى عامل شخصي يتمثل في حكم إنساني خاطىء .

ولقد حصلت على صورة واضحة جداً عن خطة الهجوم أخذتها من الجنرال هنريسي الذي حدد لي التحركات على الخارطة . والجنرال المذكور شخص قصير القامة ، دقيق الحركات ، يتصرف كرجال الدين ويتحدث وكأنه يتلو صلواته . وليس في مظهره ما يدل على أنه رجل حرب ، ومع هذا فان كفاءته الحربية أمر ثابت يؤكده تقدمه وترفيعه . لقد كان في البداية قائد فيلق ، ثم ترقى حتى منصب قائد مجموعة جيوش . وقاد المعركة الأخيرة على الأودر دفاعاً عن برلين . وسمحت لي أقوال الجنرال هنريسي برسم الخطوط

العريضة التي أغنتها بعد ذلك تفصيلات عديدة وحقائق من الكواليس قدمها لي الجنرال بلومنتريت رئيس هيئة أركان جيش فون كلوغ خلال مرحلة التقدم من بريست - ليتوفسك إلى موسكو .

وكانت الفكرة العامة للخطة تتمثل في تطويق كبد القوات الروسية بحركة استدارة واسعة النطاق ، على أن تقوم فيالق المشاة بتشكيل الحلقة الداخلية من الطوق وينطلق فيلقان كبيران من الدبابات لتشكيل الحلقة الخارجية . وكادت الكماشة أن تُطبق على الروس قرب سلونيم ولكن معظمهم تمكن من التملص . ثم تباعد طرفا الكماشة من جديد ، وحاول الالمان القيام بتطويق أشد أتساعاً حول مينسك ، وكانوا يأملون أن تكون هذه المعركة حاسمة . ولم يكن النجاح كاملاً رغم أسر اعداد كبيرة من الروس ، فلقد تأخرت الحركة « بسبب مطر غزير مفاجىء » وسمحت سرعة التحركات باحتلال مينسك في اليوم التاسع للهجوم . ولكن اشتباك الألمان مع الخصم على بعد ٣٠٠ كيلومتر داخل الأراضي الروسية يعني أنهم فقدوا هدفهم الحقيقي .

وغدت طبيعة الأرض والجو بعد مينسك اكثر سوءاً . ويقدم لنا بلومنتريت هذه الصورة المؤثرة : « كانت الأرض سيئة جداً بالنسبة لتحركات الدبابات ، فهي عبارة عن غابات عذراء واسعة ، ومساحات مليئة بالمستنقعات ، وطرق غير صالحة ، وجسور أضعف من أن تسمح بعبور الدبابات . وتزايدت حدة المقاومة وشراستها يوماً بعد يوم . وبدأ الروس زراعة الألغام أمام جبهتهم . وكانت قلة عدد الطرقات تسهل لهم عملية وضع الحواجز بغية شلنا ومنعنا من التقدم .

« والطريق الوحيد السالك من الجبهة إلى موسكو ، الطريق الوحيد الذي يستحق أن يطلق عليه الانسان الغربي هذا الاسم ، كان غير متكامل . ولم نكن مستعدين لمجابهة ما قابلناه ، لأن خرائطنا كانت غير متطابقة مع حقيقة الأرض . وكانت هذه الخرائط تحمل خطوطاً حمراء تدل على الطرق الرئيسة المزعومة ، وكان الناظر إليها يعتقد أن هناك طرقاً رئيسة كثيرة ، والحقيقة أن عدداً كبيراً منها لم يكن أكثر من مسالك رملية .

وكانت تقارير مصلحة استخباراتنا صحيحة إلى حد ما بالنسبة للاراضي البولونية التي احتلها الروس من قبل ، ولكنها كانت ناقصة وسيئة جداً بالنسبة للأراضي الواقعة وراء الحدود الروسية القديمة ..

« إن مثل هذه الأرض غير الصالحة في الأصل لتقدم الدبابات هي أشد سوءاً بالنسبة لقوافل نقل المحروقات والمؤمن والذخائر وكافة الخدمات اللازمة . إذ كانت أرتال هذه القوافل مؤلفة من عربات على عجلات لا تستطيع ترك الطرقات ولا تتمكن من السير عليها إذا ما انقلبت الرمال إلى أوحال . وكان تهاطل المطر ساعة أو ساعتين يؤدي إلى تثبيت وحدات البانزر في مكانها . وكم كان مؤثراً منظر أرتال الدبابات وسيارات النقل الممتدة على طول يزيد عن مائة كيلومتر ، والثابتة في مكانها . . . تنتظر من الشمس أن تشرق لتجفف لها الأرض ! » .

وبالرغم من هذه التأخيرات المتكررة ، بلغ الالمان نهر الدينيبر في نهاية تموز ، أي بعد شهر من بدء الهجوم . وحاولوا القيام بتطويق ثالث حول سمولنسك على أن يكون أوسع من التطويقين السابقين .

« وبدا أن نصف مليون روسي وقعوا في الفخ . وكان هذا الفخ شبه مطبق (بقي على القوات الالمانية أن تقطع ١٠ كيلومترات حتى تغلق الكماشة نهائياً) ، ولكن استطاع معظم القوات الروسية الافلات من الطوق مرة أخرى . وهكذا تعرض هتلر للفشل وهو قاب قوسين أو أدنى من النجاح . وهذا ما جعله يرفض تصور امكانية ايقاف الهجوم . وكنا آنذاك على عمق يزيد عن ٦٥٠ كيلومتراً داخل روسيا وكانت موسكو على بعد ٣٠٠ كيلومتر فقط » .

وذكر لي بلومنتريت أن خلافاً ظهر عندئذ فوراً حول الأساليب التي ينبغي استخدامها « كان هتلر يريد اجراء عمليات تطويق جديدة وفق المبادىء الاستراتيجية التقليدية ، وأيده في ذلك فون بوك . ووافق على رأيهما جميع الجنرالات القدماء تقريباً . ولكن غودريان وأفراد المدرسة الحديثة من أختصاصيي الدبابات طرح واخطة مختلفة تتمثل في

الاندفاع بالدبابات إلى أمام ، والتقدم أبعد ما يمكن ، وترك عمليات التطويق لفرق المشاة المتقدمة وراء المدرعات . وأصر غودريان على ضرورة مطاردة الروس بشكل فعال ، وعدم إعطائهم أية فرصة للتجمع . وكان يرغب في التقدم مباشرة نحو موسكو ، لأنه موقن بامكانية الوصول إليها اذا لم تبدد قواته أي وقت . وكان من المحتمل أن تتعرض المقاومة الروسية للشلل من جراء هذه الضربة الموجهة إلى مقر سلطة ستالين نفسها. ولكن هتلر تمسك برأيه ، وأوقف تقدم المدرعات .

« وكانت خطة غودريان لا تخلو من الجرأة . صحيح أنها كانت تحمل في طياتها أخطاراً كبيرة بسبب صعوبة وصول الامدادات والنجدات ، ولكنها كانت تشكل أقل الاحتمالين تعرضاً للمخاطر . وأضاع الألمان وقتاً كبيراً في كل مرة لأنهم دفعوا الدبابات إلى العودة على أعقابها بغية تطويق العدو الذي تجاوزته .

« وبعد وصولنا إلى سمولنسك ، توقفنا عدة أسابيع عند نهر دريسنا . وكان أحد أسباب التوقف انتظار الامدادات والنجدات ، أما السبب الاكبر فهو ظهور خلاف داخل القيادة العليا حول مسألة متابعة العمليات . وكانت المناقشات حامية الوطيس » .

وأراد فون بول التقدم الى موسكو . أما هتلر المتأثر بفشل ثلاث محاولات تطويق على هذه الجبهة فقد أراد العمل باتجاه الجنوب خاصة وأن فون رونشتدت حقق هناك خرقاً جنوبي كييف ، وشق لنفسه طريقاً منحرفاً باتجاه البحر الأسود . ووضع هتلر فكرة تطويق أخرى على جبهة أخرى ولمدى أبعد وانتهى إلى قبول هذا الحل ، إذ كان على دبابات فون كليست أن تنطلق من جبهة فون رونشتدت متجهة نحو الشمال ، على أن تنطلق دبابات غودريان من جبهة فون بول نحو الجنوب ، وبهذا يمكن حصر القوات الروسية الموجودة حول كييف وتدميرها . لذا أوقف هتلر التقدم نحو موسكو بغية تحقيق حركة الكماشة هذه .

ولقد أشار بلومنتريت إلى سمة معبّرة من سمات هذا القرار الهام فقال : « كان الفيلدمارشال فون بول راغباً في متابعة التقدم إلى موسكو ، ولكن فون كلوغ دعم على

العكس خطة تطويق الجيوش الروسية في كييف . وكان مشروعه يرمي إلى دفع جيشه الرابع نحو الجنوب ليتعاون مع دبابات غودريان خلال تنفيذ حركة الكماشة . ولقد طرح لي الحجج المؤيدة لهذه الخطة وأضاف بكل حماس : « وبالاضافة إلى ذلك فان هذا القرار يضعنا تحت إمرة الفيلدمارشال رونشتدت بدلاً من الفيلدمارشال فون بول » وكانت علاقات فون بول مع مرؤوسيه لا تخلو من الفظاظة ، وكان من دواعي سرور فون كلوغ أن يتخلص من العمل معه . وهذا مثل واضح لتأثير العامل الشخصي في الاستراتيجية » !

ونجح تطويق كييف ، وسقط ٦٠٠,٠٠٠ روسي في الأسر . ولم تنته هذه العملية إلا في شهر إيلول . وأخذ الشتاء يقترب .

وكان على هتلر أن يختار بين الاكتفاء بالربح المحقق أو إجراء محاولة اخرى لإحراز النصر الكامل في عام ١٩٤١ . وكان فون رونشتدت واضحاً في هذا الصدد عندما قال لي : « كان علينا أن نتوقف عند نهر الدينيبر بعد الاستيلاء على كييف . ولقد طرحت هذا الرأي بشدة ودعمني في ذلك الفيلدمارشال فون براوخيتش . ولكن هتلر المخمور بنجاحه في كييف أراد التقدم إلى موسكو ، وكان واثقاً من أنه سيحتل العاصمة . ووافقه الفيلد مارشال فون بول على رأيه ، وكان هذا طبيعياً جداً لأن قوات فون بول كانت تقف مقابل موسكو » .

وبدأ التقدم الجديد الذي أمر به هتلر في ٢ تشرين الأول . ويقول بلومنتريت : « بيد أن فرص النجاح نقصت إلى حد بعيد . لأن هتلر منح الروس المدافعين عن جبهة موسكو شهرين كاملين للاعداد والراحة . وأضعنا شهري آب وايلول ، وهما أفضل شهرين . وكانت النتيجة النهائية محتومة » .

وبالاضافة إلى هذا القرار ، جاء قرار آخر سبب تعقيدات جديدة وبعثر القوات بصورة خطرة . ذلك أن هتلر لم يعرف كيف يكبح جماح إغراء استغلال النجاح في الجنوب ، في الوقت الذي أمر فيه بمتابعة التقدم نحو موسكو .. !

خيبة أمل على « أبواب القفقاس » .

عندما قرر هتلر متابعة الهجوم على موسكو ، كلف فون رونشتدت بمهمة جديدة مفعمة بالطموح وهي : تطهير شواطىء البحر الأحمر والوصول إلى القفقاس . ولقد حدد لي فون رونشتدت الأهداف على الخارطة وكانت تتمثل في الوصول شرقاً إلى فورونيج على نهر الدون والسير مع النهر حتى مصبه قرب روستوف . وكان عليه أن يستخدم جناحه الأيمن للاستيلاء على منابع البترول في ميكوب ، وأن يدفع جناحه الإيسر للاستيلاء على ستالينغراد الواقعة على نهر الفولغا. وعندما طرح فون رونشتدت المصاعب والأخطار التي يمكن أن تنجم عن تقدم يعادل ٦٥٠ كيلومتراً وراء نهر الديئيبر ، مع انكشاف مجنبته اليسرى بشكل واسع ، أكد له هتلر بكل تفاؤل بأن الروس عاجزون عن إظهار مقاومة جادة ، وأن الطرقات المتجمدة ستسمح له بتقدم سريع .

وعندما شرح فون رونشتدت العمليات قال لي : « اضطرب تنفيذ الخطة منذ البداية لسبب تبعثر القوات في الشمال والجنوب . وسُحب جزء من قطعاتي الآلية لتنفيذ عملية موجهة نحو الشمال الشرقي فيما وراء نهر أوريل بغية ضرب موسكو من الجنوب . ولا يمكن لهذه الحركة ذات النتائج الضعيفة أن تبرر حرماني من امكانية النجاح في مناورة كبيرة . وكنت أود أن يستدير جناح فون بول الأيمن وأن يتجه نحو الجنوب الشرقي ليهاجم مؤخرات الجيوش الروسية التي تقف أمامي في كورسل ويقطع طريق تراجعها . وبدا لي أن من الخطأ تحويل محور الهجوم نحو الشمال الشرقي . والحقيقة أن موسكو كانت مركز تجمع السكك الحديدية القادمة من مختلف أرجاء البلاد ، وكان الروس في هذا القطاع قادرون على القيام بالهجمات المعاكسة اكثر من أي مكان آخر .

« وهكذا توقف جيشي السادس العامل على الجناح الأيسر بعد أن تجاوز كورسل ولم يستطع الوصول الى هدفه : فورونيج الواقعة على نهر الدون . وأثر هذا الفشل في تقدم الجيش السابع عشر المجاور له ، وقلل عرض جبهة التقدم باتجاه القفقاس . واصطدم الجيش السابع عشر بمقاومة عنيفة على طول نهر الدونيتز ، ولم يتمكن من بلوغ النقطة البعيدة التي كان عليه أن يصل إليها ليحمي مجنبة جيش البانزر الأول العامل بقيادة فون كليست . لذا تعرضت مجنبة هذا الجيش لخطر هجمات معاكسة عنيفة شنها الروس

باتجاه البحر الأسود .

« وعلى المجنبة الاخرى ، استطاع الجيش الحادي عشر بقيادة فون مانشتاين قلب دفاعات برزخ بيريكوب ودخل بلاد القرم ، واستولى بسرعة على جزء كبير من شبه الجزيرة باستثناء سيباستبول والزاوية اليمنى حول كيرتش . ومع هذا فان هذه الحركة المتباعدة التي أمر بها هتلر أضعفت قواتي إلى حد بعيد » .

ويشرح فون كليست بشكل أفضل هذا السباق نحو البحر : « قبل الوصول إلى الدون الاسفل ، غدا من الواضح أننا لم نعد نملك الوقت أو الفرصة للوصول إلى القفقاس . وكان كبد قوات العدو مطوقاً غرب نهر الدينيبر ، وبدا لنا أن السبيل أمامنا حر . ولكن الروس جلبوا من الشرق نجدات كبيرة مستخدمين لذلك الطرق والسكك الحديدية . وتدخل الطقس السيء ، وتعثرنا في اكثر اللحظات جدية ، وفي الوقت الذي أحست به قواتي المتقدمة بأنها بحاجة ماسة للمحروقات .

« وحددت تطلعي بدخول روستوف وتدمير جسورها الممتدة فوق نهر الدون ، ولكنني لم اكن أرغب في البقاء داخل روستوف والثبات على هذا الخط المتقدم . واخترت خلال الاستطلاع موضعاً دفاعياً جيداً على نهر ميوس ، وأخذت التدابير اللازمة لاعداد هذا الموضع وجعله خطاً محصناً يصلح لقضاء فصل الشتاء . ولكن دعاية غوبلز خلقت ضجة كبيرة حول احتلال روستوف الذي « فتح أبواب القفقاس » وهذا ما منعني من متابعة خطتي الدفاعية . واضطررت إلى ابقاء قطعاتي في روستوف مدة أطول مما أبتغي ، وتعرضت هذه القطعات لصدمة الهجوم المعاكس الذي شنه الروس في الاسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني . وطارد الروس قواتي ولكنها استطاعت ايقافهم عندما وصلت إلى نهر ميوس . وتمكنت من الحفاظ على مواقعها طوال فصل الشتاء على بعد ٦٠ كيلومترا غربي روستوف رغم تجاوز العدو لمجنبة هذه المواقع بشكل واسع . وكان هذا الموقع اكثر المواقع تقدماً نحو الشرق على طول الجبهة الالمانية ـ الروسية » .

وأضاف فون كليست : « تعرضت القطعات الالمانية خلال هذا الشتاء لخطر كبير . ولم تكن القوات المثبتة بسبب البرد قادرة على مواجهة الروس وايقاف محاولات التطويق التي يقومون بها » .

إنْ حديث فون رونشتدت يؤكد أقوال فون كليست ، ويسلط الأضواء على ملابسات استقالته « عندما أردت قطع الاتصال والانسحاب حتى نهر ميوس وافق الفيلدمارشال فون براخيتش على رأيي ، ولكن الفوهرر أرسل أمراً حازماً يمنع هذا التراجع . ورددت على الأمر ببرقية احتجاج تؤكد سخف فكرة الثبات على مثل هذا الموضع . وأضفت قائلاً : « إذا لم يكن لديكم ثقة بأحكامي ، اختاروا شخصاً آخر لقيادة القوات » وردّ الفوهرر في الليلة نفسها معلناً قبول استقالتي . وفي الأول من كانون الأول تركت الجبهة الشرقية ، ولم أعد إليها بعد ذلك أبدا . وبعد فترة وجيزة ذهب الفوهرر بالطائرة إلى هذا القطاع . فما أن درس الموقف عن كثب حتى غير رأيه وسمح بالانسحاب . ومن المهم أن اذكر أن خط الميوس هو قطاع الجبهة الوحيد الذي لم يتزعزع خلال شتاء ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ » .

وبالاضافة إلى ذلك فقد صرح فون رونشتدت أمامي بكل صراحة بأن تقدم مجموعة جيوشه اكثر مما ينبغي كان يُمثل خطيئة استراتيجية أساسية . وخلافاً لتصرف معظم الجنرالات مهما كانت جنسياتهم فان فون رونشتدت لم يُرجع سبب فشل الخطة إلى نقص الوسائل المتوافرة في قطاعه ، ولكنه أكد أنه كان من الضروري عدم بدء هذه الحملة . وقال خلال المناقشات التالية : « منذ بداية العمليات في روسيا ، في عام ١٩٤١ ، كان على الجهد الرئيسي أن لا يتجه نحو موسكو بل نحو لينينغراد . وكان بوسعنا في هذه الحالة تأمين الاتصال مع الفنلنديين ، والقيام بعد ذلك بمهاجمة موسكو من الشمال بالتعاون مع مجموعة جيوش الفيلدمارشال فون بول المتقدمة من الغرب » .

خيبة أمل في موسكو .

بدأ الهجوم على موسكو بقوات تضم ٣ جيوش : الجيش الثاني إلى اليمين ، والجيش الخامس في الوسط ، والجيش التاسع إلى اليسار . ودعم الجيوش المهاجمة الثلاثة فيلقان بانزر بقيادة هوت وهوبنر . وكان هوبنر قد حل محل غودريان الذي أرسل إلى الجنوب لتنفيذ مناورة تطويق كييف .

ولقد رسم بلومنتريت خطوط الهجوم العريضة بتعابير متحمسة فقال : « كان الصراع في المرحلة الأولى يستهدف تطويق فياسما ، ونجحت العملية نجاحاً كاملاً : إذ

أسرنا ٦٠٠,٠٠٠ روسي . وكانت تكراراً حديثاً واسع النطاق لمعركة كان . واشتركت المدرعات اشتراكاً كبيراً في تحقيق النصر . وتعرض الروس للمفاجأة نظراً لأنهم كانوا في فترة استرخاء ولا ينتظرون قيامنا بهجوم واسع ضد موسكو في مثل هذا الفصل من السنة . ولكن سوء الطقس منعنا من اقتطاف ثمار النصر . والحقيقة أن هذه العملية لم تنته قبل أواخر تشرين الأول .

« وما أن تم تطويق الروس حتى تابعنا التقدم نحو موسكو . وبالرغم من ضعف المقاومة التي جابهتنا في البداية فان سرعة تقدمنا كانت بطيئة بسبب الوحل الرهيب وتعب القطعات . ثم اصطدمنا بعد ذلك بمواقع دفاعية قوية ممتدة على طول نهر نارا . حيث جاءت النجدات الروسية لتمنع تقدمنا .

« وطرح جميع القادة في هذه الفترة السؤال التالي : « متى سنقف ؟ » وتذكروا مأساة نابليون . وبدأ الكثيرون يعيدون قراءة قصة كولينكور الحزينة حول أحداث ١٨١٢ . وكان لهذا الكتاب تأثير عميق فينا في الفترة الحاسمة من عام ١٩٤١ . وإنني لأري الآن بكل وضوح الجنرال فون كلوغ خارجاً من مسكنه بعد أن نام الجميع ليسير على الأقدام حتى مكتبه . وهناك ، وقف الجنرال يحدد النقاط على الخارطة وكتاب كولينكور بيده . وامتد هذا الوضع الذي لا يحتمل يوماً بعد يوم » .

وكانت هذه المسألة تمثل بالنسبة لي موضوعاً بالغ الأهمية ، ذلك لأنني كتبت في آب ١٩٤١ ـ عندما كان سيل الغزو الألماني جارفاً وكأنه لا يقاوم ـ مقالاً معداً للنشر في عدد تشرين الأول من مجلة ستراند . وذكرت في مقالي العلاقات بين حملة نابليون وحملة هتلر . ولقد استندت في مقالي إلى استشهادات طويلة من أقوال كولينكور لأصل بعد ذلك إلى استنتاجي . ولقد ذكرت لبلومنتريت بأننا فكرنا آنذاك بالفكرة نفسها (رغم أن الجنرالات الالمان تأخروا قليلاً في تذكر كولينكور !) . ووافق بلومنتريت على قولي ببسمة يشوبها الضيق .

وتابع بلومنتريت حديثه قائلا : « كان الجنود أقل استياءً من قادتهم . فلقد كانوا يرون بريق المدفعية المضادة للطائرات فوق موسكو . وكان هذا البريق يستثير خيالهم : إذ كانت المدينة تبدو لهم قريبة جداً ! وكانوا يأملون أن يجدوا فيها مأوى يقيهم من قسوة

الشتاء . بيد أن القادة كانوا يعرفون بأنهم لا يملكون القوة اللازمة لاجتياز الكيلومترات الستين الأخيرة .

« وخلال أحد المؤتمرات ، عبر الجنرالات عن شكوكهم . فأمرهم هتلر بالتزام الصمت . وأيده فون بول في ذلك . وأعلن الفوهرر أن لديه من الأسباب ما يدفعه إلى الاعتقاد بحتمية انهيار روسيا ، وأمر باجراء محاولة أخيرة ضد موسكو ، ثم أضاف بأن على المهاجمين نسف الكرملين للتعبير عن انهيار البلشفية » .

وأعيد النظر في التشكيلات قبل شن الهجوم . وكان الجيش الرابع بقيادة فون كلوغ يشكل مع فيلق البانزر الأول الجناح الجنوبي . وكان الجناح الشمالي يضم فيلق بانزر بقيادة هوبنر وبضع فرق مشاة من الجيش التاسع . وكان القائد العام للهجوم هو فون كلوغ . وهذا اختيار مفعم بالسخرية لأن فون كلوغ لم يكن يؤمن بامكانية تنفيذ المشروع الذي كُلِّف بقيادته .

وقال لي بلومنتريت : « شن فيلق البانزر العامل تحت قيادة هوبنر الهجوم من اليسار . وسارت العمليات ببطء بالغ بسبب الوحل والهجمات المعاكسة الروسية العنيفة . وتكبدنا خسائر كبيرة ، وعمل الطقس ضدنا ، وتهاطل الثلج بغزارة حتى غطى الأرض المليئة بالمستنقعات . وتتابعت الهجمات المعاكسة على المجنبة عبر نهر الموسكفا المتجمد . وكان على هوبنر أن يخصص من فيلقه قوات متزايدة لصد هذه الهجمات ، واستطاعت فرقة البانزر الثانية التقدم بعمق سمح لها بأن ترى الكرملين عن بعد ، ولكنه لم يقيض لها أن تراه من مسافة أقرب .

« واضطرنا الوضع الخطير إلى التفكير بزج الجيش الرابع في معمعان الهجوم . وكان هوبنر يتصل بنا هاتفياً كل ليلة ويطالبنا باتخاذ هذا القرار . وكنت اجتمع كل ليلة مع فون كلوغ ونقضي سهرات طويلة في مناقشة الرد الذي ينبغي اعطاؤه . وقرر فون كلوغ أن يسبر بنفسه رأي القطعات العاملة على الجبهة ـ وكان هذا القائد الحيوي الفعّال النشيط يحب أن يرى نفسه وهو يعمل بين الجنود . لذا ذهب فون كلوغ إلى الخطوط الأمامية بغية التحدث مع الضباط الشباب وضباط الصف ، فوجدهم على قناعة تامة بامكانية بلوغ موسكو ، كما لاحظ تشوّقهم لمحاولة ذلك . وبعد خمسة أو ستة أيام من

المناقشات والتردد قرر فون كلوغ إجراء محاولـة في هذا المجال مع الاستعانـة بالجيش الرابع . وكان سمك الأرض المتجمدة تحت طبقة الثلج الكثيفة يعادل عدة سنتيمترات ، وكانت هذه الأرض القاسية صالحة لتحركات المدفعية .

« وبدأ الهجوم في ٢ كانون الأول . وجاءت التقارير بعد الظهر لتؤكد أن هجومنا قد فشل بسبب الدفاع الروسي العنيد داخل الغابات المحيطة بموسكو . وكـان الـروس يمتازون في القتال داخل الغابات . وهبط الليـل في الساعـة الثالثـة من بعـد الظهـر ، فساعدهم هذا الأمر إلى حد بعيد .

« ودخلت بعض الجماعات من فرقة المشاة ٢٥٨ ضواحي موسكو . ولكن المصانع دفعت سيلاً من العمال الذين دافعوا عن عاصمتهم بالمطارق والأدوات الأخرى .

« وشهد الروس خلال الليل هجمات معاكسة على العناصر المتقدمة التي تغلغلت داخل دفاعاتهم . واعلمتنا التقارير في اليوم التالي أن قادة فيالقنا فقدوا كل أمل بالقدرة على النجاح . وقضيت السهرة مع فون كلوغ ونحن نفكر ونناقش متسائلين هل ينبغي علينا سحب العناصر المتقدمة أم لا . ومن حسن حظنا أن الروس لم يروا هذه العناصر وهي تتراجع ، وهذا ما ساعدها على قطع التماس ، وجعلنا قادرين على إعادتها إلى قواعد انطلاقها بنظام مقبول إلى حد ما . ولكننا تكبدنا خلال هذين اليومين خسائر فادحة .

« وأخذنا قرارنا في الوقت الملائم ، الأمر الذي انقذنا من النتائج الوخيمة التي كان من الممكن أن تصيبنا عندما شن الروس هجومهم المعاكس الشامل الذي استخدم فيه المارشال جوكوف مائة فرقة . وكانت ضغوط الهجمات المتلاقية تزيد خطورة وضعنا يوماً بعد يوم . واقتنع هتلر أخيراً باننا عاجزون عن صد الهجمات المعاكسة فمسح لنا وهو آسف بإجراء تراجع قصير المدى نحو موقع معدّ في الخلف . وكانت معلوماتنا عن النجدات التي حصل عليها الروس جد سيئـة فلقـد استطاعـوا إخفـاء وسائلهـم بكل مهارة » .

وهكذا انتهت على الجبهة الرئيسـة محاولات هتلر للاستيلاء على موسكو . ولم يعد أي جندي ألماني يرى الكرملين ، إلا عندما يقع في الأسر .

الفصل الرابع عشر

هزائم في القفقاس وستالينغراد

بقيت موسكو بعيدة المنال ، وجاء الشتاء رهيباً قاسياً ، واجتاح الخوف القطعات الالمانية . وتزايد خطر حدوث انهيار مخيف مشابه لانهيار الجيش الكبير الذي سار به نابليون نحو موسكو .

وفي هذه اللحظة المأسوية جاء أمر هتلر « يُمنع التراجع منعاً باتاً » فأوقف هذا الأمر موجة الهلع . وقد لا يكون هذا القرار ناجماً الا عن عناد أحمق ، ولكنه أخذ مع ذلك مظهر حزم هادىء . وكان على كل حال مخالفاً لرأي الجنرالات .

صحيح ان هتلر خرج من هذا الموقف الصعب ، ولكن خروجه هذا كان خير اعداد لضياعه النهائي ، لانه قاده الى التغلغل بعمق اكبر داخل روسيا في صيف عام ١٩٤٢ . وبعد البداية الحسنة سار الفوهرر على السبيل الخاطىء . فلقد أضاع ستالينغراد لان انظاره كانت متجهة نحو القفقاس ، ثم خسر القفقاس بسبب جهوده المتأخرة لاحتلال ستالينغراد .

وعندما حل الشتاء ، حاول هتلر الرهان على ورقة « موسكو » ولكنه سبب في هذه المرة كارثة لم تقم له بعدها قائمة . وعندها كان بوسعه استخدام اسلوب الدفاع المرن في المساحات الروسية الواسعة التي احتلها ، والافادة من هذه المساحات كمخفف لضربات الخصم ولو انه فعل ذلك لأنهك روسيا في حرب استنزاف طويلة . ولكنه لم يلجأ الى هذا الاسلوب ، بل تمسك بكل عناد بأمره السابق « يمنع التراجع منعاً باتاً » . وأدى

عمله هذا الى الاسراع في انهيار بلاده .

أزمة الشتاء .

ان ما قاله لي الجنرالات يجعل من المؤكد ان الجيوش الالمانية تعرضت لاكبر المخاطر بعد ان صدّها الروس أمام موسكو في كانون الاول ١٩٤١ . وضغط الجنرالات على هتلر كيما يسمح بانسحاب واسع يؤمن الوصول الى مواقع تصلح لقضاء فصل الشتاء . واكدوا بأن معدات الرجال وتجهيزاتهم غير كافية لتحمل قسوة حملة شتوية . ورفض هتلر سماع أقوالهم ورد عليها بالامر التالي : « على الجيش ان لا يخطو خطوة واحدة الى وراء . وعلى كل رجل أن يقاتل في الموقع الذي وصل اليه » .

وبدا للجميع ان قراره يقود الجيش الى كارثة . ولكن الاحداث اكدت صحة موقفه مرة اخرى . ولقد كشفت السبب العميق لذلك من أقوال الجنرال فون تيبلسكيرش . وهو رجل نحيل ، له هيئة كبار الأساتذة ، قاتل في الجبهة الشرقية كقائد فيلق ثم غدا قائد جيش . ولقد قال لي الجنرال : « كان الدفاع عن الجبهة اكثر ديناميكية من الدفاع في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . ولم يستطع الروس أبداً خرق جبهتنا . بل تجاوزوا مجنباتنا بعمق عدة مرات بيد انه لم يكن لديهم آنذاك التقنية او الوسائل اللازمة لاستثمار نجاحاتهم . وكان الهدف الرئيسي الحفاظ على المدن الهامة وعقد المواصلات (الطرق والسكك الحديدية) . وبناء على الطريقة التي حددها هتلر فاننا خلقنا حول المدن « قنافذ » تحيط المدن بطوق واقٍ ونجحنا في المحافظة عليها . وهكذا تم انقاذ الموقف ! » . وبالرغم من اختلاف الجنرالات مع هتلر في شتاء ١٩٤١ ، فانهم يقرون اليوم بأن حلّه كان افضل الحلول ، مع أخذ ظروف العصر بعين الاعتبار . ويقول فون تيبلسكيرش : « كان هذا نجاحاً كبيراً له .

ففي هذه اللحظة الحرجة تذكر الرجال بكل وعي تراجع نابليون عن موسكو . ولو قاموا بالتراجع آنذاك لكان من المحتمل ان يتحول تراجعهم الى هزيمة . »

ووافق عدد من الجنرالات على هذا الاسلوب في معالجة الأمر . ولكن فون

رونشتدت ذكر بلهجة لاذعة : « أدى قرار هتلر بالمقاومة في مواضعنا الى ظهور الخطر . ولو انه سمح بتراجع ملائم لما ظهر هذا الخطر أبداً . »

ويأتي حديث بلومنتريت معي عن أحداث جبهة موسكو في كانون الأول ليؤكد هذه الملاحظة بشكل غير مباشر . فهو يكشف الأخطار الاضافية التي نجمت عن عناد هتلر واصراره على اصدار أمره بالدفاع دون فكرة التراجع ، بالاضافة الى عدم الاستقرار النابع من اسلوبه في سحب الامتيازات والصلاحيات التي لم يمض على أعطائها سوى فترة قصيرة . « بعد الفشل النهائي أمام موسكو ، قام الجنرال فون كلوغ باعلام القيادة العليا أن من التعقل اجراء انسحاب عام حتى الأوغرا بين كالوغا وفياسما ، والوقوف على خط معدّ جزئياً . وحصلت مناقشات طويلة في قيادة الفوهرر العامة قبل ان ينتزع الضباط من الفوهرر الاذن المطلوب بالتراجع . وتطور الهجوم المضاد الروسي في هذه الفترة بشكل خطير ، وخصوصاً على المجنبات . ومع بداية عملية الانسحاب جاء من الفوهرر الأمر التالي « على الجيش الرابع أن لا يتحرك من مواقعه » .

« وزاد هذا الأمر المعاكس خطورة وضعنا ، لأن مجموعة البانزر العاملة بقيادة غودريان ، والمنهكة الى حد بعيد كانت تقف قرب طولا في موقع متقدم على موقع جناحنا الأيمن . وكان من الضروري سحب هذا الفيلق قبل قيام بقية قطعات الجيش الرابع بالانسحاب . وخلق هذا التأخير تعقيدات اضافية لان الروس هاجموا قوات غودريان المجزأة ودفعوها بسرعة الى ما وراء نهر أوكا . وأزعج الروس فيلق البانزر العامل على ميسرتنا بقيادة هوبنر ، وتحركوا بشكل يهدد بتجاوز مجنبته .

« وهكذا وجد الجيش الرابع نفسه معزولاً في موقعه المتقدم ، ومعرضاً بشدة لخطر التطويق . ولم تكن الانهار المتجمدة تشكل حماية ضد العدو وبعد فترة وجيزة أصبح الوضع مثيراً للقلق : اذ استطاع فيلق من الخيالة الروسية تجاوز مجنبتنا اليمنى والوصول الى مؤخراتنا . وكان هذا الفيلق يضم الخيالة الراكبة والمشاة المحمولة على الزحافات بالاضافة الى كل من يستطيع حمل بندقية في القرى التي تم تحريرها .

« هذا هو الوضع المشؤوم الذي كان الجيش الرابع فيه بتاريخ ٢٤ كانون الاول ـ ويرجع هذا الوضع الى رفض هتلر لطلب التراجع في الوقت الملائم . وتركنا رئيسي فون كلوك في يوم ١٥ ليحل محل فون بوك الذي سقط مريضاً . وكُلفت عندئذ بقيادة الجيش . وقضيت يوم عيد الميلاد مع هيئة أركاني في كوخ صغير ـ مقر قيادتنا في مالو ياروسلافيتس ـ وكانت الرشاشات القصيرة على الطاولة ، وأصوات الطلقات النارية تحيط بنا من كل جانب . وفي اللحظة التي بدا لنا فيها أنه ليس هناك ما ينقذنا من التطويق رأينا أن الروس يتحركون نحو الغرب بدلاً من أن يستديروا نحو الشمال لضرب مؤخرتنا . وهكذا اضاع العدو فرصة رائعة . . .

« وبقي الوضع حرجاً الى حد بعيد ، اذ كان هتلر يؤجل قراره يوماً بعد يوم . ولم يسمح بالانسحاب العام حتى نهر الأوغرا الا بتاريخ ٤ كانون الثاني .

« وكنت قد تركت الجبهة منذ فترة قريبة وذهبت لأحتل مركزي الجديد كمساعد لرئيس هيئة الأركان العامة ، وجاء الجنرال كويبلر ليحتل مكاني . ولكن كويبلر فشل في مجابهة الموقف ، فلم يلبث أن استُبدل بالجنرال هنريسي الذي نجح في الصمود على الموقع الجديد حتى ما بعد الربيع رغم ان الروس تجاوزوا مجنبتيه بعمق كبير » .

ووصف لي بلومنتريت الظروف التي تم الانسحاب خلالها فقال : « كانت طبقة الثلج على الطرقات سميكة لدرجة جعلتها تبلغ بطون الخيول . وعندما انسحبت الفرق كان على القطعات أن تنظف طوال النهار الطرق التي ستسلكها آلياتهم خلال الليلة التالية ويمكنكم ان تتصوروا ما تعرضوا له اذا عرفتم أن درجة الحرارة كانت ٢٨ درجة فهرنهايت تحت الصفر » .

ومن المحتمل ان يكون قرار هتلر قد انقذ الالمان من الانهيار على جبهة موسكو ، ولكن ثمن هذا القرار اصبح فيما بعد رهيباً . ولقد قال لي بلومنتريت : « كانت خسائرنا عادية حتى الهجوم النهائي على موسكو ، ولكنها غدت قاسية جداً خلال هذا الشتاء ، وكانت تشمل الرجال والمعدات .. ومات عدد كبير من الرجال بسبب البرد » ويقدم فون

تيبلسكيرش تفصيلات اكثر دقة لانه قضى الشتاء كقائد فرقة من فرق الفيلق الثاني في مرتفعات فالدي الواقعة بين لينينغراد وموسكو . ولقد قال لي بأنه فقد ثلثي رجاله . « وقبل نهاية الشتاء تبخرت الفرق لدرجة ملاك الفرقة غدا ٥٠٠٠ رجل لم يعد في السرية سوى ٥٠ رجلاً » .

وكشف فون تيبلسكيرش أيضاً نتيجة لا تقدر بثمن نجمت عن سياسة « عدم التراجع » التي طبقها هتلر « كان هذا الشتاء سبباً في دمار سلاح الطيران الذي استخدم لامداد المواقع « القنفذية » ، والمواقع المتقدمة المعزولة بسبب تقدم الروس على مجنباتنا . وكان الفيلق الثاني يستهلك ٢٠٠ طن يومياً ، الأمر الذي تطلب استخدام ١٠٠ طائرة نقل في اليوم . بيد أن سوء الأحوال الجوية بشكل متكرر جعل من الضروري زيادة هذا العدد للافادة من أيام الصحو واكمال النقص في الامدادات . ولقد اضطررنا في أحد الأيام لاستخدام ما لا يقل عن ٣٥٠ طائرة لتموين هذا الفيلق وحده . وأدى سوء الطقس الى خسارة عدد من الطائرات . ان استخدام الطائرات لتموين جميع القطاعات المنعزلة على جبهة عريضة جداً أدى في نهاية الامر الى انهاك سلاح الطيران بشكل كارثوي » .

وسألت الجنرالات عن سير هجوم الشتاء في ١٩٤١ - ١٩٤٢ في روسيا ونتائجه ، فأكدوا جميعاً ان الجنود كانوا يحسون بتوتر عصبي عنيف من جراء ازعاج الروس الذين كانوا يهاجمون مجنباتهم ويهددون مواقعهم وخطوط مواصلاتهم وتلخص أحاديث بلومنتريت القول الشائع بأن النتائج غير المباشرة كانت أسوأ من الخطر المباشر . « ان النتيجة الاساسية لهجوم الشتاء هي قلب خطط الالمان المعدّة لعام ١٩٤٢ . وألحق البرد وحده خسائر وأضرار تفوق ما ألحقته الهجمات الروسية ، وسبب تدمير معنويات الجنود وألحق بين صفوفنا خلال هذا الشتاء خسائر تعادل تقريباً الخسائر التي ألحقناها بالروس » .

وأضاف ان طول الجبهة التي احتلها الألمان زاد من تعب القطعات « كان متوسط عرض جبهة الفرقة ٣٠ - ٤٠ كيلومتراً ، وكان هذا العرض ينخفض الى ١٥ - ٢٠

كيلومتراً في القطاعات الصعبة مثل القطاعات المحيطة بموسكو . وزادت معضلة التموين خطورة امتداد جبهة الفرق وقلّة عمقها . وكانت صعوبة انشاء الطرق والسكك الحديدية تعقد وصول الامدادات وتعرقل توزيعها » .

وسألته كيف استطاعت جبهات قليلة العمق الى هذا الحد مقاومة الهجمات بالرغم من ان هذه الجبهات كانت تغطي مساحة اكبر من المساحة التي كنا نعتبرها في ١٩١٤ - ١٩١٨ اكبر مساحة مقبولة بالنسبة للفرقة ، فأجابني بقوله : « كان عرض الجبهات خلال الحرب العظمى (العالمية الاولى) ينقص مع تزايد توزيع الفرق في العمق . ولقد استطعنا الصمود على جبهات اعرض بكثير من الجبهات القديمة بفضل الاسلحة الحديثة ، وتطور الأسلحة الآلية الخفيفة . وساعدنا في ذلك عامل مهم آخر هو القدرة الحركية التي تتمتع بها الوسائط الدفاعية . فما ان يخرق العدو الجبهة حتى يكون من الممكن غالباً سد الثغرة قبل توسيعها وذلك عن طريق القيام بمناورة مضادة تنفذها وحدات آلية سريعة الحركة » .

وأمكن تحاشي عدد كبير من الكوارث بفضل تزايد الميزات الناجمة عن اخذ موقف الدفاع . وأدى هذا الأمر الى نتيجة عكسية هي تشجيع هتلر على المراهنة على الهجوم بجنون اكثر من اي وقت مضى . وأثر خروج هتلر من المواقف اليائسة الى زيادة ايمانه بنفسه ، وصار يحس بان الاحداث اكدت أحكامه رغم الآراء المعاكسة التي قدمها جنرالاته . ومنذ هذه اللحظة تناقص تقبله لافكارهم رويداً رويداً ، ولم يعد يسمح لهم بطرح آرائهم . وبعد الهزيمة النهائية أمام موسكو تخلص هتلر من فون براوخيتش وعيّن نفسه مسؤولاً عن القيادة العامة للجيش والقوات البرية (O.K.H) بالاضافة الى مسؤولياته كقائد أعلى للقوات المسلحة (O.K.W) وادى ابعاد فون براوخيتش الى اعتقاد الجماهير البسيطة بأن القادة العسكريين مسؤولون عن الهزيمة الناجمة عن أخطائهم . وهكذا استطاع هتلر استخدام هذا التدبير الأريب ليلقي على القادة العسكريين عبء النقمة الشعبية ، وليزيد في الوقت نفسه سلطته الشخصية . ولقد ذكر بلومنتريت ملاحظة لا تخلو من الصحة قال فيها : « كان أمراء البحر (الأميرالات) المحظوظين

الوحيدين في هذه الحرب ، اذ لم يكن هتلر يعرف اي شيء عن الأمور البحرية على حين كان يعتقد بأنه قوياً جداً في مجال الحرب البرية » .

ومع هذا فقد كـان لأمراء البحر (الاميرالات) مشاغلهم ومعضلاتهـم . فقـد وقعوا في ما وقع به أمراء البحر (الأميرالات) العاملين تحت قيادة نابليون اذ كان عليهم أن يعملوا مع قائد مشغول بالعمليات البرية لدرجة تمنعه من التفكير بالحواجز التي تضعها البحرية البريطانية في طريقه وانعكاس هذه الحواجز على الأحداث البرية . ومن المعروف انهم حاولوا عبثاً اقناع هتلر بالضرورة الحيوية الكامنة في عزل قواعد هذه القوة البحرية في كل مكان تستطيع القوات البرية بلوغه قبل مهاجمة أية اهداف اخرى .

ولم يكن الجنرالات قادرين على دعم مطالب القادة البحريين لان افقهم كان محدداً بنظرتهم العسكرية البرية البحتة . وكان ضيق أفقهم يميل الى تعطيل حذرهم . ويذكر فون كليست في هذا الصدد بعض الآراء فيقول : « كانت أفكار كلاوزفيتز قديمة زال أوانها بالنسبة لأبناء جيلي ، حتى عندما كنت في مدرسة الحرب ومدرسة الأركان العامة . وكان البعض يذكرون أقواله ، ولكن دون دراسة أفكاره بعناية . وكان هناك اعتقاد بأن كتاباته تستخدم الفلسفة العسكرية اكثر من التعليم العملي . وكان الاهتمام بكتب شليفن اكبر بكثير لانها كانت تبدو اكثر عملية وتدرس بعمق المسألة التالية : كيف يستطيع جيش أضعف من جيوش خصومه المتحالفين ـ وهذا هو الوضع الذي وجدت المانية نفسها فيه دائماً ـ ان ينتصر على هؤلاء الخصوم العاملين على جبهتين ؟ ومع هذا فقد كانت أفكار كلاوزفيتز ملائمة حتى ذلك الحين ، وخصوصاً عقيدته القائلة بأن الحرب امتداد للسياسة بوسائل اخرى . ويفهم من ذلك ان العوامل السياسية اهم من العوامل العسكرية . وتكمن خطيئة ألمانيا في اعتقادها بأن الانتصارات العسكرية قادرة على حل معضلاتها السياسية . ولقد قلبنا في ظل حكم النازي حكمة كلاوزفيتز ، وتوصلنا الى اعتبار ان السلم امتداد للحرب . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت وجهة نظر كلاوزفيتز صحيحة عندما توقع صعوبة احتلال روسيا » .

خطط لعام ١٩٤٢ .

نوقشت طوال الشتاء المشروعات التي ينبغي تنفيذها خلال الربيع وبدأ البحث فيها قبل شن آخرُ محاولة هجومية على موسكو . واليكم ما قاله بلومنتريت لي : « صرّح كثير من الجنرالات أن من المستحيل العودة الى الهجوم في عام ١٩٤٢ ، وأن من الأفضل التمسك بالمواقع التي تم الوصول اليها . وبدا هالدر متشائماً بالنسبة لفكرة متابعة الهجوم . أما فون براوخيتش فكان أكثر تعنتاً عندما طالب بانسحاب الجيش الألماني حتى خط انطلاقه في بولونيا . وأيده فون ليب . ولم يخفِ الجنرالات الآخرون قلقهم على مصير الحملة رغم أن مطالبهم كانت أقل من مطالب فون براوخيتش وفون ليب . وعندما تخلص هتلر من فون رونشتدت وفون براوخيتش بدأ يضغط على الجنرالات فوجدهم اقل عداءً لمشروعه الخاص بمتابعة الهجوم . »

وفي كانون الثاني عُيِّن بلومنتريت مساعداً لهالدر في رئاسة هيئة الأركان العامة . وكان منصبه يسمح له بالاطلاع اكثر من أي شخص آخر على الاسباب والافكار المختفية وراء قرار هتلر . ولقد أوجز هذه الأسباب والإفكار بما يلي :

كان هتلر يود الحصول في عام ١٩٤٢ على النتيجة التي فشل في تحقيقها خلال عام ١٩٤١ . ولم يكن يعتقد أن الروس قادرون على زيادة قواتهم ، ورفض سماع التقارير حول هذا الموضوع . وبدأ « صراع الآراء » بين هتلر وهالدر . وعلمت مصلحة الاستخبارات ان المصانع السوفياتية في الاورال وفي أمكنة اخرى تنتج ٦٠٠ ـ ٧٠٠ دبابة شهرياً . وعندما قام هالدر بنقل هذا النبأ الى هتلر ضرب هذا الأخير الطاولة بقبضته وأعلن ان هذا أمر مستحيل ، فهو لا يعتقد الا بما يريد الاعتقاد به . . . ثم لم يعرف بعد ذلك كيف يستقر على قرار . ولكنه استبعد مع ذلك احتمال التراجع . وكان يحس بأن عليه اتخاذ قرار ، وكان القرار الوحيد الممكن عنده هو الهجوم.

واخيراً ضغط المسؤولون عن الصناعة الالمانية على هتلر ، وطالبوا بمتابعة الهجوم على اعتباره الوسيلة الوحيدة للحصول على بترول القفقاس وقمح اوكرانيا اللازمين لاستمرار

الحرب .

وسألت بلومنتريت هل دققت هيئة الأركان العامة صحة أسس هذه الحجج الاقتصادية ، وما هي صحة ما قيل في تلك الحقبة عن أن مناجم المنغنيز في نيكوبول ، الواقعة في انعطاف الدنيبير ، كانت ضرورية لصناعة الفولاذ الألمانية . فقال بأنه لا يستطيع الرد على السؤال الأخير لأنه يجهل كل معطياته الاقتصادية . وبدت لي هذه الاجابة هامة كبيرة الدلالة لانها كشفت جهل الاستراتيجيين الالمان بالعوامل اللازمة لاعداد خططهم . وأضاف بأنه كان من الصعب التحقق من تأكيدات الاختصاصيين الاقتصاديين ، طالما ان هيئة الأركان العامة لم تكن ممثلة في المؤتمرات التي تبحث هذه الموضوعات . وهذا برهان جديد على الغشاوة التي كان هتلر يضعها على عيون جنرالاته .

وأخذ هتلر القرار المشؤوم بالتوغل داخل روسيا بعمق اكبر ، ولكنه أصبح يعي أن قواته غدت غير كافية لمحاولة شن هجوم واسع على طول الجبهة شبيه بهجوم السنة الماضية . وكان مضطراً لاختيار اتجاه من الاتجاهات ، ويخشى الاصرار على مهاجمة موسكو وهذا ما دفعه الى اختيار منابع البترول في القفقاس رغم أن التقدم بهذا الاتجاه يعني تجاوز قوات كبيرة من الجيش الروسي واطالة مواصلاته الى حد بعيد . وما ان تصل جيوشه الى القفقاس حتى تتعرض مواصلاتها لهجوم معاكس في كل نقطة على طول ١٥٠٠ كيلومتر . وظهر قطاع آخر ملائم للعمليات الهجومية ، هو قطاع البلطيق . وكانت خطة ١٩٤٢ تتضمن في الأصل مشروع الاستيلاء على لينينغراد خلال فصل الصيف بشكل يؤمن الاتصال مع فنلندا ويحسّن وضعها شبه المعزول . وباستثناء هذا الأمر كان على مجموعتي جيوش « الشمال » و« الوسط » ان تبقيا في موقف الدفاع ، وأن تكتفيا بتحسين مواقعهما .

وتشكلت مجموعة الجيوش « آ » بصورة خاصة لتنفيذ العمليات في القفقاس ، وسُلمت قيادتها الى الفيلد مارشال فون ليست . وكانت مجموعة جيوش « الجنوب »

تجاورها من اليسار . وتوفي فون رايخناو فجأة من جراء ازمة قلبية ، وكان قد حل محل فون رونشتدت في قيادة مجموعة جيوش « الجنوب » واستُدعي فون بوك ليحل محله ، ثم لم يلبث ان نُقل قبل بدء الهجوم . وبقي فون كلوغ على رأس قيادة مجموعة جيوش « الوسط » وحل فون بوش محل فون ليب في قيادة مجموعة جيوش « الشمال » . وشرح لي بلومنتريت سبب هذه التنقلات بقوله : « أراد الفيلد مارشال فون ليب تسجيل استيائه من قرار البدء بهجوم لا يستطيع قيادته فطلب اعفاءه من مناصبه . لقد كان يعتبر هذه العملية مغامرة لا تحمل من الناحية العسكرية اي أمل . وبالاضافة الى ذلك فان عداءه للنازية جعله يستغل هذه الحجة للانسحاب من قلب الأحداث ، خصوصاً وأنه لم يكن يستطيع الاستقالة دون أن يقدم لهتلر عذراً مقبولاً » .

وتحدثت مع بلومنتريت أيضاً عن الاساليب المستخدمة لتحديد خطط العمليات لعام ١٩٤٢ . وانني لأجد أن ملاحظاته هامة لا بد من ان تذكر : « علمتني خبرتي في العمل داخل هيئات الأركان العليا أن النتائج الحاسمة لحرب ما تتعلق بالعوامل السياسية اكثر من تعلقها بالعوامل الاستراتيجية . وترتبط بالمناقشات الطويلة على المؤخرة اكثر من ارتباطها بالعمل في حقل المعركة . بيد أن هذه المناقشات لا تظهر في أوامر العمليات . ولا تشكل الوثائق عنصراً مقنعاً للتاريخ : ان الرجال الذين يوقعون الأوامر يفكرون غالباً بشكل معاكس لما يكتبون . ومن العبث استنتاج دلالة قيمة حول الأفكار الحقيقية لعدد من الاشخاص بمجرد دراسة الوثائق التي جمعها المؤخرون وسط المصنفات .

« بدأت رؤية هذه الحقيقة عندما كنت أدرس تاريخ حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ مع الجنرال فون هافتن ، وهو مؤرخ صادق دقيق علّمني اسلوب البحث التاريخي وكشف لي صعوباته . ثم استطعت بعد ذلك ملاحظة هذه الحقيقة عن كثب في القيادات العامة الكبرى خلال هذه الحرب ـ وفي ظل النظام النازي .

« لقد نجم عن هذا النظام عدد من الظواهر الثانوية الغريبة . ان الالماني المحب بطبيعته للنظام والتنظيم يميل أكثر من أي شخص آخر لتثبيت كل شيء بصورة كتابية : لذا

تكدست خلال هذه الحرب كميات هائلة من « الأوراق » . وكان الجيش القديم يدرب ضباطه على صياغة أوامر موجزة تترك للمنفذين بعض المبادهة . ولكن هذا التقليد اختفى في الحرب الأخيرة مع اختفاء حرية التفكير . وكان على جميع تدابيرنا ان تذكر جميع التفصيلات الدقيقة حتى لا نتعرض للعقاب . ومن هنا جاء طول الأوامر وتكاثر الكلام فيها . وكان اسلوبها البياني ، واستخدام أوصاف التفضيل فيها على نطاق واسع يتعارضان تعارضاً كلياً مع جميع مبادىء النظام القديم التي كانت تنادي على العكس باستخدام اسلوب موجز مليء بالمعاني وتعابير محددة جداً . أما الآن فان على اوامرنا ان تكون « محفّزة » مصاغة بأسلوب اشبه بأساليب الدعاية . ان عدداً كبيراً من أوامر الفوهرر والقيادة العليا للقوات المسلحة (O.K.W) قد نُقل حرفياً في الأوامر المعطاة لانساق المرؤوسين حتى لا يُتهم القائد في حالة الفشل بأنه نقل نيات الفوهرر وافكاره وبشكل مغلوط .

« تعرضنا في ألمانيا النازية لضغط يشبه الضغط الذي عاشته روسيا . ولقد سنحت لي الفرصة غالباً لمعرفة ما يجري في تلك البلاد . اذ حضرت في بداية الحملة مثلاً استجواب ضابطين روسيين كبيرين تم أسرهما في سمولنسك . ولم يخف هذان الضابطان عدم رضاهما الكامل عن الأوامر التي كانوا ينفذونها . ولكنهما أضافا بأن الاختيار الممكن أمامهما هو : الطاعة التامة أو الموت . ان وقوعهما في الأسر جعلهما قادرين أخيراً على التحدث بحرية ، على حين كان النظام في بلدهما يجبرهما على العمل وفق الرأي الرسمي مع تجاهل أفكارهما الشخصية . » وتتشابه الاشتراكية الوطنية والبلشفية في عدد من النقاط . وفي جلسة خاصة ضمت هتلر وعدداً من خلصائه ومن بينهم هالدر قال الفوهرر بأنه يحسد ستالين لانه يملك امكانية ضرب الجنرالات المخالفين بأساليب اكثر راديكالية من الاساليب المتوافرة لدى الفوهرر نفسه . وأشار ايضاً الى التطهير الذي تم قبل الحرب بين صفوف القيادة العليا للجيش الأحمر . وكان هتلر معجباً بالسوفييت لانهم يملكون جيشاً وجنرالات مشبعين بالايديولوجية لدرجة تجعلهم يتصرفون بشكل جماعي متكامل ، ودون مناقشة ، على حين لم تكن هيئة الأركان العامة الالمانية تحس بايمان

متعصب للاشتراكية الوطنية . « ان لديهم بعض الشكوك ، ويقدمون الاعتراضات ، ولا يخلصون لي بشكل كاف » .

« وكان هتلر يفكر بمثل هذه الأمور خلال الحرب بشكل متزايد . وكان يعرف بأن رجال الطبقة التي يحتقرها لا يزالون نافعين ، اذ لا يمكن الاستغناء عنهم اذا ما شاء تنفيذ أوامره . ولكنه كان يراقبهم بصورة متزايدة . وهذا ما يفسر لماذا تحمل جميع الأوامر والتقارير وجهاً مزدوجاً . ان الأمر لا يعكس غالباً رأي موقّعه الذي يضطر لوضع امضائه حتى لا يتعرض لنتائج معروفة مسبقاً . لذا فان على المؤرخين وعلماء النفس الذين سيدرسون هذه الحرب ان يعيروا هذا العامل اهتماماً خاصاً » .

السباق نحو القفقاس .

كان لهجوم ١٩٤٢ شكل غريب حتى في صورته الاصلية . اذ كان عليه ان ينطلق من الخط المائل تاغانروغ ـ كورسك . وكان الجناح الأيمن على شاطىء بحر آزوف قد أخذ موقعه قرب روستوف على نهر الدون ، على حين كانت عناصر الجناح الأيسر نقف الى الخلف على مسافة ١٥٠ كيلومتراً ، نحو الغرب . وكان على هذه العناصر ان نبدأ الهجوم بضربة عنيفة .

كانت بلاد القفقاس الهدف الاول ، على حين كان على الهدف الثاني ـ ستالينغراد ـ حماية مجنبة التقدم نحو القفقاس . وتضمنت الخطة الاستيلاء على ستالينغراد وضواحيها لتأمين الحيطة التكتيكية في هذه النقطة الاستراتيجية .

ولا بد أن يحس الكثيرون بالدهشة اذا ما عرفوا ان ستالينغراد لم تكن هدفاً رئيساً. والحقيقة أن معركة ستالينغراد كانت تشغل الجمهور في بلدان الحلفاء خلال هذا الصيف الذي قرر مصير الحرب . وكان هذا الجمهور يحس بأن مصيره ومصير الروس كلهم مرتبط بهذه المدينة .

وقدم لي فون كليست معلومات دقيقة حول هذا الموضوع : « كان الاستيلاء على ستالينغراد أمراً ثانوياً ، ولم يكن لهذه المدينة أهمية الا بسبب وضعها الملائم داخل الممر

الواقع بين الدون والفولغا حيث يمكننا ايقاف قوات روسية قادمة من الشرق لمهاجمة مجنبتنا . ولم تكن ستالينغراد في بداية الأمر سوى اسم على خارطة . » وقال لي بلومنتريت : « أراد هتلر في الأصل تغيير اتجاه جيوشه ودفعها نحو الشمال انطلاقاً من ستالينغراد بغية ضرب مؤخرات القوات الروسية المدافعة عن موسكو . ولكن الجنرالات نجحوا (بصعوبة) باقناعه بجنون هذه الخطة ولقد فكر بعض المحيطين به بالتقدم حتى الأورال ، ولكن مثل هذه الأفكار بقيت في مجال الشطحات الغريبة . »

كانت الخطة بالشكل الذي وضعت به جريئة جداً ، بيد أن الشكل الذي نفذت به جعلها تتسم بقسط اكبر من المغامرة .

واستدعى هتلر قائد العناصر المدرعة في التقدم نحو القفقاس الجنرال فون كليست في ١ نيسان - وهو يوم مشؤوم - « قال لي هتلر بأن علينا احتلال منابع البترول قبل الخريف ، والا تعذر على ألمانيا متابعة الحرب . وعندما ذكرت له حساسية وجود مجنبة طويلة الى هذا الحد أجاب بأنه سيعد عند اللزوم قطعات رومانية وهنغارية وايطالية لتغطية المجنبة . بيد أنني حذّرته من الجنون المتمثل بمنح مثل هذه القوات ثقة كبيرة ، ولم اكن الشخص الوحيد الذي حذّره في هذا المجال . ولكنه لم يشأ سماع أي شيء . واكتفى بأن أضاف بأن مهمة هذه القطعات الحليفة ستكون مقتصرة على حماية المجنبة على طول نهر الدون بدءاً من فورونيج وانتهاءً بمنعطف النهر الجنوبي ، ومن وراء ستالينغراد حتى بحر الخزر ، وقال بأن هذه هي القطاعات التي يسهل الدفاع عنها اكثر من غيرها . . »

وجاءت الأحداث لتؤكد تحذيرات ومشاعر العسكريين المكلفين بتنفيذ خطط هتلر ومع هذا فان علينا ان نعترف بان هذه الخطط كانت قاب قوسين أو أدنى من النجاح في السنة الثانية من الحملة . ففي صيف عام ١٩٤٢ كانت روسيا مُنهكة ، ومن حسن حظها ان ألمانيا فقدت جزءاً كبيراً من قوتها الأمر الذي منعها من أن تشدد ضرباتها . ولو لم يكن الأمر كذلك لكان من الممكن أن تتحول هزائم الروس المحلية الى هزيمة عامة .

بدأ الهجوم الصيفي بنجاح باهر . وكان الروس يعانون من خسائر عام ١٩٤٢

بالرجال والعتاد . ولم تكن جيوشهم الجديدة قد ظهرت بعد . وحقق الجناح الأيسر الالماني تقدماً سريعاً من كورسك الى فورونيج ، وساعده على ذلك نقص القوات الإحتياطية الروسية في هذا القطاع ـ نظراً لانها كانت مكدسة حول موسكو . كما ساعده انشغال الروس بالهجوم الذي شنوه بعنف على خاركوف خلال شهر أيار بأكلمه . ولقد قال لي بلومنتريت بهذا الصدد : « زجوا في هذه العملية جزءاً كبيراً من القوات التي كان بوسعهم استخدامها لصد هجومنا » ثم أضاف : « كان جيش البانزر الرابع يقف على ابعد منطقة وصلنا اليها خلال تقدمنا ، وهي تمتد من كورسك حتى الدون وفورونيج . ولقد أمسك الجيش الهنغاري الثاني هذا القطاع على حين استدارت دباباتنا نحو الجنوب الشرقي وسارت على طول الضفة اليمنى لنهر الدون . »

وتذكرت التقارير المدهشة التي كنا نسمعها في تلك الحقبة عن دفاع الروس العنيد في فورونيج أمام هجمات الالمان . ولقد رد بلومنتريت على اسئلتي حول هذا الموضوع بقوله : « لم نكن ننوي أبداً تجاوز فورونيج والتقدم بعد ذلك باتجاه الشرق . وتلقينا الأمر بالتوقف على نهر الدون قرب فوروتيج ، والتمركز هناك دفاعياً لحماية مجنبة جيش البانزر الرابع المندفع مع الجيش السادس نحو الجنوب الشرقي تحت قيادة فون باولوس » .

ولعب التقدم المائل هذا في الممر بين الدون والدونيز دور الحجاب أيضاً وساعد اندفاع تقدم جيش البانزر الاول العامل لتنفيذ المهمة الرئيسة تحت قيادة فون كليست . ولقد انطلق هذا الجيش من خاركوف وتقدم بسرعة الى ما وراء تشير كوفو وميللير وفوحتى وصل الى روستوف . وعندما حدثني فون كليست عن هذا التقدم الصاعق قال لي بأن جيشه اجتاز الدون الأسفل شمالي روستوف ثم تقدم الى أمام متجهاً نحو الشرق ، وسار على طول وادي نهر مانيتش . ودمر الروس في هذا المكان سداً كبيراً ، وكاد فيضان مياه السد أن يعرقل خطط الألمان . ومع هذا استطاعت المدرعات اجتياز النهر بعد انتظار دام يومين . ثم قسم الألمان قواتهم الى ثلاثة أرتال اندفعت نحو الجنوب . ورافق فون

كليست شخصياً الرتل الأيمن الذي بلغ سيكوب منذ ٩ آب ، ووصل الرتلان الأوسط والأيسر في الوقت نفسه الى منحدرات القفقاس المعاكسة ، وتقدما نحو الجنوب الشرقي بعمق يزيد عن عمق الرتل الأيمن بحوالي ٣٥٠ كيلومتراً . وكانت حركة المروحة التي قامت بها الدبابات مدعومة بالجيش السابع عشر المتقدم سيراً على الأقدام .

وهكذا بلغ الألمان خلال ستة أسابيع أقرب منابع البترول واستولوا عليها ، ولكنهم لم يتمكنوا ابداً من الاستيلاء على الآبار الرئيسة الواقعة وراء الجبال .

وقال لي فون كليست : «كان نقص المحروقات اول أسباب فشلنا . وكان علينا أن ننقل أثقل امداداتنا عن طريق السكة الحديدية عبر ممر روستوف نظراً لأننا كنا نعتبر النقل عن طريق البحر الأسود خطيراً جداً . وتلقينا جزءاً من المحروقات عن طريق الجو . بيّد أن مجمل الكمية لم يكن كافياً للحفاظ على وتيرة تقدمنا . وتعرضنا للتوقف في اللحظة التي وقف فيها الحظ الى جوارنا .

« بيد أن السبب الحاسم لفشلنا كامن في أمور أخرى . وكان بوسعنا آنذاك بلوغ هدفنا لو لم تُسحب القوى العاملة تحت امرتي رويداً رويداً بغية مهاجمة ستالينغراد : فلقد أُخذ مني جزء من قواتي الآلية ، ثم سُحب فيلق المدفعية المضادة للطائرات بأكمله ، وأخيراً سُحبت جميع طائراتي باستثناء اسراب الاستطلاع .

« وأدى اضعاف القوة بهذا الشكل الى خسارتنا . وجمع الروس فجأة أمام جبهتي ٨٠٠ قاذفة قنابل تعمل من مطارات غروزني . وأثبت ثلث هذه الطائرات انه فعال قتالياً . ولكن هذا العدد كان كافياً لمنعنا من متابعة تقدمنا خصوصا وانه لم يعد عندي طيران قتال أو مُدفعية مضادة للطائرات » .

وأشاد فون كليست في هذا الجزء من الحديث بشجاعة الروس وصمودهم وأضاف ملاحظة نفسية هامة : « قابلنا في بداية الهجوم قسطاً صغيراً من المقاومة المنظمة . وكنا اذا طوقنا قطعات روسية بدا لنا وكأن أفرادها متشوقون للعودة الى بيوتهم أكثر من تشوقهم لمتابعة القتال . وكنت قد لاحظت في عام ١٩٤١ ان الوضع مختلف كل الاختلاف . وما

ان دخلنا القفقاس حتى اشتبكنا مع قطعات تضم جنوداً من بلاد القفقاس نفسها . وكان هؤلاء الجنود يقاتلون بشراسة دفاعاً عن بيوتهم . وجاءت صعوبة الأرض لتعرقل تقدمنا وتساعد مقاومتهم العنيفة » .

وعندما أعطاني تفصيلات أخرى حول عمليات المرحلة الاخيرة - بعد احتلال ميكوب - قال لي بأن هدف هذه العمليات كان يتمثل في الاستيلاء على كافة أجزاء الطريق الواصل بين روستوف وتفليس والمار عبر جبال القفقاس . وبقيت باكو هدفا ثانـوياً . ولاقى الهجوم أول مانع جدي على نهر تيريك . عندها قام فون كليسيت بمناورة سمحت له باجتياز النهر في نقطة ابعد نحو الشرق . وجابهته على الضفة الاخرى ارض متعرجة كثيفة الأشجار فاجتازها بشيء من الصعوبة . وكانت مجنبته اليسرى المكشوفة في السهوب بين ستالينغراد وبحر الخزر تزيد حجم الصعوبات الناجمة عن المقاومة المقابلة لجبهته .

« وجلب الروس قوات احتياطية من سيبيريا وجنوبي القفقاس ، وهددوا مجنباتي لدرجة جعلت الخيالة الروسية قادرة على التغلغل الى ما وراء المخافر المتقدمة التي تغطي هذه المجنبات . واستفاد الروس من السكة الحديدية الممتدة عبر السهوب من استراخان نحو الجنوب ، وجمعوا قواتهم بفضلها على مجنبتي . وكانت هذه السكة البدائية الممدودة بدون منشآت تحتية ، والسائرة على خط مستقيم عبر السهل الفسيح المستوي لاتقدم نقاطاً حساسة لضربها وتخريبها . فما أن يصيب الدمار جزء من السكة حتى يستبدل كله بجزء آخر . ووصلت دورياتي حتى شواطىء بحر الخزر . ولكن نجاحها بقي بلا جدوى اذ أنها كانت تبحث على هذه الشواطىء عن عدد لا يمكن امساكه . وأعاد الروس بعد فترة تشكيل قواتهم ، وازدادت خطورة تهديد المجنبة اكثر فأكثر » .

وأعاد فون كليست الكرة حتى تشرين الثاني وجدد محاولاته للوصول الى هدفه وشن الهجمات المفاجئة في عدة نقاط. وبعد ان فشل الهجوم المنطلق من موزدوك ،حاول القيام بهجوم جديد ينطلق من نالشيك الواقعة على جناحه الغربي ، ووصل في هذه المرة حتى اوردجو نيكيدزه بعد ان أمّن توافق هذا الهجوم مع حركة تطويقية منطلقة من

بروخلادنايا . وشرح فون كليست لي هذه العملية على الخارطة ، ووصفها بكل رضى بانها « معركة جد أنيقة » . وأخيراً حصل على دعم الطيران لتنفيذ هذه المهمة . ولكن سوء الأحوال الجوية سبب بعد ذلك تأخيراً جديداً . وبعد استراحة قصيرة قام الروس بهجومهم المعاكس « وخلال هذا الهجوم المعاكس انهارت فجأة فرقة رومانية كنت قد وضعت ثقتي بكفاءتها وقدرتها ، وقلب هذا الانهيار خطتي . ثم ساد الهدوء .

واكد الجنرالات الآخرون شهادة فون كليست مع التأكيد قبل كل شيء على نقص المحروقات ، وكانت الفرق المدرعة تبقى في بعض الأحيان مشلولة عدة أسابيع بانتظار الوقود . وتوقفت سيارات النقل للسبب نفسه ، وبدأ نقل المحروقات على ظهور الجمال - وهذه عودة ساخرة لاستخدام « سفينة الصحراء » التقليدية . وأضاف بلومنتريت ملاحظة لا تخلو من الأهمية وهي ان التشكيلات الألمانية الجبلية التي كان من الواجب استخدامها لمساعدة فون كليست في اجتياز القفقاس قد التحقت كلها تقريباً بالجيش السابع عشر الذي كان يسير في هذه الفترة بمحاذاة البحر الأسود متجهاً الى باطوم . « وارتكبت القيادة خطأً فادحاً عندما فضّلت دعم هذا التقدم الموازي للبحر . مع انه أقل أهمية من هجوم فون كليست . وعندما وصلت القوات المتجهة نحو باطوم الى توابس توقفت وطلبت دعمها بقوات جديدة ، الأمر الذي أثار احتجاج عدد كبير منا . ونوقش الوضع بعنف خلال فترة من الزمن . وكنا نقول للمنادين بضرورة متابعة التقدم على طول الشاطىء وسبابتنا موجهة نحو باكو : « نعم نعم يا أبنائي . هذا حسن جداً ! ولكن هنا يوجد البترول » وانتصر في نهاية المناقشات الرأي المؤيد لدعم توابس بالنجدات . وهكذا تعرقل جهدنا في بلاد القفقاس ، ولما اردنا دعمه بعد ذلك كان الوقت قد فات ، ولم يعد بوسعنا تحقيق أي نجاح » .

وتكرر خطأ بعثرة القوى القاتل على نطاق واسع عندما توزعت الجيوش الألمانية بين القفقاس وستالينغراد . وكان رأي بلومنتريت هنا أيضاً مختلفاً عن رأي الأغلبية : « ما أحمق محاولة الاستيلاء على القفقاس وستالينغراد معاً ، في الوقت الذي جابهتنا به مثل هذه المقاومة ! لقد أعلنت آنذاك أن من الأفضل تجميع القوى في البداية باتجاه ستالينغراد . اذ

كان تدمير الجيوش الروسية أهم من الحصول على البترول . ولكن الخبراء الاقتصاديين أكدوا بأن متابعة الحرب مستحيلة بدون بترول . ولم يكن بوسعنا معارضتهم بشكل مجدٍ . ومع هذا فقد أثبتت الأحداث خطأهم ، لأننا تمكنا من القتال حتى عام ١٩٤٥ دون الاستيلاء على بترول القفقاس » .

هزيمة ستالينغراد

لقد اكدت حملة ١٩٤٢ حقيقة ساخرة مفادها أنه لو أعطيت لستالينغراد منذ البداية الأهمية التي يستحقها هذا الهدف لأمكن احتلال المدينة مع مطلع العمليات . وهذا ما يقوله فون كليست بهذا الصدد : « كان الجيش الرابع بقيادة فون باولوس يتقدم الى يساري ، وكان بوسعه الاستيلاء على ستالينغراد في نهاية تموز دون جهد يذكر ، ولكن القيادة وجّهته نحو الجنوب لمساعدتي في اجتياز نهر الدون . ولم اكن بأية حاجة لمساعدته . واقتصر عمله على عرقلة السير على الطرقات التي كنت استخدمها . وعندما عاد الى الشمال بعد اسبوعين كانت القوات الروسية التي تجمعت خلال هذا الوقت في ستالينغراد كافية لايقافه » .

ولم ير الألمان بعد ذلك ابداً حقبة مشابهة لحقبة الانتصارات التي تم تحقيقها في النصف الثاني من شهر تموز . فلقد أدى تقدم جيشي البانزر بسرعة بالغة الى اخراج الروس من مواقعهم الدفاعية المتتالية ، وخلق حالة من الفوضى يسهل استغلالها . واستطاعت المدرعات الالمانية اجتياز الدون الأسفل دونما صعوبة . ولم يقابلها في هذه المرحلة عملياً اي حاجز . وكان بوسعها اختيار السبيل الجنوبي الشرقي والتقدم باتجاه القفقاس ، أو اختيار السبيل الشمالي الشرقي والتقدم باتجاه الفولغا . وكانت غالبية القوات الروسية لا تزال آنذاك غربي الدون الأسفل ، فلقد تجاوزتها قطعات البانزر الألمانية و سبقتها بفضل سرعتها .

وتبدّل الموقف بشكل ملحوظ عندما فشل جيش البانزر الرابع المتقدم نحو الجنوب ، وأضاع فرصة احتلال ستالينغراد خلال مسيرة . ووجد الروس الوقت اللازم

لتنظيم الدفاع عن المدينة . وكان توقف جيش البانزر الرابع يعني أنه بحاجة لدعم الجيش السادس العامل بقيادة فون باولوس . بيد أنه كان على هذا الجيش ان يشق طريقه وهو يقاتل حتى الدون . ولقد حقق ذلك بالفعل ، ونظّف القوات الروسية المتراكمة عند انعطاف النهر ، وغدا في نهاية المطاف مستعداً للمساهمة بشن هجوم مشترك ضد ستالينغراد . وادى تحرك هذا الجيش على الاقدام الى اضاعة وقت طويل قبل الوصول الى مسرح العمليات . وبالاضافة الى ذلك أخذت وحدات فون باولوس بالاختفاء نظراً لسحب فرقة واحدة تلو الاخرى لتغطية المجنبة المتسعة باستمرار على الدون الأوسط .

وكان الروس قد جمعوا قوات احتياطية كبيرة في قطاع ستالينغراد قبل بدء الهجوم الثاني الذي كان من المتوقع انطلاقه باتجاه هذه المدينة في النصف الثاني من شهر آب . وانتقل الألمان من فشل الى فشل . وكان بوسع الروس دعم ستالينغراد بسهولة اكبر من دعم القفقاس نظراً لقرب هذه المدينة من مسرح العمليات الرئيسي . وحنق هتلر من عدم جدوى هجماته المتعاقبة وكان اسم المدينة « مدينة ستالين » يجلجل كتحدٍ مباشر . لذا سحب هتلر القوات من خطوطه الرئيسة وبقية المواقع بغية الاستيلاء على هذا القلعة فلم ينجح الا في انهاك جيشه .

وطبق الألمان خلال أشهر الصراع الثلاثة تكتيك « ضربات الكبش » واعتبروه رافعة لتحطيم المقاومة . وكانوا كلما ازدادوا قرباً من المدينة تناقص مجال مناورتهم التكتيكية . على حين كان هذا التناقص يساعد المدافعين ويسهّل لهم عملية تحريك قواتهم الاحتياطية المحلية التي كانوا يدفعونها بسرعة لتدعيم النقاط المهددة على خطهم الدفاعي الممتد على شكل قوس . وبدا من الواضح أنه كلما تقدم الألمان في ضواحي المدينة حيث تتقارب المنازل من بعضها كلما ازداد بطء التقدم . وفي المرحلة الأخيرة من الحصار ، كان خط الجبهة لا يبعد عن الضفة الغربية لنهر الفولغا بأكثر من ٨٠٠ متر . ولكن فداحة الخسائر جعلت الهجمات الالمانية بطيئة متثاقلة . وكانت كل محاولة هجومية تكلف المهاجم خسائر اكبر ولا تؤمن سوى تقدم أقل .

واستفاد الروس من الطبيعة الصعبة التي يتسم بها قتال الشوارع ضد عدو مصمم على الدفاع . ومع هذا فقد اصطدم الروس بصعوبة هامة هي أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين الى جلب نجداتهم وامداداتهم بواسطة القوارب والأطواف عبر النهر تحت نيران كثيفة تصبها قوات الحصار . وأدى هذا الأمر الى تحديد عدد قواتهم المتمركزة دفاعياً على الضفة الغربية . ولقد استطاعت هذه القوات القليلة ضد هجمات متكررة ، وتبدو أهمية جهودها بشكل أوضح اذا ما عرفنا ان الخطط الاستراتيجية التي وضعتها القيادة الروسية العليا كانت تدعم بكل تغيير الدفاع المباشر عن المدينة ، وتفضل تركيز قواتها الاحتياطية على المجنبات بغية القيام بهجوم معاكس . وعند نهاية الحصار لم تُدعم مدينة ستالينغراد نفسها الا مرتين ، وكان الدعم كل مرة عبارة عن فرقة مأخوذة من الجيوش المجمعة للهجوم المضاد الواسع . ولم يكن دفاع ستالينغراد البطولي معلقاً الا بخيط . . . ولكنه خيط قوي متين !

لقد نشر الروس في جميع أرجاء العالم بشكل اسطوري تفاصيل معركة ستالينغراد الطويلة. ولا يذكر الجانب الألماني كثيراً من التفصيلات لان جميع المهاجمين تقريباً سقطوا مع قادتهم اسرى بيد الروس . وتقول المعلومات التي بحوزتنا أن التقدم كان عبارة عن « ضربات كبش » متتالية بلا ابداع ، وتقوم بها وسائط متناقصة ، ضد هذا الحي أو ذاك من المدينة . وضاع أمل المحاصرين قبل ان ينتزع المدافعون المبادهة . ولكنهم كانوا مجبرين على متابعة محاولاتهم الهجومية تحت ضغط مطالب هتلر الحازمة .

ومن المهم تاريخياً جمع الشهادات التي تفسر كيف وقع المهاجمون في الفخ الذي نصبوه . فلقد كان من المتوقع منذ أمد بعيد أن تتعرض القوات الموجودة على المجنبات لهزيمة كبيرة . وها هو بلومنتريت يتحدث عن ذلك : « ان الخطر الذي تتعرض له مجنبتنا بسبب طوسا خطر يتزايد كل يوم . ولكن هذا الخطر واضح منذ البداية بالنسبة لكل من لا يتعامى عن رؤية الأمور بوضوح . ولقد استفاد الروس من شهر آب ليتمركزوا بقوة على الضفة الأخرى لنهر الدون من فورونيج وباتجاه الجنوب الشرقي . وقاموا ببعض عمليات الاستطلاع القصيرة العنيفة ضد الخطوط الالمانية الممتدة على طول نهر الدون ،

ولاحظوا ضعفها المتمثل بما يلي : كان القطاع الواقع جنوبي فورونيج والقطاع الذي يليه ممسوكين بالجيش الهنغاري الثاني والجيش الايطالي الثامن . وتزايد الخطر بعد ايلول عندما أخذ الرومانيون على عاتقهم مهمة احتلال القطاع الواقع في الجنوب الشرقي والممتد حتى منعطف نهر الدون غربي ستالينغراد . وكانت عناصر المانية محدودة تشكل نقاطاً محصنة متباعدة مخصصة لتدعيم هذه الجبهة الطويلة المشغولة بقوات « الحلفاء » .

« وعندما ارسلني هالدر بالطائرة لتفتيش القطاع الايطالي الذي اكدت التقارير الخطيرة المتتالية عن وجود ثغرة فيه فتحها الروس وجدت أن فرقة ايطالية كاملة قد فرّت أمام هجوم شنته كتيبة روسية واحدة [1] . واخذت فور ذلك مباشرة التدابير اللازمة لسد الثغرة بفرقة ألبية (جبلية) وجزء من الفرقة الألمانية السادسة .

« وامضيت في هذا القطاع عشرة أيام . ثم كتبت عند عودتي تقريراً يكشف الخطر الكامن في الحفاظ طوال الشتاء على جناح دفاعي ممتد الى هذا الحد . وكانت المحطات الأخيرة لمراحل الامداد والتموين تقع على بعد ٢٠٠ كيلومتر وراء خط الجبهة . وكانت الأرض الجرداء تقريباً عاجزة عن تقديم الأخشاب اللازمة لبناء التحصينات . أما الفرق الألمانية القليلة المتوافرة فكانت كل واحدة منها تمسك جبهة عرضها ٥٠ ـ ٦٠ كيلومتراً . ولم يكن هناك خنادق حقيقية او مواقع دفاعية ثابتة .

« ودعم الجنرال هالدر هذا التقرير . ونظراً لعنف المقاومة الروسية وتزايد الأخطار التي تهدد مجنبتنا الطويلة ضغط هالدر على هتلر ليمنعه من شن الهجوم . ولكن الفوهرر رفض سماع أي شيء . وتوترت العلاقات في أيلول بين هالدر وهتلر ، وغدت محادثاتهم اكثر جفاءً . ان النظر الى هتلر وهو يدرس مخططاً ما عبارة عن تجربة لا تخلو من الأهمية . فلقد كان يتحدث ملوّحاً بيديه وهو يشير الى الخارطة قائلاً : « اندفعوا هنا ، تقدموا من هنا » وكانت تعليماته هذه تتم بشكل غير دقيق . ولا تأخذ الصعوبات العملية بعين الاعتبار . ومن المؤكد أنه كان سيحس بفرح غامر لو انه استطاع ان يكنس باشارة واحدة

---

(١) تضم الفرقة ١٠,٠٠٠ ـ ١٢,٠٠٠ رجل على حين تضم الكتيبة ٥٠٠ ـ ٦٠٠ رجل فقط
(ملاحظة الناشر)

كل هيئة الاركان العامة التي كان يحس بأنها غير متحمّسة لأفكاره .

« واخيراً صرّح الجنرال هالدر بلا مداورة أنه يرفض تحمل مسؤولية متابعة الهجوم مع اقتراب الشتاء . لذا عزله الفوهرر في نهاية ايلول وعين في منصبه الجنرال زيتزلر الذي كان من قبل رئيساً لهيئة اركان الفيلد مارشال رونشتدت في الغرب . وتركت منصبي على الجبهة الشرقية لأحل محل الجنرال زيتزلر على الجبهة الغربية .

« الا أن قدوم زيتزلر الى موقع جديد ، وجهله حقيقة الموقف ، و استلامه منصب رفيع كهذا جعله سلساً على عكس هالدر ، ولا يعيق الفوهرر باعتراضات مستمرة . وهكذا استطاع هتلر متابعة هدفه دون معوقات جديدة سوى المعوقات التي وضعها الروس وأمامه . وتابعت جيوشنا تقدمها الى أمام . وبعد فترة قصيرة أصاب الأسى زيتزلر ، وتعرض للقلق ، فأعلم الفوهرر بأن رغبته في ابقاء الجيوش قرب ستالينغراد طوال فصل الشتاء أمر متعذر لا يمكن تنفيذه . وعندما أثبتت الأحداث توقعاته أبدى الفوهرر نحوه عداء متزايدا ولم يلجأ الى تسريحه ، ولكنه اكتفى بابعاده » .

ويلخص بلومنتريت الوضع بقوله : «ولم نكن نخشى هذه المرة انقلاب التراجع الى هزيمة ، لان قطعاتنا المزوّدة بالتجهيزات اللازمة لتحمل قسوة الشتاء لم تعد تخشى المجهول الذي كان يشلها قبل عام . بيد أنها لم تكن تملك القوة الضرورية للصمود في مواقعها . على حين كانت الجيوش الروسية تتضخم أسبوعاً بعد أسبوع .

« ولم يشأ هتلر مع هذا أن يتحرك . فلقد ظهر « الهامه » صحيحاً في السنة الماضية . وكان يثق كل الثقة بأن الأمر سيكون مماثلاً في هذا العام . وهذا ما جعله يصر على أمر « منع التراجع » . ولم تلبث النتيجة ان ظهرت عندما شنت القوات الروسية هجوم الشتاء على ستالينغراد وطوقت الجيش الألماني وأجبرته على الاستسلام . وكنا قد ضعفنا الى حد لا يسمح لنا بتحمل مثل هذه الخسارة . ومال ميزان الحرب نحو ضياع المانيا » .

الفصل الخامس عشر .

بعد ستالينغراد

لقد طرحت على العديد من الجنرالات السؤال التالي : « هل تعتقدون أنه كان بوسع المانيا بعد ستالينغراد أن تنجو من الهزيمة ؟ » . وكان رد فون رونشتدت : « اعتقد ذلك . لقد كان بوسعنا تحاشي الهزيمة لو أن قادة القطعات الكبرى تمتعوا بحرية القتال التراجعي في اللحظات والأمكنة الملائمة لذلك بدلاً من الاضطرار للصمود في مواقعهم الى حد يفوق امكاناتهم ، الأمر الذي وقع في أغلب الأحيان » . ولم يكن فون رونشتدت على الجبهة الشرقية بعد عام ١٩٤١ ، لذا كان بوسعه الحكم على الأمور عن بعد . وانني لأعرف تماماً أنه شخص لا يفرط في التفاؤل ، بالاضافة الى خبرته بالعمل على الجبهتين الشرقية والغربية وهي خبرة وحيدة من نوعها . لذا فانني اعلق اهمية بالغة على رأيه . وعندما طرحت السؤال نفسه على جنرالات عملوا فترة من الزمن في الشرق جاءت اجوبة الجنرالات اكثر تأكيداً إذ أصر الجميع على أنه كان بوسعهم استنزاف القوة الهجومية الروسية بدفاع مرن لو أنهم تلقوا الإذن باستخدام هذا النوع من الدفاع . ثم أعطوني عدداً من الأمثلة الصارخة .

وذكر فون كليست تجربته الخاصة المتعلقة بالانسحاب من القفقاس بعد استسلام فون باولوس في ستالينغراد . وكان فون كليست قد حصل على رتبة فيلد مارشال لأنه نجح في قيادة هذا الانسحاب دون التعرض لخسائر فادحة . ويبدو لي ان فون كليست استحق عصا المارشالية بعد هذا العمل الكبير اكثر من معظم من حصلوا على هذه العصا كمكافأة لهم على انتصارات حققوها بالهجمات . ويتعذر علينا ان نجد في التاريخ كله انسحاباً قاده

رئيسه بمثل هذه المهارة ، ونجح في تخليص جيش كامل من موقع خطير رغم الصعوبات الضخمة ، وقسوة الشتاء ، وطول المسافات ، وضغوط قوات معادية متفوقة على مجنباته ومؤخراته .

ووصف بلومنتريت هذا الانسحاب بقوله : « بالرغم من ان هجومنا في القفقاس بلغ نقطته الميتة في تشرين الثاني ١٩٤٢ فقد أصر هتلر أن نحتفظ بهذا الموقع الخطير المتقدم وسط الجبال . وفي مطلع كانون الثاني ظهر خطر على مؤخرة جناحي عندما شن الروس هجوماً انطلق من إيليستا متجهاً نحو الغرب وراء الطرف الجنوبي لبحيرة مانيتش . وكان هذا الخطر اكبر من خطر الهجمات المعاكسة على مفارزي المتقدمة قرب موزدوك .

وفي الوقت نفسه كان السيل الروسي الجارف المندفع من ستالينغراد على طول نهر الدون حتى روستوف وعلى مسافة لا بأس بها من المفارز التي تحمي مؤخرتي يشكل بحد ذاته خطراً يثير القلق .

« وعندما وصل الروس الى مسافة لا تزيد عن ٧٠ كيلو مترا عن روستوف كانت جيوشي تقاتل على مسافة ٦٥٠ كيلو متراً شرقي هذه المدينة . وفي هذه اللحظة بعث هتلر لي أمراً بعدم التراجع مهما كان السبب وكان هذا يعني الحكم على قواتي بالاعدام . وفي اليوم التالي تلقيت أمراً معاكساً يسمح لي ببدء التراجع شريطة سحب جميع معداتي معي . وجاءت قسوة الشتاء الروسي لتزيد تعقيد هذه العملية التي تعرضت لكثير من الأفخاخ والكمائن .

« كانت حماية مجنبتي من إيليستا حتى الدون ملقاة في الأصل على عاتق مجموعة الجيوش الرومانية تحت قيادة المارشال انطونيسكو . وانني لا شكر الله لأن انطونيسكو لم يحضر بنفسه أبداً إلى الجبهة ! لذا استلم قيادة القطاع فون مانشتاين الذي كانت مجموعة جيوشه « مجموعة الجنوب » تضم جزءاً من القوات الرومانية . وساعدنا فون مانشتاين على اجتياز اختناق روستوف قبل أن يتمكن الروس من قطع طريق تراجعنا . وفي لحظة من اللحظات تعرض فون مانشتاين لخطر كبير دفعني لأن ابعث من قواتي عدة فرق كلفتها

بمساعدته لصد الاندفاع الروسي المتقدم على طول نهر الدون والمتجه نحو روستوف . واجتاز التراجع أحرج مراحله في النصف الثاني من شهر كانون الثاني » .

واشار فون كليست الى ان هذا التراجع الذي يبدو مهمة تفوق طاقة البشر اظهر بما لا يقبل مجالاً للشك قيمة الدفاع المرن . وما أن اعاد قواته الى مكان أمين وراء نهر الدينيبر حتى شن هجوماً معاكساً قلب الموقف وأوقف التقدم الروسي المتجه نحو الغرب انطلاقاً من ستالينغراد ونهر الدون . واستطاع هذا العمل التعرضي استعادة خاركوف وحسّن حالة جبهة الجنوب كلها . وساد هدوء طويل حتى منتصف صيف عام ١٩٤٣ .

واستفاد الألمان من هذه الراحة لتقوية مواقعهم في الشرق واعادة تنظيم قواتهم . ولم تستطع الجيوش الألمانية الوصول الى قوتها السابقة ولكنها استطاعت مع ذلك ايقاف الروس وردعهم . ولكن هتلر رفض تطبيق اية استراتيجية دفاعية . وكان هو صاحب فكرة المبادأة بالهجوم في الصيف . وكان الفوهرر مضطراً اكثر من أي وقت مضى للاعتراف بحدود قواه وطول الجبهة ، وهذا ما جعله يوجه كل قواته المتوافرة- ١٧ فرقة مدرعة - لشن هجومين متلاقيين على بروز كورسك . وعندما تحدث فون كليست عن هذا الهجوم قال بأنه لم يكن يأمل منه خيراً . ولكن فون كلوغ وفون مانشتاين المكلفين بقيادة مناورة الكماشة كانا جد متفائلين مسبقاً « ولو تم هذا الهجوم قبل ستة أسابيع لحقق نجاحاً كبيراً بالرغم من اننا لم نكن نملك الامكانات اللازمة لجعله هجوماً حاسماً . ولكن الروس علموا بمشروعاتنا خلال هذه الفترة فزرعوا حقول ألغام عريضة أمام جبهتهم ، وسحبوا كبد قواتهم الى وراء ، ولم يتركوا سوى قوة قليلة نسبياً داخل الجيب الذي أرادت قيادتنا العليا تطويقه » . .

وعندما توقف هذا الهجوم الألماني شن الروس هجوماً مضاداً واسع النطاق . وكانوا يملكون وسائط قتالية كافية للمحافظة على وتيرة هجومية . أما الالمان فكانوا قد بددوا في هذه العملية المغامرة القوات اللازمة لصد عدة هجمات وفرض حالة الهدوء على الجبهة . وكانت جميع قواتهم الاحتياطية تقريباً مُستنزفة - واستمرت الهجمات الروسية

طوال الخريف والشتاء . وكانت الوقفات القليلة التي وقفها المهاجمون ناجمة عن انتظار القوات الروسية المقاتلة حتى تلحقها مصالح الامداد والتموين ، لا عن تأثير هجمات الالمان المعاكسة . وكانت الجبهة الجنوبية كلها تعيش حالة غليان .

اما على الجبهة الشمالية التي استطاع الالمان فيها الوقوف موقف الدفاع فقد تحطمت جميع الهجمات الروسية على صخرة مقاومة عنيدة متماسكة . وكان هنريسي يقود آنذاك الجيش الرابع المتمركز في القطاع الواقع بين روغاتشيف وأورشا والذي يخترقه طريق موسكو ـ فينسك . ولقد قال لي بأنه أعاد في هذه الحقبة قراءة مؤلفاتي حول مبادىء الحرب الحديثة ، وأضاف : « أود أن اقول لك بعد كل تجربتي القتالية أنني أوافق تماماً على الاستنتاج بأن الدفاع متفوق على الهجوم من الناحية التكتيكية . وكما أشرتم في كتاباتكم فإن المعضلة المطروحة مرتبطة بالعلاقة بين الأرض التي ينبغي احتلالها والقوات التي ينبغي استخدامها لهذا الغرض . واعتقد انك قد تهتم بمعرفة ما فعلته في هذا المجال .

« بعد اخلاء سمولنسك اقترب الروس حتى مسافة ٢٠ كيلو متراً من أورشا . وجاءت قطعات الجيش الألماني الرابع لتحتل مواقعها على الخط المعدّ بسرعة ، والمؤلف من خندق واحد . واستطاعت هذه القطعات ايقاف الروس . وجابهتنا في هذه النقطة نفسها خمس هجمات روسية عنيفة تتابعت من تشرين الأول حتى كانون الأول . وكانت قواتي تضم ١٠ فرق من جيشي مهمتها الدفاع عن قطاع عرضه بدون تعرجات ١٥٠ كيلو متراً وعرضه الحقيقي مع تعرجات خط الجبهة ٢٠٠ كيلو متر ، وكان الجيش الرابع الذي يعمل بدون احتياط قد ضعف الى حد بعيد بسبب الخسائر التي اصابته ، ولكنه حافظ على ميزة هامة هي أن مدفعيته بقيت سليمة .

« وكان هدف الروس الرئيسي الاستيلاء على عقدة السكك الحديدية الهامة في اورشا لقطع السكة الحديدية العرضانية الكبيرة لينينغراد ـ كييف . لذا ركزت قواتهم هجماتها على جبهة عرضها ٢٠ كيلو متراً تجتاز الطريق الرئيسة . وتم الهجوم الأول بقوة تعادل ٢٠ ـ ٢٢ فرقة ، وكانت قوة الهجوم الثاني ٣٠ فرقة . أما الهجمات الثلاث

الأخرى فقد قام بكل واحدة منها ٣٦ فرقة . وكان عدد الفرق « الطازجة » المشتركة في كل هجوم اكبر من عدد هذه الفرق في الهجوم الذي سبقه .

« واستخدمت لصد هذه الهجمات ثلاث فرق ونصف نشرتها على الكيلومترات العشرين المعرّضة للهجمات . واحتفظت بست فرق ونصف لاشغال بقية قطاعات الجبهة الطويلة جداً . واستمرت كل معركة من هذه المعارك الخمس المتعاقبة ٥ ـ ٦ أيام . وكان اليوم الثالث او الرابع عموماً اعنف الأيام وكان الهجوم يضعف بعده حتى يتوقف . ولم يحاول الروس دفع عدد كبير من المدرعات لأنهم لم يحققوا ثغرات هامة في خط الدفاع . وكانت الهجمات مدعومة بعدد من دبابات مرافقة المشاة التي لم تكن تتجاوز ٥٠ دبابة . ولكن قواتنا صدت هذه الدبابات في كل مرة .

« وكان الروس يقومون عادة بثلاث محاولات يومياً : تبدأ الأولى في حوالي الساعة التاسعة صباحاً بعد قصف عنيف بالمدفعية ، وتبدأ الثانية بين العاشرة والحادية عشرة ، وتبدأ الثالثة بين الساعة الثانية والساعة الثالثة من بعد الظهر . وكان تصرفهم منتظماً تقريباً ! وكان الروس يتقدمون حتى توقفهم مدفعيتنا ـ وخلف الانساق المهاجمة يسير المفوضون والضباط لمنع أي تراجع بالقوة . وكانت مشاة الروس سيئة التدريب ، ولكنها كانت تهاجم بعنف جسور .

« وإنني أرى أن ثلاثة عوامل رئيسة شاركت في نجاح دفاعنا . أولها انني نظّمت قطاعات ضيقة مخصصة لكل فرقة ، وكثّفت القوات المقاتلة في نفس الأمكنة التي هاجمها الروس . ثم استطعت جمع مدفعية قوية تضم ٣٨٠ مدفعاً مهمتها تغطية القطاع المهدد ، ووضعت تحت قيادة ضابط واحد يعمل في مقر قيادة الجيش ، ويستطيع تركيز النيران على أية نقطة من هذه الجبهة الممتدة بطول ٢٠ كيلو متراً . وكان الروس يدعمون هجماتهم بعدد كبير من المدافع ـ حوالي ألف مدفع تقريباً ـ بيد أن رماياتهم لم تكن مركّزة بشكل جيد . وأخيراً فانني كنت اعوّض خسائر الفرق المشتبكة ـ وهي خسائر تصل الى ما يعادل كتيبة يومياً من كل فرقة ـ عن طريق سحب الكتائب من فرق جيشي الأخرى . ولقد

نظمت اموري بحيث يكون عندي دائماً ثلاث كتائب « طازجة » تقف وراء الفرق قبل بدء الهجوم المعادي بمعدّل واحدة لكل فرقة من الفرق المقاتلة على الجبهة الرئيسة ـ وتأتي خلفها ٣ كتائب اخرى مع هيئة قيادات وأفواج للاشتراك بمعارك اليوم التالي . وهكذا كنت أُدخل الى الجبهة افواجاً وفرقاً مجدّدة تماماً . وكان الاختلاط المؤقت بين الفرق أمراً لا بد منه . ولقد اعتبرته جزءاً من الأساليب المفروضة علينا لتحقيق النصر في هذا النوع من الدفاع . وكنت أتحيّن الفرص الملائمة لأعيد تشكيل الفرق كاملة من عناصرها الأصلية .

في أيار ١٩٤٤ غدا هنريسي قائداً لجيش البانزر الأول الذي انضم اليه الجيش الهنغاري الأول للعمل معاً على جبهة الكاربات . ولقد قاد هنريسي انسحاب هذا الجيشين حتى سيليزيا في مطلع عام ١٩٤٥ بعد انهيار الجبهة الالمانية في الشمال . وفي آذار ١٩٤٥ غدا هنريسي قائداً لمجموعة الجيوش التي كانت مهمتها صد الهجوم الروسي النهائي باتجاه برلين والتي اشتبكت في معارك الأودر وبرلين .

ولقد قال لي بأنه استطاع في هذه المرحلة الأخيرة من الحرب تحسين الأساليب الدفاعية التي وصفها لي من قبل « عندما كنا نلاحظ تجمعات روسية ، وهي دليل مسبق على اقتراب الهجوم ، كنت أسحب قطعاتي مسافة كيلو مترين الى وراء مستغلاً حلول الظلام ، وأتركها تتمركز على الخط الثاني . وكانت النتيجة ان يسدد الهجوم الروسي ضربته الى فراغ ، وتكون ضربته الثانية أقل اندفاعاً وقوة . ومن الطبيعي أن نجاح مثل هذا العمل كان يتعلق بمعرفة يوم الهجوم . وكنت احصل على هذه المعلومات من الأسرى الذين يقعون في قبضة دورياتي . وكنت الجأ بعد تحطم الهجوم الروسي الى اعتبار خطي الثاني وكأنه موقع متقدم ، على حين تتقدم القطعات وتعيد احتلال الخط الأول في القطاعات غير المعرضة للهجوم . ولقد نجحت هذه الطريقة بشكل جيد في معركة الأودر ـ وكان العائق الوحيد هو تناقص قواتنا بعد التبذير الناجم عن صلابة دفاعنا السابق عن مواقع يستحيل الدفاع عنها .

« ولم أتعرض لهزيمة واحدة خلال ثلاث سنوات من المعارك الدفاعية التي طبقت هذه الأساليب . وإنني فخور بأنني لم اضطر أبداً لأن أطلب من القيادة العليا ارسال قوات احتياطية لدعمي . وكانت المدافع ذاتية الحركة [المحمولة على هيكل دبابة] كبيرة الفائدة لتطبيق هذا التكتيك الدفاعي .

« إنكم تذكرون في كتبكم أن على المهاجم أن يحقق تفوقاً يعادل ثلاثة الى واحد . ولقد برهنت التجربة بأنكم كنتم على حق ، بل كانت تقديراتكم أقل مما ينبغي . وإنني اقول بأن تحقيق النجاح يتطلب من المهاجم أن يؤمن تفوقاً يعادل ستة أو سبعة الى واحد ، اذا ما كان الدفاع متراصاً ، ولم يكن عليه ان يغطي مساحة كبيرة من الأرض . وهناك حالات استطاعت فيها قواتي صد صدمات معادية متفوقة بمعدل ١٢ أو حتى ١٨ إلى واحد .

« وإليكم برأيي السبب الرئيسي للهزيمة الالمانية في الشرق : لقد كان على قطعاتنا أن تغطي مساحات هائلة ، دون ان تملك مرونة القيادة التي كان بوسعها أن تركّز القوات للدفاع عن القطاعات الحيوية . لذا فقد فقدنا المبادهة كل مرة . ولا اعتقد أنه كان بمقدورنا استنزاف القوة الروسية بالعمليات الدفاعية وحدها ، ولكن كان بوسعنا حتماً تبديل حظنا لو أننا استفدنا من قدرتنا الحركية الى ابعد مدى وأنقصنا طول جبهتنا بشكل ساعدنا على تحرير قطعات مهمتها شن هجمات معاكسة مثمرة .

« ومن سوء الحظ ، أنه لم يكن من المألوف استشارة حول موضوع خطط العمليات أو أساليب الدفاع . وكان غودريان رئيس هيئة الأركان العامة خلال العام الأخير ، بيد أن تأثيره في هتلر كان معدوماً . وكان لسلفه زيتزلر تأثير قليل في الفوهرر ، أما هالدر الذي سبقهما فكان يقدم نصائح لا يأبه لها هتلر .

« عندما استلمت قيادة الجيش الرابع فتحت تجربتي الأولى عينيَّ على الحقيقة . إذ أنني سحبت في احدى المرات مفرزة صغيرة من موقع خطير فتلقيت من جراء ذلك انذاراً نقله لي الجنرال فون كلوغ الذي كان آنذاك قائداً لمجموعة الجيوش التي اتبع لها ، ولقد

فهمت بأنني اذا ما عدت الى اتخاذ تدبير مشابه فانني سأتعرض على الأقل الى الاحالة امام المحكمة العسكرية .

« وكان هتلر يصر على القتال للحفاظ على أصغر جزء من الأرض ، ويهدد كل من لا يطبقون هذا الأمر بالاحالة أمام القضاء العسكري .

« ولم يكن يحق لنا إجراء أي تراجع مهما كان صغيراً بدون أمر من الانساق الأعلى . وتغلغلت هذه القاعدة داخل الجيش الى درجة جعلت الجميع يرددون النكتة المعروفةالتالية : إن قادةالكتائب لايجرؤون على تحريك أي خفير من النافذة الى الباب . ووضعتنا هذه الأساليب الصلبة المحرومة من المرونة في أوضاع يتفوق فيها العدو . وكم من مرة ثبتت فيها القطعات على مواقع لا تصلح للدفاع ، حتى تطوقت ووقعت في الأسر . وكان بعضنا يغامر في التحايل على هذه الأوامر حسب طاقته » .

ولم تكن هذه المغامرة الجريئة ممكنة الا بصورة محلية وضمن حدود ضيقة جداً . ولقد اكد فون تيبلسكيرش - الذي حل محل هنريسي في قيادة الجيش الرابع - فاعلية الدفاع المرن ، وأشار الى النتائج الكارثوية الناجمة عن عدم القدرة على تطبيق هذا الدفاع على نطاق واسع . « في آذار ١٩٤٤ كنت أقود في موغيليف الفيلق الثاني عشر المؤلف من ثلاث فرق . وشن الروس هجوماً بعشر فرق في اليوم الأول . فلم يحتلوا سوى الخط الأول وأوقفهم الخط الثاني . وساد بعد ذلك هدوء اعددت خلاله هجوماً معاكساً . وقمت بالهجوم المعاكس تحت ضوء القمر واستعدت جميع الأرض الضائعة - ولم افقد سوى خسائر قليلة نسبياً » .

وتحدث فون تيبلسكيرش بعد ذلك عن هجوم الروس في صيف ١٩٤٤ . وكان قد استلم قيادة الجيش الرابع قبل بدء الهجوم الروسي بثلاثة اسابيع . ولقد طلب قادة الجيوش على هذه الجبهة بكل الحاح الاذن بالانسحاب حتى نهر بيريزنيا : اذ كان بوسع مثل هذا الانسحاب الكبير تخفيف صدمة الهجوم الروسي . ولكن قادة الجيوش لم يحصلوا على الأذن المطلوب . ولم يتردد فون تيبلسكيرش في تجاهل الأوامر . وتراجع في قطاعه

قليلاً حتى خط نهر الدينيبر. وكان هذا التدبير الأريب كافياً للحفظا على جبهته سليمة . ولكن الروس خرقوا الجبهة على يمينه وعلى يساره ، ونجم عن ذلك انهيار عام . ولم يتوقف التراجع الالماني بعد ذلك ! لا على نهر الفستول قرب وارسو .

« وكان من الأعقل ولا شك ارجاع خط الجبهة الى وراء في الوقت الملائم . وكان الروس يحتاجون دائماً لفترة طويلة من الاعداد بعد كل تراجع الماني . وما أن يبدأوا الهجوم بعد الاستعداد حتى يتكبدوا خسائر كبيرة جداً . ولو طُبقت سلسلة من التراجعات على مراحل محسوبة جداً لأنهكت القوات الروسية ، ولخلقت امكانات شن هجمات معاكسة في وقت كانت الجيوش الالمانية لا تزال تمتلك من القوات ما يجعل هجماتها المعاكسة فعّالة .

« لقد كان هتلر محقاً عندما منع التراجع في عام ١٩٤١ . بيد أنه ارتكب خطيئة خطرة عندما كرر أمره في عام ١٩٤٢ ، وتمسّك به بعد ذلك في ظروف مختلفة كل الاختلاف . فبعد سنة من الحملة الروسية كان الجيش الألماني المجهّز بشكل جيد للقتال الشتوي يحس بأنه مستعد لمجابهة الروس . ولو نفّذ في ذلك الوقت تراجعاً استراتيجياً لما أثر ذلك على معنوياته . وكان بوسع قطعاتنا تنفيذ مثل هذه المناورة شتاءً . ولو أنها فعلت ذلك لأمنت اقتصاد القوى . ولكان بوسعنا بعد ذلك القيام بعودة كثيفة .

« كان هتلر مسؤولاً عن الهزيمة الألمانية ، لأنه لم يحسن استخدام امكانات الاستراتيجية ، وبدد قواه بلا جدوى في جهود عقيمة ومقاومات غير مفيدة في أماكن وأوقات مختارة بشكل سيء .

ولقد أضاف الجنرال ديتمار لهذا النقاش ملاحظات هامة تتسم بأنها أوسع أفقاً وأقل تأثراً بالنظرة الذاتية . وكان الجنرال ديتمار معلقاً عسكرياً ، وأثبت خلال الحرب عن موضوعية رائعة في تحليلاته المذاعة من راديو برلين ـ ولعله كان اكثر موضوعية من أي ناقد عسكري في أي بلد آخر . ومما يزيد عمله أهمية انه كان خاضعاً لمراقبة أشد بكثير من

المراقبة التي خضع لها أي معلق من معلقي الحلفاء . وسألته كيف استطاع التحدث بمثل هذه الصراحة في العديد من الحالات . فأجاب بأن الفضل في ذلك يعود الى فريتش رئيس الدعاية الاذاعية الذي كان الشخص الوحيد المكلف بمراجعة كتابات ديتمار قبل إذاعتها . كما أفهمني بأنه يعتقد ان فريتش الذي أصابه النظام النازي بخيبة امل كان سعيداً بترك المجال حراً أمام من يعرف كيف يقول بصوت عالٍ ما يفكر هو نفسه به سراً . وكان طبيعياً أن تثور الاحتجاجات العديدة على ديتمار ، ولكن فريتش حماه بكل قواه . ولقد أضاف ديتمار : « كنت أحس دائماً أنني أسير على حبل مشدود ، وأنشوطة مشنقة تحيط بعنقي ! » .

وسألته عما إذا كان يعتقد بأن الالمان كانوا قادرين على تحطيم قوى الروس لو أنهم طبقوا اسلوب الدفاع المرن فأجابني : « اعتقد ان نعم . اذ كانت ميزات الدفاع المرن واضحة ولكن قادتنا العسكريين عجزوا عن استخدامه بفاعلية نظراً لمعارضة هتلر ولم تكن هيئة الأركان العامة تملك حق تحديد خطوط التراجع أو اعداد التدابير الواجب تطبيقها اذا ما صد العدو جيوشنا . وكان ممنوعاً على هيئة الأركان التخطيط لتراجع ما . ومع هذا استطاعت هيئة الأركان في عام ١٩٤٣ اعداد مشروعات سرية ، وأرسلت الى القطعات تعليمات مصاغة بشكل سري متحفظ . ولقد تم توزيع هذه الأوراق عل مختلف الجيوش ، دون أن تحمل هذه الأوراق ما يشير الى مصدرها » .

وسألت ديتمار عما اذا حاول الألمان القيام بتراجع استراتيجي قبل بدء الهجوم الروسي المعاكس الكبير في تموز ١٩٤٣ ، أو قبل هجوم الروس المعاكس في كانون الثاني ١٩٤٥ . وكان رده كما يلي : « كلا . لقد خُرقت جبهتنا في المرتين بسبب الاستراتيجية التي فرضها هتلر . هناك عددمن قادةالوحدات الصغرى الذين تمكنوا من تجاوز اوامره الخاصة بالدفاع مهما كلف الأمر ، وقاموا بعمليات انسحاب محدودة . ولكن القادة الآخرين تشبثوا بمواقعهم واطاعوا أوامره بدقة متناهية ، وسببوا بذلك وقوع قواتهم في الأسر . وعلينا أن نذكر في كل حالة من هذه الحالات ان سبب الهزيمة يرجع الى الخطيئة الاساسية النابعة من

استراتيجية دفاعية بحتة . ثم تحولت الكارثة الى مأساة عندما شن الروس هجومهم في تموز ١٩٤٥ انطلاقاً من نهر الفستول والحقيقة أن القوات الاحتياطية التي حافظنا عليها سليمة لصد هذه الضربة سُحبت من جبهتنا في اللحظة الحرجة وأُرسلت لنجدة قطعات بودابست وكانت تضم ثلاثاً من خيرة فرقنا المدرعة .

« كان اسلوب التمسك بنقاط محددة مهما كان الثمن أسلوباً ضاراً . وكان الاصرار على سد ثغرة في الجبهة العامة يؤدي الى انهيارات محلية . ولقد أدى مجمل هذه الأمور الى خسارتنا » .

الفصل السادس عشر .

الجيش الأحمر

ان رأي الجنرالات الألمان حول الجيش الأحمر هام يكشف في بعض الأحيان كثيرا من الأمور . ولقد كان اوضح الآراء التي سمعتها ما قاله فون كليست : « لقد لاحظنا مباشرة أن الرجال مقاتلون رائعون. ولم نحقق نجاحاتنا الأولية ضدهم الا بفضل تفوق تدريبنا . وعندما اكتسب هؤلاء الرجال خبرة قتالية أصبحوا جنوداً من الدرجة الأولى وكان الجنود الروس يتمتعون بقدرة غريبة على التحمل ، ويقاتلون بشراسة ، ويستطيعون الاستغناء عن كل ما يعتبر في الجيوش الأخرى ضرورياً لا غنى عنه . وكان الضباط يحاولون استخلاص النتائج من فشلهم ، ولم يلبثوا ان غدوا بسرعة ضباطاً مهرة » .

وهناك جنرالات المان آخرون لا يشاركون فون كليست هذا الرأي ويقولون بانه اذا كانت القطعات المدرعة الروسية عدواً رائعاً فان المشاة الروسية بقيت بصورة عامة ضعيفة من الناحيتين التكتيكية والتقنية . ولقد لاحظت على كل حال أن أقل الاحكام امتداحاً جاءت من الجنرالات الذين قاتلوا في القطاع الشمالي من الجبهة . واستنتجت من ذلك أن أفضل عناصر الجيش الأحمر كانت تعمل في الجنوب . ومن ناحية اخرى فان حرب العصابات بلغت اشرس درجاتها وراء الجبهة الالمانية في الشمال ، لدرجة جعلت قوافل الالمان في عام ١٩٤٤ لا تستخدم سوى الطرقات الكبيرة . اما فون تيبلسكيرش الذي انعزل جيشه الرابع في منطقة الدينير الشمالي بسبب هجوم الروس في صيف ١٩٤٤ فقد قال لي بأنه نجح في تخليص جيشه بأن استدار نحو الجنوب باتجاه مستنقعات البريبيه بعد ان

قطع الروس طريق التراجع الرئيسي نحو مينسك . واستخدم طرقات كان الالمان قد توقفوا عن استخدامها منذ أمد بعيد بسبب اخطار عصابات الأنصار . « ولم يكن على الطريق نقطة واحدة سليمة ، واضطررت لاجراء التصليحات طوال تراجعي » .

وحدثني عن السنوات الأربع التي امضاها في الجزء الشمالي من الجبهة وقال لي : « في عام ١٩٤١ تغلب جنودنا على خوفهم من المشاة الروسية ، ولكنهم كانوا يخشون الوقوع في الأسر والذهاب بعد ذلك الى سيبريا . . . او التعرض لما هو أسوأ من ذلك . وساعد هذا الشعور على تقوية مقاومتهم ، ولكنه اثر بشكل خفي على شجاعتهم عندما اضطرتهم اوامر هتلر الى الوقوف دفاعياً على مواقع متقدمة ، والتعرض من جراء ذلك لخطر الانعزال » .

وسألت فون رونشتدت عن نقاط قوة الجيش الأحمر ونقاط ضعفه كما وجدها في عام ١٩٤١ . فأجاب : « فاجأتنا الدبابات الروسية بنوعيتها وحسن عملها . اما بالنسبة للمدفعية فقد كان الروس يمتلكون كمية تقل عما كنا نتوقعه . ولم يشكل الطيران عقبة جدية خلال هذه الحملة الأولى » . وحدثني فون كليست بصورة خاصة عن الاسلحة الروسية : « كانوا يملكون ـ حتى في عام ١٩٤١ ـ معدات جيدة . وكانت دباباتهم رائعة بشكل خاص . وكانت المدفعية وبقية اسلحة المشاة ممتازة . وكانت البنادق احدث من بنادقنا وتستطيع الرمي بسرعة اكبر . وكانت دبابتهم « ت ـ ٣٤ » افضل دبابة في العالم » . وقال فون مانتوفيل بأن الروس كانوا يحسّنون دباباتهم باستمرار . وان الدبابة « ستالين » التي تم صنعها في عام ١٩٤٤ كانت افضل دبابات شاهدها تعمل على مسارح القتال . ولقد انتقد الخبراء البريطانيون الدبابات الروسية لانها محرومة من المعدات الثانوية المفيدة في بعض الحالات وخاصة انعدام السيطرة باللاسلكي . اما الخبراء الالمان بشؤون الدبابات فانهم يرون بأن الانكليز والامريكيين كانوا يضحون بالقدرة على العمل لمصلحة هذه التحسينات الجزئية .

ويذكر فون كليست أن عام ١٩٤٢ كان يمثل اضعف مرحلة عرفها الروس من ناحية

العتاد . اذ لم يكن الجيش الأحمر قد عوض خسائر عام ١٩٤١ . وظهر نقص مدفعيتهم بوضوح طوال هذا العام . « ولقد اضطروا لاستخدام الهاونات المنقولة بسيارات النقل لتعويض ضعف مدفعيتهم » . وفي عام ١٩٤٣ حقق وضعهم المادي تقدماً سريعاً . وكانت مساعدات الحلفاء المادية الهامة للروس تشكل دعماً لا ينكر وخاصة بالنسبة لعربات النقل . بيد ان الانتاج المتزايد الذي كانت تقدمه مصانعهم الجديدة بعيدة المنال الموجودة في أقصى الشرق ، كان يمثل عاملاً أهم بكثير من مساعدة الحلفاء . وكانت غالبية الدبابات تقريباً مصنوعة في بلادهم » .

ومن مفاجآت حملة الشرق عدم استخدام الروس للقوات المحمولة جواً . مع أنهم كانوا يحملون في العالم اجمع لواء تطوير هذا السلاح الجديد . وانهم اعطوه دوراً كبيراً خلال مناورتهم التي سبقت عام ١٩٣٩ . ولقد ناقشت هذه النقطةمع شتودنت فأجاب : « لقد تساءلت غالباً لماذا لم يستخدم الروس المظليين . واعتقد انهم وجدوا ان تدريبهم غير كاف على صعيد الطيران وعلى صعيد القفز . والتفوا بابرار [انزال] العملاء والمجموعات الصغيرة المكلفة باجراء تخريبات وراء خطوط جبهتنا » .

وعند الحديث عن موضوع القيادة سألت فون رونشتدت عمن كانوا برأيه أفضل الجنرالات الروس فرد بقوله : « لم يكن أي واحد منهم يساوي شيئاً في عام ١٩٤١ . وعندما تحدثت عن بوديني قائد الجيوش الروسية التي كانت تجابهني قال أحد الضباط الروس هذه الملاحظة الصحيحة : « انه رجل كبير الشارب صغير المخ » ثم تحسنت القيادة الروسية مع مرور الزمن . وكان جوكوف قائداً جيداً جداً . ومن الجدير بالذكر انه درس الاستراتيجية في ألمانيا تحت قيادة الجنرال فون سيكت في حوالي ١٩٢١ - ١٩٢٣ » .

اما ديتمار الذي كان عمله كمحرر عسكري رئيسي في الاذاعة الالمانية يسمح له بمعرفة وجهة النظر السائدة بين الجنرالات الالمان فيقول بأن هؤلاء الجنرالات كانوا يجدون جوكوف ممتازاً ويعتقدون ان كونييف يبقى ارغم مهارته وتكتيكاته الرائعة في مرتبة لا تعادل

مرتبة جوكوف . « وبلغ الروس خلال الحرب مستوى يتزايد ارتفاعاً على صعيد القيادة سواء كان ذلك في أدنى المستويات ام في اعلاها . وكان من أفضل خصالهم مرونة ضباطهم المستعدين دائماً للتعلم ورفع مستوى معارفهم » وأضاف بأنه كان بوسع الروس ان يخطئوا وأن يصلحوا خطأهم نظراً لضخامة قواتهم ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للألمان .

ولقد لاقى هذا الحكم على الجنرالات الروس معارضة من قبل عدد كبير من خصومهم الالمان ، وخاصة من قبل الضباط الذين قاتلوا في الجزء الشمالي من الجبهة . وهذه هي خلاصة مجمل الآراء حول هذه المسألة : حسّن الروس قيادتهم بشكل متدرج في أعلى مستويات التسلسل القيادي وادناها ، على حين بقيت الكوادر الوسطى ضعيفة . وكانت الانساق الدنيا (الصغرى) مشغولة بضباط شبان حصلوا في مجال عملهم على حسّ تكتيكي رائع . والحقيقة ان غير الصالحين كانوا يختفون بسرعة في منافسة تخضع لحقيقة رصاص العدو وقنابله . وكانت مشاغل الضباط في الجيش الأحمر مختلفة عن مشاغل ضباط أي جيش آخر اذ انهم كانوا يحسبون حساب اوامر وأحكام رؤسائهم اكثر من ان يحسبوا حساب العدو .

ويذكر احد القادة الالمان على الجبهة الشمالية في هذا الصدد ملاحظة هامة فيقول : « كان من الممكن استثارة الروس ودفعهم الى الهجوم دون التعرض للخطر طالما ان خططنا مبنية على الدفاع المرن . وكانت حدة هجماتهم تتمثل بالانقضاضات المتكررة . ويرجع السبب في ذلك الى خشية قادتهم من التعرض لتهمة السلبية اذا ما اوقفوا هجماتهم » .

اما فيما يتعلق بطبيعة الجندي الروسي فقد قدم لي ديتمار معلومات كبيرة الاهمية عندما سألته عن ميزة هذا الجندي الأساسية فأجاب بقوله : « لا بد ان اذكر قبل كل شيء انني وجدت لدى الجنود لا مبالاة باردة تتجاوز القدرية . ولم يكن من المتعذر نهائياً التأثير عليهم عندما تسوء جميع الأمور من حولهم . اما في الأحوال العادية فقد كان من الصعب

التأثير فيهم بالطريق التي يتم فيها التأثير في جنود البلدان الأخرى . عندما كنت أعمل على الجبهة الفنلندية لم تستسلم لي القوات الروسية سوى مرة واحدة . واذا كانت سلبية الروس ولا مبالاتهم العجيبة تجعلان من الصعب التغلب عليهم ، فانهما تمثلان من الناحية العسكرية نقطة ضعف كبيرة . فلقد أدت هذه السلبية واللامبالاة في بداية الحملة إلى تعرض الروس غالباً للتطويق » .

وأضاف ديتمار : « حاولنا بناء على اوامر هتلر ، تشبيع الجيش الالماني بنفس الحالة الفكرية التي يتمتع بها الجيش الأحمر . وعندما كنا نحاول تقليد هذا الشكل من طبعهم كان الروس يقلدون تكتيكاتنا بنجاح اكبر . وكان بوسع الروس استخدام هذا الاسلوب ودفع قواتهم الى هذا الموقف نظراً لان حجم قواتهم كان يسمح لهم بتجاهل الخسائر ، وكان الرجال من جهة اخرى معتادين على الطاعة المطلقة » .

ولقد أراد بلومنتريت ان ينظر الى كل هذه المواضيع من زاوية فلسفية وتاريخية . وهذا ما جعله يحدثني طويلاً عن انطباعاته مبتدئاً بتجاربه خلال الحرب العالمية الأولى .

« كنت ملازماً أول عندما اشتركت باحتكاك صغير مع الفرنسيين والانكليز في نامور في آب ١٩١٤ . ثم كان علي ان أقاتل ضد الروس خلال سنتين . ومنذ هجومنا الأول على الجبهة الروسية فهمنا بان هؤلاء الجنود مختلفون كل الاختلاف عن الفرنسيين والبلجيكيين : لقد كانوا غير مرئيين تقريباً ، ويتحصنون في خنادق معدة بشكل جيد ، ويقاتلون بعناد ! وهذا ما جعلنا نتعرض لخسائر فادحة .

« وكان ذلك في عصر الجيش الامبراطوري الروسي . لقد كان الجنود الروس قساة رغم انهم بمجموعهم شباب طيبون . وكان مبلؤهم العسكري يتمثل في احراق المدن والقرى في بروسيا الشرقية عندما يرون ان عليهم أن ينسحبوا منها . ولقد طبقوا سياسة الأرض المحروقة هذه في بلادهم نفسها وعندما كان الوهج الأحمر الناجم عن احتراق القرى يضيء الأفق في الليل كنا نعرف بأن الروس يتركونها . ومن الغريب ان نلاحظ ان الأهالي كانوا يتحملون هذه الأساليب بقدريّة عجيبة . وكان هذا هو الاسلوب الروسي

المستخدم منذ قرون .

« عندما قلت بأن الجنود الروس كانوا بمجموعهم شباناً طيبين انما كنت أقصد العناصر الأوروبية . اما القطعات الآسيوية ، والفيالق السيبرية ، وقطعات القوزاق فقد كانت قاسية عنيفة . ولقد تعرضت المانيا الشرقية لكثير من الآلام بسبب أساليبهم في عام ١٩١٤ .

« كانت قطعاتنا ، حتى في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، حساسة إزاء ظروف الحرب الصعبة في الشرق . وكان الرجال يفضلون الذهاب الى الجبهة الغربية حيث تدور معارك طاحنة تشترك فيها المعدات والمدفعية الثقيلة ، كمعارك فردان والسوم . . الخ . ولم يكن من السهل تجاهل هذه العوامل وكنا نعرف تاثيرها المنهك ولكننا كنا نرى باننا نجابه على الأقل اوروبيين مثلنا . وكان الرمي في الشرق أقل غزارة وعنفاً ولكن الصراع كان اكثر قسوة لأنه يتم ضد عناصر بشرية أشد ضراوة . وكان الروس يميلون بصورة خاصة الى قتال الالتحام والهجوم الليلي ، وقتال الغابات . وكان الوضع ملخصاً بالنكتة التالية التي انتشرت آنذاك بين القوات الالمانية : « الجيش المقدام يقاتل في الشرق اما في الغرب فان فرقة إطفاء الحريق مستنفرة على استعداد لكل طارىء » .

« ولقد فهمنا خلال هذه الحرب الأخيرة بشكل جيد معنى كلمة « روسيا » . وكشفت لنا المعركة الأولى في حزيران ١٩٤١ حقيقة الجيش السوفييتي ووصلت خسائرنا الى ٥٠٪ . ودافعت الـ G.P.ou (مفارز الادارة السياسية للدولة) وكتيبة النساء عن قلعة بريست ليتوفسك القديمة وصمدت حتى آخر شخص رغم القصف العنيف الذي قام به طيراننا ومدفعيتنا الثقيلة . وتعلمت قطعاتنا بعد ذلك ماذا تعني المعارك ضد الروس . ولم يكن الفوهرر ومعظم القادة الكبار قد عرفوا ذلك وكان هذا سبباً في وقوع كثير من المآسي .

« وكان الجيش الأحمر المشبع بالعقيدة اصلب عوداً من الجيش القيصري . وتزايد عناده مع الزمن ، وكان رد الفعل هو تزايد عناد قطعاتنا وساد في الشرق المثل القائل :

« أنت او أنا ! » وكان الانضباط في الجيش الأحمر أشد من الانضباط الذي كان سائداً في الجيش القيصري . وهذا هو نوع الأوامر - المنفذّة بدون تردد - والتي استطعنا التقاطها : « لماذا لا تهاجمون ؟ إنني آمركم لآخر مرة باحتلال ستريلنكو ، والا فانني أخشى على صمتكم أو الأمر التالي : « لماذا لم يأخذ فوجكم وضع الهجوم ؟ إبدأوا العمليات فوراً إلا اذا كنتم تودون خسارة حياتكم » وهكذا استطعنا أخيراً أن نفهم سر صلابة خصومنا وعنادهم . ولم نفكر في عام ١٩٤١ بأننا سنجد أنفسنا في وضع مشابه لوضعهم بعد عدة سنوات .

« وفي جميع الاشتباكات مع الروس طوال الحرب كانت المعركة ضارية قاتلة بلا هوادة . وعندما يدافع الروس يصبح الانتصار عليه صعباً ويكلف أرواحاً بشرية كثيرة . ويستخدم الروسي ببساطة طبيعية أفضل الوسائل واكثرها فاعلية . وبما أن الانضباط صارم بالنسبة للجميع ، وبما أن الطبيعة السلافية - الآسيوية لا تعرف سوى المطلق ، فان عدم الطاعة ومخالفة الأوامر كانا مفقودين . ويستطيع القادة الروس ان يطلبوا المستحيل من رجالهم . دون أن يسمعوا تمتمة أو شكوى .

« الشرق والغرب : عالمان مختلفان لا يفهم احدهما الآخر . وستبقى روسيا دائماً اشارة استفهام امام أبي الهول . ويعرف الروس كيف يصمتون ، لذا فان فكرهم مغلق بالنسبة لنا » .

وتشير أفكار بلومنتريت وملاحظاته الى نقطة كان لها أهمية مشابهة تقريباً لأهمية معنويات القطعات . ويؤكد كافة الجنرالات على قدرة الروس العجيبة على عدم الاهتمام بالتموين العادي . ولقد وصف فون مانتوفيل مؤخرات جبهة الروس التي شن عليها إغارات مدرعة متعددة فقال : «ان تقدم الجيش الروسي أمر لا يستطيع الغربي تصوره . اذ تندفع خلف الدبابات مجموعات كبيرة من الرجال معظمهم من الخيالة . ويحمل الجندي على ظهره حقيبة مليئة بالخبز الجاف والخضار النيئة التي يلتقطها من حقول القرى خلال مسيره . وتتغذى الخيول بالقش الذي يغطي سقوف البيوت : ولا يقدم لها شيء

آخر تقريباً . ويستطيع الروس العيش بهذا الشكل البدائي مدة ٣ اسابيع . ومن المستحيل التفكير بايقاف تقدمهم بالشكل الذي يوقف به أي جيش عادي أي بقطع طرق مواصلاتهم : اذ لا يمكن مهاجمة قوافل تموين غير موجودة ! » .

الفصل السابع عشر

المأزق في النورماندي

كان الانزال في النورماندي يمثل بالنسبة لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة مغامرة كبرى . ولقد تحدث عنه الانكليز والامريكيون دائماً كما كانوا يرونه .

فاذا ما نظرنا إلى الغزو « من الطرف الآخر للتل » ، ظهرت لنا وجهات نظر اخرى . ففي الشهر الأول ، كان الفيلد مارشال فون رونشتدت العامل على الجبهة الغربية منذ مطلع عام ١٩٤٢ ، مكلفاً بمنع هذا الانزال . ولقد حدثني عما حصل آنذاك . وفي بداية الشهر الثاني حل الفيلد مارشال فون كلوغ محل فون رونشتدت وبقي في هذا المنصب حتى وقعت الهزيمة . وسقط فون كلوغ فريسة خيبة الامل والخوف من هتلر فانتحر بالسم بعد انهيار الجبهة . وكان الجنرال بلومنتريت رئيس هيئة أركان هذين القائدين المتعاقبين خلال حملة النورماندي الحاسمة . ولقد ذكر لي ملاحظاته بكل تفصيل .

كانت قيادة الصراع ضد الانزال بيد فون رونشتدت ثم فون كلوغ . ولكن القائم بالصراع نفسه كان الفيلد مارشال روميل ، قائد مجموعة الجيوش « ب » التي تغطي شواطىء بروتانيا وهولندا . ولكن روميل توفى ككثير من القادة الآخرين قبل نهاية الحرب . ومع هذا استطعت الحصول على معلومات هامة حول دوره في حملة النورماندي وذلك عن طريق سؤال عناصر هيئة أركانه . وقاطعت هذه الشهادات مع شهادات جنرالات آخرين اشتركوا في العمليات .

إن النظر إلى المعركة بعيني الخصم يعطي هذه المعركة شكلاً دراميا يختلف كل الاختلاف عن الشكل الذي كنا نراه من الطرف الآخر . والحقيقة أن النظر من ناحية العدو لا يصغّر الصورة بل يكبّرها ويجعلها نابضة بالحياة .

كان النظر من الشاطىء الانكليزي الى مسألة الانزال يدل على أن هذا الانـزال رائع . أما النظر إليه من الشاطىء الفرنسي وبأعين الخصم فيؤدي إلى تبديل شكله . ولقد أصبح من الأسهل علينا فهم مشاعر أولئك الذين تعرضوا لتهديد انزال تقوم به دول تملك السيطرة الكاملة في البحر وفي الأجواء . ولقد قال لي فون رونشتدت « كان عليّ أن أغطي شاطئاً طوله اكثر من ٥٠٠٠ كيلو متر ، ابتداء من الحدود الايطالية في الجنوب حتى الحدود الالمانية في الشمال . ولم يكن عندي سوى ٦٠ فرقة كلها تقريباً ضعيفة ، كما كان بعضها عبارة عن هياكل فقط » .

وليس هناك حساب عسكري يستطيع توزيع ٦٠ فرقة على ٥٠٠٠ كيلو متـر مع اتباع مبادىء الاستراتيجية . واذا نظرنا الى الأمور من وجهة نظر حسابية بحتة وتغاضينا عن ضرورة تشكيل قوات احتياطية لوجدنا أن على كل فرقة أن تغطي ٨٠ كيلو متراً : وكان هذا الأمر مستحيلاً[1] . لقد كنا نعتبر خلال الحرب العالمية الأولى أن الفرقة لا تستطيع أن تدافع دون خطر أمام هجوم قوي إلا على ٥ كيلومترات . ولا شك أن قوة وسائط الدفاع الحديثة قد تضاعفت منذ ذلك الحين حتى الآن بل لعلها غدت أقوى بثلاث مرات ، وعلى كل حال كان عدد الفرق غير كاف لتغطية جبهة واسعة كهذه مع تأمين درجة معينة من الأمن والحيطة . لذا كان لا بد من بذل كل محاولة ممكنة لمعرفة النقطة التي سينزل الحلفاء فيها على الشاطىء بشكل يؤمن من سحب القوات من القطاعات غير المعرضة لتهديد كبير ، وارسال هذه القوات المسحوبة لتدعيم القطاعات التي يعتقد أنها معرضة لعملية الإنزال . وكان عمق الجبهة قليلاً بالضرورة

---

(١) تغطي الفرقة عادة في الدفاع ١٢ ـ ٢٥ كيلومتراً ويستحيل عليها تأمين دفاع ديناميكي عميق متماسك متشابك النيران اذا ما زاد عرض جبهتها الدفاعية عن ٣٠ كيلومتراً

(المعربان)

حتى بعد استخدام هذا الاسلوب لتوزيع القوات ، إذ كان من الضروري تشكيل قوات احتياطية في الخلف قادرة على شن هجمات معاكسة ضد قوات الانزال فور وصولها إلى الأرض .

وشرح لي فون رونشتدت وبلومنتريت كم كانت آراء هتلر تعقد المعضلات المطروحة على بساط البحث . وكان هتلر يعتقد أن الغزو يمكن أن يتم في أية نقطة على شاطىء أوروبا المحتلة . ولم يكن اعتقاده هذا يأخذ بعين الاعتبار الشروط التي يمكن أن يفرضها النقل البحري .

النذير :

سألت الفيلد مارشال فون رونشتدت عما اذا كان قد توقع في الفترة التي سبقت ٦ حزيران حصول انزال حليف في الغرب ، فأجابني : « لقد فوجئت بانكم لم تحاولوا تنفيذ الانزال في عام ١٩٤١ ، أي عندما كانت جيوشنا مشتبكة في روسيا . وكنت آنذاك على الجبهة الشرقية ، ولم اكن أدري بتفاصيل أحداث الغرب . وعندما جئت إلى الجبهة الغربية ودرست الوضع لاحظت أن وسائطكم غير الكافية لاجراء الانزال ستفرض عليكم ولا شك الانتظار فترة من الزمن » . وفي عام ١٩٤١ أزعج رونشتدت هتلر بشكل قوي عندما ألح على الخطر الناجم عن ترك مؤخرة الجيوش الالمانية مكشوفة خلال عمليات روسيا . وكان هتلر قد حاول معالجة هذا الخطر بارسال فون رونشتدت لقيادة الجبهة الغربية . وكانت المنطقة الموضوعة تحت تصرف فون رونشتدت ممتدة من الحدود الالمانية ـ الهولندية حتى الحدود الفرنسية ـ الايطالية .

ورداً على سؤال آخر قال لي الفيلد مارشال بأنه لم يكن يعتقد أن الاغارة على دبيب في آب كانت دليلاً على وقوع إنزال حقيقي . وكان يعتبر هذه الاغارة مجرّد تجربة لهجوم يستهدف جس نبض الدفاعات الساحلية . وعندما سألت بلومنتريت عن الموضوع نفسه قدّم اجابة مختلفة إذ قال : « لم اكن في الغرب آنذاك . ولكنني سمعت أحاديث كثيرة عن الانزال عندما وصلت إلى هذه الجبهة في نهاية سبتمبر لأحل محل

الجنرال زيتزلر كرئيس لهيئة الأركان . ولم تكن القيادة الالمانية لتعلم ما إذا كان الأمر يتعلق باغارة منعزلة أو بمقدمة لهجوم يتطور في حالة نجاح هذه العملية الأولى » ويبدو أن ريتزلر وكيتل أخذا عملية دبيب مأخذ الجد .

وتابع فون رونشتدت حديثه : « كنت انتظر الغزو في عام ١٩٤٣ ، عندما قمنا باحتلال الأراضي الفرنسية بأكملها . واعتقدت أنكم ستستغلون هذا التبعثر الذي أصاب القوات الالمانية في الغرب » .

واكد بلومنتريت وجهة النظر هذه بقوله : « بعد انزالات الحلفاء في أفريقيا الشمالية الفرنسية في تشرين الثاني ١٩٤٢ أمرنا الفوهرر باحتلال فرنسا كلها . إذ كان يخشى وقوع انزال في جنوب فرنسا تقوم به قوات تنطلق من شمال أفريقيا . ولقد فكرنا أن الحلفاء سينزلون على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وأن حكومة فيشي ستمتنع عن مقاومتهم . وتم احتلال بقية الأراضي الفرنسية دون مضاعفات جدية . ولم يقع من الحوادث الا ما قامت به المقاومة الداخلية التي غدت نشاطاتها مزعجة . وسبق الفيلد مارشال فون رونشتدت القوات الالمانية وذهب لوحده إلى فيشي ليؤمن تنفيذ عملية توسيع الاحتلال بكل هدوء ، وليضمن عدم وقوع خسائر بشرية في كلا الجانبين بلا مبرر . ولقد نجح في مهمته » .

عام ١٩٤٣ ، عام الشكوك :

قال لي بلومنتريت : « بعد سقوط تونس في أيار تزايد خوف هتلر من وقوع انزال في جنوب فرنسا . والحقيقة أن هتلر بدا في هذا العام عصبياً إلى حد بعيد : وكان يرتاب أحياناً بانزال يتم في النرويج أو في هولندا ثم يتوجس شراً من انزال قرب السوم أو في النورماندي أو بروتانيا - إذا لم يذهب به الأمر إلى تصور انزال في البرتغال أو أسبانيا أو البحر الأدرياتيكي ! وكان يجيل بصره هكذا على الخارطة حتى تكاد عيناه تخرجان من رأسه !

« وكان يتوقع اكثر من أي شيء آخر إنزالاً على شكل كماشة يتم بآن واحد في

جنوب فرنسا وخليج بسكاي . كما كان يخشى أيضاً وقوع ضربة باتجاه جزر البالـيار يليها انزال في برشلونة مع هجوم على فرنسا . وكان يخاف إلى حد بعيد من أخطار غزو الحلفاء لاسبانيا . وهذا ما دفعه الى ارسال قوات كبيرة إلى جبال البيرينيه . وأصر مع ذلك على أن تحافظ القطعات الالمانية على الحياد ، وأن تتحاشى استثارة اسبانيا بأي شكل من الأشكال .

« ولم نكن نحن العسكريين نشارك هتلر مخاوفه . وكنا نرى أن من غير المحتمل أن تحاول القيادة البريطانية العليا اجراء اي انزال في خليج بسكاي البعيد عن انكلترا لدرجة لا تسمح للطيران الانكليزي بتقديم دعم جوي فعال . وكنا نرى أيضاً أن من المتعذر الانزال في اسبانيا لاسباب عديدة هي : أن الحلفاء لا يودون استثارة اسبـانيا وجعلها ضدهم . كما أن هذه البلاد لا تسمح باجراء عمليات واسعة النطاق نظراً لسوء حالة المواصلات ، ووجود جبال البيرينيه كحاجز لا يستهان به ، بالاضافة إلى أننا كنا قد أقمنا علاقات صداقة ومودة مع الجنرالات الاسبان المسؤولين عن حدود البيرينيه . ولم يكونوا يخفون عنا بأنهم سيعارضون أي غزو ألماني ، بيد أنهم كانوا يقدمون لنا المعلومات عن طيب خاطر » .

وأضاف بلومنتريت بأنه بالرغم من أن الجنرالات لم يشاطروا هتلر كل مخاوفه ، فقد كانوا على ثقة من أن الانزال سيتم حتماً ، وكانـوا يعتقـدون بأنـه سيقـع في عام ١٩٤٣ . ولـقد سرت في هذه السنة شائعات تؤكد قرب وقوع الانزال « وعلمنا بهذه الأنباء عبر السبل الدبلوماسية بصورة خاصة - بواسطة الملحقين العسكريين الرومانيين والهنغاريين واليابانيين وبواسطة عناصر من فيشي نفسها » .

ويبدو أن هذه الأنباء أثرت في أعصاب العدو اكثر من تأثيرعمـل منظّم. ولقد أعددنا في ايلول مظاهرة استعدادات تجميع قوات في جنوب انكلترا ، وتظاهرنا بأننا نود حملها بالزوارق . وسألت فون رونشتدت عما اذا كان قد خُدع بهذه التظاهرة . فأجاب وهو يبتسم : « كلا ، لقد كانت خدعة مكشوفة يظهر عليها بوضوح أنها بلفة » .

واستراحت القيادة الألمانية العليا عندما رأت هذه التظاهرة المنظمة بشكل جيد اكثر مما ينبغي ، والتي تدل على أن العملية الحقيقة قد تأجلت . وعلى كل حال كان الشتاء يقترب ، وكان بوسع الحاميات الالمانية في فرنسا ان تعتمد على راحة طويلة خلال شتاء آخر قبل هبوب العاصفة . وسادت مرحلة من الهدوء بعد توتر عصبي طويل .

وقال لي بلومنتريت : « بالاختصار ، يمكننا أن ندعو عام ١٩٤٣ عام الشكوك وانعدام الامان . وجاءت قوة حركات المقاومة الفرنسية المتزايدة لتضيف إلى صعوباتنا صعوبة جديدة . ولقد سببت لنا خسائر عديدة ، واجبرتنا على البقاء متحفزين بصورة مستمرة . ولم نكن حتى عام ١٩٤٢ نخشى حركة المقاومة ، اذ كانت مقسمة إلى ثلاث مجموعات متميّزة : الشيوعيون والديغوليون والجيروديين (نسبة الى الجنرال Giraud) . ومن حسن حظنا أن هذه المجموعات كانت على غير وفاق ، وكانت كل واحدة منها تقدم لنا معلومات عن المنظمات الأخرى . ولكنها اتحدت في عام ١٩٤٣ ، وتمونت بالاسلحة الملقاة بالمظلات من قبل بريطانيا العظمى التي كانت تقود عمليات المقاومة السرية كلها » .

تبديل الحرس :

في عام ١٩٤٣ حاول الألمان معالجة ضعف قواتهم ، فلجأوا إلى تعديل خطتهم الدفاعية اكثر من مرّة . وجاءت الفرق المنهكة من حملة الشرق لتعيد تنظيمها وتستعيد قواها في فرنسا ، وكانها مريض في حالة نقاهة . ويذكر بلو منتريت مختلف التدابير المتخذة بقوله :

« حتى عام ١٩٤٣ كان لدينا في فرنسا ٥٠ ـ ٦٠ فرقة ، وكنا نستبدلها اولاً بأول بفرق محطمة قادمة من روسيا . ولقد أثر هذا التبديل المستمر على الدفاع الساحلي تأثيراً سيئاً . لذا شكلنا فرقاً دائمة مكلفة بحراسة الشواطىء ، وتتمتع بتنظيم خاص يتلاءم مع قطاعاتها الخاصة . واستطاع الرجال بفضل هذا النظام معرفة قطاعاتهم

الواقعة تحت حراستهم ، وأمكن استخدام العتاد المحدود الموجود على الجبهة الغربية بأكبر قسط من الاقتصاد . بيد أن هذا النظام كان يحتوي كأي نظام آخر عدداً من نقاط الضعف . اذ كان الضباط والجنود المسنون غالباً يملكون أسلحة تقل جودتها عن جودة اسلحة الفرق المقاتلة . وكان سلاحها فرنسياً وبولونياً ويوغوسلافياً الأمر الذي يجبرها على استخدام ذخائر متباينة ، وهذا ما جعل عملية امدادها أصعب من إمداد قوات مسلحة بأسلحة متجانسة موحّدة العيار . وكانت جميع الفرق تقريباً تضم فوجَيْ مشاه فقط[1] ، مع بطاريتي مدفعية ميدان يبلغ مجموع مدافعها ٢٤ مدفعاً ، وبطارية متوسطة قوامها ١٢ مدفعاً . وكانت المدافع المقطورة بالرواحل عاجزة عن القيام بتحرك سريع .

« واستخدمنا بالاضافة إلى فرق الدفاع الساحلي عدداً من المدافع الساحلية وكانت المدافع البرية أو البحرية مرتبطة بالقيادة البحرية العليا ـ المختلفة باستمرار مع القيادة العليا للجيش » .

وظهر تعقيد آخر في نهاية السنة عندما ظهر روميل على المسرح . وكان قد مارس خلال فترة قصيرة من الزمن قيادة قطعات الاحتلال الألمانية في شمالي ايطاليا . ثم كلفه هتلر بتفتيش وتحسين الدفاعات الساحلية من الدانيمارك حتى الحدود الاسبانية . فبدأ بالدانيمارك ، ثم اهتم بعد ذلك بفرنسا . وبالرغم من عمله داخل المنطقة الخاضعة لفون رونشتدت ، فقد كان يتلقى تعليمات مباشرة من هتلر دون أن يكون هناك ما يحدد علاقاته مع فون رونشتدت . ونجم عن ذلك اختلافات تزايدت حدتها نظراً لتباين أفكارهما بشكل كامل . .

ويصف بلومنتريت الوضع بقوله : « ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبحت الجيوش لا تعرف من يقودها : فون رونشتدت أم روميل ؟ والحقيقة أن روميل أصر على أن تطبق القوات الالمانية في كل مكان نظرياته الخاصة بالدفاع الساحلي . ولحل

---

[1] (١) تضم الفرق عادة ثلاثة أفواج أو اكثر (المعربان) .

الخلاف اقترح فون رونشتدت تكليف روميل بقيادة اكثر القطاعات أهمية ، وهو القطاع الواقع على طول بحر المانش ، بين الحدود الالمانية ـ الهولندية ونهر اللوار . على أن تُلقى على عاتق الجنرال بلاسكفيتز مهمة قيادة الجبهة الجنوبية الواقعة بين اللوار وجبال الألب . وأن يكون كلا القائدين تحت امرة فون رونشتدت . وكان روميل يقود مجموعة الجيوش « ب » التي تضم قطعات هولندا ، والجيش الخامس عشر المتمركز من هولندا حتى السين ، والجيش السابع المتمركز من السين إلى اللوار . وكان بلاسكفيتز يقود مجموعة الجيوش « ج » أي الجيش الأول الذي يغطي خليج بسكاي وجبال البيرينيه ، والجيش التاسع عشر الممتد على ساحل البحر الابيض المتوسط » .

ويقول أفراد هيئة أركان روميل أنه كان عليه أن يطرح هذا الاقتراح بنفسه « على اعتباره الوسيلة الوحيدة لوضع أفكاره موضع التنفيذ بسرعة » ومهما يكن من أمر ، فقد تمت الموافقة على هذا الحل بعد قدوم روميل بشهر واحد . وتوضح الموقف إلى حد ما ضمن الحدود التي يسمح بها اختلاف وجهات النظر بين روميل وفون رونشتدت .

وعندما حدثني فون رونشتدت عن روميل قال لي : « كان رجلاً مقداماً . وقائداً مرموقاً في العمليات المحدودة . بيد أنه لا يملك الصفات اللازمة لقيادة عليا » . ولكنه لم يشتك أبداً من ولاء روميل . . « عندما كنت أصدر أمراً ما كان روميل يطيع دون اعتراضات » . ومن المحتمل أن فون رونشتدت كان يراعي بكل صراحة عدم التدخل بما كان يعتبره داخل حقل عمل مرؤوسه وضمن صلاحياته . لذا فقد كان يتردد عن تبديل بعض قرارات روميل عندما لا يجدها ملائمة حتى في الحالات التي يحتمل أن تؤثر فيها هذه القرارات على أوضاعه نفسها » وانني أود الافادة من هذه المناسبة لأؤكد بأنني كلما ازددت معرفة بفون رونشتدت كلما ازداد تقديري له ، انني لم اكوّن رأيي عنه خلال لقائي به فحسب ، بل عبر شهادات عدد من الجنرالات الألمان . ويفسّر قدمه في الرتبة الاحترام الكبير الذي يكنّه له الجميع ، ولكن لا علاقة لهذا القدم بالمحبة العميقة التي يحسها نحوه زملاؤه في الأسر . ولقد وجدت أن لديه حتى خارج المجال العسكري

افكاراً محافظة ولكنها ذكية مفعمة بالحساسية . وبالاضافة إلى طبعه كفرد من النخبة فانه يمتلك كبرياءً بلا عجرفة ، ويتصرف بارستوقراطية كاملة بأفضل معاني هذه الكلمة . وتضيء مظهره المتعفف ابتسامة عذبة ولمسة خفيفة من النكتة . وهو يبرهن غالباً على حضور البديهة . فبينما كنت أرافقه في احد الأيام عبرنا من البوابة المشبكة بالأسلاك الشائكة والمؤدية الى باحة معسكر الاعتقال الداخلية ، وعندما وصلنا إلى باب غرفته الضيقة تنحّيت قليلاً فاتحاً له الطريق فقال لي مبتسماً « كلا ! أرجوك إنك هنا في بيتي ! » .

أين ؟

في عام ١٩٤٤ تأكد الألمان أن قواعد الانزال موجودة في انكلترا ، نظراً لتجمع قوات امريكية كبيرة فيها . وبقي المكان الذي سيتم فيه الإنزال العامل الوحيد المجهول في المسألة كلها .

قال لي بلومنتريت : « وصلنا من انكلترا عدد قليل من المعلومات الجدّية . وكاد هذا الجزء من مصلحة الاستخبارات تابعاً للقيادة العليا للقوات المسلحة(O.K.W) اي انه تابع لهتلر مباشرة ، وكان عبارة عن فرع خاص من فروع مصلحة الأمن(S.D.) ولم يكن بمقدورنا الحصول على اية معلومات غير معلوماتها .

« واعلمتنا الاستخبارات بصورة عامة غير دقيقة عن مناطق تجمع القطعات البريطانية والامريكية في جنوب انكلترا . وبعث عدد من العملاء الألمان المختبئين في انكلترا تقارير بواسطة الراديو عن كل ما يلاحظونه . بيد أن معلوماتهم كانت محدودة . ولم يسمح لنا ضعف طيراننا بالقيام باستطلاعات كافية فوق انكلترا . ومع اقتراب اليوم « ي » لاحظت الطائرات الألمانية خلال طيرانها الليلي تحركات كبيرة تقوم بها قوافل تتجه نحو الشاطىء الجنوبي الغربي ـ وكان بوسع الطائرات ملاحظة ذلك بسهولة نظراً لسير القوافل وأنوارها مضاءة » (من المحتمل ان تكون الطائرات قد لاحظت تحرك قطعات امريكية نظراً لوجود مثل هذه القطعات في جنوب غربي انكلترا) . « والتقطنا

ايضاً برقية مرسلة من الأسطول البريطاني جعلتنا نعتقد ان بحر المانش سيغدو مسرح عمليات هامة .

« وجاءتنا دلالة أخرى من عودة نشاط المقاومة في فرنسا وتزايده . وتم الاستيلاء على مئات أجهزة اللاسلكي ، وعُرفت الشيفرة الخاصة بالاتصال مع بريطانيا . وكانت البرقيات مغطاة ، ولكن معناها العام واضح للعيان .

« ولم تسمح المعلومات المستقاة رغم كل هذا بتحديد مكان الانـزال بدقة . وكان علينا ان نكتفي بالنسبة لهذه النقطة الهامة باستنتاجاتنا » .

وأضاف بلومنتريت :

« اكدت لنا هيئة أركان البحرية دائماً أن الحلفاء سينزلون قرب ميناء كبير . وكانت هذه الهيئة تعتقد أن الهافر تشكل منطقة صالحة لا بسبب منشآت مينائها فحسب ، بل لأنها مأوى غواصاتنا الصغيرة أيضاً . وكان رأينا نحن الجنود مختلفاً عن ذلك . اذ لم نكن نعتقد ان الحلفاء سيهاجمون بشكل مباشر موقعاً محصناً الى هذا الحد . كما أننا كنا نعرف بأن تمرينات الانزال المطبقة في جنوب انكلترا تمت على شاطىء منبسط مكشوف .

« وكان استنتاجنا يتلخص في أن الحلفاء سيحجمون ، في البداية على الاقل ، عن مهاجمة أي مرفأ . ولم نكن نعتقد مطلقاً بوجود مرافىء اصطناعية « مولبيري » . وبقي هذا الوجود سراً مغلقاً . اذ كنا نعتقد أنكم ستضعون مراكبكم الى جانب بعضها لتشكيل جسر يساعد على انزال المعدات » .

واعترف فون رونشتدت بكل صراحة قائلا : « لم أكن انتظر إنزالاً بين كان وشيربورغ ، بل في المنطقة التي يضيق فيها بحر المانش الى أبعد حد : أي بين الهافر وكاليه ، وعلى أحد شاطئيّ الخليج الواقع عند مصب نهر السوم . ولقد فكرت أن الانزال الأول سيكون بين تريبور والهافر ، ثم يليه انزال آخر بين السوم وكاليه » .

وسألت فون رونشتدت عن أسباب استنتاجه فأجاب : « كنا نعتقد أن قطاع السوم ـ كاليه يقدم لكم افضل الامكانات الاستراتيجية نظراً لقربه من ألمانيا . وكان هذا هو الطريق الأقرب للوصول الى نهر الرين . ودلتني حساباتي على انه كان بوسعكم في هذه الحالة بلوغ الرين بعد ٤ أيام » .

وكانت محاكمته مبنية على أفكار مسبقة تعتبر أن الحلفاء سيختارون الخط النظري الأمثل ، دون الاهتمام بالصعوبات العملية . ولقد لفتّ انتباهه الى ان هذه المزايا نفسها كانت تدفعنا الى الاعتقاد بأن من المحتمل ان يكون الدفاع عن هذا القطاع قوياً ، الأمر الذي يجعلنا نتجنبه ونبتعد عنه . واعترف فون رونشتدت بصحة هذه الملاحظة ، بيد أنه أجاب : « لقد بالغتم بتقدير قوة دفاعنا بشكل مضحك ، اذ لم يكن « جدار الأطلسي » سوى وهم ضخّمته الدعاية لخداع الألمان والحلفاء معاً . وكنت أشعر بغضب جارف عندما أسمع الجعجعة حول هذه الدفاعات المنيعة التي لا يمكن الاستيلاء عليها . وكان تعبير « جدار » بحد ذاته سخفا . ولم يزر هتلر هذا الجدار ابداً . ولم يحضر الى شواطىء بحر المانش الا في عام ١٩٤٠ عندما زار رأس غرين ـ في » فقاطعته بقولي : « ثم نظر الى الأفق باتجاه الشاطىء البريطاني مثل نابليون أليس كذلك ؟ » فهز رونشتدت رأسه موافقا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة .

واضاف فون رونشتدت أنه كان هناك سبب آخر يدفعه الى انتظار الانزال في قطاع السوم ـ كاليه ، وهو اعتقاده بأن الحلفاء سيسعون الى تدمير مواقع الصواريخ ف ١ وف ٢ بأكبر سرعة ممكنة بغية انقاذ لندن من الدمار . وكانت الدعاية قد ضخمت له فاعلية هذه الصواريخ التي بنى عليها هتلر آمالاً واسعة ، لدرجة جعلته يعتبرها عناصر أساسية في الحسابات الاستراتيجية .

ويرى بلومنتريت أن هتلر توقع مكان نزول الحلفاء « في نهاية آذار عممت القيادة العليا للقوات المسلحة(.O.K.W) تعليماتها . وتبرهن هذه التعليمات بوضوح على ان هتلر كان ينتظر غزواً في النورماندي . وتلقينا اعتباراً من هذه اللحظة عدة انذارات

متابعة تبدأ بالكلمات التالية : « يخشى الفوهرر أن . . . » وأنني لأجهل ما الذي دفعه الى التفكير بهذا الشكل . وعلى كل حال فقد أرسلت الفرقة ٩١ المحمولة جواً وعدداً من سرايا الدبابات إلى النورماندي ، وتمركزت هناك كقوة احتياطية وراء شبه جزيرة كوتنتان بالقرب من كارنتان » . ولقد أعلمني عدد من أفراد هيئة أركان روميل أنه كان يفكر بشكل مخالف لفون روندشتدت وينتظر انزالاً في النورماندي . وعندما سألت فون روندشتدت وبلومنتريت عن هذا الأمر أكد القائد ان ما قاله أفراد هيئة الأركان ، وقالا بأن روميل وصل إلى هذا الاستنتاج مع حلول الربيع ، بيد أنهما كانا يجهلان إلى أي حد تأثرت أفكار روميل بتحذيرات هتلر المتكررة « راقبوا النورماندي » .

ويبدو أن « إلهام » هتلر الذي لم يكن يؤخذ غالباً مأخذ الجد قد اقترب من الحقيقة أكثر من محاكمات أوعى القادة العسكريين المحترفين وأكثرهم علماً ، اذ كان هؤلاء القادة خاضعين بشدة لتأثير النظريات الاستراتيجية التقليدية ، كما كانوا على قناعة تامة بأن عمليات الحلفاء ستتم وفق القواعد المعهودة ، ويرفضون النظر بعين الاعتبار لعامل « المفاجأة » .

وسألت فون روندشتدت عن هذه النقطة فقدم لي معلومات ذات دلالة هامة عندما قال : « لو نزل الحلفاء قرب اللوار لنجحوا بسرعة في إقامة رأس جسر قوي ، والتوغل بعد ذلك داخل فرنسا . ولم أكن لأستطيع في هذه الحالة تحريك فرقة واحدة لايقافهم » . ودعم بلومنتريت هذه الفكرة بقوله : « لم يكن الانزال ليلاقي أية مقاومة جادة في هذا المكان ، اذ كانت ثلاث فرق فقط تحمي ٥٠٠ كيلومتر جنوبي نهر اللوار ، وكانت فرقتان منهما تضمان متطوعين جدد لم يكتمل تدريبهم بعد . وكان على أي قائد سرية أن يركب دراجته العادية ويقطع عدة كيلومترات طوال النهار كيما يزور كل عناصر سريته . وكنا نعتبر أن هذا الجزء من الشاطىء غير معرض لخطر الانزال ، لأننا كنا نعرف بأن قيادة الحلفاء العليا تعلق أهمية بالغة على دعم الطيران ، ولا يمكن أن تفكر بالعمل في منطقة اللوار نظراً لأنها بعيدة عن انكلترا وقواعد طيرانها أكثر مما ينبغي » .

ووفق هذه المحاكمة فكرت القيادة الألمانية العليا ـ باستثناء روميل ـ ان الانزال المحتمل سيكون عند أضيق مكان في بحر المانش ، أي في المكان الذي يستطيع طيران الحلفاء ان يعمل فيه وهو قريب من قواعده . وقال فون رونشتدت أيضاً : « اعتقدنا أن كل محاولة في النورماندي ستقتصر على احتلال شيربورغ . لذا كان الانزال الامريكي قرب شيربورغ متوقعاً اكثر من الانزال البريطاني قرب كان » .

الترتيب الدفاعي الألماني

في حزيران ١٩٤٤ كانت قوات الألمان في الغرب تضم ٥٩ فرقة ـ ٨ فرق منها في هولندا وبلجيكا ، وكان اكثر من نصف الفرق الـ ٥٩ مؤلفاً من قطعات الدفاع الساحلي أو الفرق الجديدة التي يجري تدريبها . وكان عدد الفرق الميدانية ٢٧ فرقة منها ١٠ فرق مدرعة . وكانت ثلاث فرق تتمركز في الجنوب ، وتعسكر احداها قرب أنغرس .

وكان عدد الفرق الألمانية المنتشرة على طول ٣٠٠ كيلومتر من شواطىء النورماندي ست فرق ـ منها أربع فرق دفاع ساحلي ـ وكانت في شبه جزيرة كوتنتان ثلاث فرق ، كما كانت فرقتان المانيتان تدافعان عن شريط ساحلي طوله ٦٥ كيلومتراً بين الأورن و الفير ، بالاضافة الى فرقة تعمل بين الأورن والسين . وذكر بلومنتريت أن « تعبير « حماية الشاطىء » يتلاءم مع هذا الترتيب الدفاعي أكثر من تعبير « الدفاع عن الشاطىء ! » ولم نكن ننتظر أي إنزال غرب شيربورغ وهذا ما جعلنا نضع على هذا القطاع قوات قليلة : حتى أننا وضعنا عليه وحدات روسية . »

وكانت فرقة البانزر الواحدة والعشرون المعدّة لشن الهجوم المعاكس هي الفرقة المدرعة الوحيدة في هذا القطاع المتقدم . ويقول بلومنتريت « أن مناقشات طويلة لا تنتهي دارت حول موضوع هذه الفرقة ، اذ كان الفيلد مارشال فون رونشتدت يود وضعها جنوب سان ـ لو خلف شبه جزيرة كوتنتان ، ولكن روميل وضعها في مكان أقرب الى الشاطىء وعلى الجناح الآخر قرب كان . ونجم عن قربها الشديد من البحر انها غدت غير قادرة على العمل كاحتياط مفيد لمجمل نقاط القطاع . »

ومع هذا فقد كان وجود الفرقة المذكورة على مقربة من كان مفيداً جداً . ولولا هذه الفرقة لاستطاع البريطانيون الاستيلاء على مدينة كان منذ اليوم الأول . وطالب روميل دون جدوى بفرقة مدرعة ثانية بغية وضعها قرب مصب نهر الفير ، أي في المنطقة التي نزل بها الامريكيون .

ولنر الآن الجدل الكبير الذي أساء إلى الترتيبات الالمانية المعدّة لإلقاء الغزاة في البحر . لقد رأى فون رونشتدت أن قلة عدد القوات المتوافرة وطول الخط الساحلي يجعلان من المستحيل منع أي انزال . لذا كان اعتماده مرتكزاً على هجوم مضاد قوي يقلب الحلفاء بعد نزولهم الى القارة وقبل ان يتشبثوا بالأرض بشكل قوي . وكان روميل يرى على العكس بأن فرصة الخلاص الوحيدة تتمثل في التغلب على المهاجمين عند الشاطىء وقبل أن يضعوا قدمهم على الشاطىء نفسه . وكان يقول لهيئة اركانه باستمرار : « ستكون الساعات الأربع والعشرون الأولى حاسمة » ولقد شرح لي بلومنتريت أفكار روميل بكل أمانة رغم عدم تأييده لها « كان روميل قد لاحظ في أفريقيا بأن الدبابات توضع غالباً في مكان أبعد من أن يسمح لها بشن هجوم معاكس في الوقت الملائم . وكان يرى بأن وضع القوات الاحتياطية المدرعة في العمق كما يريد القائد العام سيساعد العدو على إعاقة حركتها بواسطة الطيران » . وعرفت من عناصر هيئة اركان روميل انه كان يستعيد دائماً ذكريات الجمود الطويل الذي فرضه في أفريقيا طيران أضعف من طيران الحلفاء في عام ١٩٤٤ .

ولم يحصل فون رونشتدت او روميل على مبتغاه ، ولم يستطع أي واحد منهما التصرف كما يشاء .

ويقول فون رونشتدت « رغبت قبل غزو الحلفاء اخلاء منطقة جنوب فرنسا كلها حتى نهر اللوار ، واستخدام القوات المتوافرة من جراء ذلك للرد على ضربات الحلفاء ، الأمر الذي كان بوسعه منحي ١٠ أو ١٢ فرقة مشاة ، و٣ أو ٤ فرق مدرعة صالحة لشن حرب حركة . ولكن هتلر رفض سماع هذه الفكرة التي كانت أملي الوحيد لتشكيل قوات

احتياطية . وكانت جميع أحاديث الصحف عن « جيش فون رونشتدت المركزي » عبارة عن ثرثرة جوفاء : اذ لم يكن هذا الجيش موجوداً . والأسوأ من ذلك أنني لم أحصل على حرية استخدام الفرق المدرعة القليلة الموجودة في فرنسا . ولم يكن بوسعي تحريك أية فرقة منها دون موافقة هتلر »

وتأخر تنفيذ مشروع روميل أيضاً بسبب عدد كبير من العوائق التي لم تكن ناجمة عن تصرفات فون رونشتدت بل عن نقص القوات الاحتياطية . ولقد سمح له فون رونشتدت بأن يضع الفرق على هواه . وقال لي بهذا الصدد : « لم أكن موافقاً على مواقعها القريبة من الشاطىء ، بيد أنه لم يكن بوسعي معارضة أوامر روميل وإلغائها في سبيل مسائل تفصيلية . وتركت لهتلر وحده خطيئة التدخل بشؤون الآخرين » . ولم يكن لدى روميل سوى ثلاث فرق مدرعة لمسك الجبهة من اللوار الى الشلدت ـ بمعدل فرقة مدرعة لكل قطاع من القطاعات الثلاثة : الشرقي والأوسط والغربي ٨

وكان عدد دبابات هذه الفرق أقل من عدد دبابات الفرق البريطانية او الأمريكية . وكانت بمجموعها قوة ضئيلة لا أهمية لها أمام هجوم قوي .

وأدى إهمال تحسين الدفاعات الساحلية خلال السنوات المنصرمة الى اقلال احتمالات النجاح . ولقد علمت من عناصر هيئة اركان روميل أنه بذل جهوداً يائسة خلال ربيع ١٩٤٤ للاسراع ببناء الموانع المغمورة تحت الماء والتحصينات الاسمنتية ، بالاضافة الى زرع حقول الالغام على طول شاطىء النورماندي الذي اعتقد ـ محقاً ـ بأنه سيكون قطاع الانزال . ونذكر على سبيل المثال أن الألمان زرعوا على طول الشواطىء في شمال فرنسا خلال السنوات التي سبقت قدوم روميل حوالي مليوني لغم ، ولقد تضاعف هذا الرقم ثلاث مرات خلال الاسابيع القليلة التي سبقت اليوم « ي » دون أن يصل الى الرقم المطلوب وهو خمسون مليون لغم . ومن حسن حظ المهاجمين ان عملية زرع الالغام لم تكتمل في الوقت المناسب .

وذكر لي فون رونشتدت ما يلي : « كنا نشعر بنقص العمال والمواد وكل ما يلزمنا

لتطوير دفاعاتنا . وكان معظم رجال تنظيم « تودت » الذي كنا نملكه في فرنسا قد أرسل الى المانيا للمشاركة في رفع انقاض المدن المعرضة للقصف الجوي . وكانت فرق الدفاع الساحلي مبعثرة اكثر مما ينبغي - كانت الفرقة تغطي عادة اكثر من ٦٠ كيلو متراً - بشكل يجعلها عاجزة عن القيام بأعمال التحصين الضرورية . ولم يكن لدينا بالاضافة الى ذلك المواد المطلوبة نظراً لان طيران الحلفاء شلّ عمل المصانع كما شل نقل البضائع » .

ولكن هذا كله لا يفسر الاهمال السابق في عامي ١٩٤٢ و١٩٤٣ الذي اشتكى منه روميل . وقد يمكننا تفسير هذا الاهمال في ان فون رونشتدت الذي غدا استاذ تطبيق حرب الحركة الهجومية كان قليل الايمان بالدفاعات الثابتة ، ولم يدفع باتجاه الاسراع ببنائها . وهذه في الحقيقة وجهة نظر هيئة اركان روميل ، وهي وجهة نظر يدعمها اسلوب الهجمات المضادة التي طالما استخدمها فون رونشتدت . وانني لاعتبر تصرف فون رونشتدت طبيعياً ، خاصة وان صاحبه نجح عن طريق المناورة وتمكن من اخراج الفرنسيين من خط ماجينو .

ووقعت التدابير المتخذة لمجابهة غزو الحلفاء بين فكرتين متباينتين نظراً لاختلاف وجهتي نظر فون رونشتدت وروميل . وزادت خطورة الامر برفض هتلر لفكرة تقديم اية قوات احتياطية . ولقد ساهمت هذه الاوضاع في مساعدة الحلفاء على التغلغل في فرنسا ، وكان اثرها الضار اكبر من اثر المفاجأة نفسها .

الانزال

يذكر بلومنتريت « كان اقتراب وقوع الانزال يبدو واضحاً للعيان من جراء عدة مظاهر . وغدت الفوضى المتزايدة في فرنسا تهديداً جدياً لنا . كما ان الكمائن والاغارات الحقت بنا خسائر لا تنكر . وكانت قطارات القوات والامدادات المتجهة نحو الجبهة تخرج عن السكك غالباً بفعل رجال المقاومة . بالاضافة الى ان عمليات القصف الجوي التي شنها الحلفاء بفاعلية كبيرة كانت تدمر بشكل منهجي السكك الحديدية في فرنسا والمانيا الغربية . وكانت الجسور القائمة على السوم واللوار والسين مستهدفة بصورة خاصة .

وكانت كل هذه الدلائل تشير الى اقتراب الغزو » .

واكد فون رونشتدت : « لم يكن جهلنا بالتاريخ الصحيح للانزال يتمتع باهمية كبيرة ، لاننا كنا ننتظره كل يوم منذ آذار » وسألت بلومنتريت عما اذا كانت العاصفة التي اجلت العمليات مدة ٢٤ ساعة وكادت ان تسبب الغاءها قد اعطت المدافعين في اللحظة الحرجة احساساً كاذباً بالامن فأجابني بقوله : « كلا ، فلقد كنا نعرف بان الحلفاء يملكون مراكب قادرة على مواجهة بحر هائج ، لذا بقينا دائماً في وضع التأهب والاستعداد .

« وجاءت المفاجأة الحقيقية من الساعة المختارة لبدء العمليات - لان هيئة اركان بحريتنا اكدت لنا بأن الحلفاء سينزلون الى اليابسة عندما يكون المد عالياً . لذا فان عملية الانزال المنفذة في ساعة المد المنخفض سمحت للقطعات الاولى بالعمل وراء الصخور في مأمن من نيراننا .

« ولم تثر ضخامة قواتكم استغرابنا - بل اننا افترضنا انها اكبر عدداً بسبب المعلومات التي كانت تبالغ بعدد الفرق الامريكية المعسكرة في انكلترا . وكان لهذا الخطأ تأثيرات خطيرة ، لانه دفعنا الى انتظار انزال آخر بالقرب من كاليه » .

وحدثني بلومنتريت عن تاريخ اليوم « ي » كما رآه من مقر القيادة الالمانية العليا الموجودة في سان - جيرمان غربي باريس . (كان مقر قيادة روميل في روش - غويون الواقعة على منتصف الطريق بين روان وباريس . ومن غرائب الصدف انه كان غائباً عن مقر قيادته في يوم « ي » تماماً كما حصل في العلمين . وكان غيابه هذه المرة ناجماً عن ذهابه لمقابلة هتلر) .

« في حوالي الساعة العاشرة من يوم ٥ حزيران التقطنا برقيات متبادلة بين انكترا والمقاومة في فرنسا ، واستنتجنا منها ان الغزو قد بدأ . واعطى جيشنا الخامس عشر المتمركز شرقي نهر السين اشارة الانذار فوراً ، ولكن جيش النورماندي السابع انتظر لسبب نجهله حتى الساعة الرابعة صباحاً قبل ان يعطي هذه الاشارة[1] . وكان هذا

---

(١) تقول وثائق الجيش السابع ان إشارة الانذار أعطيت في الساعة الواحدة والنصف صباحاً .

التأخير كارثة حقيقية . وبعد منتصف الليل بفترة قليلة جاءتنا الانباء عن إبرار (انزال) المظليين الحلفاء .

« وكانت مسألة الزمن تحتل اهمية حيوية . وكانت اقرب القوات الاحتياطية هي فيلق البانزر س . س . المعسكر شمال غرب باريس . ولم نكن نستطيع اعطاءه اي امر بالحركة دون إذن هيئة اركان هتلر . وفي الساعة الرابعة صباحاً تحدث فون رونشتدت مع هيئة الاركان ، وطلب منها هذا الفيلق لدعم عمل روميل . ولكن يودل تحدث باسم هتلر ورفض الطلب اذ كان يرى بان هذا الانزال هو مجرد خدعة ، ويعتقد بان الحلفاء سيقومون بانزال آخر شرقي نهر السين . وانفجرت « معركة » المناقشات طوال اليوم حتى الساعة الرابعة من بعد الظهيرة . واخيراً انتصرت وجهة نظرنا .

« وخلق التحرك تعقيدات جديدة . إذ كان فيلق المدفعية قد بقي على ضفة السين الشرقية ودمر طيران الحلفاء جسور هذا النهر . ولقد رأيت مع الفيلد مارشال عدداً من هذه الجسور وهو ينهار . وكان على المدفعية ان تقوم بحركة استدارة طويلة عبر باريس حتى تتمكن من عبور السين . وتعرضت قوافلها لغارات جوية عرقلت تقدمها وزادت تأخيرها . وهكذا ضاع يومان قبل ان تغدو هذه القوات الاحتياطية جاهزة للبدء بالعمل » .

واستطاع الحلفاء في هذه الفترة التشبث بالشاطىء . وضاعت فرصة شن هجوم معاكس مباشر . ووُزعت الفرق المدرعة في المعركة لايقاف تقدم المهاجمين بدلاً من استخدامها مجتمعة لالقائهم في البحر .

وسألت فون رونشتدت هل داعبه الامل بايقاف الغزو بعد وقوع الانزال ، فاجابني : « كلا ، ان مثل هذا الامل لم يداعبني وخاصة بعد الايام الاولى . إذ شل طيران الحلفاء كل حركة نهارية ، وجعل الحركة صعبة حتى في الليل . ودمر جسور نهري اللوار والسين ، عازلاً بذلك القطاع كله . لذا وجدنا صعوبة كبيرة في جمع قواتنا الاحتياطية على الجبهة . واضاعت هذه القوات قبل الوصول الى الجبهة زمناً يعادل ثلاثة

او اربعة اضعاف الزمن الذي قدرناه » .

وأضاف فون رونشتدت : « وبالاضافة الى الطيران فقد شكل رمي مدفعية مراكبكم الحربية خطراً جدياً لا يستهان به . ولقد فوجئنا كثيراً بطول مداه وشدة تأثيره » . وقال لي بلومنتريت بان ضباط الجيش الذين تحدثوا معه بعد الحرب كانوا عاجزين عن تصور التأثير الكبير لهذا القصف البحري .

وذكر لي فون رونشتدت وبلومنتريت بأنه كان هناك سبب آخر للتأخير هو انهما امتنعا بعد اسبوعين بانه لن يكون هناك انزال آخر شرقي السين ، بيد ان هيئة اركان هتلر المقتنعة بعكس ذلك رفضت تحريك اية قطعة من القطعات المتمركزة في منطقة كاليه . بالاضافة الى ان هذين القائدين كانا لا يتمتعان بحرية استخدام قواتهما الخاصة كما يبغيان « وعندما يئس فون رونشتدت من تلبية حاجاته طلب من هتلر ان يحضر الى فرنسا لعقد مؤتمر عاجل ، وذهب فون رونشتدت مع روميل لملاقاة الفوهرر في سواسون وحاولا افهامه حقيقة الموقف . وكانت قواتنا متمسكة حتى ذلك الوقت بكل من كان وسان ـ لو وهما مفصلتي الدفاع في النورماندي ، ولكنها لم تمكث فيها بالطبع فترة طويلة . وكان الفيلد مارشالان يعلمان علم اليقين بانهما لن يحصلا من هتلر على الاذن باجراء تراجع ، لذا فقد اتفقا على القيام بالمناورة القادرة على انقاذ الموقف . فاقترحا إخلاء كان ، وترك خط نهر الاورن تحت حراسة المشاة ، وسحب الفرق المدرعة لاعادة تنظيمها . وكانا ينويان استخدامها فيما بعد لشن هجوم معاكس عنيف ضد مجنبة الامريكيين في شبه جزيرة كوتنتان .

« ورفض هتلر السماح بأي تراجع قائلاً : « ستبقون في اماكنكم » ولم يشأ ان يسمح لنا بان نقود حركات وحداتنا كما نبتغي .

« وفهمت مع الفيلد مارشال منذ الاسبوع الثاني اننا عاجزون عن القاء المهاجمين في البحر . ولكن هتلر كان يعتقد حتى ذلك الحين ان هذا الامر ممكن . ولما رفض هتلر الانصياع لمتطلبات الحكمة اضطرت القطعات الى التشبث بخطها الذي اخذ يتهاوى في

كل مكان . ولم تعد لدينا خطة واضحة . واكتفينا بمحاولة اطاعة اوامر هتلر ، والتمسك بخط كان ـ افرانش بأي ثمن » .

وحدثني بلومنتريت عن مآسي الرجال وآلامهم ، وأشار الى ذلك بقوله : « لم يكن جنودنا يحتملون رمايات المدفعية بالشكل الذي احتملته به قواتنا في الحرب الماضية . وكانت المشاة الالمانية بصورة عامة اقل جودة من مشاة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . وكان الجنود العاديون يسمحون لانفسهم بالتعبير عن افكارهم الخاصة ، وعدم اطاعة الاوامر الى حد ما . اذ ان تزايد عدد الرجال داخل الجيش اساء الى مستوى النوعية ، ولم يكن لدينا من الوقت ما يكفي لترسيخ روح الانضباط » .

ونجم عن الاجتماع مع هتلر نقل فون رونشتدت من منصبه فوراً . ذلك لان الفيلد مارشال فون رونشتدت صرّح بكل وضوح بانه لن يتابع القيام بمهام قيادته اذ لم يأخذ حرية العمل الامر الذي دفع هتلر ـ المتضايق مسبقاً من تقرير فون رونشتدت السلبي عن الوضع ـ الى عزله من منصب القائد العام برسالة رقيقة تقول بان الظروف تتطلب اجراء هذا التغيير .

ويرى بلومنتريت ان قرار هتلر كان مدفوعاً بالاضافة الى ذلك بجملة فظة قالها فون رونشتدت الذي لم يكن يختار كلماته بحذر . فلقد حدثه كيتل هاتفياً وسأله عن مجريات الاحداث ، ولما سمع كيتل توقعات فون رونشتدت المتشائمة غمغم قائلاً : اذن ، ما العمل ؟» فأجابه فون رونشتدت بلهجة لاذعة « انهاء الحرب دون شك ! إذ ماذا يمكنكم ان تفعلوا غير ذلك ؟» .

الانهيار بين طرفي الكماشة

كان الفيلد مارشال فون كلوغ بالمصادفة في مقر قيادة هتلر في لحظة نقل فون رونشتدت . إذ كان يقضي اجازة نقاهة منذ تسعة شهور على أثر الجروح التي اصابته في روسيا عندما تعرض لحادث طيران خطير . ونظراً لسوء الحالة على الجبهة الشرقية استدعاه

هتلر من اجازته المرضية في تموز . وكان يود ارساله ليحل محل فون بوخ في قيادة جيوش « الوسط » المتراجعة امام دفع الهجوم الروسي الصيفي . ويقول بلومنتريت ان فون كلوغ كان الى جوار هتلر عندما دخل كيتل ونقل الى هتلر رد فون رونشتدت على الهاتف . عندها قرر هتلر بشكل فوري ارسال فون كلوغ الى الغرب بدلاً من الشرق (وعين في الشرق الجنرال مودل ليحل محل فون بوخ) . وهكذا أخذ القرار بشكل آني ، بيد ان هتلر فكر منذ فترة طويلة بان يسلم فون كلوغ مهمة فون رونشتدت اذا دعت الضرورة لذلك .

ووصف بلومنتريت فون كلوغ بقوله : « كان الفيلد مارشال فون كلوغ جندياً متين البنيان ديناميكياً . ولقد جاء الى مقر قيادتنا في سان ـ جيرمان بتاريخ ٦ تموز ليمارس مهام منصبه الجديد كقائد اعلى في الغرب . وبدا في بداية الامر مرحاً متفائلاً ـ كجميع القادة المعنيين مجدداً . حتى انه كان يرى المستقبل مشرقاً وردياً !

« ومنذ بداية حديثنا معاً انتقدني لانني وافقت على تقرير روميل الذي اشار به الى خطورة الوضع . وقال لي بانه كان علينا ان نعدّل التقرير قبل ارساله. وكان الفيلد مارشال فون رونشتدت لا يزال آنذاك في سان ـ جيرمان ، إذ انه بقي هناك ثلاثة أيام بعد حضور الفيلد مارشال فون كلوغ . وعندما نقلت اليه اقوال فون كلوغ بدا عليه الضيق وقال بحرارة : « إن من الضروري رفع وثيقة هامة كهذه الى القيادة العامة دون تعديلها من قبل النسق القيادة الاعلى » .

« واعتقد الفيلد مارشال في بداية الامر ان لوحة الوضع قد رسمت بلون قاتم لا مبرر له ، ثم ما لبث ان بدّل رأيه بسرعة . ولقد عمل وفق عادته فزار الجبهة دون تأخير . ورأى هوسّير قائد الجيش السابع ، وايبرباخ قائد جيش البانزر الخامس ، وجميع قادة الفيالق بما في ذلك قائدي فيلقي الـ س . س . الاول والثاني . واكد له الجميع الجانب الكارثوي للوضع . وبعد عدة أيام هدأ فون كلوغ وغدا صامتاً جداً . ولم يع هتلر التبدل الذي أصاب لهجة تقاريره .

« وفي يوم ١٧ أصيب روميل بجرح خطير عندما تعرضت سيارته السائرة على

الطريق لهجوم شننه طائرات الحلفاء . فكلف هتلر الفيلد مارشال فون كلوغ بقيادة مجموعة الجيوش « ب » بالاضافة الى مهماته كقائد عام في الغرب » .

وبعد ثلاثة أيام اي بتاريخ ٢٠ تموز وقعت محاولة اغتيال هتلر في مقر قيادته العامة في بروسيا الشرقية . وفشلت قنبلة المتآمرين في تحقيق هدفها . بيد انه كان لها انعكاسات رهيبة على المعركة في الغرب خلال أحرج مراحلها .

« كان الفيلد مارشال فون كلوغ في هذا اليوم موجوداً في الجبهة . ولم استطع اللقاء به الا في المساء . وكان قد أخذ علماً ببرقيتين تقول الأولى أن محاولة الاغتيال قد نجحت ، على حين تؤكد الثانية أن هتلر لا يزال حياً . وأعلمني الفيلد مارشال أن عدداً من الضباط المشتركين بالمؤامرة قد فاتحوه بالأمر منذ أكثر من سنة . وأنه استقبلهم مرتين وأعلمهم بأنه لا يود المشاركة بهذه المسألة بأي شكل من الأشكال . وكان يعرف أن المؤامرة تعد في الخفاء . ولم يكن الفيلد مارشال قد حدثني عنها قبل ذلك ، وكنت أجهل كل شيء حول هذا الموضوع .

« وعندما بدأ رجال الغستابو تحقيقاتهم وأبحاثهم وجدوا مع بعض المتآمرين أوراقاً تحمل اسم الفيلد مارشال فون كلوغ . وحامت الشكوك حوله . ووقع بعد ذلك حادث صغير زاد حدة هذه الشكوك . ذلك أن الفيلد مارشال فون كلوغ فقد كل اتصال مع قيادته واختفى خلال ١٢ ساعة كاملة اثناء معركة أفرانش الحاسمة وقبل هجوم باتون الكاسح خارج النورماندي . ويرجع الأمر الى انه تعرض خلال ذهابه الى الجبهة الى رمي مدفعي عنيف شل حركته ، ودمر مقطورة اللاسلكي المرافقة له وحرمه من كل اتصال . وكان عليه أن يلتجيء خلال عدة ساعات قبل ان يتمكن من ركوب سيارته وقطع المسافة التي تفصله عن مقر قيادته . وانصب علينا خلال ساعات غيابه « قصف » من نوع آخر . فلقد استثار غياب الفيلد مارشال فون كلوغ شكوك هتلر الذي لم يكن ينظر اليه بعين الرضى منذ أن ورد اسمه في وثائق المؤامرة . وأرسل الفوهرر برقية آمرة يقول فيها : « على الفيلد مارشال فون كلوغ ان يترك قطاع معركة افرانش فوراً ، وان يقود معركة

النورماندي من مقر قيادة الجيش البانزر الخامس » وكان هذا المقر موجوداً الى الخلف بالقرب من فاليز .

« وعرفت فيما بعد سبب هذا الأمر : فلقد كان هتلر يخشى أن يذهب الفيلد مارشال الى الجبهة بغية الاتصال مع الحلفاء والتفاوض معهم على التسليم . ولم تكن عودة الفيلد مارشال كافية لتهدئة هتلر . ومنذ ذلك اليوم أصبحت الأوامر التي يبعثها اليه مصاغة بلغة جافة بل ومهينة أحياناً . وكان الفيلد مارشال يخشى التعرض للاعتقال في كل لحظة ، ويعرف تمام المعرفة انه يستحيل عليه اثبات ولائه عن طريق تحقيق انتصار في حقل المعركة .

« وأفقدتنا هذه الصراعات الداخلية الفرص المحدودة المتوافرة لنا لايقاف تقدم الحلفاء . وكان الفيلد مارشال فون كلوغ المشغول بمشاكله الشخصية لا يولي المعركة اهتماماً كافياً . وكانت انظاره تتجه بقلق نحو مقر قيادة هتلر .

« ولم يكن يخشى نتائج المؤامرة لوحده ، بل اخترق الخوف جميع القادة وشل عملهم خلال الاسابيع التالية . ويمكن كتابة سفر كامل عن تأثير مؤامرة ٢٠ تموز في الجنرالات » .

وبعد الخرق الذي حققه الجنرال باتون خارج النورماندي وانهيار الجبهة الغربية ، جاء الفيلد مارشال مودل فجأة في ١٧ آب ليستلم مهامه كقائد عام في الغرب . « وبهذا الشكل عرف الفيلد مارشال فون كلوغ نبأ استبداله وكان وصول الخلف بشكل غير منتظر أمراً مألوفاً في تلك الفترة . وهناك أمثلة عديدة على ذلك : فلقد تم ذلك بالنسبة لقادة الجيشين التاسع عشر والخامس عشر . وكان الفيلد مارشال فون كلوغ في روش - غويون في مقر قيادة مجموعة البيوسن « ب » . ولقد بقي فيها ٢٤ ساعة ليعطي الفيلد مارشال مودل فكرة عن الوضع .

« ذهبت الى مقر قيادته لأودعه . وعندما دخلت غرفته وجدته وحيداً يجلس قرب

مائدة نشر فوقها خارطة ، وقد وضع اصبعه على نقطة « أفرانش » حيث استطاع باتون تحقيق خرقه . وما أن رآني حتى قال لي : « هنا فقدت سمعتي كجندي » . وحاولت الترويح عنه وتخفيف همومه دون جدوى . وبدأ يذرع الغرفة طولاً وعرضاً وقد سحقه الأسى . وأطلعني على رسالة الفوهرر التي حملها الفيلد مارشال فون مودل . ورأيت ان الفوهرر كتب له بتعابير مؤدبة نسبياً بأن المعركة قد سببت له تعباً كبيراً جداً ، وأن التبديل غدا ضرورياً . وكانت الجملة الاخيرة تحوي ملاحظة تثير القلق : « يُرجى من الفيلد مارشال فون كلوغ ان يحدد مقر اقامته الجديد في ألمانيا » وقال لي الفيلد مارشال : « كتبت لهتلر رسالة تشرح الوضع العسكري وأموراً اخرى بكل وضوح » ، ولكنه لم يطلعني على هذه الرسالة » . [1] .

« وسافر الفيلد مارشال فون كلوغ في اليوم التالي بغية العودة الىٰ بلده . وفي مساء اليوم الذي تلا سفره تلقيت هاتفاً من ميتز يقول بأنه توفى على أثر أزمة قلبية . ثم حدد التقرير الطبي بعد يومين أن الموت نجم عن نزيف دماغي . واعلمتنا القيادة أنه ستجري له مراسم دفن وطنية ، وأن الفيلد مارشال فون رونشتدت سيمثل الفوهرر في هذه المراسم ويضع اكليلاً ويلقي خطبة التأبين . وفجأة أُلغيت كل هذه الترتيبات ، وعلمت بأن التحليل الطبي أثبت بأن الفيلد مارشال فون كلوغ مات منتحراً بالسم . وكان الفيلد مارشال يحمل كغيره من القادة الذين قاتلوا على الجبهة الشرقية كمية من السم بغية

(١) وجد الحلفاء هذه الرسالة في المصنفات الالمانية . ويعترف فون كلوغ فيها بان سبب نقله هو ولا شك استحالة سد الثغرة في افرانش . ويضيف : « عندما ستلقون هذه الرسالة سأكون قد فارقت الحياة . انني لا استطيع احتمال اعتبار انني سببت الهزيمة في الغرب بتدابير سيئة . ولا املك اية وسيلة للدفاع عن نفسي . لذا فانني سأجد في الموت افضل رفاقي . إنني لم اخف يوماً من الموت . وليس للحياة اي معنى بالنسبة لي . واعرف ان اسمي موجود على لائحة مجرمي الحرب الذي يجب تسليمهم للحلفاء : « وتشرح الرسالة بعد ذلك ان هزيمة افرانش كانت محتومة لا يمكن تحاشيها . كما تحتوي انتقادات معتدلة موجهة لهتلر لانه لم يستمع الى تحذيراته وتحذيرات روميل حول خطورة الوضع .
« لم تكن مخاوفنا ناجمة عن التشاؤم بل عن معرفة الحقائق القائمة . ولا اعرف ما اذا كان الفيلد مارشال مودل ـ القائد الممتاز من جميع النواحي ـ قادراً على السيطرة على الوضع . انني لآمل ذلك من كل قلبي . واذا سارت الامور بشكل او بآخر ولم تستطيعوا الحصول على التأثير المأمول من اسلحتكم السرية العزيزة عليكم ، فان عليكم يا سيدي الفوهرر ان تقرروا انهاء الحرب . لقد تحمل الشعب الالماني آلاماً رهيبة لدرجة تجعلني اقول بأنه آن الاوان لوضع حد لهذه الحرب . ولا بد ان يكون هناك وسائل لبلوغ هذا الهدف ، وخاصة منع الرايخ من الوقوع تحت الجزمة البلشفية » وتنتهي الرسالة بتحية أخيرة لعظمة هتلر وتأكيد على اخلاص فون كلوغ حتى بعد مماته .

استعمالها في حالة الوقوع بالأسر .

بيد أن كثيراً من الجنرالات الذين أسرهم الروس لم يستخدموا هذا السم . وكان فون كلوغ قد ابتلع حبة السم وهو في سيارته ، ومات قبل الوصول الى ميتز . وانني أرى بأنه لم ينتحر بسبب عزله بل لقناعته بأن رجال الغستابو سيعتقلونه فور وصوله . »

وهكذا انتحر فون كلوغ بمحض ارادته . وبعد شهر واحد أجبر روميل على الانتحار وهو يقضي فترة النقاهة . فلقد بعث هتلر اليه جنرالين طلبا منه مواجهة قرار هتلر : الانتحار أو التعرض للمحاكمة مع التأكيد على أن نتيجة المحاكمة ستكون الموت المهين نظراً لاشتراكه في المؤامرة بدور فعّال . وكان روميل قد تأكد قبل فون كلوغ بأن الوضع في الغرب غدا يائساً . ودفعه هذا التأكيد الى الثورة على الفوهرر . وعلمت من عناصر هيئة أركانه أنه كان قليل الثقة بالمستقبل حتى قبل وقوع الانزال ، كما علمت أن انتقاداته حول نقص الاحساس بالحقائق لدى هتلر كانت تتزايد باستمرار .

وعندما خلق الحلفاء رأس جسرهم في النورماندي قال روميل لضباطه : « لقد انتهى كل شيء » ومن المفضل انهاء الحرب الآن والتحول الى دومينيون بريطاني بدلاً من متابعة صراع يائس كهذا الصراع » . وكان روميل يعتبر هتلر عائقاً رئيساً في وجه السلام ، لذا كان يجاهر برأيه حول ضرورة التخلص منه والاتصال بعد ذلك مع الحلفاء . انه حقاً لتغير غريب في موقف القائد المفضّل عند هتلر! ولقد دفع روميل حياته ثمن هذا التغير الذي جاء متأخراً الى درجة تجعله عاجزاً عن المساهمة في انقاذ المانيا .

وحدثني بلومنتريت عن الفوضى الكاملة التي أعقبت خرق باتون خارج النورماندي . ثم صرح لي تصريحاً هاماً عندما قال : « اعتقد هتلر وهيئة أركان القيادة العليا للقوات المسلحة (O.K.W) ان من الأفضل تأخير الانسحاب أطول مدة ممكنة ، على اعتبار ان بوسعهم اجراءه فيما بعد اذا لزم الأمر . وكانوا يعتمدون على تقدم البريطانيين البطيء الحذر وعلى طيش الامريكيين . بيد أن بيتان الذي كان يعرف الفيلد مارشال فون رونشتدت منذ أمد بعيد حذّره من خطر تجاهل اهمية سرعة سير القطعات

الامريكية بعد ان تكتسب الخبرة . وكان بيتان على حق اذ تجاوز تقدم باتون خطوط الانسحاب التي اعتقدت القيادة العليا للقوات المسلحة (O.K.W) ان بوسعها استخدامها ، وتم هذا التجاوز حتى قبل أن تستطيع القوات الالمانية احتلال هذه الخطوط .

والآن ، وبعد أن تابعنا خرق الحلفاء كما كانت القيادة الالمانية العليا تراه فان بوسعنا اكمال اللوحة برأي قادة القطعات الكبيرة .

ولقد حصلت على وصف حي من قبل الجنرال الفيلدت قائد الفيلق الثامن الذي كان يغطي القطاع الممتد على قاعدة شبه جزيرة كوتنتان . وكان الفيلدت قد استلم منصبه عند بداية الهجوم النهائي . وكان يقود قبل ذلك الفرقة ٤٧ العاملة في قطاع كاليه -بولون « في ٢٨ تموز ، اذا لم تخني الذاكرة ، تلقيت امراً بالذهاب فوراً الى مقر قيادة الفيلد مارشال فون كلوغ . وعلمت هناك انني سأحل محل الجنرال فون شولتيتز كقائد للفيلق الثامن. وقال لي الفيلد مارشال، دون أن يشرح الاسباب، بأنه لا يوافق على الجهاز الدفاعي الذي وضعه فون شولتيتز . واعلمني بأن الفيلق يضم بقايا سبع فرق ، ثم أضاف بان على فرقة البانزر ١١٦ الموضوعة تحت قيادتي أن تشن هجوماً معاكساً باتجاه الغرب لتخفيف حدة ضغط العدو . وذهبت في اليوم التالي الى لومان السيارة ، ثم تابعت طريقي حتى مقر قيادة الجيش السابع الواقعة على بعد ١٠ او ١٥ كيلومتراً من أفرانش. وجرى اصطحابي الى مقر قيادتي التي لم أعد أذكر مكانها بالضبط . وكان هذا المقر في مكان مشجر بعيداً عن أية قرية . وكانت الفوضى سائدة ، وطيران العدو يحلق بلا انقطاع فوق قطاعي الذي تحولت فيه خلال اليوم التالي . ووجدت القطعات منهكة جداً ، وكان عدد بعض الفرق قد تناقص حتى ٣٠٠ رجل [1] ، كما تناقصت المدفعية الى حد بعيد .

« وكان أول أوامري كما يلي : على جميع القطعات المتمركز جنوب نهر السي ، وهو

---

(١) تضم الفرقة عادة من ٨٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ رجل (المعربان) .

نهر قرب أفرانش ، ان تدافع عن الضفة الجنوبية ، وعلى قطعات الشرق ان تبقى في أماكنها بانتظار فرقة البانزر ١١٦ التي ينتظر وصولها في الليلة المقبلة ، ثم الاشتراك معها خلال الهجوم المعاكس . ولكن الفرقة ١١٦ لم تصل لان امراً من النسق الأعلى بدّل مسارها . ودفعها نحو نقطة حرجة أخرى . وفي صبيحة يوم ٣١ أخذت الدبابات الامريكية تندفع باتجاه بريسكي ، الواقعة على نهر السي وعلى مسافة ١٥ كيلومترا شرقي أفرانش . وكاد مقر قيادتي الواقع شمالي بريسكي ان يتعرض للانعزال من جراء هذه الضربة الموجهة الى مجنبتنا . وقضى رجال مقر قيادتي طوال النهار في خط النار يقاتلون ومن حسن الحظ أن الهجمات الامريكية لم تكن عنيفة جداً في هذه المنطقة .

« وتلقيت بعد يومين قوة داعمة تعادل فرقتين شبه كاملتين ، وفرقة البانزر ١١٦ . وجمعت بقايا الفرق السبع الأخرى داخل فرقة واحدة . وأمرت بايقاف كل تسلل جديد بين بريسكي وفير ، وصد الهجوم الامريكي الذي ينتظر اندفاعه من افرانش باتجاه الجنوب الشرقي . وكان مخطط الدفاع يشتمل على شن هجوم معاكس قوي بفيلق مدرع تحت قيادة الجنرال فون فونك . ولاعطاء هذا الهجوم المعاكس قوة أكبر عززت القيادة الفيلق المذكور بجميع دبابات جيش البانزر الخامس بقيادة ايبرباخ » .

ووصف الجنرال الفيلدت الوضع الذي غدا كارثوياً نظراً لأن فشل الهجوم المعاكس المدرع في الوصول الى أفرانش ، جعل قوات الحلفاء تتجاوز جناحه الأيسر وتلتف حوله . فانسحب الفيلدت ببطء نحو الشرق . وتعرض انسحابه لكثير من العرقلة الناجمة عن انسحاب المدرعات التي كانت تتجاوز قطعاته وتنسحب من خلالها خالقة بذلك الاضطراب والفوضى . ومن حسن حظه أن الضغط الامريكي على جبهته ومجنباته لم يكن قوياً جداً لأن جيش باتون الثالث رسم خلال تقدمه دائرة كبيرة « كانت القوات الامريكية التابعة للجيش الاول العامل ضد جبهتي محرومة تماماً من المهارة التكتيكية . ولم تكن تعرف الافادة من الفرص ، وأضاعت اكثر من مرة امكانية عزل فيلقي بأكمله . وجاء الخطر الأكبر من طيران العدو .

« وكنا نتراجع باتجاه نهر الأورن ، وقبل وصولنا الى هذا النهر قصر طول الجبهة بمجملها الى حد بعيد ، وهذا ما جعل فيلقي زائداً عن الحاجة فسُحب مؤقتاً من خطوط القتال . وفي اليوم التالي خرق الكنديون دفاعنا في الجنوب باتجاه فاليز ، وتلقيت أمراً بتشكيل سد فوري يوقفهم ، ولم يكن معي سوى قوات محدودة ، وكانت المواصلات صعبة خطرة . وصبت المدفعية الكندية النار بغزارة على مقر قيادتي طوال النهار ، ولكنها لم تسبب لنا أية خسارة على الرغم من آلاف القذائف التي تساقطت حول منزلنا الصغير . واستطعت خلال ذلك النهار اقامة خط دفاعي مستمر . وكنت استطيع رؤية الدبابات البريطانية وهي تتقدم وراء جناحي الأيمن باتجاه ترون سائرة على طول الضفة الاخرى لنهر ديف ، وقاطعة بذلك خط انسحابنا .

« وتلقيت في اليوم التالي أمراً بمحاولة القيام بخرق باتجاه الشمال الشرقي خلف هذه الدبابات البريطانية . وبدا لي بكل وضوح ان تزايد القوات الامريكية المستمر جعل هذا العمل مستحيلاً . لذا اقترحت على قائد الجيش الجنرال هوسّير ان يضع قوات تحت تصرف الجنرال مندل قائد القوات المظلية ليساعدها على تحطيم الطوق بالقرب من سان ـ لامبرت في الجنوب الشرقي . وكنت أرى أن احتمال نجاح هجوم قوي اكبر من احتمال نجاح عدة هجمات صغيرة. واستطاع الجنرال مندل التملص ، ولكن ما ان وصلت بدوري الى سان ـ لامبرت في صبيحة اليوم التالي حتى وقعت في الطوق . وحاولت القيام بهجوم مستخدماً كل ما عندي من قوات : ٢٠٠ رجل وعدد من الدبابات . وكانت الأمور سائرة بشكل حسن عندما وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الفرقة المدرعة البولونية الأولى . وبعد معركة دامت ساعتين نفذت ذخيرتنا . ثم استسلمت القوات السائرة خلفناوتركتني في موقعي المتقدم مع حفنة من الرجال . فأضطررنا عندئذ للاستسلام . وقدم لي قائد الفرقة البولونية ـ وهو رجل وسيم مهذب ـ آخر سيكارة معه . وكانت فرقته نفسها في وضع صعب وتشعر بأمس الحاجة للماء . وكانت قطعات الطرفين المتحاربين متشابكة متداخلة بشكل غريب » .

واغتنمت الفرصة لأسأل الفيلدت عن رأيه بالجندي الالماني في هذه الحرب بالمقارنة

مع زميله في الحرب السابقة . ولقد اختلفت وجهات نظره غالباً مع وجهات نظر بلومنتريت : « بقيت قيمة المشاة مشابهة لقيمتها في ١٩١٤ - ١٩١٨ ، بيد أن المدفعية غدت أفضل . وتحسنت الاسلحة والتكتيكات الى حد بعيد . ولكن هنالك عوامل أخرى لا بد من أخذها بعين الاعتبار وهي أن معنويات القطعات في السنتين الاخيرتين من الحرب العالمية الاولى تعرضت للتخريب بسبب الأفكار السلمية للاشتراكية . أما هذه المرة ، فان النازية تؤثر بشكل معاكس . فهي تدعم المعنويات .

- ما هو الاختلاف الذي ترونه في روح الانضباط عند الجندي خلال الحربين ؟

- من الصعب الاجابة عن ذلك . ان الاشتراكية - الوطنية (النازية) تحمّس القطعات وهذا ما يسيء الى الانضباط طوراً ويفيده طوراً آخر . والعلاقات بين الضباط والجنود أفضل من علاقات ١٩١٤ - ١٩١٨ ، الأمر الذي سهّل الطاعة . ولقد جاء هذا التحسن في المعاملة من مفهوم الانضباط الجديد الذي تبنته القوات المسلحة الالمانية بناء على خبرات الحرب الماضية ، كما جاء من تأثير الاشتراكية - الوطنية (النازية) التي قللت الفروق بين الضباط والجنود . وبرهن الجندي البسيط على بداهة وتفكير أفضل من بداهة جندي الحرب العالمية الاولى وتفكيره ، وخاصة عندما كان يقاتل وحيداً أو داخل مجموعة صغيرة » وينطبق رأي الفيلدت هنا كل الانطباق على رأي القادة البريطانيين ، ولكنه يتعارض كلياً مع خبرة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ومع الرأي السائد الذي لا يعترف للألماني الفرد بأية قيمة ذاتية خاصة . لقد أيقظت الاشتراكية - الوطنية (النازية) لدى الألمان غريزة الحياة الجماعية ، لذا كان من المُفترض ان يبرهن الجيل الجديد في المعركة على مبادهة أقل من مبادهة الجيل الذي سبقه . وهذا ما دفعني لأن أسأل الفيلدت فيما اذا كان بوسعه أن يفسر لي لماذا لم تجر الأمور بهذا الشكل . فاعترف لي باستغرابه ، ثم أضاف : « قد يكون ذلك ناجماً عن التربية وفق الأساليب الكشفية التي مارسها هؤلاء الجنود عندما كانوا في « منظمات الشبيبة الهتلرية » .

ثم طرحت المسألة نفسها - المقارنة بين الجندي الالماني في الحرب العالمية الاولى

وزميله في الحرب العالمية الثانية ـ من جديد بعد بضعة أيام خلال حديث مع هنريسي وروهر يخت وفون بوشتولشايم . وقال هنريسي ان الجيش الالماني برهن خلال الحرب العالمية الاولى على تدريب أعلى لا على انضباط افضل ، وأيده روهر يخت وفون بوشتولشايم وأردف هنريسي قائلا : « كان التوقف فترة من الزمن بين حملة بولونيا والحملات في الغرب أمراً ضرورياً لزيادة تدريب الجيش ، وخاصة تدريب ضباط الصف . ولقد كنت مطلعاً على الوضع التدريبي بشكل جيد بصفتي رئيساً لفرع التدريب في هيئة الأركان العامة . وكانت المعنويات والحالة الانضباطية في نهاية هذه الحرب افضل من مثيلتها في نهاية الحرب الماضية . ففي ١٩١٦ و١٩١٨ تدهورت معنويات الجنود بشكل متدرج من جراء تسلل الافكار الاشتراكية ، وانتشار الشعار القائل : « انتم تقاتلون من اجل الامبراطور . » اما في هذه الحرب فقد كان الجنود يثقون بهتلر الى درجة جعلتهم يحافظون على ثقتهم الكاملة بالنصر رغم جميع الحقائق المعاكسة » .

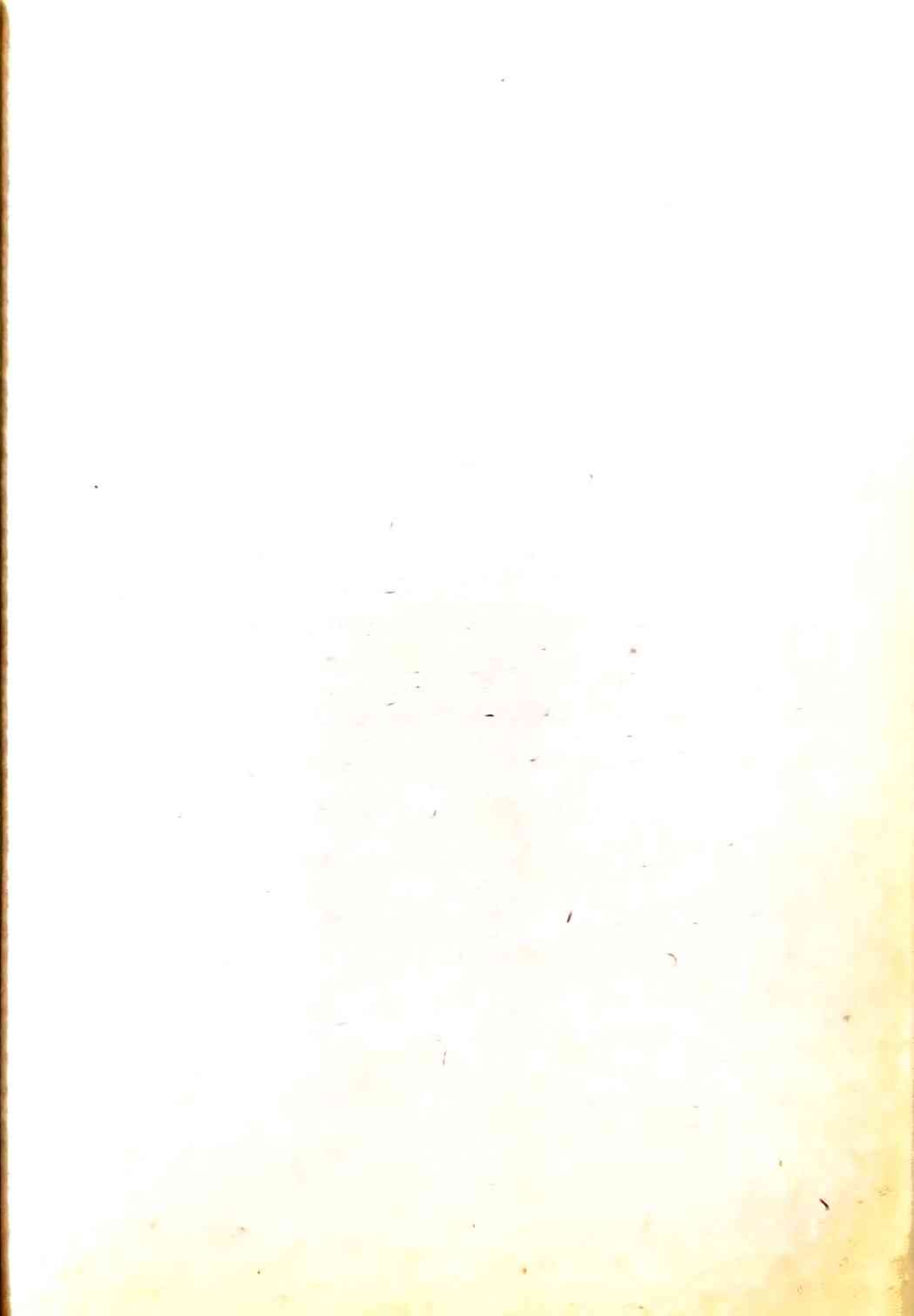
وأيد هنريسي وفون بوشتولشايم رأي روهر يخت الذي تابع قائلاً : « ومع هذا فقد ادى التعب الى اضعاف معنويات الجيش ، كما ان افضل الرجال انتقلوا الى قوات الـ س . س . العاملة على الجبهة الشرقية ، ولم تحصل الفرق على أية راحة ، وأدى التوتر الدائم الى إضعافها باستمرار » .

ورداً على سؤال آخر حول تأثير الاشتراكية ـ الوطنية (النازية) في الجيش قال روهر يخت : « كان لها تأثيرات متعددة : لقد خلقت لنا كثيراً من الصعوبات لانها اضعفت سلطتنا الشخصية ، ولكنها ساعدت على اندلاع وطنية متحمسة اعمق من وطنية ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، وخلقت حماساً حربياً اعنف من حماس الحرب الماضية . ونجم عن ذلك ارتفاع قدرة الجنود على التحمل حتى في فترات النكسات » . واكد هنريسي هذه الاقوال وأشار الى ان الايمان برجل واحد كان أهم من النظام كله : « وسواء رضي البعض ام لم يرضوا ، فان ثقة الجنود اللامتناهية لهتلر كانت تسود كل شيء » .

كيف كان القادة الالمان يفكرون بخصومهم الغربيين ؟ لقد اختلفت آراؤهم

وتباينت . بيد أنني نجحت في تكوين فكرة حول هذا الموضوع بعد محادثاتي معهم . وعندما تحدث فون رونشتدت عن قادة الحلفاء قال : « ان مونتغمري وباتون افضل قائدين قابلتهما . فلقد كان الفيلد مارشال مونتغمري منهجياً الى حد بعيد . . . ، وهذا شيء ممتاز اذا ما امتلك القائد القوة والوقت اللازمين » . وقال بلومنتريت النحو نفسه . وأبدى تقديره للنجاح السريع الذي حققه هجوم باتون ، ثم أضاف : « إن الفيلد مارشال مونتغمري هو القائد الوحيد الذي لم يتعرض لاية هزيمة . فلقد كان يتقدم بهذا الشكل » - وهنا جسّد بلومنتريت جملته بان سار عدة خطوات قصيرة ، محسوبة ، وهو يقرع الارض بعقبه .

ثم أعطى رأيه حول مختلف صفات القطعات البريطانية والامريكية وأضاف : « كان الامريكيون يهاجمون باندفاع ، ويمتلكون إحساساً رفيعاً بالعمل عن طريق الحركة . ولكنهم كانوا يتراجعون امام قصف مدفعي عنيف - حتى ولو كانوا قد اخترقوا خطوطنا . اما البريطانيون فكانوا يتصرفون بشكل معاكس ، اذ ما أن يتشبثوا بموقع ما ، حتى ولو وصلوا اليه قبل ٢٤ ساعة فقط ، حتى يصبح من المستحيل تقريباً إخراجهم . وكانت هجماتنا المعاكسة على البريطانيين تكلفنا غالياً بشكل دائم . ولقد لاحظت اكثر من مرة هذا الفرق المميز في خريف عام ١٩٤٤ عندما كان النصف الأيمن من فيلقي يجابه البريطانيين على حين كان النصف الايسر يجابه الامريكيين » .



الفصل الثامن عشر

المؤامرة ضد هتلر كما رؤيت من مقر القيادة العامة في الغرب

لقد وصفت مؤامرة ٢٠ تموز بمختلف الأشكال ، ولكنها لم توصف أبداً مع أخذ تأثيرها الكبير في الأحداث العسكرية بعين الاعتبار .واننا لنعرف الآن إلى حد ما كل ما وقع بعد انفجار القنبلة المعدّة لاغتيال هتلر داخل مقر قيادته في بروسيا الشرقية . كما نعرف أن المتآمرين أضاعوا الفرصة أيضاً في برلين . ويأتي وصف يوم ٢٠ تموز في القيادة الالمانية العامة في الغرب ليكمل ما تحت ايدينا من وثائق . وتستحق رواية الجنرال بلومنتريت المفصّلة ان تذكر بكاملها ، لا لأنها تمثل شهادة صادقة فحسب ، بل لأنها تقدم بشكل جيد جداً مناخ تلك الفترة .

رواية بلومنتريت .

« في الأشهر الأولى من عام ١٩٤٤ زار مقر القيادة العامة للجبهة الشرقية في سان ـ جيرمان عدد كبير من الأشخاص ، وتبادلوا وجهات النظر حول مسار الحرب وتطوراتها . وكانت المسألة التي تدور حولها المناقشات وتثير الخلاف اكثر من غيرها هي : هل ينبغي على الفيلد مارشالات ان يقنعوا هتلر بطلب السلم أم لا ؟

« وفي يوم من أواخر آذار وصل الفيلد مارشال روميل الى سان ـ جيرمان يصاحبه رئيس هيئة اركانه الجنرال سبيدل وعندما هما بالانصراف طلب مني سبيدل إجراء حديث خاص على انفراد . وعندما غدونا وحيدين أعلمني بأنه يتحدث باسم روميل وقال لي : « لقد آن الأوان ليقال للفوهرر بأنه « لم يعد بوسعنا متابعة الحرب » . واتفقنا على أن

نسبر رأي الفيلد مارشال فون رونشتدت واكتشفنا بأن رأيه مماثل لرأينا . عندها بعثنا الى القيادة العامة للقوات المسلحة (O.K.W) برقية طلبنا فيها حضور الفوهرر الى سان ـ جيرمان « لفحص الحالة الخطرة في فرنسا » ولكننا لم نستلم اي رد .

« وعاد الجنرال سبيدل لرؤيتي والتحدث حول الموضوع نفسه ، وعلمت منه ان عدة شخصيات ترغب بالضغط على هتلر (ومن بينها الفيلد مارشال فون فيتزلبن ، والجنرال بيك ، والجنرال هوبنر ، والدكتور غوردولر) . وأضاف بأن الفيلد مارشال روميل منحه اجازة عدة ايام للذهاب الى شتوتغارت وبحث الموضوع نفسه . وكان روميل وسبيدل من وورتبرغ ويعرفان غوردولر منذ أمد بعيد . ولم يذكر سبيدل خلال حديثنا أي شيء يتعلق بالمؤامرة ضد هتلر . وكانت الأمور قد بلغت هذا الحد عندما جاء فون كلوغ ليستلم منصب القائد العام في الغرب بدلاً من الفيلد مارشال فون رونشتدت . وإننا لنذكر كيف فقد فون رونشتدت منصبه بعد حديث هاتفي مع كيتل طالب فيه بانتهاء الحرب . وإنني أود إضافة عدة كلمات حول هذا التبديل . فلقد كان هتلر يعلم جيداً الاحترام الذي يكنه الجيش والعدو للفيلد مارشال فون رونشتدت . وكانت اذاعات الحلفاء تؤكد على أن الفيلد مارشال وهيئة اركانه مختلفان مع هتلر . ويجدر بالذكر هنا إن مقر قيادتنا لم يتعرض أبداً لأي قصف جوي ، كما أن الفيلد مارشال نفسه لم يتعرض لتهديدات المقاومة الفرنسية . ومن المحتمل أن رغبته بمعاملة الفرنسيين بشكل حسن كانت معروفة من قبل الحلفاء . ومن الطبيعي أن عملاء هتلر أعلموه بكل هذه التفصيلات . وعامل هتلر الفيلد مارشال باحترام يفوق الاحترام الذي كان يعامل به بقية العسكريين . ولكنه كان يراقبه بشدة متناهية وجاء حديثه عن انهاء الحرب ليعطي هتلر المبرر المنشود للتخلص منه .

« جاء الفيلد مارشال فون كلوغ الى سان ـ جيرمان في ٦ تموز . وفي يوم ١٧ أصيب روميل من جراء الحادث المعروف ، وهذا ما جعل فون كلوغ يستلم قيادة روميل في روش ـ غويون ، ويمارس قيادة العمليات منها وترك لي مسؤولية القيادة العامة في سان ـ جيرمان .

يوم ٢٠ تموز :

« جاءني اول نبأ عن محاولة الاغتيال في حوالي الساعة الخامسة عشرة .. ولقد حمله لي العقيد فينك مساعد رئيس هيئة الأركان الذي كان يعمل من قبل في الجبهة الشرقية ثم نقل الى الغرب قبل ستة أسابيع . وإني لأذكر أن العقيد دخل مكتبي وقال : « سيدي الجنرال ، لقد مات الفوهرر ، وأعلن رجال الغستابو العصيان في برلين » . فسألته بعد أن فاجأني النبأ عن مصدره فقال لي بأن الجنرال فون ستولبناجل قد أعلمه بالنبأ هاتفياً .

« حاولت الاتصال هاتفياً مع الفيلد مارشال فون كلوغ . فقال لي الضباط في مقر قيادته في روش - غويون بأنه ذهب لتفتيش الجبهة . عندها قلت لسبيدل - بجمل مموهة حيث كنا نتحدث هاتفياً - بأن هناك أحداثاً خطرة ، وإنني قادم بالسيارة لأحدثه شخصياً . وتركت سان - جيرمان في حوالي الساعة ١٦ ، وبعد ساعة ونصف الساعة وصلت الى روش - غويون .

« كان الفيلد مارشال فون كلوغ قد وصل مقره منذ هنيهة . وقرأت في مكتبه مقتطفات من أقوال الاذاعة الالمانية وتتحدث هذه المقتطفات عن محاولة اغتيال فاشلة ضد هتلر . وقال لي فون كلوغ بأنه تلقى من المانيا برقيتين هاتفيتين دون تحديد المرسل ، تقولان ما يلي : « مات الفوهرر ، خذوا تدابيركم » وحدثني فون كلوغ بعد ذلك بأن فون فيتزلبن وبيك وآخرون غيرهما حضروا إليه قبل سنة ، وسألوه فيما اذا كان بوسعه مفاتحة الفوهرر بمسألة مباحثات السلام ، كما طرحوا أيضاً البحث معه عن الوسائل التي يمكن أن تساعده على تحقيق هذا الغرض . وسجّل فون كلوغ عندئذ ملاحظة حول هذه المحادثات .

« وعندما كنا نتحدث معاً جاءتنا برقية هاتفية من سان - جيرمان تعلمنا عن وصول برقية مجهولة المرسل تعلن وفاة هتلر . ولم يعد فون كلوغ يعرف أين يجد الحقيقة ، وتساءل هل يحتمل أن تكون أنباء اذاعة برلين كاذبة . وناقشنا الأمر لحظة ، ثم طلبت الحديث هاتفياً مع الجنرال واريليمونت مساعد يودل في القيادة العامة للقوات المسلحة

(O.K.W.) ولكنني لم أحصل على أية نتيجة فقد كان وارليمونت مشغولاً مع كيتل .

« وتباحث مع فون كلوغ وتساءلنا عن الشخص الذي ينبغي الاتصال به هاتفياً ، وحاولنا الاتصال مع قائد قوات الـ س .س . في باريس . فأجاب بأنه لا يعرف إلا ما أعلنته محطة الاذاعة . وكنت أعرف جيداً الجنرال ستييف رئيس مكتب شؤون الأفراد في القيادة العامة للجيش والقوات البرية (O.K.H.) بيد أنني كنت أجهل آنذاك إنه أحد المتآمرين كما علمت بذلك فيما بعد . وقررت محادثته هاتفياً . وما أن اتصلت به حتى سألني فوراً : « من أي مصدر علمتم بأن الفوهرر قد مات ؟ » ثم أضاف « إن الفوهرر حي يرزق » ثم قطع المكالمة . وأصابتنا هذه المكالمة بكثير من الضيق ، وفهمنا كم بدت مكالمتنا مثيرة للشبهات في الظروف التي نعيشها .

« ووجدت ان لهجة ستييف وردّه غريبان لدرجة جعلتني أقول لفون كلوغ : « لا بد ان في الأمر محاول اغتيال فاشلة » . فأجابني فون كلوغ انه لونجحت المحاولة لأعطى الأمر فوراً بايقاف قصف انكلترا بصواريخ ف ـ ١ ، ولحاول بعد ذلك الاتصال مع قادة الحلفاء .

« وطلب إليَّ فون كلوغ بعد ذلك الاتصال هاتفياً مع الجنرال فون ستولبناجل ودعوته للحضور الى روش ـ غويون ، كما كان عليَّ ان أدعو الفيلد مارشال سبرل قائد القوات الجوية الالمانية في الغرب .

« كان فون ستولبناجل أول الحاضرين . فلقد وصل في الساعة ١٩,٣٠ وبرفقته العقيد هوفاكر . وجلسا الى الطاولة مع الفيلد مارشال فون كلوغ ، وسبيدل وأنا (ولقد توفي الآن جميع من حضروا هذا الاجتماع سوى سبيدل وأنا) . وبدأ فون ستولبناجل الحديث بقوله : « أرجو من العقيد هوفاكر أن يطرح لنا الموقف » ومنذ بداية الحديث ظهر بما لا يقبل مجالاً للشك أن هوفاكر عليم بكل شيء ، وأنه كان يؤمن الاتصال بين فون ستولبناجل وفون فيتزلبن . ورسم العقيد مراحل المؤامرة التي بدأت بفكرة رفع عريضة وانتهت بفكرة القيام بانقلاب عندما اقتنع الجميع بأن هتلر لا يمكن أن يستجيب لأية

محاكمة عقلانية ، وبأن الحلفاء سيرفضون أي عرض للسلام يقدمه هتلر . وحدثنا كيف نظم فون ستوفيزغ محاولة الاغتيال ، وأعطانا عدداً من التفصيلات .

« وعندما انهى العقيد كلامه ، لم يخف فون كلوغ خيبة أمله ثم قال : « حسنا ! لقد فشلت المحاولة أيها السادة ، لقد انتهى كل شيء » وتساءل فون ستولبناجل : « كنت اعتقد ايها الفيلد مارشال انكم على اطلاع مسبق بالأمر ولا بد الآن من عمل أي شيء » . فرد عليه فون كلوغ : « لا يسعنا أن نفعل اكثر من ذلك : فالفوهرر حي »ولاحظت قلق فون ستولبناجل الواضح . فلقد وقف فجأة وخرج الى الشرفة . وعندما عاد الى الغرفة لاذ بالصمت طويلاً .

« عندها حضر الفيلد مارشال سبرل ، ولم يمكث سوى بضع دقائق ، ورفض دعوة فون كلوغ للعشاء ، وأحسست بأنه لا يود التورط بهذه الأحاديث ولا يود معرفة خبايا هذه المسألة . وذهبنا بعد ذلك الى العشاء . وبدا فون كلوغ جيد القريحة قليل القلق ، على حين كان فون ستولبناجل صامتاً وبعد فترة من الزمن التفت نحو فون كلوغ قائلاً : « هل تسمحون لي بحديث خاص آخر ؟ » فوافق فون كلوغ ورجاني ان أتبعه . وذهبنا الى غرفة صغيرة مجاورة ، وهناك قال فون ستولبناجل بأنه أخذ « أول احتياطاته » قبل ترك باريس .

فسأله فون كلوغ بدهشة : « يا إلهي ! ماذا فعلت ؟ »

« ـ لقد اصدرت امراً باعتقال جميع افراد الـ س س في باريس »

« ولم يكن يقصد بذلك اعتقال قوات الـ س . س . بل أفراد الـ (S.D.) او مصلحة الأمن .

« وتساءل فون كلوغ :

« ـ ولكنكم لا تملكون الصفة التي تخولكم اتخاذ مثل هذا التدبير دون العودة لي بشكل مسبق !

« فرد فون ستولبناجل : ـ انني اعرف ذلك . لقد حاولت الاتصال بكم هاتفياً بعد ظهر هذا اليوم ، ولكنكم لم تكونوا في مقر قيادتكم . وهذا ما دفعني الى اتخاذ هذه المبادهة .

« فقال فون كلوغ : ـ حسناً ! لقد تصرفتم على مسؤوليتكم .

« وبعد هذا الحديث ترك القائدان المائدة قبل إنهاء طعامهما .

« ثم طلب إليَّ فون كلوغ أن أتصل برئيس هيئة اركان فون ستولبناجل في باريس لأسأله عما إذا كانت أوامر فون ستولبناجل الأخيرة قد نُفّذت وأجابني العقيد فون ليستوف الذي قضى الآن نحبه : « ليس هناك ما يمكنه ايقاف التدابير المتخذة . » عندها قال فون كلوغ لفون ستولبناجل « حسناً ! أعتقد أنه لم يبق أمامكم سوى شيء واحد تفعلونه ، البسوا ألبسة مدنية واختفوا » . وأصدر أوامره باطلاق سراح جميع عناصر الـ س . س . المعتقلين .

« وبعد ذهاب فون ستولبناجل قلت لفون كلوغ : « ان علينا أن نفعل شيئاً لمساعدته . » ففكر فون كلوغ قليلاً ثم قال لي بأن عليَّ أن الحق به وانصحه بالاختباء في باريس خلال عدة ايام . ولو تصرف فون كلوغ بصورة نظامية لكان عليه أن يعتقله .

« ذهبت قبل كل شيء الى مقر قيادتي في سان ـ جيرمان حيث اطلعني الضباط على برقيات أخرى وردت خلال غيابي . وكانت احداها من الفيلدمارشال كيتل : جميع التقارير حول وفاة هتلر كاذبة ، وينبغي ان تلغى فوراً جميع الأوامر المرسلة بناء على هذا الخبر الكاذب . وكانت الثانية من الجنرال فروم : فلقد عزله هيملر من قيادة الجيش المرابط على أرض الوطن . وفقد هتلر ثقته بجميع جنرالاته . ويقول هيملر في البرقية الثالثة انه تسلم منصب قائد القوات المرابطة على أرض الوطن . وبينما كنت أقرأ البرقيات جاءني هاتف من الاميرال كرانسكة قائد الاسطول في الغرب (وكان الفيلد مارشال فون كلوغ قد أهمل دعوته لحضور الاجتماع) وسألني فيما اذا كنت استطيع

الحضور لمقابلته في باريس .

« وعندما قاربت الساعة الواحد صباحاً اتجهت نحو باريس ، حيث وجدت كافة اعضاء هيئة اركان البحرية مجتمعين واطلعني الأميرال على برقية طويلة آتية من الفيلد مارشال فون فيتزلبن يعلن فيها وفاة هتلر وتشكيل حكومة جديدة يرأسها بشكل مؤقت. واتصل كرانسكة بالقيادة العامة للقوات المسلحة (o.K.W.) فوقع عن طريق الصدفة على الاميرال دونتز الذي كذّب البرقية .

« وذهبت بعد ذلك الى مقر قيادة شرطة الأمن . وكان رجال الـ S.D. قد عادوا لتوهم من السجن . وكان اول الضباط الذين رأيتهم يودون معرفة ما حصل بالضبط ، والسبب الكامن وراء اعتقالهم .

ولقد برهنوا عن ارادة طيبة اذ لم يحاولوا تعقيد الأمور وزيادة حدتها . وطلبت رؤية اوبرغ قائد مصلحة الأمن (S.D.) فقيل لي أنه في الفندق مع فون ستولبناجل .

« ووصلت الفندق في حوالي الساعة الثانية صباحاً فوقعت وسط اجتماع اشبه باجتماع راقٍ - حتى أنني وجدت بين المجتمعين آبيتز سفير ألمانيا في باريس . وأخذني أوبرغ الى غرفة مجاورة وقال لي بأنه لا يفهم شيئاً مما يحدث ، ولكنه يرى بأن من الضروري اتخاذ قرار والعمل بشكل جماعي.وتصرف أوبرغ بشكل جيد جداً ، وحاول خنق المسألة لمصلحة الجيش واقترح ان يُحجز في الثكنة الفوج الذي نفّذ الاعتقالات ، وأن يقال للجنود بأن الأمر كان مجرّد تدريب . ولكن فون ستولبناجل رأى بأن من المستحيل منع هذه القصة من الانتشار . ونقلت الى فون ستولبناجل نصيحة فون كلوغ بأن يختفي . ومع هذا فقد علمت عند عودتي الى سان - جيرمان أنه تلقى برقية من القيادة العامة للقوات المسلحة (O.K.W.)تأمرهَ بأن يتجه فوراً الى برلين ليقدم فيها تقريره .

« وسافر فون ستولبناجل خلال النهار بالسيارة متجهاً نحو برلين عن طريق فردان وميتز . وكان معه في السيارة سائق وجندي مرافق لحمايته من هجمات الانصار . وقبل فردان بقليل أوقف فون ستولبناجل السيارة وقال بأنهم وصلوا الى منطقة موبوءة

بالانصار ، وأن من الحكمة أن يجربوا مسدساتهم على شجرة للتأكد من حسن سير حركتها . وتمت تجربة الاسلحة بالفعل . ثم اوقف سيارته بعد قليل نظراً لوصولهم إلى حقول معركة فردان . وأبدى اهتمامه بأن يدلهم على المكان الذي قاتل فيه خلال الحرب العالمية الأولى . وبعد فترة من الزمن قال لهم : « ابقوا هنا ، اذ أنني أود الذهاب وحيداً الى مكان « أعرفه » جيداً . وأراد الجنديان مرافقته خوفاً من اصطدامه بالانصار ، فرفض . وبعد لحظة سمعا صوت طلقة نارية فهرعا ليجدا فون ستولبناجل طافياً على سطح ماء قناة . فلقد اطلق النار على نفسه بعد ان نزل الى الماء ، وكان يبغي من ذلك أن يغرق اذا ما لم تصب الطلقة منه مقتلاً . وفشلت محاولة انتحاره بالرغم من كل احتياطاته ، وأخرجه الرجلان من الماء ونقلاه الى المستشفى . ولم تؤد الرصاصة التي اطلقها إلا الى اقتلاع عينه أما العين الثانية المصابة الى حد بعيد فقد أجريت عملية اقتلاعها في المستشفى .

« لقد عرفت هذه التفصيلات من أوبرغ الذي حزر ان لفون ستولبناجل ضلعاً في المؤامرة ضد هتلر فذهب لزيارته في مستشفى فردان بغية مساعدته على اخفاء دوره في المؤامرة . ورفض فون ستولبناجل الحديث . وبعد حوالي اسبوعين تلقى أمراً بالذهاب الى برلين ، حيث حوكم ، وحُكم عليه بالموت ، وأُعدم شنقاً .

« وساد الهلع خلال هذه الفترة بين اعضاء هيئة الأركان في باريس . وكان كل واحد يتساءل عمن يكون المتهمون ، وجاءت سلسلة من البرقيات تأمر أوبرغ باجراء مجموعة من الاعتقالات . وتم اعتقال ٣٣٠ و٤٠ شخصاً نصفهم من المدنيين والنصف الآخر من العسكريين (وعلى رأسهم هوفاكر وفينك) وبعد بضعة ايام اتصل اوبرغ بي هاتفياً وطلب إليَّ ان احضر لمقابلته : فلقد ذكر هوفاكر اسم فون كلوغ خلال التحقيق الأولي . ولم يكن اوبرغ يعتقد ان من الممكن اشتراك فون كلوغ في المؤامرة .

« ورافقت اوبرغ عندما ذهب الى فون كلوغ بغية البحث عن معلومات . وقال فون كلوغ لأوبرغ : « تابعوا تحقيقاتكم دون ان تستمعوا الا لصوت واجبكم » .

واخبرني أوبرغ أن هذا العمل لا يسرّه مطلقاً ، ولكن اضطراره للقيام به لا يمنعه من التصرف كرجل مهذب (جنتلمان) على الأقل . وقررنا مساعدته بأحد ضباط هيئة اركاني . ومن المفيد أن أذكر هنا بأنني وسبيدل لم نذكر كلمة واحدة لأي انسان عن اجتماع مساء ٢٠ تموز .

« وبعد قليل ذهب فون كلوغ لرؤية روميل في المستشفى بباريس . وحدثني عن مفاجأة روميل الذي كان يعرف بأن هناك محاولة لتطويق هتلر بغية اجباره على طلب السلم ، ولكنه يجهل وجود محاولة لاغتيال الفوهرر .

« ولاحظت في الأيام التالية أن فون كلوغ شارد الذهن مشغول البال بصورة متزايدة . وكان يتحدث غالباً عن نفسه وعن مشاكله الشخصية . ولقد قال لي في احدى المرات وهو متجهم : « ستسير الاحداث كما تشاء » . وفي هذه الحقبة جاء الفيلد مارشال مودل ليحل محله . ثم سافر فون كلوغ الى المانيا ، وتناول السم في الطريق كما ذكرنا من قبل ، ووُجد ميتاً في سيارته .

«وباستثناء حديث ٢٠تموز، فان فون كلوغ لم يذكر أمامي أبداً أي شيء عن مؤامرة تستهدف تطويق هتلر أو قلبه . وكنت قد تركت هيئة أركان فون كلوغ في كانون الثاني من عام ١٩٤٢ وغدت علاقاتنا محدودة جداً حتى تموز ١٩٤٤ . وكان العقيد فون تريسشوف قريباً جداً من فون كلوغ ، ومن المحتمل أنه كان يعرف اكثر مني ـ ولكنه توفي .

« وبعد الوقوع في الأسر ، في أيار ١٩٤٥ ، وجدت نفسي في شلزويغ مع الجنرال دمبسي ، ولاحظت تباين آراء السكان المدنيين حول هتلر . فلقد كان البعض مشمئزاً من اشتراك جنرالات المان في مؤامرة ضد الفوهرر ، وكان هؤلاء الناس يحقدون على الجنرالات المتآمرين كما يحقد عليهم قسم كبير من الجيش . على حين كان البعض الآخر يرى بأن الجنرالات تأخروا كثيراً في محاولة قلب هتلر .

زيارة للفوهرر .

ما أن تنسم الفيلد مارشال مودل القيادة في الغرب حتى تمركز في مقر قيادة مجموعة

الجيوش « ب » . وبعد يوم أو يومين اتصل بي هاتفياً ليحدثني عن برقية مقلقة قادمة من مقر قيادة الفوهرر ، ثم قال لي « انهم لا يفكرون الا بيوم ٢٠ تموز ، وهم يودون حرماني من سبيدل بحجة أن الشبهات تحوم حوله . » وكان مودل قد احتج بعنف عند كيتل مؤكداً أنه لا يستطيع الاستغناء عن رئيس هيئة اركان مجموعة الجيوش في لحظة حرجة كهذه . واستطاع الاحتفاظ بسبيدل حتى الاسبوع الأول من شهر ايلول ، وبعد ذلك جاء هذا الضابط ليودعني ، واتجه نحو المانيا . وما أن وصل حتى اعتقله رجال الغستابو .

« وبعد سفر بفترة جاءت برقية تقول بأنني سأترك منصبي ليحل محلي الجنرال وستفال . وأن عليَّ أن أتقدم الى مقر قيادة الفوهرر في ١٣ ايلول . وأحسست من جراء ذلك بضيق شديد ! وفي طريق عودتي الى مقر عملي عرّجت على الفيلد مارشال فون رونشتدت الذي كان الفوهرر قد استدعاه ثانية ليستلم منصب القائد الأعلى في الغرب فقبل المهمة وأقام مقر قيادته في كوبلانس . وتضايق الفيلد مارشال الى حد بعيد عندما علم بأن القيادة نقلتني في اللحظة التي عاد فيها الى قيادة الغرب . وارسل احتجاجه على هذا العمل فوراً الى القيادة العامة للقوات المسلحة (O.K.W.) وطلب الاحتفاظ بي كرئيس لهيئة الأركان . وجاء الرد سلبياً ، وعللت القيادة رفضها بطلبي المتكرر لتسليمي قيادة ميدانية داخل الجيوش . بيد أن الظروف التي كانت سائدة آنذاك جعلت هذه الحجة غير مقنعة .

« تركتُ كوبلانس في ٩ أيلول ، واغتنمت الفرصة للذهاب لرؤية أسرتي في ماربورغ . . . تحسباً من الأحداث . وقضيت يوم الأحد ١٠ ايلول في منزلي . وكنت أرتجف مع كل رنين هاتف ، وأهرع إلى النافذة مع كل هدير سيارة .

« في يوم ١١ تحركت باتجاه برلين . وتوقف القطار في كاسيل بسبب القصف الجوي . فاتصلت هاتفياً لأعلن عن تأخري ، ولأعلم القيادة بأنه سيتعذر علي بالتالي اخذ قطار البريد الخاص الذي يقطع كل ليلة المسافة بين برلين وبروسيا الشرقية . وقبل الوصول الى برلين اضطررنا الى الوقوف في بوتسدام نظراً لانقطاع السكة بسبب القنابل .

وعندما خرجت من القطار سمعت في الظلام فجأة صوتاً يسأل « أين الجنرال بلومنتريت ؟ » واعترتني رجفة جديدة ! وما أن أجبت بأن أنا حتى تقدم مني ضابط يصاحبه جندي مسلح برشاش قصير وأعلمني بكل احترام بأنه تلقى أمراً لمرافقتي الى فندق آدلون في برلين وسلمني البواب ظرفاً مختوماً ، ففتحته : ولم يكن في داخله سوى بطاقة السفر الى آنجبورغ في بروسيا الشرقية . وهدأ روعي . . . بشكل مؤقت . وبقي عليّ أن أعرف ما ينتظرني في مقر قيادة الفوهرر .

« ركبتُ قطار البريد الليلي فوصلتُ الى آنجبورغ في صبيحة يوم ١٣ . واستقبلني رئيس هيئة اركان الجنرال كيتل الذي رافقني الى قطار كيتل الخاص . وهنا تناولت طعام الفطار وتركت متاعي . وقيل لي بأن الفوهرر متعب لدرجة تمنعه من استقبالي ، ولكن بوسعي حضور التقرير اليومي عند الظهيرة اذا كنت اود ذلك. وقررت الذهاب الى اجتماع التقرير .

« كانت شلة من الجنرالات تقف امام المنزل الذي سيعقد فيه الاجتماع . اتجهت نحوهم وقدمت نفسي للجنرال غودريان الذي غدا رئيس هيئة الأركان العامة ، فلاحظت أنه لم يمد يده لمصافحتي . وبقي كيتل والآخرون متحفظين إزائي . وقال لي غودريان بصوت عالٍ : « إنني لأتساءل كيف تجرؤون على الحضور الى هنا بعد كل ما وقع في الغرب . » عندها أبرزت برقية الدعوة . وأعلن ضابط من الـ س . س . أن الفوهرر قرر حضور التقرير اليومي . وبعد بضع دقائق شاهدنا هتلر قادماً عن طريق الغابة يحف به خمس او ست رجال . وكان يسير بخطى بطيئة منهكة . واستدار غودريان نحوي وقال لي بلهجة قاسية : « يمكنكم الآن ان تقدموا أنفسكم للفوهرر » وأصابتني المفاجأة عندما قابلني هتلر بود وتحبب قائلاً : « لقد تعرضتم لكثير من الصعوبات في الغرب . إنني أعلم بأن طيران الحلفاء أزعجكم ، وأعرف ماذا يعني ذلك . أنني أود الحديث معكم بعد التقرير »

« وما أن انتهى الاجتماع حتى قال لي غودريان : « تعالوا ، اننا سنتحدث عن

الجبهة الشرقية » فأجبته : « إن هذا لا يثير اهتمامي الآن أبداً » . واجريت مع هتلر حديثاً خاصاً لمدة ١٠ دقائق بدا خلالها بشوشاً أنيساً .

« وكان جميع الجنرالات ينتظرون خروجي ، وما أن رأوني حتى سألوني : « ماذا قال لكم الفوهرر ؟ » فأجبتهم : « لقد كان ودوداً جداً » ، عندها اجتاحتهم هم أيضاً موجة من الود واللطف ، ودعاني كيتل لتناول الشاي معه . فقلت بأنني أود الذهاب عند المساء بغية زيارة أسرتي ، ثم اضفت :

« إنني لم أقض أية إجازة مع زوجتي واولادي منذ سنتين .

« فقال كيتل : ـ لا اعتقد ان هذا ممكن .

« ـ ولكن الفوهرر قال لي بأن بوسعي أخذ اجازة التحق بعدها بالفيلد مارشال فون رونشتدت الذي سيسلمني قيادة فيلق من الفيالق المقاتلة في الغرب » .

« وطلب إليّ كيتل ان انتظر نصف ساعة . وبعد أن استشار الفوهرر عاد ليقول لي بأن بوسعي ان أذهب .

« وخلال حديثي المقبل مع كيتل حدثني الفيلد مارشال عن فون كلوغ مؤكداً وجود ادلة دامغة على خيانته . وكانت الاستخبارات الالمانية قد التقطت برقية صادرة عن مقر احدى قيادات الحلفاء تطالب بالسماح لها بالاتصال مع فون كلوغ . واضاف كيتل : « لهذا بقي فون كلوغ غائباً مدة طويلة في اليوم الذي وجد نفسه به قرب افرانش » ودافعت عن فون كلوغ مؤكداً براءته ، وقلت بأنه لم يستطع الاتصال مع مقر قيادته خلال عدة ساعات نظراً للتدمير الذي أصاب مقطورة اللاسلكي المرافقة له . ولكن كيتل رفض تصديق اية كلمة .

« وذهبت لرؤية يودل قبل الانصراف . ولم يصافحني يودل عند لقائي بل قال لي فوراً : « لا يبدو عليكم انكم قمتم بعمل طيب في الغرب » فرددت « انكم تفعلون حسناً لو تحضرون لرؤية الأمور على الطبيعة قبل أن تتحدثوا » . وأبدى يودل دهشته

عندما علم بأنني ذاهب لقضاء إجازة .

« عدت الى قطار كيتل لأخذ متاعي . وقدم لي الحارس زجاجة بوردو لآخذها معي وقال : « لقد جلس العقيد ستيف لآخر مرة في حياته في المكان الذي تناولتم فيه الطعام هذا الصباح » . وأحسست بأنني نجوت بأعجوبة . وبقي رنين الهاتف يسبب لي الانتفاض حتى بعد وصولي الى منزلي . ولم أحس بالراحة من جديد الا بعد عودتي الى الجبهةواستلام عملي على رأس فيلقي الجديد . وبقي القلق الثقيل يخيّم في الجو. ومنذ هذه اللحظة أحس الكثيرون منا . بأن غلالة من الشك تحلق حولهم . وفي آذار ١٩٤٥ - وكنت اقود آنذاك جيش هولندا -تلقيت من القيادة العامة للقوات المسلحة (O.K.W.) برقية تأمرني بأن أبعث فوراً عنوان عائلتي . وبدا لي هذا الطلب مثيراً للشبهة - ولعل البعض أراد استخدام أفراد عائلتي كرهائن . ورأيت على الخارطة أن الامريكيين كانوا على مسافة أقل من ١٠٠ كيلو متر عن مابربورغ ، لذا امتنعت عن الاجابة على البرقية . وفكرت بأن أمن عائلتي سيتحقق بشكل أفضل مع الأمريكيين ! »

****

ومنذ ليلة ٢٠ تموز كان القادة الالمان يتساءلون باستمرار عما اذا كان عليهم أن يتصلوا بالحلفاء - كما فكر فون كلوغ في مساء اليوم الذي ظن به أن هتلر قد مات . وكانت الأسباب التي تقف في وجههم وتمنعهم من الاتصال هي :

٢ - كان الشعب الالماني يجهل كل شيء عن الوضع ، ولا يمكنه أن يفهم مثل هذه المبادهة من قبل الجنرالات .

١ - قسم الاخلاص للفوهرر . (وهم يؤكدون الآن : « لقد أقسمنا على الأخلاص للفوهرر ، فاذا ما مات تحررنا من قسمنا » لذا كان الجميع على استعداد للاعتقاد بأنه مات .)

٣ - كان من الممكن ان نتهم القطعات المقاتلة في الشرق القطعات المقاتلة في الغرب بأنها

تخلت عنها .

٤ ـ كانوا يخشون أن يعتبرهم التاريخ خونة لوطنهم .

الفصل التاسع عشر

الورقة الأخيرة في جعبة هتلر

هجوم الآردين الثاني

في ١٥ كانون الأول ١٩٤٤ ، وفي صبيحة يوم مكفهر يغطيه الضباب شن الجيش الالماني هجومه في الآردين . وفاجأت الضربة الحلفاء الذين اكد خبرة قادتهم بكل ثقة عجز الالمان عن الانتقال آنذاك إلى الهجوم . وكانت المفاجأة كاملة أمام خرق الجبهة الأمريكية تحت تأثير الضغط الالماني الذي هدد بقطع الجيوش الحليفة . وانتشر الهلع في كل مكان وامتد إلى المؤخرة ، وكان في عواصم الحلفاء اكبر من أي مكان آخر . ووسط هذا الكابوس توقع بعض الاشخاص أن الالمان سيصلون إلى شاطىء المانش بشكل يؤدي الى وقوع دنكرك جديدة .

وكان هذا الهجوم ورقة هتلر الأخيرة واكثر ضرباته جرأة .

واذا نظرنا إلى الهجوم من وجهة النظر الالمانية رأيناه بشكل مختلف«إذ لم يؤدِ الهجوم إلى صراع مغامر ضد عدو متفوق فحسب ، بل أدى أيضاً إلى خلق فوضى لا توصف . وأطلق الحلفاء على الضربة اسم « هجوم رونشتدت » وأثر هذا الاسم في الفيلد مارشال فون رونشتدت كما تؤثر الغلالة الحمراء التقليدية في ثور المصارعة ! والحقيقة أنه لم يشعر نحو هذه العملية ولا يزال الا بضيق شديد . وهو لم يشارك فيها إلا باعطائها اسمه دونما رغبة منه . وتؤكد المعلومات أنه عندما فشل فون رونشتدت بمنع هتلر من شن الهجوم الذي رأى فيه ملامح الكارثة إنسحب إلى الظل تاركاً قيادة العملية للفيلد مارشال مودل .

ولقد جاء قرار الهجوم والفكرة الاستراتيجية نفسها من هتلر . وكان من الممكن أن يتسم هذا القرار بالحنكة والمهارة لو كان الفوهرر يملك آنذاك القوات والوسائط اللازمة لتنفيذه بشكل كامل . وجاء نجاحه الرائع الأولي من المناورة التي وضعها الجنرال الشاب فون مانتوفل الذي وصل إلى رتبة فريق أول وعمره ٤٧ عاماً . ولقد كان هتلر يرفض دائماً حجج الجنرالات القدامى الذين يعاملهم بحذر ، ولكنه يتقبل عن طيب خاطر الأفكار والقيادات الجديدة ، ويحب المفاهيم والآراء الثورية . وكان يعتبر أن فون مانتوفل هو أحد اكتشافاته الشخصية ، لذا كان يقتنع بآرائه بكل سهولة .

ويرجع الجزء الاكبر من نجاح أثر المفاجأة في هذا الهجوم إلى الغموض الذي أحاط به وتشكل السرّية في مثل هذه العملية سلاحاً ذا حدّين . ولقد أدت في هذه الحالة الى فوضى منعت استثمار نجاح الهجوم . وبعد وضوح فشل الخطة بوقت طويل أصر هتلر على متابعة التقدم ومنع القيام بأي تراجع . ولو كان رد فعل الحلفاء اكثر سرعة لوقعت الجيوش الالمانية في فخ محقق . ولقد ضُربت هذه الجيوش على كل حال إلى درجة حرمتها من امكانية الدفاع عن أرض وطنها فيما بعد .

ومن المهم التحدث عن هذا الهجوم كما رآه بعض القادة العسكريين الذين اشتركوا في إدارته . وعلى رأس هؤلاء القادة فون رونشتدت الذي استُدعي إلى منصبه القديم كقائد عام في مطلع ايلول عندما اقترب الحلفاء من نهر الرين . ذلك أن هتلر أحس بضرورة وجود الشخص الذي يستطيع إحياء ثقة جيوشه المهزوزة . ويجيء مودل بعد فون رونشتدت . وهو استراتيجي متوسط ، ولكنه يتمتع بحيوية مثالية ، وقدرة عجيبة على تجميع القوات الاحتياطية على أرض خالية تقريباً من القوات . كما أنه أحد الجنرالات القلائل الذين كانوا يجرأون على مناقشة هتلر . ولقد انتحر مودل في نهاية الحرب . وكان تحت قيادته خلال العملية قائدا جيشين مدرعين هما سيب ديتريخ وفون مانتوفل . وكان سيب قد مارس مختلف الأعمال قبل أن يصبح قائداً من قادة الـ س . س . ولقد نال الحظوة عند هتلر بفضل روحه العدوانية. ويحمّله فون رونشتدت مسؤولية الفوضى التي وقع بها الهجوم في اللحظة الحرجة . أما فون مانتوفل فهو ضابط محترف من المدرسة الجديدة ،

وارستوقراطي موهوب بهيبة هادئة تشبه هيبة فون رونشتدت . ويعتبر فون مانتوفل واحداً من الأنصار المتحمسين للأساليب الحديثة . ولقد انتقل خلال عام واحد من قيادة فرقة مدرعة إلى قيادة جيش مدرع . وبما أنه مبتدع تكتيك هجوم الآردين فقد طبق اكثر أجزاء هذا الهجوم فاعلية ونجح في ذلك أيما نجاح . لذا فان معظم الوصف الذي أقدمه عن هذا الهجوم مأخوذ منه بعد أن دققته وأوضحته بشهادات مستقاة من مصادر أخرى .

إن هوى فون مانتوفل لمهنته دفعه إلى أن يحب « تكرار معاركه » تحت نار المناقشة . وبالاضافة إلى ذلك فان فهمه النسبي للفلسفة يجعله لا يسهب في الكلام عن نكساته . ولقد ساعده حسه المرح الجذاب على مقاومة كل صعوبات الحياة القاسية في المعسكر الذي ضم جميع الأسرى من الجنرالات ـ كما ساعده على التخلص من القلق الرهيب الذي أحسه الجميع بالنسبة لعائلاتهم التي كانوا يجهلون فيما اذا كانت الظروف ستسمح لهم برؤيتها بعد اليوم أم لا ! إن هذا المعسكر الكئيب القابع بين الجبال في قاع وادٍ بعيد عبارة عن مكان يجلب الهم والغم ، حتى لو لم يكن محاطاً بالاسلاك الشائكة . وفي يوم من أكثر الأيام كآبة في منتصف الشتاء قلت لفون مانتوفل بأنه لا يمكن اعتبار غريزدال مكاناً لطيفاً جداً في هذا الفصل ، بيد أن الوضع سيتحسن مع قدوم الصيف . فأجابني مبتسماً : « أوه ! كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ مما هو عليه . انني أعتقد بأننا سنقضي الشتاء المقبل فوق جزيرة قفراء ، أو فوق مركب ألقى مراسيه في عرض المحيط الأطلسي »

الخطة

قال لي فون مانتوفل : « لقد تم اعداد خطة الهجوم في الآردين من قبل القيادة العامة للقوات المسلحة (O. K. W.) ، ثم أرسلت إلينا على شكل « أمر جازماً من الفوهرر » وكانت المهمة الرئيسة المحددة هي : تحقيق نصر حاسم في الغرب عن طريق استخدام جيشين مدرعين ـ الجيش المدرع السادس بقيادة سيب ديتريخ ، والجيش المدرع الخامس بقيادتي ـ وكان على الجيش المدرع السادس أن يهاجم في الشمال الشرقي ، ويجتاز نهر الموز بين لييج وهوي ليتجه بعد ذلك إلى أنفرس . ولقد أعطي هذا

الجيش اكثر القوات ؛ وكُلف بالمهمة الرئيسة . وكان على جيشي الخامس أن يتقدم على خط منحنٍ ، وأن يجتاز نهر الموز بين نامور ودينانت ليندفع بعد ذلك باتجاه بروكسل ويغطي مجنبة الجيش السادس . وكان من المنتظر في اليوم الثالث أو الرابع أن يتحرك الجيش الخامس عشر المدعوم بفيلق الـ س . س . الثاني عشر المعزز خصيصاً لهذه المهمة والعامل تحت قيادة الجنرال بلومنتريت، وأن يقوم بحركة تلاقي بعدأن ينطلق من الشمال الشرقي متجهاً نحو ما يستريشت الواقعة على نهر الموز بغية دعم اندفاع الجيش المدرع السادس باتجاه أنفرس . وبنى الفوهرر خطته على أن هجوم الآردين سيستنزف حتى اليوم الثالث أو الرابع جزءاً كبيراً من القوات الاحتياطية الامريكية ، بشكل يزيد فرص نجاح هذا الهجوم الثانوي رغم أنه أقل كثافة من الهجمات الأخرى .

وكان هدف الهجوم كله قطع الجيش البريطاني عن قواعد امداده وتموينه ، واجباره على الجلاء عن القارة » .

ولقد اعتقد هتلر أن نجاح دنكرك الثانية هذه سيحقق اختفاء بريطانيا العظمى كخصم له وزنه ، الأمر الذي يساعده على التقاط أنفاسه والحاق الهزيمة بالروس ، وفرض حالة الهدوء في الشرق .

ويقول فون رونشتدت بهذا الصدد « أذهلتني الخطة التي وردت في تشرين الثاني ولم يكلف هتلر نفسه عناء استشارتي حول امكانات نجاحها . وبدا لي بكل وضوح أن قواتنا أصغر من متطلبات خطة بهذا الطموح . وشاركني مودل الرأي . والحقيقة أنه لم يكن هناك عسكري واحد يعتقد بامكانية الوصول إلى أنفرس . وكنت أعرف ويا للأسف ! عدم جدوى لفظ كلمة « مستحيل » أمام هتلر . وبعد أن تشاورت مع مودل وفون مانتوفل ، رأيت أن الأمل الوحيد يكمن في تحويل أنظار هتلر عن هذه العملية بأن أقدم له مشروعاً ينال رضاه ويسهل تنفيذه مثل : هجوم محدود يقطع بروز الحلفاء حول إكس ـ لا ـ شابيل » وقدم لي فون مانتوفل صورة اكثر دقة عن نقاشهم وقراراتهم حول هذا الموضوع : « كنا متفقين على معارضة الخطة . فلقد وجدنا قبل كل شيء أن الترتيب

الاستراتيجي سيء لأنه يعرض المجنبات اكثر مما ينبغي ويعرضها بالتالي للخطر . وبالاضافة إلى ذلك فان الذخائر المتوفرة لا تكفي للوصول إلى هدف بعيد كهذا الهدف . وفضلاً عن هذا وذاك فان تفوق طيران الحلفاء يشكل عائقاً جدياً . واخيراً فقد كنا نعلم علم اليقين أن الحلفاء يملكون قوات احتياطية كبيرة في فرنسا وانكلترا . ولقد أكّدت بصورة خاصة على الخطر الذي تمثله الفرق المحمولة جواً ، المتمركزة في انكلترا والمستعدة للتدخل فوراً . وأضفت أن طبيعة شبكة الطرق وراء الموز ستساعد الحلفاء على شن هجوم معاكس . وأرسلنا إلى القيادة العامة للقوات المسلحة (O. K. W.) تقريراً يؤكد بأن الهجوم المطلوب غير ممكن بالوسائل المتوافرة لدينا . واقترحنا في الوقت نفسه خطة معدّلة تتضمن : قيام الجيش الخامس عشر المدعوم بقوة على جناحه الأيمن بهجوم شمال إكس - لا - شابيل يتجه نحو مايستريشت ، وقيام الجيش المدرع السادس بهجوم جنوب إكس - لا - شابيل، يلتف حول المدينة في محاولة لخلق رأس جسر على نهر الموز في قطاع لييج بغية جذب انتباه الحلفاء في هذا المكان . وقيام الجيش المدرع الخامس بهجوم ينطلق من الايفل عبر الآردين متجهاً نحو نافور . وتكون مهتمة خلق رأس جسر على هذا النهر . عندها تتجه الجيوش كلها نحو الداخل ، وتطوق مواقع الحلفاء على طول نهر الموز . فاذا ما وجد المهاجمون أن المقاومة أمامهم ضعيفة استمروا النصر بتقدم نحو أنفرس ، وان وجدوا مقاومة قوية بقيت خسائرهم على كل حال محدودة » .

ولقد أكد فون مانتوفل أن الأمل الوحيد الذي داعبهم كان يتمثل في طرد القوات الامريكية الموجودة على شكل سهم عند الرور خلف إكس - لا - شابيل . وقال بأنه كان يفضل من جهته التمركز دفاعياً وإنتظار هجوم حليف جديد . والحفاظ على مجمل القوات الالمانية المدرعة ، كيما يشن فيما بعد هجوماً معاكساً كثيفاً . ووافق بلومنتريت على رأي مشابه لرأي فون رونشتدت عندما قال : « كان الفيلد مارشال في الحقيقة يعارض قيامنا بأي هجوم . وكانت نيته متجهة للدفاع عن نهر الرور ، والحفاظ على جميع الفرق المدرعة كقوة احتياطية وراء هذا الخط ليعيد بعنف بعد ذلك أية قوة حليفة تخرق الجبهة . وكان يود تطبيق استراتيجية دفاعية » .

ورفض هتلر هذا المشروع . وكان الأمل الوحيد لدى القادة العسكريين في الغرب هو محاولة استخدام الاساليب الدبلوماسية لاقناع الفوهرر بانقاص سعة مخططات هجومه ووضع خطة مقبولة لا تحمل في طياتها سوى أخطار معتدلة .

وشرح فون مانتوفل أن المناورة المقترحة كانت قريبة من مناورةالفوهررلدرجة جعلته لا يرى فيها اختلافاً كبيراً . وأنهم أرادوا من اقتراحهم أن يكشف إمكانية التقدم حتى أنفرس إذا ما تراخت المقاومة أمامهم « وأُرسلت الخطة المقترحة إلى القيادة العامة للقوات المسلحة (O. K. W.) ، وعُرضت على هتلر في ٤ تشرين الثاني إذا لم تخني الذاكرة . وكنا قد ذكرنا استحالة بدء الهجوم قبل ١٠ كانون الأول » (علماً بأن هتلر حدد تاريخ ١ كانون الأول لبدء الهجوم) .

وتابع فون مانتوفل قائلاً : « رفض هتلر خطتنا وأصر على تنفيذ خطته الأولية . وفي خلال هذه الفترة ونظراً لمعرفتنا بأن رده سيكون بطيئاً ، فقد بدأنا ترتيب وحداتنا وفق فرضية خطة مناورتنا الاكثر تواضعاً . وكانت كل فرق جيشي المدرع الخامس جاهزة ، ومنتشرة بين تريف وكريفيلد بشكل يجعل الجواسيس والسكان عاجزين عن معرفة حقيقة ما يتم اعداده . وأعلمنا الجنود أن جمعهم يستهدف مجابهة هجوم حليف قوي يتجه نحو كولونيا . ولم نُعلم باسـ[illegible] خطة سوى عدد محدود من ضباط هيئات الأركان » .

وجُمع الجيش المدرع السادس أيضاً في مكان أبعد بين هانوفر ونهر ويسير . وكانت فرقه قد سُحبت إلى الخلف للاستراحة واعادة التجهيز . والغريب في الأمر أن القيادة لم تستشر سيب ديتريخ عند وضع الخطة ، كما أنها لم تعلمه بمهمته إلا في آخر لحظة . ولم تصل المعلومات إلى معظم قادة الفرق إلا قبل بدء الهجوم بعدة أيام . وأخذ جيش فون مانتوفل مكانه على خط القتال خلال ثلاث ليال .

عيوب الخطة .

أمّن هذا التمويه الاستراتيجي زيادة أثر المفاجأة ، ولكن إخفاء سر الهجوم كلّف الألمان غالياً . لأن القادة الذين علموا بالأمر بشكل جد متأخر لم يجدوا الوقت الكافي

لدراسة مهمتهم واستطلاع الأرض والاستعداد للعمل . ونجم عن ذلك اهمال بعض التدابير التي ادت الى الخطأ منذ البداية . ولقد قبع هتلر ويودل في القيادة العامة ووضعا الخطة الحربية بكل تفصيلاتها ، واعتقدا بأن هذا العمل سيحقق النجاح . بيد أنهما لم يهتما بالظروف المحلية والصعوبات الخاصة بكل منفذ من المنفذين ، وتصرفا ازاء مطالب القطعات في القتال بتفاؤل أعمى .

ويذكر فون رونشتدت : « كانت الاحتياطات والذخائر نفسها غير كافية . وبالرغم من وجود عدد كبير من الفرق المدرعة فقد كان عدد دباباتها كبيراً على الورق فقط . (صرح فون مانتوفل ان عدد الدبابات في الجيشين المدرعين كان ٨٠٠ دبابة فقط ـ ويختلف هذا الرقم اختلافاً كبيراً عن الارقام الواردة في تقارير الحلفاء التي اعتمدت في الحساب على عدد الفرق ، واكدت بأن هذا هو اكبر تجمع دبابات شهدته الحرب) .

وكان نقص المحروقات أخطر ما في الأمر . ويقول فون مانتوفل : « ضمن يودل لنا الامداد بالمحروقات بشكل يسمح لنا بنشر كل قواتنا والتقدم بعد ذلك ولكن هذا لم يتحقق . ومن سوء الحظ ان القيادة العامة للقوات المسلحة (O.K.W) حددت بشكل حسابي جامد لا يتبدل كمية المحروقات اللازمة لتقدم فرقة مسافة ١٠٠ كيلو متر . ولقد علمتني تجربتي في روسيا أن المحروقات اللازمة على أرض المعركة تعادل ضعف الكمية المحددة حسابياً ، ولكن يودل لم يفهم ذلك .

« ولقد أخذت بعين الاعتبار الصعوبات الاضافية التي ينبغي توقعها على أرض متضرسة كمنطقة الآردين في الشتاء . وقلت لهتلر بنفسي أننا بحاجة لمحروقات تعادل خمسة أضعاف الكمية الانموذجية المحددة حسابياً . ولم يكن عندنا من المحروقات مع بدء المعركة سوى ما يعادل ١,٥ الكمية الانموذجية المحددة حسابياً . والأسوأ من ذلك ان هذه المحروقات بقيت بعيدة اكثر مما ينبغي . وكانت محمولة بقوافل طويلة ممتدة على الضفة الشرقية لنهر الرين ـ وعندما انقشع الضباب وعاد طيران الحلفاء الى العمل تعرقل مسير هذه القوافل الى حد بعيد » .

وكانت القطعات تجهل كل نقاط الضعف هذه . وتؤمن ايماناً مطلقاً بهتلر ووعوده بالنصر . وقال لي فون رونشتدت : « كانت معنويات الرجال في بداية الهجوم مرتفعة بشكل مدهش ، على عكس معنويات القادة الذين يعلمون الحقيقة المرة . وكان الجنود يؤمنون بالنجاح حقاً » .

تكتيك جديد

ساعد الألمان في بداية الهجوم عاملان : أولهما قلة عمق الجبهة الأمريكية في قطاع الآردين وكان الالمان يعرفون جيداً أن ١٢٠ كيلومتراً من الجبهة ممسوكة بأربع فرق فقط . ولقد عمل هتلر على هدي غريزته الأكيدة باستثمار كل ما هو غير متوقع ، وأوحت له هذه الغريزة باستخدام نقطة ضعف الحلفاء هذه . وبالاضافة الى ذلك فقد كان الالمانُ يعرفون ان قيادة الحلفاء العليا لم تستفد من درس ١٩٤٠[1] ، ولم تتوقع هجوماً المانياً واسع النطاق على ارض الآردين المتضرسة الصعبة . ويتمثل العامل الثاني الذي ساعد الالمان في التكتيك الذي استخدموه لأول مرة . ويقول فون مانتوفيل بهذا الصدد: «عندما تلقيت اوامر هتلر لاحظت باستغراب شديد انها تحدد بدقة الأساليب التي ينبغي استخدامها ، وتوقيتات العمليات . وكان على المدفعية ان تفتح النار في الساعة السابعة وثلاثين دقيقة صباحاً ، على أن تبدأ المشاة هجومها في الساعة الحادية عشرة . وفي الفترة الواقعة بين بدء رماية المدفعية وتقدم قطعات المشاة يقوم سلاح الطيران الالماني بقصف قيادات الحلفاء وخطوط مواصلاتهم . ولا تتقدم الفرق المدرعة وتشترك بالعمل الا بعد قيام المشاة بخرق الجبهة . وكانت المدفعية منتشرة على طول جبهة الهجوم .

« واكتشفت في الترتيبات المتوقعة عدداً من نقاط الضعف ، فأعددت دون ابطاء

---

(١) في عام ١٩٤٠ كانت القيادة الفرنسية تعتقد أن منطقة الأردين المشجرة الوعرة لا تصلح لشن هجوم مدرع كبير . وهذا ما جعلها تعتبرها منطقة ثانوية ، وتخصص لحمايتها قطعات احتياطية غير كاملة لا تضم نسبة عالية من الاسلحة المضادة للدبابات . ولقد استغل الالمان هذه النقطة ، وهاجموا الموقع الضعيف بكبد قواتهم ، فوجدوا الدفاعات الفرنسية ضعيفة غير كاملة ، الأمر الذي ساعدهم على اختراقها والاتجاه شمالاً باتجاه البحر والالتفاف حول خط ماجينو الحصين ، وتطويق معظم القوات الانكلو ـ فرنسية العاملة في بلجيكا .

(المعربان)

ترتيبات اخرى شرحتها لمودل الذي وافق على أفكاري ولكنه قال بسخرية : « ان من الأفضل مناقشتها مع الفوهرر » فأجبته : « أوافق على ذلك اذا ما قبلتم الحضور معي » ، وهكذا ذهبنا في ٣ كانون الأول الى برلين لمقابلة هتلر .

« بدأت حديثي مع هتلر بالكلمات التالية : « ليس هناك من يستطيع توقع الظروف الجوية في يوم الهجوم فهل انتم متأكدون من ان سلاح الطيران سيكون قادراً على تنفيذ مهمته رغم وجود طيران الحلفاء الأقوى ؟ » وذكّرت هتلر بحالتين في جبال الفوج اضطررنا فيهما الى الاعتراف باستحالة تحريك الفرق المدرعة نهاراً . ثم تابعت حديثي قائلاً : « إن الأثر الوحيد الذي سيحققه رمي مدفعيتنا في الساعة السابعة وثلاثين دقيقة هو إيقاظ الامريكيين . وسيكون امامهم ثلاث ساعات وثلاثون دقيقة لإعداد ترتيباتهم قبل بدء انقضاضنا » ثم ذكرت ايضاً أن قيمة المشاة الالمانية الحالية أقل من قيمتها عند بداية الحرب ، وأن هذه القوات ستكون عاجزة عن تحقيق مثل هذا الخرق العميق وخاصة على أرض صعبة كالآردين . وأشرت الى أن الدفاعات الامريكية تتضمن سلسلة من المخافر المتقدمة ، وانه سيكون من الصعب خرق خط مقاومتهم الواقع على مسافة بعيدة وراء خط المخافر المتقدمة .

« واقترحت عدة تعديلات ، أولها : ان على الانقضاض ان يبدأ في الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة للافادة من الظلمة . ومن المؤكد انه سيتعذر على المدفعية تحقيق جميع أغراضها قبل بدء الهجوم ، ولكن بوسعها تركيز رماياتها على عدد من النقاط الحساسة كبطاريات مدفعية العدو ، ومستودعات الذخيرة ، ومقرات القيادة ، التي نعرف مواقعها بكل دقة .

« واقترحت في النهاية تشكيل « كتائب صدمة » تضم خيرة الضباط (الذين اختارهم بنفسي) وخيرة جنود كل فرقة مشاة . وفي الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة ، تتسلل « كتائب الصدمة » بصمت بين المخافر الامريكية المتقدمة دون رمايات مدفعية للتمهيد او التغطية . على أن تعمل كل ما في وسعها لتجنب أي اشتباك قبل التغلغل بعمق

داخل الخطوط المعادية .

« واقترحت اضاءة السبيل امام تقدم « كتائب الصدمة » بواسطة انوار كاشفة تقدمها الوحدات المضادة للطائرات . على ان تتم الاضاءة بتوجيه الانوار الكاشفة نحو الغيوم التي تعكس النور الى الأرض . وكنت قد حضرت تجربة من هذا النوع قبل فترة قصيرة ، ودهشت من نتائجها . ووجدت ان هذه الوسيلة تساعد على تحقيق تغلغل عميق قبل طلوع النهار » من المفيدان نذكر أن فون مانتوفيل كان يجهل ان البريطانيين كانوا يعرفون آنذاك امكانية الحصول على هذا « الضوء القمري الاصطناعي » . وفي حديث سابق أعلمني عن الانطباع الذي احس به عندما قرأ أحد كتبي الذي ظهر في عام ١٩٣٢ تحت عنوان « مستقبل المشاة » . ويبدو أنه نسي أن هذه الطريقة كانت واحدة من أهم النقاط المذكورة في الكتاب .

وتابع فون مانتوفيل حديثه قائلاً : « بعد أن قدمت لهتلر هذه المقترحات اكدت له بأنه لا يمكن ان يغدو الهجوم ممكناً الا بعد تبنّي مقترحاتي . ثم اضفت : « سيأتي الليل في الساعة السادسة عشرة ، وسيخيم الظلام . وهذا يعني انكم لا تملكون بعد بدء الهجوم سوى خمس ساعات لا تكفي لتحقيق النجاح . واذا ما وافقتم على مشروعي ربحتم خمس ساعات وثلاثين دقيقة . وسأعمل بعد حلول الظلام على دفع دباباتي التي ستتقدم خلال الليل ، وستتجاوز صفوف مشاتنا ، وسيكون بوسعها أن تنقض في فجر اليوم التالي على المواقع الرئيسة بعد تطهير المسالك المؤدية لها » .

ويقول فون مانتوفيل أن هتلر تبنّى تعديلاته دون تردد . فلقد كان الفوهرر يقتنع بسهولة بمقترحات عدد من الجنرالات الحائزين على ثقته ـ ومن بينهم مودل ـ ولكنه يبدي حذراً غريزياً نحو جميع الجنرالات القدامى تقريباً . وكان يعتمد قبل كل شيء على هيئة اركانه الخاصة ، وهو يعلم تمام العلم أن خبراتها القتالية محدودة .

« لم يعمل كيتل ومودل وارليمونت في خط النار أبداً . وكان جهلهم بظروف المعركة يقودهم إلى تجاهل الصعوبة الحقيقية للحرب ، وتشجيع هتلر على الاعتقاد بأن

أفكاره القريبة من الأحلام أفكار واقعية يمكن تنفيذها . وكان الفوهرر يستمع عن طيب خاطر للعسكريين الذين تدربوا وسط نار المعارك ، واكتسبوا أفكاراً عملية » .

بيد أن التحسين الذي طرأ على الخطة بفضل التدابير المقبولة فقد الكثير من تأثيره بسبب إنقاص عدد القوات الموضوعة تصرف الجيش . إذ لم يلبث قادة الوحدات الكبرى أن تلقوا نبأ مثبطاً للهمم يقول بأن جزءاً من القوات المخصصة لهم قد سُحبت لدرء خطر الهجمات الروسية المتزايدة في الشرق . ونجم عن ذلك إهمال مشروع بلومنتريت الخاص بهجومين يلتقيان عندما يستريشت ، الأمر الذي ترك أمام الحلفاء طريقاً حراً يؤمن جلب قواتهم الاحتياطية من الشمال ، وبالاضافة إلى ذلك فان الجيش السابع المكلف بتغطية مجنبة الجناح الآخر للهجوم تناقص حتى غدا عبارة عن مجموعة من الفرق المحرومة من الدبابات . وتضايق فون مانتوفيل من هذه الأنباء ، وزاد من ضيقه أنه كان قد ذكر لهتلر خلال اجتماع ٣ كانون الأول أن الامريكيين سيشنون هجومهم المعاكس على باستوني انطلاقاً من منطقة سيدان « ولقد ذكرت بكل وضوح أن عدداً من الطرق تتجه نحو باستوني » .

وبالرغم من تناقص القوات ، فان أهداف الهجوم الطموحة لم تُعَدَّل . والغريب في الأمر أن هتلر ويودل لم يفهما على ما يبدو تأثير إنقاص القوات في قوة الهجوم واندفاعه . ولقد قال لي فون مانتوفيل : « إن تفصيلات التعليمات لم تشر أبداً إلى اللحظة التي يُتوقع فيها الوصول إلى نهر الموز . وهذا ما دفعني إلى الاعتقاد بأن هتلر فهم بأن هذا الفصل من السنة وانقاص القوات المشتركة في القتال لن يسمحا بتقدم سريع . بيد أنني سمعت فيما بعد ما أقنعني بأن الأمر كان مخالفاً لذلك . وكان من المستحيل بلوغ نهر الموز في اليوم الثاني أو الثالث كما أراد يودل . ومن المؤكد أن يودل وكيتل ساعدا هتلر على التمسك بأوهامه المتفائلة » .

ابتعد فون رونشتدت عندما رفض هتلر المخطط « المختصر » . وترك لمودل وفون مانتوفيل - اللذين يصغي لهما هتلر - مهمة محاولة اقناع الفوهرر ببعض التعديلات

التقنية ، نظراً لأنها النقاط الوحيدة التي كان يقبل مناقشتها وتعديلها . وقال بلومنتريت بمرارة : « لم يعد لقيادة الغرب أية كلمة ، واقتصر دورها على العمل كرجل آلي لتنفيذ أوامر الفوهرر التي كانت تتدخل في أصغر التفصيلات » . واكتفى فون رونشتدت بحضور الاجتماع النهائي الذي عُقد بتاريخ ١٢ كانون الأول ، في مقر قيادة هتلر في زيبغنبرغ قرب بادنوهيم وترأسه الفوهرر بنفسه .

ضياع ورقة رابحة

تطرقت خلال أحد أحاديثي مع فون مانتوفيل إلى مسألة القطعات المحمولة جواً . وقلت له بأنني تجولت في الآردين قبل الحرب فوجدت أن المنطقة صالحة لتقدم الدبابات اكثر مما يُعتقد ، وبصورة خاصة اكثر مما يُعتقد في القيادة الفرنسية العليا المتسمة بروح روتينية . فالطرق ـ وهنا تكمن الصعوبة ـ تجتاز الانهار منحدرة على جروف وديان حادة الحوافي . فاذا ما دافعت القوات بصلابة عن هذه الوديان غدت عبارة عن ممرات اجبارية استراتيجية منيعة . والحل الهجومي لهذه المعضلة الدفاعية هو إلقاء قوات محمولة جواً على الطرقات لتحتل نقاطها الحساسة قبل قدوم الدبابات . وعندما بدأ هجوم الآردين قدمت تحليلات توقعت بها قيام القوات الالمانية المحمولة جواً بمثل هذا العمل . ولكنني عرفت فيما بعد أن عملاً كهذا لم يقع . فهل يستطيع فون مانتوفيل أن يقدم لي المعلومات حول هذا الأمر ؟ ولقد اجاب عن سؤالي بقوله :

« أما فيما يتعلق بمسألة الآردين فانني متفق كل الاتفاق مع استنتاجاتكم . واعتقد أنه كان من الأفضل استخدام المظليين كما تقترحون . ولو فعلنا ذلك لفتح لنا المظليون الطريق . بيد أنني لا أذكر أن هناك من طرح هذه الوسيلة خلال مناقشة الخطة . وعلى كل حال كان عدد قواتنا المظلية محدوداً لا يذكر . وكنا نحس بنقص طائرات النقل ، كما أن هتلر استخدم جنود المظلات كجنود مشاة بغية سد ثغرات خطرة في الشرق . وكانت بعض الفرق قد استُهلكت في ايطاليا . ونجم عن كل ذلك أنه لم يعد لدينا سوى ٩٠٠ مظلي للعمل في هجوم الآردين . ولقد تم استخدامهم على جبهة الجيش المدرع

السادس » .

وأشار فون مانتوفيل إلى أن وحدات المظليين لم تستخدم بشكل جيد بعد احتلال جزيرة كريت في عام ١٩٤١ . ولقد خصصت في بداية الأمر لعملية لم تنع أبداً ضد مالطة أو جبل طارق ، ثم طالب شتودنت بارسالها إلى روسيا . ورفض هتلر هذا الطلب ، إذ كان يفضل الاحتفاظ بها كقوة احتياطية مستعدة للقيام بعملية خاصة . وانتهى الأمر بتفتيت هذه الوحدات ، وتبديد جهودها عن طريق تكليفها بمهمات المشاة العادية . ثم استنتج من كل ذلك : « انني اعتقد أن الدبابات ووحدات المظليين تشكل أقوى قوة مشتركة » .

وكان فون توما قد تحدث قبل ذلك في هذا الموضوع قائلاً : « عمل غودريان دائماً باتفاق ممتاز مع شتودنت المكلف بتدريب المظليين . ولكن غورينغ عارض إجراء أي عمل مشترك يقوم به المظليون والدبابات . لأنه كان يود دائماً الحفاظ على قوة السلاح الجوي كاملة غير منقوصة ، ويظهر بخلاً كبيراً عندما يُطلب منه تقديم طائرات النقل المخصصة لوحدات المظليين » .

وعلمت من الجنرال شتودنت تفصيلات حول دور المظليين في هجوم الآردين . عندما انهارت الجبهة الالمانية في فرنسا ، واندفع الحلفاء في بلجيكا في بداية أيلول ، ظهرت ضرورة خلق جبهة ثانية في جنوبي هولندا . ووُضعت تحت تصرفه عناصر مجمعة من هنا وهناك أُطلق عليها إسماً ضخماً هو جيش المظليين الأول . وكان هذا الجيش يضم بعض فرق المشاة المنهكة التي أنضم إليها عدد من وحدات المظليين التي يتم تدريبها تحت قيادة الجنرال شتودنت . وبعد تشكيل الجبهة الثانية وايقاف تقدم الحلفاء ، جُمعت الوحدات الالمانية العاملة في هولندا تحت اسم مجموعة الجيوش « هـ » المشكلة من جيش المظليين الأول ، والجيش الخامس والعشرين الذي تم اعداده حديثاً . وتولى شتودنت مهمة قيادة مجموعة الجيوش « هـ » بالاضافة إلى مهماته كقائد أعلى لقوات المظليين .

وفي ٨ كانون الأول جرى اعلام شتوذنت بخطة الهجوم في الآردين ، وصدرت إليه

الأوامر بجمع كافة المظليين المجربين بغية تشكيل كتيبة صلبة .

ولقد جرى كل هذا قبل تاريخ بدء الهجوم بأسبوع واحد . وكانت الكتيبة تضم حوالي ١٠٠٠ رجل وتعمل تحت قيادة العقيد فون ديرهيدت ضمن قطاع الجيش المدرع السادس بقيادة سيب ديتريخ . واتصل فون ديرهيدت مع القيادة العليا لسلاح الطيران ، واكتشف أن اكثر من نصف ملاّحي طائرات النقل لا يملكون الخبرة اللازمة لعمليات الإبرار بالمظلات (الانزال الجوي) ، كما لا يملكون المعدات الضرورية لذلك . وفي ١٣ كانون الأول تمكن فون دير هيدت من مقابلة سيب ديتريخ الذي أعلمه بأنه يعارض استخدام المظليين - لأنه يخشى أن يؤدي استخدامهم إلى اثارة انتباه العدو - ولكنه مضطر إلى تنفيذ أوامر هتلر .

واخيراً تلقت وحدات المظليين مهمتها . ولم تكن هذه المهمة احتلال الممرات الاجبارية الخطرة على طريق تقدم المدرعات بل الابرار (النزول) على قمة إيجي قرب مفترق طرق مالميدي - أوبن - فيرفييه ، وخلق سدّ على المجنبة لتأخير تقدم نجدات الحلفاء القادمة من الشمال . وتلقى فون ديرهيدت ، رغم اعتراضاته ، الأمر بالعمل ليلاً لا مع طلوع الفجر حتى لا يؤدي العمل إلى انذار العدو . وفي الليلة التي سبقت الهجوم انتظرت سرايا المظليين بلا جدوى وصول سيارات النقل المخصصة لنقلها إلى المطارات ، الأمر الذي أجل العملية إلى الليلة التالية التي بدأ بها الهجوم البري . واستطاع ثلث الطائرات فقط الوصول إلى الجهة المحددة لها ، وجذبت الرياح القوية المظليين وبعثرتهم ، وقتل كثير من الرجال أو جرحوا عند نزولهم على المرتفعات المشجرة المغطاة بالثلوج . وكانت الطرقات في تلك الفترة تعج بالقوافل الامريكية المتجهة نحو الجنوب . ولم يستطع فون ديرهيدت أن يجمع سوى حوالي ٢٠٠ رجل ، وتعذر عليه الوصول إلى مفترق الطرق وتنفيذمهمته ، بيد أنه قام خلال عدة أيام بازعاج القوافل بضربات تقوم بها مجموعات مظلية صغيرة . ولكن عدم وصول قوات سيب ديتريخ دفعه إلى التفكير بالتحرك شرقاً لملاقاتها . وتحرك بالفعل نحو الشرق فلم يلبث أن سقط مع رجاله في الأسر .

ويقول الجنرال شتودنت : « كانت هذه اخر عملية ابرار (انزال) جوي نقوم بها . ففي يوم انزال النورماندي كان لدينا ١٥٠ ألف مظلي وست فرق منظَمة جيداً . وكان ٥٠ إلفاً من هؤلاء المظليين مستعدين للقتال . ولم يتم تدريب الباقين كما ينبغي نظراً لاستدعائهم بصورة مستمرة بغية استخدامهم كجنود مشاة بدلاً من الاحتفاظ بهم للمهمات الخاصة . وعندما حان وقت استخدامهم في هجوم الآردين بعد خمسة شهور وجدنا أنه لم يبق منهم سوى حفنة صغيرة من الرجال .

الهجوم .

لقد أصاب هذا الهجوم الحلفاء بأكبر صدمة تعرضوا لها منذ عام ١٩٤٢ ، بيد أنه لم يكن يتمتع بالأهمية التي تصورها الحلفاء في بداية الأمر . ويبرهن ترتيب المعركة الالماني الآن على ذلك بكل وضوح . وبالاضافة إلى ذلك فان فون مانتوفيل يحدثنا عن الاحداث باعتدال واضح يتسم به رجل يأنف البحث عن الاعذار والمبررات حتى لو كانت صحيحة .

انطلق الهجوم في ١٦ كانون الأول على جبهة يزيد طولها عن مائة كيلومتر ، وتقع بين مونشو (جنوبي إكس - لا - شابيل) وإيشترناش (في الشمال الغربي من تريف) . ولم يؤثر هجوم الجيش السابع في القطاع الجنوبي تأثيراً كبيراً ، نظراً لأنه لم يستطع أن يستخدم سوى أربع فرق من المشاة . وتم الهجوم الرئيسي المركز على جبهة ضيقة - حوالى ٢٥ كيلومتراً - بقوات الجيش المدرع السادس (سيب ديتريخ) الذي يضم فيلقي البانزر الأول والثاني . وفيلق المشاة السابع والستين . وبالرغم من امتلاك الجيش المدرع السادس لعدد من المدرعات يفوق ما يمتلكه الجيش المدرع الخامس ، فقد كانت قوته أضعف من أن تنفذ المهمة الملقاة على عاتقه .

وتعرقلت محاولات جناح سيب ديتريخ الأيمن فوراً بسبب دفاع الامريكيين الشرس عند مونشو . . وحقق جناحه الأيسر الخرق ، والتف حول مالميدي ، وفي يوم ١٨ تمكن من اجتياز نهر آمبليف بعد ستافيلو ، وذلك بعد أن تقدم ٥٠ كيلومتراً عن نقطة انطلاقه .

ثم أوقفه الامريكيون عند هذا الممر الضيق ، وشنوا ضده هجوماً معاكساً منعه من الحركة . وتحطمت كل جهوده على القوات الاحتياطية الامريكية المتدفقة نحو هذه النقطة . وأصيب هجوم الجيش المدرع السادس بفشل ذريع .

وهاجم الجيش المدرع الخامس (فون مانتوفيل) على جبهة عرضها ٥٠ كيلومتراً . ولقد شرح لي فون مانتوفيل ترتيبه القتالي والسبيل الذي سلكه ، وقال لي بأن فيلق المشاة ٦٦ كان على يمينه مقابل سان ـ فيث « نظراً لأن وجود الحواجز الهامة في هذه المنطقة لا تسمح بتقدم سريع كالتقدم المنتظر في القطاعات الواقعة إلى الجنوب » . وكان الفيلق المدرع ٥٨ يعمل في الوسط بين بروم وواكسويلر ، على حين كان الفيلق المدرع ٤٧ يعمل على الميسرة بين واكسويلر وبيتبورغ باتجاه باستوني . ولم يكن هذان الفيلقان المدرعان يضمان في البداية سوى ٣ فرق مدرعة . وبالرغم من الدعم الجديد الذي حصلت عليه فقد كانت كل فرقة من فرق الفيلق المدرع ٤٧ تضم ٦٠ ـ ١٠٠ دبابة فقط ـ أي ثلث أو نصف تعدادها العادي . ولم تكن فرق سيب ديتريخ أغنى بالمدرعات أبداً .

كانت بداية العمليات في قطاع فون مانتوفيل مفعمة بالآمال . « وتسللت كتائب الصدمة التابعة لي بسرعة كقطرات المطر المنهمر ، وتغلغلت بين مخافر الامريكيين المتقدمة . وفي الساعة السادسة عشرة تقدمت الدبابات وسط الظلام يساعدها « نور قمري اصطناعي » . وبُنيت الجسور بسرعة فوق نهر الأور ، واجتازتها الفرق المدرعة عند منتصف الليل . وفي الساعة الثامنة صباحاً وصلت الدبابات إلى الخطوط الامريكية الرئيسة ، وتمكنت من خرقها بمساعدة المدفعية .

« وظهر خلال القتال أن باستوني تشكل عائقاً جدياً . ولم يستطع الجيش السابع بقواته المحددة تنفيذ المهمة الملقاة على عاتقه وهي : سد الطرقات المتجهة من الجنوب نحو باستوني » وبعد أن اجتاز الفيلق المدرع الرابع نهر الأور في داسبورغ ، وجد نفسه مضطراً لاجتياز ممر اجباري خطر في كليرفو على الوولتر . وأدت العوائق الطبيعية والعوائق الناجمة عن المناخ الى تأخير عمله . « وكانت المقاومة تذوب عند قدوم الدبابات

بقوة ، ولكن هذه الميزة فقدت كثيراً من أهميتها بسبب صعوبات حركة الدبابات . وتزايدت المقاومة بشكل واضح على مقربة من باستوني » .

في يوم ١٨ اقترب الالمان من باستوني بعد أن قطعوا حوالي ٥٠ كيلومترا . وكان الجنرال أيزنهاور قد وضع في الليلة الماضية تحت تصرف الجنرال برادلي الفرقتين ٨٢ و١٠١ المحمولتين جواً والمتمركزتين قرب ريمس . وعملت الفرقة ٨٢ المحمولة جواً على دعم القطاع الشمالي . على حين تحركت الفرقة ١٠١ المحمولة جواً مستخدمة السيارات واتجهت نحو باستوني . وخلال هذا الوقت وصل جزء من الفرقة المدرعة الامريكية العاشرة إلى باستوني في اللحظة المناسبة فدعمت فوجاً محطماً من الفرقة ٢٨ وساعدته على صد موجة الهجوم الألماني الأولى . وعندما وصلت الفرقة ١٠١ المحمولة جواً في ليلة ١٨ تأمن الدفاع عن عقدة الطرق الهامة هذه . وصدّ المدافعون خلال اليومين التاليين جميع الهجمات الموجهة إلى هذه النقطة من الجبهة أو من المجنبة .

وفي يوم ٢٠ قرر فون مانتوفيل أن عليه ألا يتأخر بعد ذلك في اكتساح هذا العائق وتقدمت إلى مواقع القتال بنفسي مع فرقة ليهر المدرعة . واجتاز الفيلق المدرع ٥٨ هوفالد ولاروش بعد أن قام بحركة التفاف قصيرة نحو الشمال ليضغط على مجنبة القوات الامريكية التي تقاوم الفيلق ٦٦ قرب سان ـ فيت وليساعد هذا الفيلق على التقدم .

« كان جزء من قواتي يعمل على تثبيت باستوني ، الأمر الذي أضعف قوتي الضاربة ، وقلل امكانيات بلوغ الموز عند دينان . وبالاضافة إلى ذلك ، فان الجيش السابع توقف أمام نهر ويلتز وتعذر عليه اجتيازه . اما الفرقة المظلية الخامسة العاملة على ميمنته فقد تقدمت من خلال قطاعي ، وكادت تصل إلى أحد الطرق الواقعة جنوبي باستوني » .

وكان الوضع الذي غدا أقل ملائمة يحمل في طياته أخطاراً اكبر من الأخطار التي تصورها فون مانتوفيل . والحقيقة أن قوات الحلفاء الاحتياطية تدفقت من كل جانب باعداد تفوق عدد القوات الألمانية المشتركة في القتال . وكان المارشال مونتغمري قد استلم

مؤقتاً مهمة قيادة كافة القوات الموجودة على المجنبة الشمالية للثغرة ، وأرسل الفيلق البريطاني ٣٠ إلى نهر الموز لدعم الجيش الأمريكي الأول . أما على المجنبة الجنوبية للثغرة فقد تحرك نحو الشمال فيلقان من الجيش الامريكي الثالث العامل تحت قيادة الجنرال باتون . وفي يوم ٢٢ شن أحد هذين الفيلقين هجوماً عنيفاً على طريق آرلون - باستوني . وبالرغم من بطء تقدمه فقد ضرب القطعات التي كان فون مانتوفيل ينوي استخدامها لتنفيذ مهماته ، والحق بها خسائر مادية كبيرة .

ومضت الساعة التي كان الألمان يستطيعون فيها استثمار الفرص السانحة أمامهم . واقلقت ضربة فون مانتوفيل المتجهة نحو الموز قيادة الحلفاء العليا . ولكن وقوع هذه الضربة بشكل متأخر اكثر مما ينبغي جعلها عاجزة عن خلق اخطار جدية . وكانت الخطة تتوقع وصول القوات الألمانية إلى باستوني في اليوم الثاني من الهجوم ، ولكنها لم تصلها إلا في اليوم الثالث ، ولم تتمكن من الاستدارة حولها إلا في اليوم السادس . ودفعت الفرقة المدرعة الثانية في يوم ٢٤ وحدات استطلاع حتى دينان ، ثم لم تلبث هذه الوحدات أن تراجعت .

وأدى الوحل ونقص المحروقات إلى إبطاء التقدم الألماني بشدة - ونجم عن قلة المحروقات استخدام نصف قطعات المدفعية فقط . ولم يستطع الطيران تعويض هذا النقص . وكان ضباب الأيام الأولى قد ساعد تسلل الالمان وتغلغلهم بين الخطوط الدفاعية ، نظراً لعجز طيران الحلفاء عن العمل . وفي يوم ٢٣ تحسن الجو ، ولم تستطع امكانات الطيران الالماني الضعيفة حماية القوات البرية من قصف رهيب ساعد العوامل الأخرى على ايقاف الاندفاع الالماني . ويتحمل هتلر هنا جزءاً من المسؤولية . وكان عليه أن يدفع ثمن خطئه المتمثل في وضع الجزء الاكبر من قواته مع جيشه المدرع السادس على جناحه الأيمن حيث تمنع مساحات الأرض المحدودة إجراء المناورات .

ومضى الاسبوع الأول والهجوم بعيد عن تحقيق أغراضه . ولم يكن تزايد سرعة التقدم في بداية الاسبوع الثاني سوى وهم : إذ اكتفى هذا التقدم بالتغلغل بين أهم

مفترقات الطرق التي يدافع عنها الامريكيون بشدة . وفي الليلة التي سبقت عيد الميلاد تحدث فون مانتوفل هاتفياً مع مقر قيادة هتلر فشرح الموقف بلا مواربة ، واقترح التدابير التي ينبغي اتخاذها . ولقد تحدث مع يودل قائلاً له بان : عامل الوقت يضغط بشدة ، وأن باستوني تقاوم مقاومة عنيفة ، وأن تقدم الجيش السابع لا يكفي لتغطية مجنبته . وهو ينتظر هجوماً معاكساً حليفاً واسع النطاق يأتي من الجنوب مستخدماً الطرق . « اعلموني هذا المساء عن تعليمات الفوهرر . والمسألة كما يلي : هل ينبغي عليّ استخدام كافة وسائطي لاحتلال باستوني ، أم أن عليّ أن اكتفي بتثبيت حامية المدينة بجزء محدود من القوات وأوجه مركز ثقلي نحو الموز ؟ .

« وذكرت بعد ذلك أن علينا أن لا نأمل شيئاً اكثر من الوصول إلى الموز . وحددت الأسباب التي تدفعني إلى هذا الاعتقاد بما يلي : أولاً : التأخر عند باستوني . ثانياً : لأن الجيش السابع كان أضعف من أن يسد طرق الجنوب . ثالثاً : لأن تجمعات الحلفاء ودفاعاتهم القوية على نهر الموز ستكون بعد أن مضى ٨ أيام على بدء القتال قادرة على منع عبور النهر. رابعاً : إن الجيش المدرع السادس لم يتقدم بشكل كافٍ . لذا فهو يقف الآن على خط مونسشو ـ ستاخلو . خامساً : انني متأكد من أننا سنضطر إلى الاشتباك بالمعركة على الضفة اليمنى لنهر الموز ، فلقد التقطت وحللت برقيات لاسلكية مرسلة من ادارة تنظيم السير الحليفة في هوي . تلك الادارة التي كانت ترسل بصورة منتظمة تقارير متعاقبة عن عدد القوات التي اجتازت قطاعها .

ثم طرح فون مانتوفل مشروعاته وهي : تسديد ضربة نحو الشمال تستهدف تطويق جيوش الحلفاء المتمركزة شرقي نهر الموز ، وتطهير هذه المنطقة التي ينعطف فيها النهر . الأمر الذي يسمح بتدعيم المواقع الالمانية » ولهذا الغرض طلبت دائماً أن يجتمع جيشي كله مدعوماً بالقوات الاحتياطية التي تملكها القيادة العامة للقوات المسلحة (O.K.W.) واحتياطات الجيش المدرع السادس ، وان تكون منطقة التجمع جنوبي نهر الأورن قرب لاروش بغية القيام بحركة استدارة واسعة وراء مارش بإتجاه لييج .

وقلت : « اعطوني هذه القوات الاحتياطية ، وسأحتل باستوني ، وأصل إلى الموز لأتقدم بعد ذلك إلى الشمال وأساعد الجيش السادس على التقدم » وأنهيت حديثي بالاصرار على النقاط التالية : إنني انتظر الاجابة في هذه الليلة بالذات ، ينبغي تزويد احتياطات القيادة العامة للقوات المسلحة (.O.K.W) بكمية كافية من المحروقات . ينبغي على الطيران أن يدعمني : إذ لم أرَ حتى الآن سوى طائرات معادية !

« وفي هذه الليلة جاء الرائد جوهانماير رئيس هيئة أركان الفوهرر الخاصة للقائي . وبعد حديثنا معاً اتصل هاتفياً بيودل الذي أجاب بأن الفوهرر لم يأخذ قراره بعد وأن كل ما يستطيع يودل عمله في هذه اللحظة هو دعمي بفرقة مدرعة إضافية .

ولم تصلني بقية الاحتياطات إلا في يوم ٢٦ . . . ، بيد أنها كانت مشلولة بسبب نقص المحروقات . وتقف عاجزة عن الحركة بارتال طولها ١٥٠ كيلومتراً ، في اللحظة التي كنت بأمس الحاجة لها ! (اشتمل الوضع في هذه الفترة على مصادفة غريبة مضحكة : ففي يوم ١٩ وصل الالمان إلى مسافة ٤٠٠ متر من مستودع المحروقات الكبير في أوديمون قرب ستافلو . وهو مستودع يحتوي عشرة ملايين ليتر . أي أنه أكبر بمائة مرة من اكبر المستودعات التي وقعت بين أيديهم) .

« سألت فون مانتوفيل ـ لنفترض جدلاً أنه تلقى الاحتياطات والمحروقات المطلوبة ـ فهل كان في يوم ٢٤ يعتقد بانه سيحقق النجاح . فأجابني : « نعم ، كنت آمل بتحقيق نجاح محدود . ولو وصلت الاحتياطات والمحروقات لبلغنا الموز ، ولكان من المحتمل مد رؤوس جسر وراء النهر » . وعندما ناقشت المسألة معه بعمق اكبر ، اعترف بأن الوصول إلى الموز بهذا الشكل المتأخر كان من الممكن أن يؤدي في نهاية المطاف إلى متاعب تفوق المزايا التي سيحصل عليها .

« ومع انطلاق تقدمنا الجديد شن الحلفاء هجومهم المعاكس . فاتصلت بيودل هاتفياً ورجوته أن يعلم الفوهرر بأنني سأسحب عناصري المتقدمة من الجيب الذي فتحته قواتنا وسط دفاعات العدو لأضعها على خط لاروش ـ باستوني . ولكن هتلر رفض هذا

التراجع . وبدلاً من أن نقوم بالتراجع في الوقت الملائم تعرضت قواتنا للطرد والتفتيت تحت وطأة هجمات الحلفاء . وكم من خسائر كان بوسعنا تحاشيها ! وفي ٥ كانون الثاني ازدادت خطورة الوضع لدرجة بت أخشى معها قيام مونتغمري بقطع جيشينا عن بعضهما . ولقد تحاشينا هذا الخطر ولكن بأي ثمن وأية تضحيات ! وكانت خسائرنا في نهاية الصراع اكبر من خسائرنا في بدايته . ويرجع السبب في ذلك الى رفض هتلر الدائم لكل اقتراح يتحدث عن التراجع . وكان هذا سبب انهيارنا . لانه لم يعد بوسعنا تحمل تناقص قواتنا بهذا الشكل الأليم » .

وبعد ذلك . . .

لخّص فون مانتوفيل هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الحرب بجملتين عندما قال : « بعد فشل الآردين ، قاد هتلر الحرب « كعريف » . وانتهى زمن الخطط العظيمة ! واقتصر الأمر على مجموعة هائلة من المعارك المتفرقة » ثم : « عندما وجدت أن هجوم الآردين متوقف أمام مقاومة العدو ، فكّرت باجراء تراجع عام - يصل في البداية إلى خط انطلاقنا ، ثم يثب وثبة أخرى حتى الرين . بيد أن هتلر رفض سماع أي شيء من هذا القبيل . وفضل التضحية بالجزء الأكبر من أهم جيوشه في صراع عقيم على الضفة اليسرى لنهر الرين » .

ولقد أيد فون رونشتدت هذا الحكم . وذكر قبل كل شيء أنه كان أعلى القادة العسكريين المكلفين بتنفيذ الهجوم ، وأنه لم يفهم رغم هذا الفائدة المرجوة من هجوم الآردين . ثم أضاف : « كانت مجنباتنا تطول باستمرار مع تزايد تقدمنا ، وتخلق بذلك هدفاً ملائماً لهجمات الحلفاء المعاكسة يتزايد يوماً بعد يوم » .

واكد فون رونشتدت أقواله بخط على الخارطة . « كنت أود ايقاف الهجوم منذ بدايته ، في الوقت الذي بدا لي بكل وضوح أنه لن يصل إلى هدفه . هنا غضب هتلر ، وأصر على متابعة التقدم : وادى ذلك الى ستالينغراد جديدة » .

كان هجوم الآردين عملاً أوصل إلى درجة الحماقة المبدأ العسكري القائل « خير

وسيلة للدفاع هي الهجوم » وكان هذا الهجوم « أسوأ أنواع الدفاع » نظراً لأنه حطم كل امكانات الالمان للمقاومة فيما بعد .

ولم يعد القادة الالمان منذ هذه اللحظة يفكرون بايقاف تقدم الحلفاء ، بل بابطاء هذا التقدم بغية تأخير نهاية الحرب .

وكان هؤلاء القادة مرتبطين بوظائفهم بفضل سياسة هتلر وشرطة هملر ، ويودون من كل قلوبهم الخلاص من تعهداتهم . ولقد ناقشوا خلال الشهور التسعة الأخيرة من الحرب امكانية الاتصال مع الحلفاء بغية توقيع صك الاستسلام .

ولقد اشتكى كل من تحدثت معهم من سياسة الحلفاء القائلة بضرورة « الاستسلام دون قيد أو شرط » واكدوا بأنها أدت إلى إطالة مدة الحرب . ولو قدم الحلفاء صيغة أخرى لأمكنهم ولأمكن لقطعاتهم ـ وهذا هو الأهم ـ أن يتقبلوا الاستسلام بوقت أسرع سواء تم هذا الاستسلام بمجموعات صغيرة أو بصورة جماعية . وكان الاستماع « خلسة » لاذاعة الحلفاء عادة منتشرة على نطاق واسع، ولكن دعاية الحلفاء لم تحدد أبداً شروط السلم التي كان بوسعها تشجيع الالمان على ايقاف الصراع . وكان صمت الحلفاء حول هذه النقطة يثبت تأكيدات الدعاية النازية القائلة بأن مصيراً رهيباً سينتظرهم إذاما استسلموا . وهكذا تابع الالمان قتالهم ، مع أنهم كانوا مستعدين للاستسلام منذ أمد بعيد .

الفصل العشرون .

هتلر كما يراه جنرال شاب .

خلال الحديث عن هجوم الآردين رسم فون مانتوفيل صورة لهتلر كقائد عسكري . وتختلف هذه الصورة عن الصور التي رسمها جنرالات اكبر منه سناً . وهي تستحق أن تذكر هنا لأنها تساعد على تفسير أسس قوة هتلر وأسباب فشله .

إن الطريقة التي لفت فيها فون مانتوفيل نظر هتلر طريقة متميّزة . غريبة . ففي آب ١٩٤٣ كان فون مانتوفيل يقود الفرقة المدرعة السابعة - التي عملت تحت قيادة روميل في عام ١٩٤٠ . وكانت هذه الفرقة جزءاً من مجموعة جيوش فون مانشتانين . وفي هذا الخريف اجتاز السيل الروسي الجارف نهر الدينيبر وحرر كييف ، ثم اندفع نحو الحدود البولونية بقوة لا تقاوم . ولم تكن أية قوة احتياطية قادرة على مساعدة فون مانشتاين في صد هذا الخطر الجديد . لذا طلب من فون مانتوفيل أن يجمع كافة الوحدات التي يستطيع العثور عليها بغية شن هجوم معاكس قوي . واستطاع فون مانتوفيل ضرب مؤخرات الروس المتقدمين ، وطردهم من محطة زيتومير بهجوم ليلي مفاجيء ، ثم تقدم نحو الشمال ليعيد احتلال كوروستن . وقسّم فون مانتوفيل قواته القليلة الى مجموعات صغيرة متحركة ، فتمكن بذلك من ايهام العدو بأنه يمتلك قوات كبيرة . وأدت المفاجأة في هذا الرد الى ايقاف التقدم الروسي .

بعد هذا النجاح ، طوّر فون مانتوفيل طريقته المتمثلة باجراء الهجوم عن طريق الاغارات . وكانت مجموعاته تتغلغل بعمق بين أرتال الروس وتهاجمها من الخلف .

« كان يضايقني استقلال الروس عن جهاز الامداد العادي ـ لم تقع هذه الاغارات « الداخلية » أبداً على قافلة غوين ـ وبالاضافة الى هجماتي الموجهة الى مؤخرات القطعات ، فقد توصلت الى أسر مجموعات أركان والاستيلاء على مراكز اتصال . وكانت مثل هذه الضربات فعالة جداً لأنها خلقت الفوضى بين صفوف العدو . ومن المؤكد ان على الفرقة المدرعة في مثل هذه العمليات ان تؤمن حاجاتها بنفسها ، وان تحمل معها كل ما يلزمها حتى لا تحتاج لمصلحة الامداد والتموين طوال فترة العملية . [لا شك أن فون مانتوفيل طبق طريقة الجنرال هو بارت (وكان آنذاك عميداً) الذي أجرى بياناً عملياً لطريقته في سهل ساليسبوري في ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ مستخدماً لواء الدبابات الأول . بيد أن هذا البيان العملي لم يقنع آنذاك هيئة الاركان البريطانية العامة] .

وأبدى هتلر رضاه عن هذه الطريقة الجديدة . وأراد معرفة تفصيلات اكبر حول هذه المسألة ، فدعا في عيد الميلاد كلاً من فون مانتوفيل وقائد فوج دباباته العقيدسشولتزالى مقر قيادته في آنجربورغ في بروسيا الشرقية . وهنأ هتلر فون مانتوفيل وقال له : « إنني اقدم لك ٥٠ دبابة كهدية في عيد الميلاد » .

وفي مطلع عام ١٩٤٤ تسلم فون مانتوفيل منصب قائد فرقة مدعومة بشكل خاص سُميت « Gross—Deutschland » وكانت مهمتها في مختلف القطاعات ايقاف هجمة من الهجمات ، أو انقاذ قوات طوقها تقدم العدو . وفي ايلول شق فون مانتوفيل طريقه حتى وصل الى القوات الالمانية المحاصرة قرب ريغا على شاطىء البلطيق . وأدى هذا العمل الرائع الى ترقيته بسرعة ، فغدا قائداً للجيش المدرع الخامس في الغرب .

ولقد اجتمع فون مانتوفيل طوال عام ١٩٤٤ مع هتلر ، وتحدث اليه اكثر من أي قائد آخر . وكان الفوهرر يدعوه غالباً الى مقر قيادته لمناقشته بمهمات عاجلة قبل تكليفه بها ، ولاستشارته حول معضلات استخدام القوات المدرعة . ان هذه العلاقات الحميمية تقريباً سمحت لفون مانتوفيل بأن ينتزع القناع الذي كان يخيف الجنرالات الآخرين ويثير هلعهم ودهشتهم .

« كان هتلر يمتلك مغناطيسية خاصة يسيطر بها على محدثيه خلال اية مناقشة . وكان محدثوه يطرحون حججهم ، ثم يخضعون بالتدريج لتأثير شخصيته الفوهرر القوية ، وينتهون الى الموافقة على افكار تتعارض جذرياً مع أفكارهم . أما أنا ، فلقد توصلت في نهاية الحرب الى معرفة هتلر بشكل جيد . وصرت أتمسك بوجهة نظري بعد أن أمنعه من تمييع المسألة . وكنت ، على عكس عدد كبير من الاشخاص ، لا أخشى الفوهرر أبداً ، لقد لفت نجاحي في زيتومير انتباهه ، فدعاني في عيد الميلاد ، ثم اخذ يدعوني باستمرار الى مقر قيادته بغية استشارتي .

« لقد قرأ هتلر عدداً كبيراً من المؤلفات العسكرية ، وكان يميل بشكل واضح لعقد المؤتمرات التي تبحث هذا الموضوع . وبهذا اضاف الى خبرته التي اكتسبها في الحرب الماضية كجندي عادي معلومات قوية حول بعض المفاهيم الأولية للحرب : ميزات وصفات مختلف الأسلحة ، أهمية الأرض والعوامل الجوية ، عقلية القطعات ومعنوياتها . وكان يبرهن على مهارة خاصة في تقييم حالة الرجال الفكرية ونادراً اختلفت معه في هذا المجال .

بيد أنه لم يكن يمتلك أي معلومات حول التركيبات العليا في الاستراتيجية والتكتيك . واذا كان الفوهرر قد فهم ادارة فرقة ، فانه كان غريباً عن ادارة جيش » .

وتحدث فون مانتوفيل عن الظروف التي أدت الى تبنّي اسلوب الدفاع « القنفذي » . وشرح السبب الذي دفع هتلر الى المبالغة في تطبيقه .

« عندما كانت وحداتنا المتراجعة أمام الهجمات الروسية تنسحب ، كأنها مجذوبة بمغناطيس ، نحو المدن المحاطة بخطوط محصنة ، كانت تتجمع في هذه المدن بصورة غريزية ، وما ان يتم ذلك حتى تقاوم هجوم العدو بشراسة وعنف . وفهم هتلر بسرعة قيمة نقاط التجمع هذه . بيد أنه لم يمنح لقادة القطاعات حرية تعديل تشكيلاتهم القتالية والتراجع عند اللزوم . وأصر على أن تخضع كل حالة من الحالات لتعليماته المباشرة . وغالباً ما تمكن الروس من تحطيم الدفاع المنهك قبل وصول قرار هتلر بالانسحاب .

« كان يتمتع بحسٍّ استراتيجي وتكتيكي حقيقي . ويبدع في مناورات المفاجأة ولكنه كان يجهل الأمور التقنية الأساسية اللازمة لتنفيذ هذه المناورات بفاعلية . وكان يميل الى التلذذ بالحديث عن الأرقام والكميات . ففي خلال مناقشة مسألة ما ، كان يأخذ الهاتف ويطلب رئيس احدى المصالح ليسأله : « ما هي موجوداتنا من هذا الشيء أو ذاك ؟ » ثم يستدير نحو محدثه ، ويعلمه عن الرقم ، ثم يضيف « انظر ؟ » . . . وكأنه وجد الحل في الرقم . وكان يكتفي غالباً بالارقام المذكورة على الورق ، دون أن يهتم بالتحقق من مطابقتها مع الأرقام الحقيقية المتوافرة فعلاً . وينطبق هذا القول على جميع الأمور ، سواء تعلقت الأرقام ، بالدبابات أو الطائرات او الرجال أو الرفوش .

« وكان غالباً ما يتحدث هاتفياً مع سبير أو مع مسؤول المصانع بوهل . وكان هذا الاخير يضع الى جانبه دفتراً يضم جميع المعلومات التي يحتمل طلبها من قبل هتلر . الأمر الذي كان يساعده على الاجابة الفورية . ومع هذا ، وحتى لو تطابقت الأرقام مع الانتاج الحقيقي فان غالبيَة المواد أو المعدات التي يتم السؤال عنها تكون موجودة في مستودعات المصانع لا في الجبهة . ولقد تصرف غورينغ بالشكل نفسه عندما أعلن بأنه قادر على أن يشكل من سلاح الطيران عشر فرق برية في فترة قصيرة من الزمن . ونسي فقط أن الضباط المدربين على العمليات الجوية وحدها سيحتاجون لفترة من الزمن كيما يتلقوا التدريب اللازم لقيادة المناورات على الأرض . »

وقلت لفون مانتوفيل ملاحظتي التالية : كلما سمعت وصف الألمان للحرب كلما تأكد انطباعي بأن هتلر كان يميل بشكل طبيعي للاستراتيجية والتكتيك الغريبين الخارجين عن المألوف ، على حين كانت الأوساط العليا في هيئة الأركان العامة محرومة من كل ابداع يخرج عن المألوف . ولقد فهمت من ملاحظات عدد من القادة الألمان أن أخطاء هتلر التقنية كانت تثير في نفوسهم حنقاً يدفعهم الى تجاهل قيمة أفكاره واحتمالات نجاحها . وكان الفوهرر يتضايق بالتالي من تصرفهم التقليدي الجامد ، وعدم رغبتهم في تقبل الآراء الخارجية . واعتقد ان هذا هو ما جعل هتلر وجنرالاته يختلفون ويتجاذبون الأمور ويبددون الجهود بدلاً من أن يجمعوا جهودهم في سبيل الصراع . ولقد اكد فون مانتوفيل

رأيي ، وقال عنه بأنه يعيد الى الأذهان حقاً جميع الخلافات التي وقعت على الصعيد العسكري . ثم أضاف : « عندما ذهبّت لتلبية دعوة هتلر وقضاء عيد الميلاد معه في عام ١٩٤٣ قلت له الشيء نفسه تقريباً ، وذلك خلال حديثنا عن الصراع الواقع بين أعضاء المدرسة القديمة وأنصار الدبابات . إذ لم يكن الجنرالات القدامى آنذاك قادرين على التخيّل اللازم لفهم حالة الرجال النفسية في هذا الشكل الجديد من أشكال الحرب »

استنتاج

ما هي الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من هذه الدراسة للقادة الألمان في الحرب الأخيرة ، وللعمليات التي قادوها ؟ لقد كانت هذه الحرب هزائم متلاحقة على صعيد سياسة الحرب أو الاستراتيجية العامة . ونجاحات رائعة متباينة الحجم على صعيد الاستراتيجية المجرّدة والتكتيك . ويمكن تفسير ذلك بشكلين : لقد أثبت القادة المحترفون من أنصار المدرسة القديمة ، والمشبعون باسلوب عمل هيئة الأركان العامة أنهم مؤهلون تأهيلاً جيداً ، ولكنهم لا يتمتعون بأي ابداع في كل ما يدخل في مجال الابداع والعمل اللا محدود . وكانت مهارتهم وأهليتهم تحملان في طياتها حدود امكاناتهما . وكانوا يميلون بشكل واضح الى النظر الى الحرب لا كفن بل كمباراة شطرنج ، الأمر الذي يجعلهم مختلفين عن مشاهيراختصاصيي الحرب ويلاحظ أنهم كانوايميلون الى ازدراء زملائهم الذين يطرحون أفكاراً جديدة .ولكن هذاالازدراء يغدو بلا حدود عندما تأتي هذه الأفكار من اشخاص هواة . ولم يكن حقل نظرهم ليمتد الى ما وراء حدود حقل المعركة الا نادراً .

وبدا هتلر اكثر قدرة على تقدير قيمةالأفكار الجديدةالتي يقدمها شباب مؤهلون مبدعون في مجال الأسلحة الحديثة . وهذا ما جعله يعترف بامكانات القوات الالية المتحركة قبل هيئة الأركان بزمن بعيد ، ويرجع اليه الفضل في تحقيق الانتصارات الأولى نظراً لأنه دعم بشدة غودريان ، رائد هذا السلاح الجديد في المانيا . وكان هتلر يمتلك الالهام الذي يميّز العبقرية ، ولكنه كان يرتكب اخطاء أولية في مجال الحساب والعمل . وكان القادة الشبان الذين يختارهم ويمنحهم الامتيازات يمتلكون الميل نفسه . ـ وينطبق

هذا القول بصورة خاصة على روميل ، الرجل المفضل بين « الرجال الجدد » . إن مثل هؤلاء الرجال المتمتعين بغريزة الاحساس بتأثيرات المفاجأة ، اعترفوا قبل غيرهم بالقيمة الكبيرة الكامنة في هذه الوسيلة[المفاجأة] وقدرتها على شل العدو . وهكذا نراهم يجددون ويعيدون في الحرب الحديثة استخدام الحيل والتركيبات الاستراتيجية التي اعلن مشاهير القادة العسكريين في الخمسين سنة الأخيرة أنها غدت حيلاً وتركيبات استراتيجية زال اوانها وفقدت فاعليتها في أيامنا هذه . واستطاع هتلر كشف الفكر العسكري التقليدي متقدماً بذلك على القيادة العسكرية الهرمية . وكان يتحمس لاستخدام القيادة العسكرية التقليدية اكثر من تحمسه لتدعيمها .

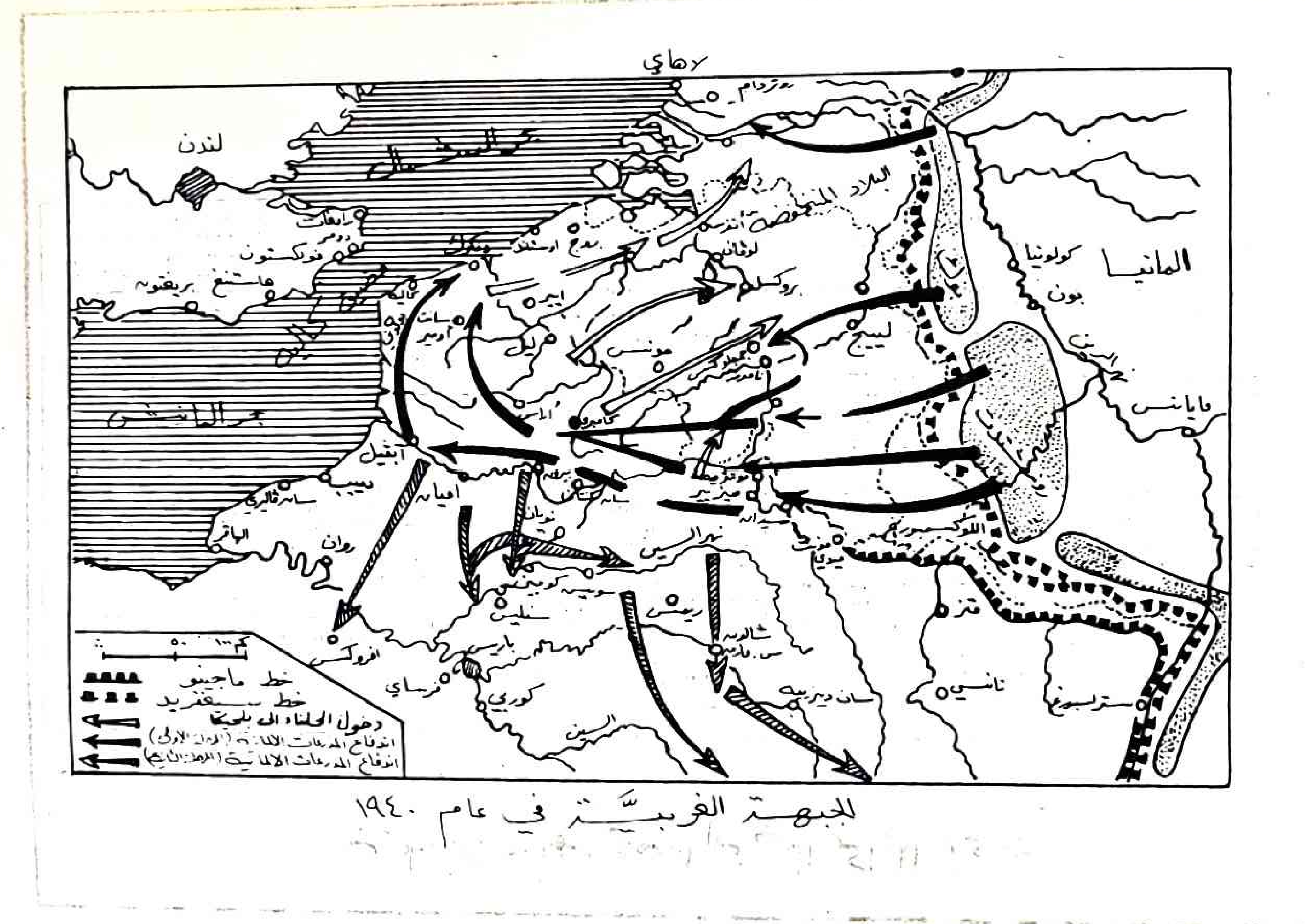
لقد بررت الأحداث أحياناً أفكار الهواة ، ولكنها أثبتت غالباً صحة آراء الرجال المحترفين ، واكدت توقعاتهم الحسابية ، وسممت الغيرة الكامنة بين المجموعتين الخلافات الطبيعية في وجهات النظر . وألحقت بألمانيا ضرراً يفوق الضرر الناجم عن خطأ افراد هذه المجموعة أو تلك . ومن الطبيعي ان تغدو القيادة العسكرية التقليدية دائماً كبش الفداء في هذه النزاعات . والصراع هنا محتوم على ما أعتقد . لأن مهنة القتال لا تدفع أصحابها أبداً الى الحكمة والتعقل المفرط ، كما لا تؤهلهم لتقبّل الآراء المخالفة لآرائهم .

وعلى كل حال ، فان سياسة هتلر وطبعه الشخصي جعلاه رجلاً صعب المراس . ومن المؤكد أن الحالات المتعددة التي ثبت فيها أن الهامه أفضل من محاكمات الضباط المحترفين ، ومواقف هؤلاء الضباط أنفسهم ، جعلت منه رجلاً شموساً . وزاد من فداحة الأمر ان العسكريين المحترفين وهواة الفن العسكري كانوا يرفضون الاعتراف بأخطائهم .

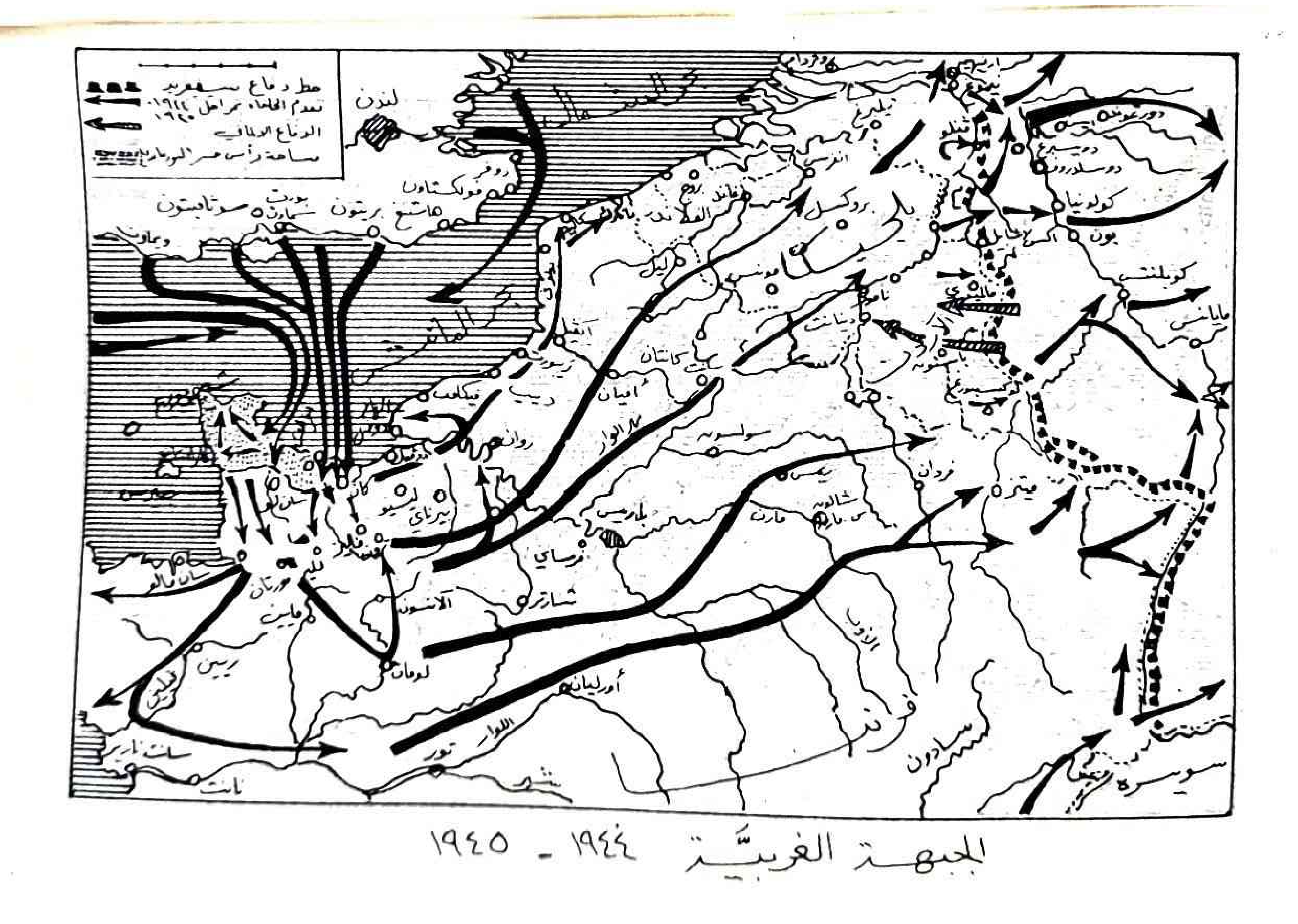
لقد كان القادة الالمان في هذه الحرب خير القادة في العالم كله ، ووصلوا من الناحية المهنية الى درجة الكمال . ولو امتلكوا نظرة أوسع وأفقاً أرحب لزادت امكاناتهم بشكل ملحوظ . ولكن وصولهم الى مرتبة الفلاسفة كان سيفقدهم صفتهم كجنود .

جدول المراكز التي تم العمل فيها خلال الحرب

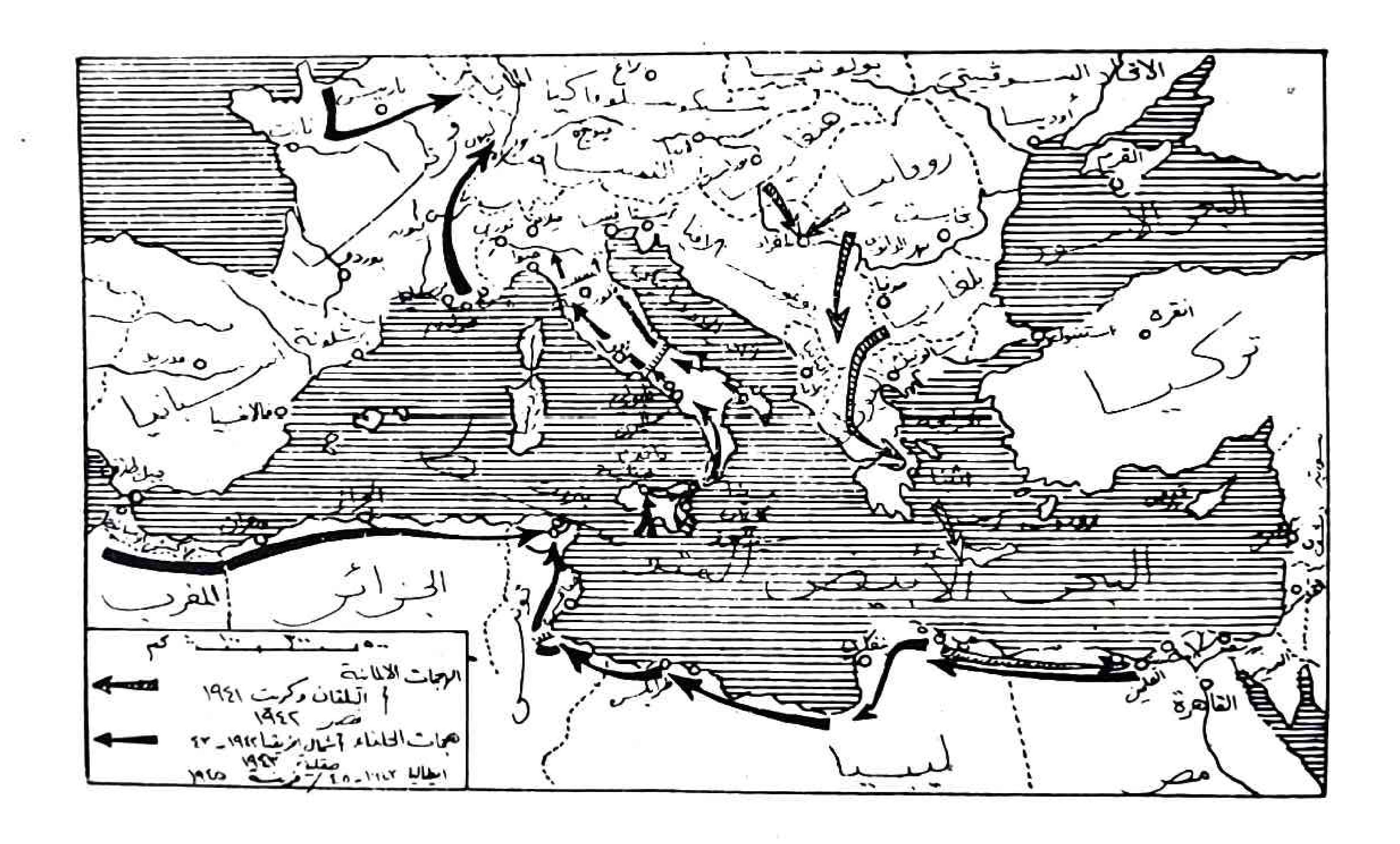
	القائد العام للقوات المسلحة (الويهر ماخت) / قائد الجيش للقوات المسلحة (الويهر ماخت) / رئيس هيئة الأركان العامة	١٩٣٣ - ١٩٣٨ بلومبرغ / ١٩٣٣ - ١٩٣٨ فريتش / ١٩٣٣ - ١٩٣٩ بيك	القيادة الألمانية: ١٩٣٩ - ١٩٤٥ هتلر، كيتل / ١٩٣٨ - ١٩٤١ براوخيتش	١٩٤١ - ١٩٤٥ هتلر / ١٩٤٢ - ١٩٤٤ زيتزلر	١٩٤٤ - ١٩٤٥ هوديريان
روندشتت	مجموعة جيوش «الجنوب» في بولونيا ١٩٣٩	مجموعة الجيوش (أ) في الغرب ١٩٣٩ - ١٩٤٠ .	مجموعة جيوش «الجنوب» روسيا ١٩٤١		
بوك	مجموعة جيوش «الشمال» في بولونيا ١٩٣٩ .	مجموعة الجيوش (ب) في الغرب ١٩٣٩ - ١٩٤٠ .	مجموعة جيوش «الوسط» روسيا ١٩٤١	سرح في بداية عام ١٩٤٢	
ليب	مجموعة الجيوش (ج) في الغرب ١٩٣٩ - ١٩٤٠ .		مجموعة جيوش «الشمال» روسيا ١٩٤١	استقال في بداية عام ١٩٤٢	
رايخناو	الجيش المدرع (البانزر) العاشر في بولونيا ١٩٣٩ .	الجيش السادس في الغرب ١٩٤٠ ، وفي روسيا ١٩٤١ .	مجموعة جيوش «الجنوب» روسيا ، كانون الأول ١٩٤١	توفي في كانون الثاني ١٩٤٢	
كلوغ	الجيش الرابع في بولونيا ١٩٣٩ .	الجيش الرابع في الغرب ١٩٣٩ - ١٩٤٠ .	الجيش الرابع في روسيا ١٩٤١ .	مجموعة جيوش «الوسط» روسيا ١٩٤٢ - ١٩٤٣ .	قائد عام في الغرب تموز - آب ١٩٤٤ . انتحر بعد تعيين بديل له .
كلايست	فيلق مدرع (بانزر) في بولونيا ١٩٣٩ .	مجموعة مدرعة في الغرب ١٩٤٠ .	مجموعة مدرعة (بانزر) روسيا ١٩٤١	الجيش المدرع (بانزر) الأول ، روسيا ١٩٤٢	مجموعة الجيوش ( ) في روسيا ، تشرين الأول ١٩٤٢ - ١٩٤٤ . سرح .
مانشتاين	رئيس هيئة أركان روندشتت في بولونيا وفي الغرب ١٩٣٩ - كانون الثاني ١٩٤٠ .	الفيلق ٣٨ في الغرب ١٩٤٠ ، والفيلق المدرع (بانزر) ٥٦ في روسيا ١٩٤١ .	الجيش الحادي عشر في روسيا أيلول ١٩٤١ - تشرين الثاني ١٩٤٢	مجموعة جيوش في روسيا ١٩٤٣	سرح في آذار ١٩٤٤
روميل	الفرقة المدرعة (البانزر) السابعة في الغرب ١٩٤٠ .	الفيلق الأفريقي ، ثم الجيش المدرع - افريقيا - ١٩٤٠ - نيسان ١٩٤٣ .	مجموعة جيوش في إيطاليا الشمالية ١٩٤٣	مجموعة الجيوش (ب) في الغرب ١٩٤٤	جرح في تموز وانتحر بعدها في تشرين الأول .
توما	معاونات الألمانية في إسبانيا ١٩٣٦ - ١٩٣٩	لواء مدرع (بانزر) في بولونيا ١٩٣٩ .	إدارة القوات المتحركة في هيئة الأركان العامة ١٩٤٠	فرقة مدرعة ثم فيلق مدرع في روسيا ١٩٤١ - ١٩٤٢ .	الفيلق الافريقي ، أيلول - تشرين الثاني ١٩٤٢ . أسر في العلمين .
مودل	رئيس هيئة أركان الجيش ١٦ (بوش) في الغرب ١٩٤٠ .	الفرقة المدرعة (بانزر) الثالثة ، ثم فيلق مدرع (بانزر) في روسيا ١٩٤١	الجيش التاسع في روسيا ١٩٤٢ - ١٩٤٣ .	مجموعة جيوش الشمال ، الجنوب ، الوسط في روسيا من تشرين الأول ١٩٤٣ الى ب ١٩٤٤	مجموعة الجيوش (ب) في الغرب ١٩٤٤ - ١٩٤٥ . وقائد عام مؤقت في الغرب صيف ١٩٤٤
هاينريتشي	الجيش ١٢ في الغرب ١٩٤٠ .	الفيلق ٤٣ في روسيا ١٩٤١ .	الجيش الرابع في روسيا ١٩٤٢ - أيار ١٩٤٤ .	الجيش المدرع الأول - ١٩٤٤ - ١٩٤٥	مجموعة الجيوش (٧٧) للدفاع عن برلين عام ١٩٤٥ .
تيبلسكيرش	فرقة المشاة ٣٠ في روسيا ١٩٤١ - ١٩٤٢ .	الفيلق ١٢ في روسيا ١٩٤٣ - ١٩٤٤ .	الجيش الرابع في روسيا أيار - تموز ١٩٤٤ (خرج بحادث طائرة)	الجيش ١٤ في إيطاليا ، بداية ١٩٤٥	الجيش الرابع في الجبهة الشرقية بعد ١٩٤٥
مانتويفل	فوج مشاة محمولة في الفرقة السابعة المدرعة (روميل) في الغرب ١٩٤٠ ، وفي روسيا ١٩٤١ .	لواء مشاة محمولة في الفرقة السابعة المدرعة في روسيا ١٩٤٢ .	فرقة مختلطة في تونس ، مطلع عام ١٩٤٣	الفرقة المدرعة السابعة ، غروس دوتشلاند ، في روسيا ١٩٤٣ - ١٩٤٤ .	الجيش المدرع (بانزر) الخامس في الغرب ، أيلول ١٩٤٤ - ١٩٤٥ .
[illegible]	في هيئة أركان حرب رونشتت (شعبة عمليات) في بولونيا ١٩٣٩ ، وفي الغرب ١٩٤٠ .	رئيس هيئة أركان الجيش الرابع (كلوغ) في روسيا ١٩٤١	رئيس هيئة الأركان العامة ١٩٤٢ .	رئيس هيئة الأركان في الغرب . أيلول ١٩٤٢ - أيلول ١٩٤٤ .	فيلق ثم جيش في الغرب . تشرين الأول ١٩٤٤ - أيار ١٩٤٥ .

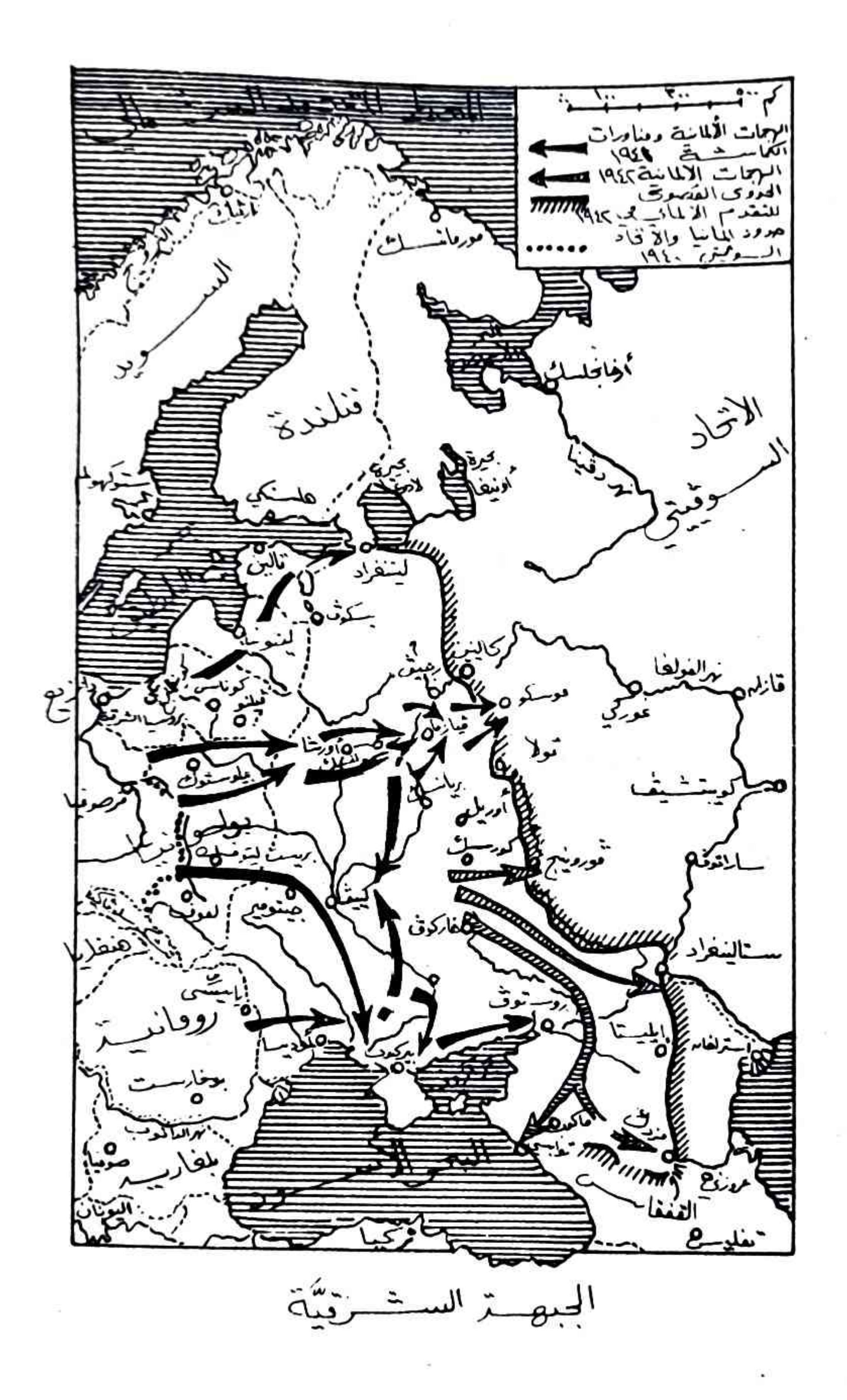


الجبهة الغربية في عام ١٩٤٠

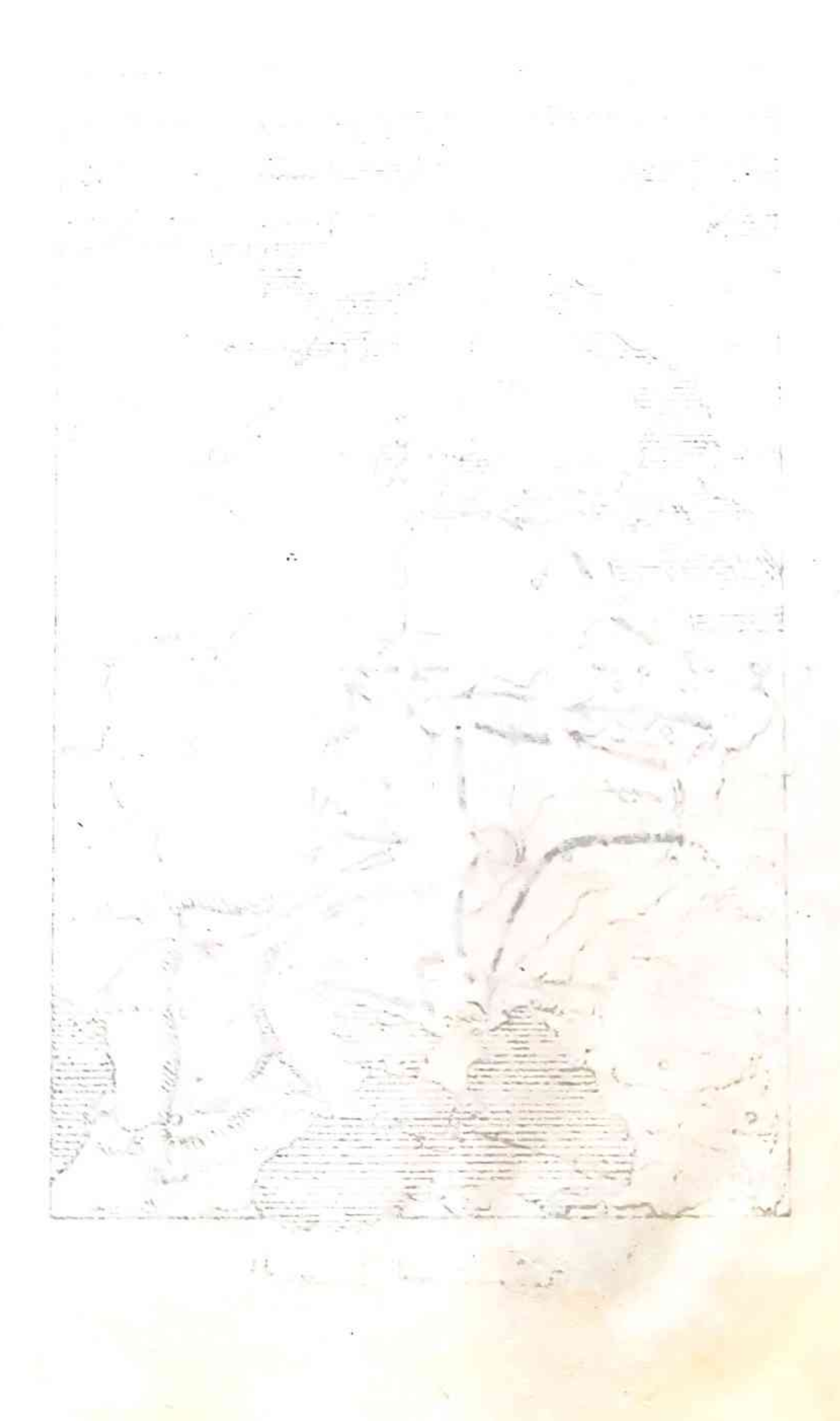


الجبهة الغربية ١٩٤٤ - ١٩٤٥


الهجمات الألمانية
البلقان وكريت ١٩٤١
مصر ١٩٤٢
كم
الاتحاد السوفيتي
بولونيا
رومانيا
بلغاريا
تركيا
البحر الأسود
القرم
أوديسا
أنقرة
البحر الأبيض
ليبيا
الجزائر
المغرب
مصر
القاهرة
أسبانيا
مدريد
باريس



الجبهة الشرقية



الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٩٩٦ لسنة ١٩٨٣



هذا الكتاب

لقد كان الجنرالات الالمان تقنيين قبل أي شيء آخر ، استغرقت مهنتهم كل وقتهم ، ولم يكونوا يهتمون كثيرًا بالامور البعيدة ومن السهل ان نرى كيف جعل منهم هتلر ادوات عمياء ، كان يستخدمها لتحقيق اغراضه الخاصة .

ولكي نستطيع دراسة كل شهادات هؤلاء الجنرالات وتنسيقها بصورة افضل ، من المفيد الاطلاع على الوضع العسكري في المانيا عام ١٩٣٩ . وتشكل معرفة هذا الوضع والاطلاع عليه رصيدًا ثمينًا لا لربح الوقت فحسب بل لتجنب الوقوع في اخطاء منتشرة الى حد كبير منذ نهاية الحرب .

فلقد كانت فكرة الدور المهيمن الذي تقوم به هيئة الاركان العامة ، كالدور المهيمن الذي لعبته هذه الهيئة عام ١٩١٨ ، ماتزال تؤثر في المرافعات في قضية نورمبورغ ، وقد منعت هذه الفكرة المتحيزة الحكومتين البريطانية والاميركية من تقديم مساعدة فعالة لحركة مقاومة النظام النازي في المانيا في الوقت المناسب ، هذه الحركة المنظمة عسكريًا والتي كانت تتآمر لاسقاط هتلر ، وتبقى الاخطاء لاصقة بالمفاهيم ومن الصعب تدميرها ، وكانت نتيجتها اطالة حكم هتلر .

السعر : ٢٠٠٠ فلسًا

طبع الغلاف في مطابع دار آفاق عربية للصحافة والنشر